

المكتبة العربية

تَرْجُحُ الْمُنْتَكَبَاتِ

مِنْ

شَعْرِ الْمُنْتَبِي

تأليف

عَلِيّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سَيِّدِهِ

الترغ سنة ٤٥٨ هـ

تحقيق

الاستاذ مصطفى السقا الدكتور حامد عبد المجيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

شرح المشكك
من

شعر المتنبي

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

١٩٧٦

تَشْرِيحُ الْمُشْتَكَاةِ

مِنْ

شَعْرِ الْمُتَنَبِّئِ

تَأْلِيفُ

عَلِيِّ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سَيِّدِهِ

المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

تَحْقِيقُ

الْأُسْتَاذَ مُصْطَفَى السَّقَا الدُّكْتُورَ حَامِدَ عَبْدَ الْمُجِيدِ



الهيئة السورية العامة للكتاب

مقدمة

ظهر المتنبي فملاً اسمه الآفاق العربية وشغل الناس . شغلهم في البيئات العلمية والأدبية القريبة منه ، وشغلهم في البيئات البعيدة عنه . وكانت الأندلس - وهي أبعد البيئات الإسلامية عن الشرق العربي - من أهم البيئات اهتماماً بشعر المتنبي ، ومشاركة في شرح ديوانه .

وكان أبو الطيب المتنبي أعظم معنى متفلسفاً ، وأكثر تركيباً مستبهاً . وفيما أبهم واستشكل من شعره ، تجاذب الناس القول ، ودارت حول المتنبي حركة أدبية واسعة في بغداد وما حولها ، كان الأدباء فيها بين اثنين ، مدافع عنه ومتحامل عليه .

واتسع نطاق هذه الحركة الأدبية ، وتجاوز تخوم البيئة الشرقية إلى الأندلس وكانت الأندلس في القرن الخامس الهجري خاصة ، قد استكملت شخصيتها العلمية والأدبية ، وبلغت من العلو الثقافي ما جعلها تنافس بغداد ، وتحاول جاهدة أن تنتزع منها الصدارة .

فإذا شغل علماء الشرق العربي وأدباؤه بالمتنبي ، فالأندلس جديرة أن تشغل به ، وتشارك في فهم شعره .

كان أظهر من شرح شعر المتنبي من أدباء الأندلس : أبو القاسم إبراهيم ابن محمد بن زكريا النحوي المعروف بابن الإفيلي ، المتوفى سنة ٤٤١ هـ . وكان أبو القاسم هذا من المعاصرين لابن سيده . وقد تصدر لإقراء علم الأدب بالأندلس ، وكان ممن روى عن أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي كتاب النوادر لأبي علي القالي .

وكان مع علمه بالنحو والفلسفة ، يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد . وقد ألف كتابا شرح فيه معاني شعر المتنبي .

وفي ختام القرن الخامس الهجري ، تولى ابن السيد البطليوسي ، إمام أهل الأندلس في عصره ، شرح ديوان المتنبي ، إلى جانب شرحه سقط الزند لأبي العلاء المعري .

وقد ورد إلينا شرحه سقط الزند وقامت على تحقيقه ونشره لجنة إحياء آثار أبي العلاء (١) . أما شرحه لديوان المتنبي فقالوا عنه إنه لم يخرج من المغرب . (ابن خلكان) .

وبين هذين العالمين الجليلين ، كان ابن سيده اللغوي وقد قصر همه على شرح المشكل من أبيات المتنبي ، وألف فيه كتابا له أثره ووزنه الأدبي وهو الذي حققناه ونقدمه اليوم إلى القراء .

وابن سيده من أظهر علماء الأندلس وأئمة اللغة العربية . لم يكن في زمانه كما قالوا : « أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها » .

وقد اشتهر بين معاصريه ومن جاء بعدهم من اللغويين والأدباء والمؤرخين بكنيته « ابن سيده » وكأن هذه الشهرة ، قد أنست الناس اسم أبيه فوق الخلاف بينهم حين أرادوا تدوينه .

فالحميري في جذوة المقتبس يذكره بقوله : « علي بن أحمد : أبو الحسين المعروف بابن سيده » (ترجمة ٧٠٩ ص ٢٩٣) .

وابن بشكوال في الصلة يقول : « علي بن إسماعيل ، يعرف بابن سيده من أهل مرسية يكنى أبا الحسن . . » .

وفي كتاب صاعد الجياني : علي بن محمد ، في نسخة . وفي نسخة ، علي بن إسماعيل .

(١) أعضاء هذه اللجنة : الأساتذة : عبد الرحيم محمود . مصطفى السقا . عبد السلام هارون . إبراهيم الأبياري . حامد عبد المجيد .

وهذا الخلاف الذى نراه فى كتب الأندلسيين حول اسم أبيه ، يتردد
كذلك فى روايات المشاركة نقلاً عن الحميرى وابن بشكوال ، كما هو واضح
فى معجم الأدباء لياقوت ، ونكت الهميان للصمدى ، ووفيات الأعيان لابن
خطكان ، وطبقات النحاة لابن قاضى شعبة ، ولسان الميزان لابن حجر حيث
يذكر ابن سيده فى الجزء الرابع منه (ص ٢٠٢) مجرد ذكر باسم (على
ابن أحمد . يأتى فى على بن إسماعيل) . ثم يترجم له فى ص ٢٠٥ باسم
على بن إسماعيل .

ويلو أن هذا التشابه بين كنية ابن سيده وبين ابن سيده (بتشديد الياء
وكسرها) وهو جد أحمد بن سيد ، أبو القاسم اللغوى - وكان صاحب
الشرطة بقرطبة ممن روى عن القالى - قد أحدث شيئاً من اللبس أو السهو عند
الحميرى ، فذكر ابن سيده على أنه على بن أحمد لا على بن إسماعيل .
وكذلك دفع هذا اللبس أو التشابه بين الاسم والكنية ، إلى أن ينسب
إلى ابن سيده ، كتب ابن سيد خطأ .

فكتاب العالم فى اللغة ، وكتاب العالم والمتعلم ، وشرح كتاب الأخفش .
هذه الكتب الثلاثة من تأليف أحمد بن أبان بن سيد وتنسب خطأ إلى أبى
الحسن بن سيده . على أن بعض المؤلفين قد أشار إلى هذا ونبه عليه .

فابن قاضى شعبة فى أثناء ذكره مصنفات ابن سيده فى كتاب طبقات
النحاة وإشارته إلى كتاب العالم يقول : « وكذلك كتاب العالم والمتعلم
على المسألة والجواب وليس هما من تصنيفه ، وإنما هما من تأليف أحمد بن
سيد (بتشديد الياء) » ثم يقول فى (ج ١ ص ١٥٥) فى ترجمة ابن سيد
ما نصه : (أحمد بن أبان بن سيد ، مؤلف كتاب العالم فى اللغة فى نحو مائة
مجلد بدأ فيه بالفلك وختم بالمررة ، وخط من نسب هذا الكتاب إلى ابن سيده
صاحب المحكم وإنما هو من تأليف ابن سيد هذا . وقد أخذ هذا الرجل عن
القالى وغيره) .

ومها يكن من الأمر فإذا كان الباحثون يجمعون على اسمه وكنيته « على ابن سيده » ثم يختلفون في اسم أبيه ، فعندنا أن والد ابن سيده هو إسماعيل كما ذكر ابن بشكوال ، لا أحمد كما أورده الحميري ، ونورد في تحقيقنا ذلك أدلة ثلاثة :

أولها :

أن جميع كتبه التي وصلت إلينا : المحكم والمخصص ومشكل شعر المتنبي ؛ تحمل اسم مؤلفها على بن إسماعيل بن سيده ولا يرد في واحد منها ذكر لعلي بن أحمد ، كما أن مقدمات هذه الكتب تذكر اسم مؤلفها على ابن إسماعيل .

ففي مقدمة المخصص . « قال أبو الحسن على النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده »

وفي المشكل من شعر المتنبي (نسخة تونس) « قال أبو الحسن على بن إسماعيل النحوي المعروف بابن سيده » .

وفي نسخة القاهرة من هذا الكتاب (شرح مشكل أبيات المتنبي وضع أبي الحسن على بن إسماعيل النحوي المعروف بابن سيده) .

ثانيها :

ما جاء في خطبة لسان العرب ، إذ يقول ابن منظور : « ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن على بن إسماعيل بن سيده الأندلسي رحمهما الله وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات للطريق » .

وبعيد جدا ألا يتحقق ابن منظور أو يخفى عليه اسم والد ابن سيده صاحب أكبر موسوعة اعتمد عليها في لسان العرب .

ثالثها :

ما نراه في كشف الظنون من نسبة كتبه إلى على بن إسماعيل لا على ابن أحمد . فعند ما يذكر كتاب الحماسة لأبي تمام (في الجزء الأول ص

(٦٩١) يقول حاجي خليفة : « فممن شرحه . . . أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ وهو شرح كبير في ستة مجلدات وسماه الأتيق » .

وعندما يعرض لديوان المتنبي وشرحه يقول : « وشرح مشكل أبيات المتنبي لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي المعروف بابن سيده » .
وعند كلامه عن المحكم يقول : « المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل » .

وعندما يورد كتابه الوافي يقول : كتاب الوافي في عام القوافي لأبي الحسن علي ابن إسماعيل المعروف بابن سيده اللغوي (كشف الظنون ٢ : ٩٩٧) .
وعندما يصل إلى المخصص يقول : والمخصص في اللغة لابن سيده أبي الحسن علي بن إسماعيل اللغوي المتوفى سنة ٤٦٨ هـ ، ألفه قبل المحكم » .

نشأة ابن سيده :

نشأ ابن سيده بمرسية ، وهي مدينة كبيرة في شرق الأندلس ، كانت تخرج بكثرة من العلماء والفقهاء والأدباء . ونبع فيها عدد كبير من أهل العلم والأدب ، يرقى بهذه المدينة إلى الدرجة العليا من الرقي الفكري والمكانة العلمية .

في هذه المدينة ولد ابن سيده وفيها نشأ ، وأكبر الظن أنه قضى عهد صباه وشطرا من شبابه بين الدرس والتحصيل على علمائها ممن نشأوا فيها أو من الوافدين إليها .

فالرواة يذكرون أن ابن سيده تلقى العلم على أبيه إسماعيل بن سيده ، وكان طبيعيا أن يسمع الفتى الناشئ من أبيه ويأخذ عنه ، وكان أبوه قيما يعلم اللغة ومن النحاة الأجلاء ، وقد روى عن أستاذه الزبيدي مختصر كتاب العين . وتوفى بمرسية بعد الأربعمئة بمدة ، كما ذكر ابن بشكوال .

ويذكر الرواة أيضا أن ابن سيده قد أخذ عن صاعد البغلادي الوافد على الأندلس زمن المنصور بن عامر ، وقد أخذ صاعد عن السيرافي وأبي

على الفارسي وغيرهما . وكان من العارفين باللغة وفنون الأدب والأخبار
اتصل صاعد بالمنصور بن أبي عامر فأكرمه وأدناه منه ، وألف له صاعد
كتاب الفصوص ، على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي وتوفي بصقلية
سنة ٤١٧ هـ .

وكذلك يروون أن ابن سيده أخذ عن أبي عمر أحمد بن محمد الطلمنكي
وكان إماماً في القراءات ، ثقة في الرواية مفسراً محدثاً ، ودرس بقرطبة ثم
بالمرية فمرسية فسرقسطة ، وكان مشهوراً بالورع والشدة على البدع .

وهم يذكرون أن الطلمنكي حين دخل مرسية أراد أهلها أن يسمعوا
عنه الغريب المصنف لأبي عبيد ، فقال لهم : انظروا من يقرأ لكم وأمسك
أنا كتابي ، فأتوه برجل أعمى يعرف بابن سيده فقرأ عليه مداولة إلى آخر
الكتاب من حفظه فعجب منه وتوفي الطلمنكي في سنة ٤٢٨ هـ . عن تسعة
وثمانين عاماً . وهو أستاذ ابن حزم وابن عبد البر .

وإذا كنا لم نهتد إلى شيوخ له غير هؤلاء الثلاثة ، فمبلغ اليقين أن ابن
سيده أخذ بمرسية عن بعض الأئمة من علماءها من أمثال : أبي الوليد بن ميقل
محمد بن عبد الله البكري المرسى . وكان أبو الوليد هذا - كما ذكر ابن
بشكوال - في الأصل (ت ١١٥٥ ص ٤٩٩ ج ٢) - من أحفظ الناس
لمذهب مالك وأصحابه وأقواهم احتجاجاً له مع علمه بالحديث ، الصحيح منه
والسقيم وأسماء رجال نقله ، والتعديل والتجريح ، والعلم باللغة والنحو
والقراءات ومعاني الأشعار ، توفي بمرسية سنة ٤٣٦ هـ .

وكذلك من أبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن الشثاني وهو من
علماء مرسية وكان كما وصفوه « إماماً في اللغة وثقة حجة » وله كتاب
مشهور في اللغة . وله مع أبي الجيش مجاهد العامري قصة تروى حول
هذا الكتاب حين غلب مجاهد على مرسية ، وكان أبو غالب بها فبعث إليه
ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمته : « مما ألفه تمام بن غالب
إلى أبي الجيش مجاهد » فرد الدينانير ، وأبى أن يصرف فخر تأليفه لمجاهد .
وتوفي أبو غالب بمرسية في سنة ٤٣٦ هـ وهي السنة التي توفي فيها مجاهد .

ثقافته :

درس ابن سيده ما كان شائعا في عصره ، من علوم اللغة والدين ، ونهل من مناهل العربية الصافية حتى وصفوه بأنه « كان حائظا لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب » ، وقال هو عن نفسه : « إني أجد علم اللغة أقل بضائعي وأيسر صنائعي ، إذا أضفتمته إلى ما أنا به من علم دقيق النحو وحوشى العروض وخفى القافية وتصوير الأشكال المنطقية ، والنظر في سائر العلوم الجدلية » .

وكذلك توفر على عاوم الحكمة والمنطق خاصة ، حتى وصفه صاعد بأنه من حذاق المنطق .

وقال فيه ابن قاضي شعبة في كتابه طبقات النحاة : « ومن وقف على خطبة كتاب المحكم علم أنه من أرباب العاوم العقلية ، وكتب خطبة كتاب في اللغة ، إنما تصالح أن تكون خطبة لشفاء ابن سينا » .

وبين من المحكم ومشكل شعر المتنبي أن ابن سيده كان على جانب كبير من العلم بالقراءات ، ويرجع هذا فيما نمتقد إلى ما أفاده من أستاذه أبي عمر الطلمنكي خاصة ، وما أفاده بدائية أثناء إقامته بها في بلاط مجاهد العامري وقد اشتهرت دانية زمن مجاهد بما فيها من العلماء وأئمة القراءات .

عصره :

ولد ابن سيده في سنة ٣٩٨ هـ فاستقبل حياته في نختم القرن الرابع ، وهي فترة خطيرة اضطربت فيها أحوال الأندلس عتق وفاة المنصور بن أبي عامر واشتعلت نار التن بين المتنازعين على السلطان والطامعين في الملك . وقد استمرت القلاقل حينما طويلا تشد المتنازعين إليها وتلفهم بنار الفتنة ومحر الموجدة ، كما ظل الصراع شديدا يستعر أواره ويبلغ غايته ، حتى بطيح بالدولة الأموية ويزول آخر خلفائهم في سنة ٤٢٨ هـ .

ثم تفرق الأندلس أيدي سبا إلى عهد عرف بعهد ملوك الطوائف . وهو عصر - على الرغم مما صحبه من نهضة علمية وأدبية ، وما امتاز به

من ازدهار الثقافة وألوان المعرفة - كان أضعف العصور الأندلسية وأوهنها ، حيث تقسمت الأندلس أقساما كثيرة . فكان لكل مدينة أو أمانة صاحبها متخذاً لقب الأمير أو الملك ، واشتعلت نار الفتن بينهم جميعاً ، فأخذوا يتحاربون ويتطاحنون . وبدأت المدائن الأندلسية مختربة مختصة ، متدابرة متنافرة . فكان كل أمير إذا أحس بالقوة أو آنس في نفسه البأس صرف تلك القوة ووجه هذا البأس في سبيل تحقيق مجده الشخصي ، فلا يلبث أن ينقض على جاره فيدراً هذا الخطر عنه ، فيتحالف مع جار أقوى ، أو يستنصر بجيرانه من الأسبان ، ومضوا على ذلك طوال أيامهم ، حتى وهنت قوتهم ولانت قناتهم فأغار عليهم عدوهم من المسيحيين فاضطروا إلى الاستنجاد بالمرابطين .

عاش ابن سيده في هذا العصر ، عصر الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية [ثلاثين عاماً كلاً . وعاش في عصر الطوائف إلى أن توفي في سنة ٤٥٨ هـ ثلاثين عاماً كذلك . وشاهد توزع السلطان في أيدي هؤلاء الأمراء ، وأبصر ما كان من اصطناعهم لمظاهر العظمة والأبهة وتنافسهم في تقريب العلماء والأدباء . إذ كان أعظم مباحاتهم « قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني . والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني » .

فأخذ العلماء والأدباء يتوافدون على قصور هؤلاء الأمراء . وكان ابن سيده أحد العلماء الوافدين على دانية في زمن مجاهد العامري .

اتصل ابن سيده بمجاهد ، وكان مجاهد من أصحاب الهمة وذوى الجرأة : فحين عصفت الفتنة بدولة ابن أبي عامر ، قصد مجاهد إلى الجزائر التي بشر في الأندلس مع من تبعه فغلب عليها وحماها ، ثم غلب على دانية واتخذها قسبة إمارته .

وكان مجاهد كما وصفوا من أشد الناس شغفاً بالعلم وحبا للعلماء . فكانت دولته - كما ذكر صاحب البيان - أكثر الدول نخاسة ، وأسراها صحابة (البيان ص ١٥٦) .

ومن أجل ذلك قصده العلماء والفقهاء من كل صقع وجنس : وألفوا له تواليـف مفيدة في سائر العلوم ، فأجزل على ذلك صلاتهم بآلاف الدنانير ، ومضى على هذا طوال عمره .

وكان ابن سيده منقطعا إلى أمير دانية ، كما يقول الفتح بن خاقان ، في مطمح الأنفس ، وإلى هذا الأمير ألف أجل كتبه : المخصص ، والمحكم .

حظه من المعارف :

وصفه أبو نصر الحميدى في جذوة المقتبس بقوله : « إمام في اللغة وفي العربية حافظ لهما ، على أنه كان ضريرا . وقد جمع في ذلك جموعا . واه مع ذلك في الشعر حظ وتصريف » .

ويقول السيوطى في بغية الوعاة : « كان حافظا لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار ، وأيام العرب وما يتعلق بها ، متوافرا على علوم الحكمة » .

ويقول عنه ابن قاضي شهاب في طبقات النحاة : « وكان ابن سيده ثقة فيما ينقله من اللغة وغيرها ، قوله حجة ، ولكنه عثر في المحكم عثرات . وكان متوافرا على علوم العربية متوافرا على علوم الحكمة . وألف فيها تواليـف كثيرة . ومن وقف على خطبة كتاب المحكم ، علم أنه من أرباب العلوم العقلية . وكتب خطبة كتاب في اللغة ، إنما تصلح أن تكون خطبة لشفاء ابن سينا » .

ويقول ابن حجر في لسان الميزان (ج ٤ ص ٢٠٥) : « كان من أعلم أهل عصره باللغة حافظا لها جمع فيها عدة تصانيف نافعة » .

وبعد أن أشار ابن حجر إلى مأخذ السهيلي عليه في نقض الصحيفة ورمى الجمار ، عقب على ذلك بقوله : قلبت : والغالط في هذا يعذر لكونه لم يكن فقيها ولم يحج . ولا يلزم من ذلك أن يكون غلط في اللغة التي هي فته الذي تحقق به ... »

كان ابن سيده إماما حافظا ، صافى الذهن ، جيد الملكة ، غزير المادة ، واسع الاطلاع ، وافر المحصول ، جامعا لأشتات الفرائد .

وقد خلف للعربية من بدائع التأليف وروائع التصنيف عدة كتب نافعة ، وصل إلينا بعضها ، وفقد بعضها ، أو هو لا يزال في أحراز بعيدة ، لم تصل إليها الأيدى ، فلم يعرف عنه غير عنوانه ، أو إشارات يسيرة إلى حجمه وموضوعه .

والرواة يذكرون أن له كتابا في شرح الحماسة لأبي تمام سماه «الأنيق» في ستة مجلدات . كما أن له كتابا في شرح إصلاح المنطق لابن السكيت ، وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون باسم «العويص» .

وله كتاب شاذ اللغة في خمسة مجلدات ، كما يروون أن له تأليفا مبسوطا في المنطق . ولم يذكر عنوانه ولم يعثر عليه بعد .

على أن ابن سيده قد ذكر في مقدمة المحكم ثلاثة كتب من تأليفه ، وربما كانت أربعة ، وهي :

كتاب « الوافي في علم القوافي » (١) وسماه في موضع آخر « الوافي في أحكام القوافي » (٢) .

ومن حديثه عنه ؛ أنه عالج فيه دقائق النحو والصرف ، كما عرض فيه لنقد باب عيوب الشعر ، وطرائف قوافيه في كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام .

وكذلك كتاب نقد فيه الأمور الصرفية والمسائل النحوية من كتاب إصلاح المنطق لأبن السكيت . وقد يكون ذلك الكتاب ، هو الذي عرف باسم العويص . فيكون الكتاب شرحا ونقدا .

وكتاب آخر في التذكير والتأنيث . قال عنه : « وأما ما أتركه من

(١) المحكم ص ١٠

(٢) المحكم ص ١٠

الأشعار بالتذكير والتأنيث ، فإنما ذلك لأنى قد أفردت له كتابا لم يوضع في معناه ما يوازيه فضلا عما يساويه . وكذلك المملود والمقصور » .

وقد يكون في هذه العبارة الأخيرة ، ما يشعر بأن له تأليفا في المملود والمقصور .

أما ما وصل إلينا من مؤلفات ابن سيده ، فكتب ثلاثة : المخصص ، والمحكم ، والمشكل من شعر المتنبي .

والمحكم ، أحد الأصول اللغوية الستة التي اعتمد عليها ابن منظور في لسان العرب . أما الأصول الأخرى فالتهذيب للأزهري ، والصحاح للجوهري والحواشي عليه لابن بري ، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ، وجمهرة ابن دريد . ويكاد يكون الأساس الأول في اللسان ، هو ما نقله ابن منظور عن ابن سيده في المحكم .

وقد طبع المخصص في سنة ١٣١٦هـ في سبعة عشر جزءا ، كما تم تحقيق المحكم وبدأت الجامعة العربية في نشره (١) .

أما المشكل من شعر المتنبي فهو الكتاب الذي قمنا بتحقيقه ونقدمه الآن بين أيدي الباحثين .

والسؤال الذي يعرض لنا الآن هو : أى هذه الكتب الثلاثة كان المؤلف أسبق إلى تأليفه ؟ وما هو الترتيب بينها جميعا ؟

وجوابنا على ذلك أن المخصص كان أسبق الكتب الثلاثة تصنيفا . فقد ألفه ابن سيده قبل المحكم ، وقد أشار حاجي خايفة في كشف الظنون إلى ذلك . على أن المحكم حافل بنصوص كثيرة يشير فيها ابن سيده إلى ما سبق أن شرحه في المخصص .

(١) شارك محققا هذا الكتاب في تحقيق بعض أجزاء المحكم .

في الجزء الأول من المحكم ص ١١٥ مادة (جدع) يقول ابن سيده .
« وجدع الغلام جدعا فهو جدع : ساء غذاؤه . قال أوس :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء توليا جدعا
وقد ذكرت تصحيف بعض العلماء لهذه الكلمة في هذا البيت في
الكتاب المخصص .

وفي الجزء الأخير من المحكم في (باب النون والباء والواو) يقول ابن سيده :
« نبا بصره عنه نبوا : وإبناء فارس قوم من أولادهم ، ارتهنوا باليمن .
وللأب والبنات أشياء كثيرة تضاف إليها قد جمعتها وتقصيتها في الكتاب
المخصص » .

وفي موضع آخر من هذا الجزء يقول : « الأم القصد . وقالوا :
ما أنت وأم الباطل . أي ما أنت والباطل . وللأم أشياء كثيرة تضاف إليها
قد أبيتها في الكتاب المخصص » .

وفي (باب النون والباء والهمزة) في هذا الجزء أيضا يقول : « النبأ
الخبر ، والجمع أنباء . وتنبا الرجل : ادعى النبوة .

وقد أنعمت شرح هذه الكلمة وأبنت اشتقاقها في الكتاب المخصص .

فهذه النصوص قاطعة بأن المخصص كان أسبق إلى تأليفه من المحكم
غير أننا نجد ابن سيده قد ذكر اسم المخصص في مقدمة المحكم كما
ذكر المحكم في مقدمة المخصص .

قال في مقدمة المخصص : « ومبين قبل ذلك لم وضعته على غير
التجنييس بآني لما وضعت كتابي الموسوم بالمحكم مجنسا ، لأدل الباحث على
مظنة الكلمة المطلوبة ، أردت أن أعدل به كتابا أضعه مبيوبا ، حين رأيت
ذلك أجدي على الفصيح المدره والبلغ المنوه » . فدل ذلك على أنه ألف
المحكم قبل المخصص .

وقال في مقدمة المحكم « فألفت كتابي الملخص الذي سميته

المخصص وهو على التبويب في نهاية التهذيب . ثم أمرني بالتأليف على حروف المعجم فصنفت كتابي المرسوم بالمحكم . فدل ذلك على أنه ألف المخصص قبل المحكم .

فكيف نوفق بين ما جاء في هاتين المقدمةين من ذكر اسم المحكم في مقدمة المخصص واسم المخصص في مقدمة المحكم ، وقد أوردنا من النصوص ما يقطع بأن المخصص كان أسبق إلى التأليف من المحكم ؟ والجواب على ذلك يسير .

فالمعروف أن المقدمة توضع عقب الفراغ من التأليف . فإذا كان ابن سيده قد استجاب لرغبة الأمير كما هو نص قوله السابق ، فبدأ في المحكم بعد المخصص دون إبطاء ، فمعنى هذا أنه كتب مقدمة المخصص في الوقت الذي شرع فيه في عمل المحكم . أو على الأقل في الوقت الذي انتهى فيه تصميم فكرة المحكم وترتيبه ونظام مواده . وهذه العبارة التي ورد فيها ذكر المحكم في مقدمة المخصص ، إنما قصد بها إلى التمييز بين طريقتيه في هذين المعجمين الكبيرين ، بين المخصص الذي أتمه وأكمله ، وبين المحكم الذي شرع فيه . وفي الوقت نفسه قد عبر بها عن أمنيته في إتمام معجم كبير كالمحكم .

أما كتابه المشكل من أبيات المتنبي ، فكان تاليا في التأليف للمخصص والمحكم . وفي الكتاب نفسه اشارات تبين ذلك .

ففي شرح ابن سيده لبيت ذي الرمة :

رخيات الكلام مبتلات جواعل في القنا قضبا خذالا

يقول : مبتلات بالكسر ، أي مقطعات للكلام يهرن. المنطق نغمة . فحذف المفعول . ومن رواه مبتلات ، فقد كفاك . لأن المبتلة لفظ المفعول وهي من النساء التي كل شيء منها حسن على حدة ، كأن الحسن بتل على كل جزء منها أي قطع . وقد أثبت هذا في كتابي الموسوم بالمخصص في اللغة .

وفى شرحه لقول المتنبي :

« وقيدت الأيل في الحبال »

يقول : « « وقد أثبت الأيل واشتقاقه ووزنه وتكسيره وما فيه من اللغات في كتابي الموسوم بالملحكم » .

شرح ديوان المتنبي :

أول من شرح ديوان المتنبي ، أبو الفتح بن جني ، وكان طبعيا أن يعرض عالم نحوي لغوى جليل كابن جني لديوان شاعر كبير كالمتنبي ، ملأ الدنيا بشعره وشغل الناس .

فقد عرف ابن جني أبا الطيب في بلاط سيف الدولة الحمداني بحلب ، وكان قصر هذا الأمير كغيره من قصور الأمراء في ذلك الحين ، متدي يؤمه أفذاذ العلماء ونوابغ الأدباء من شتى الأقطار والأمصار .

وعند سيف الدولة اجتمع أبو الفتح بأبي الطيب ، ونشأت بين العالم الجليل والشاعر الكبير صلة وصحبة ، وتآلفا . ودامت بينهما الصحبة والمودة ، وتوثقت بينهما الصلة والملازمة . ثم قدر لأبي الفتح أن يخدم في بيت آل بويه بشيراز في عهد عضد الدولة البويهى وبنيه : صمصام الدولة ، وشرف الدولة ويهأ الدولة . ولهبأ الدولة ألف ابن جني كتابه « الحصائص » .

وذهب المتنبي إلى شيراز فالتقى بصديقه أبي الفتح عند عضد الدولة ، واستمرت المحبة بينهما قوية متينة . عرف فيها كل واحد منهما صاحبه عن قرب وخبرة . فكان المتنبي يحل أبا الفتح ويحله من نفسه أرفع محل ويقول عنه : « إنه رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » وكان إذا سئل عن شيء من دقائق النحو والتصريف يقول : « سلوا صاحبنا أبا الفتح » . كان كما يقول العمري في مسالك الأبصار « إذا سئل عن معنى قاله ، أو توجيه إعراب ، حصل فيه إغراب ، دل عليه وقال : عليكم بالشيخ الأعور ابن جني ، فسلوه فإنه يقول : « ما أردت وما لم أرد (١) » .

وكذلك عرف ابن جني قدر أبي الطيب ، صاحب المعاني الدقيقة والبصر
النافذ والحكمة الخالدة والمثل السائر والاحاطة بالعربية ، فأعجب به أيما إعجاب .
وكان دائماً الثناء عليه في تأليفه والاستشهاد بشعره في المعاني والأغراض المختلفة ،
ويعبر عنه بشاعرنا كما نرى ذلك في الحصائص ، إذ يقول : « وحدثني المتنبي
شاعرنا وما عرفته إلا صادقاً (١) » .

شرح أبو الفتح ديوان المتنبي شرحين : الشرح الكبير ، والشرح الصغير ،
والأخير هو الموجود الآن .

وقد تعقب النقاد والمعاصرون شرح أبي الفتح . وعلى الرغم من أن ابن
جني كان من الكبار في صناعة الإعراب والتصريف ، لم يوفق في شرح شعر
أبي الطيب ، وقالوا عنه : إنه إذا تكلم في المعاني تبلد حماره ، واستهدف
شرحه للمطاعن والمآخذ .

وكان من الناقدين لشرح ابن جني ، علي بن عيسى الربعي المتوفى سنة
٤٢٠ هـ ، وهو ممن شارك ابن جني في الأخذ عن أبي علي الفارسي . فآلف
كتاب التنبيه على خطأ ابن جني في تفسير شعر المتنبي .

وكذلك ابن فورجة . أبو علي محمد بن حمزة . فإنه ألف كتابين كبيرين
على شرح معاني المتنبي ؛ سمي أحدهما « التنجني على ابن جني » والآخر « الفتح
على أبي الفتح » ورد فيهما على ابن جني في شعر المتنبي .

ثم اختلف الناس بعد ذلك في شعر المتنبي ، فقوم يتعصبون له
ويفضلونه في الشعر على جميع أهل زمانه . وآخرون يتعصبون عليه
فلا يعدونه من الشعراء ويزرون شعره .

ويشغل الناس بالمتنبي ، وتقوم حركة أدبية واسعة حول شعره وتتعاقب
الشروح لديوانه .

وحسبنا أن نقف عند ما أحصاه حاجي خليفة في كشف الظنون من
هذه الشروح ، لتبين إلى أي مدى كانت عناية الأدباء واهتمامهم بشعر المتنبي .

(١) الحصائص ج ١ ص ٢٣٩

فقد شرحه أبو المظفر الهروي كمال الدين محمد بن آدم المتوفى سنة ٤١٤ هـ .

وشرحاه أبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، وسماه اللامع العزيزي أو معجز أحمد .

وشرحاه أبو الحسن محمد بن عبد الله العجلي المتوفى بمصر سنة ٤٦٠ هـ وكان فاضلا نحويا من أصحاب أبي علي السرماني .

وشرحاه الامام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ هـ وهو من الشروح الجلية النفع ، الكثيرة الفائدة .

وشرحاه عبد الله بن أحمد الشامي المتوفى سنة ٤٧٥ هـ .

وكذلك أبو عبد الله سليمان بن عبد الله الحلواني المتوفى سنة ٤٩٤ هـ .

وعبد القاهر بن عبد الله الحلبي النحوي المعروف بالوأواء المتوفى سنة ٦١٣ هـ ،

وأبو البركات مبارك بن أبي الفتوح أحمد المعروف بابن المستوفى الإربلي

المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، وقد شرحه في عشرة مجلدات وسماه « النظام » وبتدار

الكتب نسخه منه بعنوان : « شرح المشكل من ديوان حبيب أبي الطيب » ، في مجلدين كبيرين .

فإذا تركنا هؤلاء الشراح من أدباء المشاركة وذهبنا إلى الأندلس رأينا مشاركتها في شرح ديوان المتنبي .

فقد شرحه أبو القاسم بن الأفلح المتوفى سنة ٤٤١ هـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وشرح المشكل من أبياته أبو الحسن علي بن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ :

ثم شرح الديوان كله أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ .

والسؤال الذي يعرض لنا الآن هو : لماذا قصد ابن سيده إلى شرح

المشكل من أبيات المتنبي ولم يشرح الديوان كله ؟

وجوابنا على ذلك أن ابن سيده كان معجباً بالمتنبي ، إعجابه بابن جني . وقد تناول الأدباء في المشرق شرح ديوانه منذ ظهر ، وصدر عليه شروح كثيرة كان أولها شرح ابن جني .

وغير خفي أن كتب ابن جني وأبي على الفارسي ، تعتبر بناء جديداً في النحو بعد بناء سيبويه . وكان ابن سيده أشد حرصاً على نقل كلام ابن جني في المحكم وذكر توجيهاته في كل مناسبة .

وحين شرح ابن جني ديوان المتنبي ، أعجب به ابن سيده ، لكن هذا الشرح قد تعقبه النقاد كالرابعي وابن فورجة وغيرهما من الأدباء . ومن مجموع ما قام به ابن جني وما اعترض عليه في شرحه ، وجدت الفكرة عند ابن سيده في شرح شعر المتنبي .

ولكن ابن سيده لا يلجأ إلى شرح الديوان كله ، وإنما يتجه إلى ما كان سبباً للخصومة ، ومثاراً للجدل ، مما أشكل من أبياته وما استغلق من معانيه وما استبهم من تراكيبه ، فيتناولها في عمق من حيث اللغة ، ومن حيث الوزن ومصطلحات العروض ، ومن حيث المعاني والدقائق النحوية والمسائل الصرفية . يتعمق في التحليل ، ويستقصى القواعد ، ويجمع الصيغ ، ويتلمس التعليقات والتخريجات ، ويكثر من الاستشهادات النحوية والآراء اللغوية ، والنقل عن سيبويه خاصة ، وهكذا حتى يتضح البيت المشكل ويتم فهم معناه .

الأمر الثاني الذي حدا بابن سيده إلى شرح المشكل من شعر المتنبي ، أن شعر المتنبي صادف هوى في فؤاد هذا العالم الحكيم ، وأشبع فيه رغبته الفلسفية ، كما أن مشكلات المتنبي اللغوية كانت مادة خصبة لما فيها من دقائق النحو والتصريف .

فإذا كان ابن سيده يرى أن من أبرز ما تضمنه كتاب « المحكم » ، تمييز أسماء الجموع من الجموع ، والتنبيه على الجمع المركب المسمى عند النحاة بجمع الجمع ، والفرق بين التخفيف البدلي والتخفيف القياسي ، أو الفرق بين القلب والبدل ، أو التنبيه على شاذ النسب والجمع والتصغير ، فإنه واجد هذه الدقائق عند المتنبي .

فكان عليه وهو من المعجبين به ، أن يطيل الوقوف عندها وأن
يجعل كتابه فيها :

وحسبنا أن نجعل النظر في شرح المشكل من أبيات المتنبي ، لنرى شاذ
النسب في تصغير « أينسيان » في قول المتنبي : « له باءي حروف أنيسيان »
ونرى الفروق بين الجموع وأسماء الجموع في مواضع كثيرة ، ونرى الفرق
بين التخفيف البدلي والتخفيف القياسي في غير موضع :

وابن سيده في كل هذا وأمثاله ، يسهب في الشرح ويمعن في التوضيح
ويربط كل ذلك بشواهد من الكتاب لسيبويه .

وقد يتكرر شرحه لمسألة من المسائل ، ثم يبين سبب ذلك ، كما في قول
المتنبي :

(ولوجعلت موضع الإلال لآلثا طعنت بالآلى)

فيقول في ختام شرحه :

« وقد بينت ذلك غير دفعة في هذا الكتاب وفي غيره من كتبي وإنما
أعدته لطرافته ودقته ، وأنه لا يفهمه إلا الذرب ، فمن أنس به أحبه ووالاه ،
ومن ناقدته قلنا له : من جهل شيئا عاداه » .

نسخ الكتاب ومنهجنا في تحقيقه

في سبيل تحقيقنا لهذا الكتاب ، كان علينا أن نبحث عن نسخه في مظاهرها وأماكن وجودها ، في فهارس مكتباتنا العربية من جهة ، وفي فهارس المكتبات الأجنبية وخاصة كتاب بروكلمان من جهة أخرى .

ففي دار الكتب المصرية ، عثرنا على نسختين من الكتاب إحداهما كتبت سنة ١١٦٨ هـ ؛ والأخرى صورت عن الأصل المخطوط المحفوظ بمكتبة تونس .

ثم بحثنا في المكتبة التيمورية ، ومكتبة طلعت ، والمكتبة الزكية ، ومكتبة الأزهر ، والمكتبة الأحمدية بطنطا ، ومعهد المخطوطات بالجامعة العربية ، فلم نجد بين فهارسها إشارة إلى وجود هذا الكتاب بين ماتحويه هذه المكتبات . ثم بحثنا في فهرس مكتبة ملريد ، وفهرس مكتبة الاسكوريال ، فلم نجد ذكرا لهذا الكتاب في فهارسهما أيضا .

وكذلك رجعنا إلى بروكلمان فلم نجده يذكر من نسخ هذا الكتاب سوى نسخة دار الكتب (٢ أدب م) وذلك في صفحة ١٤٢ من ملحق الجزء الأول .

فكان اعتمادنا بعد ذلك في تحقيق هذا الكتاب على هاتين النسختين الموجودتين بدار الكتب ، وهما نسختان نفيستان .

وصف النسختين :

أولا - نسخة دار الكتب رقم (٢ أدب م) .

وهذه النسخة مكتوبة بخط النسخ الجميل ، كتبها حسين القرافي الشافعي ، وفرغ من كتابتها في ٢٣ صفر سنة ١١٦٨ هـ ، وعنوان الكتاب فيها :

« هذا شرح مشكل أبيات المتنبي » وضع أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده .

وتشتمل النسخة على ١٨٩ لوحة، وبكل لوحة صفحتان ، وفي كل صفحة تسعة عشر سطرا . وقد صورت عنها نسخة أخرى حفظت بدار الكتب برقم ١٣٨٤١ ز .

ثانيا - مضرورة دار الكتب المنقولة عن المخطوطة المحفوظة بمكتبة تونس ، وقد كتبت بالخط المغربي ، ولم يذكر فيها اسم ناسخها ولا تاريخ نسخها ، وعنوان الكتاب فيها :

« شرح ابن سيده على مشكلات المتنبي » .

وبالنسخة سقط يسير في بعض العبارات . وقد حفظت بدار الكتب برقم ١٩٨٧٧ ز .

منهجنا في تحقيق الكتاب :

منهجنا في تحقيق هذا الكتاب ، هو منهجنا وطريقنا في تحقيق جميع ما نشرناه من قبل من كتب التراث العربي . وهذا المنهج يهدف دائما إلى تحقيق غرضين أساسيين :

الأول : تقويم النص وإخراجه صحيحا سليما كما صدر عن مؤلفه .

الثاني : أن يكون الكتاب في تحقيقه كاملا مستوفى ، بحيث يستغنى به القارئ عن غيره ، فلا يضطر إلى الرجوع إلى مصادر أخرى .

ولما كان ابن سيده قد عني كثيرا بالدقائق النحوية والمسائل الصرفية والنقل عن سيبويه خاصة ، فقد عارضنا الأصل على ما نقل من « الكتاب » لسيبويه ، كما رجعنا إلى الأصول النحوية والمعاجم اللغوية في كل ما يتصل باللغة والنحو .

وبعد : فيها هو ذا « المشكل من أبيات المتنبي لابن سيده اللغوى »
صورة للعالم المتمكن . ذى العقل الحصب ، والتفكير الناضج : حققنا
أصوله ، وحررنا نصوصه ، وجلونا غامضه .

وتقدمه اليوم إلى قراء العربية : شرحا وافيا من أجل الشروح لمشكلات
شعر المتنبي وأجزؤها فائدة ، وذخيرة من أنفس ما خافته السنون ، واحتفظت به
الحق من تراث الأجيال : راجين أن يعم به النفع ، والله المرجو والمؤمل :
ومنه العون والتوفيق ،

المحققان

مصطفى السقا

حامد عبد المجيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ

قال أبو الحسن علي بن اسماعيل النجوى المعروف بابن سيده :
قال أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي رحمه الله تعالى :

- ١ -

(أَبْلَى الْهَوَىٰ أَسْفَايَوْمَ النَّوَىٰ بِدَنِي وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ)
يذهب الناس الى أن أسف البعد هو الذي أبلاه على عادة البلى وإنما قصد
للبالغة ، أراد أن البلى يعمل في الأجسام حالاً فحالا على الأيام . وقد عمل فيه ليوم
واحد ، وهو يوم النوى ، عمله لسنين .

- ٢ -

وقال :

(ظَلَّتْ بِهَا تَنْطَوِي عَلَى كَبِدٍ نَضِيجَةٍ فَوْقَ خَلْبِهَا يَدُهَا)
ظلت : أظمت ، وانحلبُ : غشاوة الكبد ، والبيت مضمَّن بالأول
وهو أبعد ما بان عنك خردُها .

فالعامل في أبعدَ ، ظلت ، كأنه قال : ظلت بها بعدَ ما بان خردُها ، والمعنى :
بعد ما بان خردُها ، ظلت منطوياً على كبد قد أنضجها التوجع وأذاها التفجع ،
و (عليها يدها) :

إنما توضع اليد على الكبد خشية من ضعفها .

يريد بذلك ، وكذلك يُفَعَّلُ بالنَّوَادِ ، كقول الآخر :

وَضَعْتُ كَفِّي عَلَى فَوَادِي مِنْ نَارِ الْهَوَى وَانْطَوَيْتُ فَوْقَ يَدِي

وأكثر الناس على أن (نَضِيجَةً) ، صفة للكبد في اللفظ والمعنى ، لاحظاً لليد في النضج ، وإنما يريد أن اليد موضوعة على خاب الكبد فقط ، وَيُقَوِّيه البيت الذي أنشدناه ، وهو (وضعت كفي على نوادي من . . . نار الهوى . . .) .

وقد يجوز أن يكون (نَضِيجَةً) صفة للكبد في اللفظ ، ولليد في المعنى ، أى على كبد قد نضجت يدها على خلبها من حرارتها ، وهذا أبلغ ، لأنه إذا أنضجت اليد وهى موضوعة على الخلب من حر الكبد ، فما الظن بالكبد ؟ فإذا كان المعنى على هذا ، جاز في (نَضِيجَةً) الجر والرفع . فالجر على الصفة للكبد في اللفظ ، والرفع على أن يكون خبر مبتدأ ، وذلك المبتدأ هو اليد ، كأنه قال : يدها نضيجة فوق خابها . وهذا كما تقول : مررت بامرأة ظريفة أمتها ، فالظرف في اللفظ للمرأة ، وفي الحقيقة لِلْأَمَةِ . وإن شئت قلت : ظريفة أمها ، أى أمها ظريفة .

وأما إذا كانت النضيجة صفة للكبد في اللفظ والمعنى ، فإنه لا يكون فيها إلا الجر . وكون (نَضِيجَةً) صفة لليد ، أبلغ في المعنى ، لأنها حينئذ نضيجة بما ليس في ذاتها . وإذا كانت نعتاً للكبد ، فهي نضيجة بما في ذاتها . واحتراق الشيء بما ليس في ذاته ، أبلغ من احتراقه بما في ذاته وإنما يريد أنه إذا وضع يده على كبده متأماً نضجت اليد بحر الكبد ، كقوله :

هَلْ الْوَجْدُ إِلَّا أَنْ قَلْبِي لَوْ دَنَا مِنَ الْجَمْرِ قَيْدَ الرَّمْحِ لاحترق الجمرُ

وهذا عندي أبلغ من قول المتنبي ، لأن اليد إذا كانت على خلب الكبد ،
فهي أقرب إلى الحر من الفؤاد من الجمر ، إذا كان بينه وبين الجمر قيد رُمح ،
مع أنه جعل الجمر الناري محترقاً من حر فؤاده . فخر الفؤاد إذن أشد من
حر الجمر .

(شَابَ من الهجر فَرَقُ لِمَتِهِ فصار مثل الدَّمَقْسِ أَسْوَدُهَا)
وفي هذا البيت ثمرمة صنعة ، قال : (فَرَقُ لِمَتِهِ) نخص جزءاً من اللمة .
ثم قال : أَسْوَدُهَا ، فَعَمَّ ، لكن قد يجوز أن يعود الضمير إلى الفرق ،
وإن كان الفرق مذكراً ، لأن المذكر إذا كان جزءاً من ذات المؤنث
جاز تانيته .

أنشد سيبويه :

وَتَشَرَّقُ بالقول الذي قَدْ أَذْعَتَهُ كَمَا شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدَّمِ-

وقد يجوز أن يريد بياض اللمة كلها ، ونخص الفرق ، لأنه معظم الرأس ،
ثم أهاد الضمير إلى اللمة . وإنما وجهُ استواء الصنعة لو اتزن له ، وحسن في
القافية أن يقول :

شَابَتْ من الهجر لِمَتُهُ فصار مثل الدَّمَقْسِ أَسْوَدُهَا
أو يقول : (أَسْوَدُهُ) بعد قوله (لِمَتُهُ) وَأَسْوَدُهَا هنا : ليست
مفاضلة ، إذ لو كان ذلك ، لكان أشد سواداً .

وقد يجوز أن يكون أراد المفاضلة ، فقد جاء ذلك شاذاً ، فقوله

أَسْوَدُهَا يريد به مُسْوَدُهَا كما يقول : هو أسود القوم أي الأسود فيهم .

(كيف يحبك الملام في هِمَمٍ أَقْرَبُهَا مِنْكَ عَنْكَ أَبْعَدُهَا)

كيف يكون أقربُ شيء أبعدَ شيء ! هذا خُلفٌ إذا حُمِلَ على ظاهره .
لكن لو قال : أقربها منك بعيد عنك ، كان حسناً ، ولكن الذي أرادَه :
أقربها عندك مثل أبعدُها . فالجملة في موضع الصفة لهم . أى أقربها منك
عندك أبعدُها منك على الحقيقة .

(أَحْيَيْتُهَا وَالْدُمُوعُ تُنْجِدُنِي شُتُونُهَا وَالظَّلَامُ يُنْجِدُهَا)
أحييتها : يعنى الليالى . تنجدينى : تعيننى . والشتون : مجارى الدمع ،
واحدها شأن . أى أحييت الليالى بالسهر والبكاء .

ومعنى البيت : إن شأن الدمع أن يخفف الحزن ، كقول البحترى :
إن الدموع هى الصبابة فاطرح بعض الصبابة واسترح بهومها .
وهذا كثير فى أشعار العرب . وهو عندنا موجود بالمشاهدة ، فكأن
الدمع يعينه على طول الليل ، وإعانة الدمع للمحزون على الحزن ليلاً ، أجدى
من إعانته عليه إياه نهاراً ، لأن المحزون يتسلى نهاراً بما يتأمله ، وينظر إليه ،
والظلام يقصر الطرف عما يتشاغل به المحزون نهاراً ، فيفرغ الحزين عند
ذلك إلى الدمع ، لا يجد مُعيناً غيره . قال : (والظلام ينجدُها) أى أن
الظلام إذا قصر الطرف عما يتشاغل به المحزون ، زاد الليل بذلك طولاً .
فكأن الظلام أنجد الليل عليه بقصره طرفه عن النظر إلى ما يتشاغل به .
ولذلك قال الشاعر :

بلى إن للعينين فى الصبح راحة لطرحيهما طَرْفَيهما كل مَطَرَحٍ
وقوله : (والدموع تنجدينى) جملة فى موضع الحال من التاء
فى أحييت .

وقوله : (والظلام ينجدُها) جملة فى موضع الحال من الهاء التى فى

أُحييتها ، أئى أحييت الليلالى وأنا تنجدنى دموعى بالتسلىة ، وهى ينجدها
الظلام بالتطويل لها .

(لا نَأَقَتى تَقْبِلُ الرَّدِيفَ ولا بالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أَجْهِدُهَا)
حاجى بهذا البيت ، وإنما عنى نَعْلَه ، فكنى عنها بهذا النوع من الحيوان
لأن المائى يعلو نعله كما يعلو الراكب ناقته ، ونفى عنها ما لا يكون لاحقاً لفـير
الحيوان المركوب ، يخرجها بذلك من نوعه . ثم بين هذه الأُحْجِيَّة فقال :
(شِراكِها كُورُها وَمِشْفَرُها زِمَامُها وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُها)

أى كل واحد من طوائف هذه النعل يحل محل الأرداف من الناقة ،
فجعل شراكها كالسكور ، وهو ما يقع على القدم من النعل ، لأنه على
وسطها ، كما أن السكور على وسط الناقة ، والزمام أمامها ، كما أن مِشْفَر الناقة
أمامها ، والشُّسُوع مِقْوَدُها ، وذلك أنه يَفْضَلُ عن ذات النعل ، كما أن
المِقْوَدَ يَفْضَلُ عن المقود .

وكان ينبغى أن يقول : وشِسْعُها مقودها فيفرد ، كما قال : شراكها
وزمامها ، لكنه جمع عَلَى أن كل طائفة من الشَّعْ شِشْعٌ ، وكذلك كان ينبغى
أن يقول لو اترن له : (وزمامُها : مِشْفَرُها) ، كما قال : (شراكُها : كورُها ،
وشسوعُها : مِقْوَدُها) ، فبدأ بطوائف النعل قبل أداة الإبل ، لـسكن حَسَنَ عندى
ابتداءه بالمِشْفَر أن المشفر ذاتى ، والسكور والمقود من الأداة ، لا من الذات .

(يَا لَيْتَ بى ضَرْبَةً أَتَيْحَ لَهَا كَمَا أَتَيْحَتْ لَهُ مُحَمَّدُها)

معنى إتاحة الضربة له : حُلُولُها به ، ومعنى إتاحة محمد لها : نبوُّها عنه ،
واحتماله لها ، وتأثيره فيها برغمه ، وكذلك كل حال وذى حال كل
واحد منهما مُتَاح لِصاحبه ، وأراد أتيح لها محمدُها كما أتيحت هى له .
وأتيح : قُدِّرَ .

وينجوز أن يكون أراد أن الضربة ندمت حين وقعت به ، لأنها لم تكن
بحق ، فكان ذلك الندم تأثيراً فيها ، وكذلك السيف ضرب غير مستحق .
وكل ذلك مجاز واتساع . أي قدر محمد للضربة كما قدرت له فكان هو المؤثر
فيها ، ألا ترى بعده :

(أثر فيها وفي الحديد وما أثر في وجهه مهئداً)

أثر في الشيء : غادر فيه أثراً ، ولا يكون التأثير إلا في الجواهر ،
كقوله : أثر المطر في الحائط والخسف في الأرض ، وأثر المرض في الجسم .
ولا يكون ذلك في العَرَض ، وقد اقسام قوله : (أثر فيها وفي الحديد) جوهرأ
وعرضاً ، أما الجوهر فالحديد والتأثير فيه شائع ، وأما الماء في قوله : (فيها)
فَعَرَضٌ ، لأنها كناية الضربة التي في قوله :

* يا ليت بي ضربة أتيح لها *

وإنما لم يصح التأثير في العَرَض لأن التأثير أيضاً الأثر . والأثر
عَيْنٌ ، والعين لا يكون إلا في عين مثله ، أعني بالعين : الجوهر ،
إذ لا يحمل الجوهر إلا جوهر . وأما العَرَض فليس بعين ، فيكون حاملاً لعين
آخر . فإذاً قوله : (أثر فيها) استعارة ومجاز غريب . كأنه توهم الضربة
عَيْنًا ، بل هو عندي أبلغ ، لأنه إذا أمكنه التأثير في العَرَض كان له في الجوهر
أمكن ، لكنه مع ذلك قول شعري . أعني أنه ليس بحقيقة . وقوله :

* وما أثر في وجهه مهئداً *

المهند : السيف . وهو عندي من قولهم : (هَنَدَتْهُ النساء) : أي تيمته [والميتم . . .

نحيل ، فكذلك السيف] ولم ينف تأثير المهند في وجهه نفياً كلياً . وكيف ذلك وقد أثبت الضربة ، وهي التأثير . وإنما أراد أن المهند لم يؤثر في وجهه أثراً قبيحاً ، لأن وقوع الضربة على الوجه تزين ولا تشين ، لدلالاتها على الشجاعة والإقدام ، كما أن التأثير في الظهر دليل على الجبن والفرار ، كقوله :

فلسنا على الأعقاب تدعى كلومنا ولكن على أعقابنا تقطر الدما
ويروى (تقطر الدما) . جعل (الدما) اسماً مقصوراً كغنى .
أنشد الفارسي :

كهامة فقدت برغزها أعقبها الغبس منه ندما
غفلت ثم أنت تطلبه فإذا هي بهظام ودما
فهذا شيء عَرَض ، ثم نعاود الغرض .

فكان المهند لما وقع على وجهه ، فكأن ذلك إشعار بالإقدام ، ثم لم يؤثر فيه البتة ، فلذلك نفى التأثير في اللفظ نفياً عاماً . ونحوه ما حكاه سيبويه من قوله : (تكلم ولم يتكلم) أى أنك لم تجهد ولا أصبت ، كنت بمنزلة من لم يتكلم وإن كنت قد تكلمت .

(تَنقَدِحُ النَّارُ مِنْ مَضَارِبِهَا وَصَبُّ مَاءِ الرَّقَابِ يُخْمِدُهَا)

قدحه فانقدح : أوقده فانقد ، أى أن السيوف تقطع ما تحتها وتهوى في التراب ، فلا يردّها إلا حَجَرٌ يقدح النار بملاقاته جرّم السيف ، كقوله :
تَقْدُّ السَّلَوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسِجُهُ وَتُوقِدُ بِالْمُفَاحِ نَارَ الْحُبَابِ

(وَصَبُّ مَاءِ الرَّقَابِ يُخْمِدُهَا) أى أن الدم الذي يطغى تلك النار يجرى

على السيف والجمر ، وسعى الدم ماء استعارة ومجازاً ، وإنما ذلك لأن ماهته

سيلانه ، وعلى هذا قالوا ماء العناقد . وسمّوا الدمع ماء ، كل ذلك اتساع
وتجوز ، لاحقيقة .

(إذا أضلَّ الهمامُ مَهْجَتَهُ يَوْمًا فَأُطْرَافُهُنَّ تَنْشُدُهَا)
نَشَدَتْ الضَّالَّةُ : طَلَبَتْهَا ، وَأَنْشَدَتْهَا : عَرَّفَتْهَا ، وَنَشَدَتْهَا فِي التَّعْرِيفِ لَفَةٌ
أَيْضًا . وَقَوْلُهُ :

وَيَصِيخُ أحيانًا كما استمع المضِلُّ لصوت ناشد
قيل : يعنى بالناشد هنا المَعْرِفُ وهو الصحيح ، لأنَّ المضِلَّ يَصْنَفُ إِلَى
كَلَامِ المَعْرِفِ لِيَدُلَّهُ عَلَى ضَالَّتِهِ . هَذَا قَوْلُ الْأَصْمَعِيِّ .
وقيل : الناشد هنا : الطالب ، لأنَّ المضِلَّ يُحِبُّ أَنْ يَجِدَ مُضِلًّا مِثْلَهُ
ليَتَعَزَّى بِهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ الْآخَرُ مُسْتَقِلٌّ عَنْ تَعَالَى الْأَوَّلِ . وَيَصَحُّ الْقَوْلُ
الْأَوَّلُ :

يُصِيخُ لِلنَّبَاةِ أَسْمَاعُهُ إِصَاخَةَ الْمُنْشِدِ لِلنَّاشِدِ
أَيَّ إِصَاخَةَ الطَّالِبِ لِلْمَعْرِفِ . أَيْ أَنَّ الهمامَ إِذَا فَقَدَ مَهْجَتَهُ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ
عَنْهَا أَطْرَافَ هَذِهِ السُّيُوفِ ، لِأَنَّهَا عَارِفَةٌ بِمَسَالِكِ الْأَرْوَاحِ ، بِهَا تُقْبَضُ وَعَلَيْهَا
تَرْدٌ ، لَا مَظَنَّةَ لَهَا إِلَّا هِيَ . فَأُطْرَافُهُنَّ عَلَى هَذَا مَفْعُولٌ ثَانٍ أَيْ تَنْشُدُهَا
أُطْرَافُهُنَّ .

(أَقَرَّ جِلْدِي بِهَا عَلَى فَلَا أَقْدِرُ حَتَّى الْمَمَاتِ أَجْجِدُهَا)
أَيَّ نَضْرَةَ الْعَيْشِ بَادِيَةً عَلَى بَشَرَتِي ، كَقَوْلِ الْعَرَبِ : بَشَرٌ مَا أَخَاكَ
مَشْفَرٌ . فَإِذَا جَحَدْتُ نِعْمَتَكَ ، شَهِدَ بِهَا جِلْدِي فَلَمْ يُمْكِنْهَ إِنْكَارُهَا ، إِذْ أَثَرُهَا
عَلَيْهِ بَادٍ . فَإِنْ جَحَدْتُهَا وَأَقَرَّ جِلْدِي بِهَا افْتَضَحَتْ . وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :
(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النِّعَمِ) .

قوله : (فلا أقدر حتى المات أجحدها) أراد : على أن أجحدها ،
فحذف على وأن ، ورفع الفعل لعدم العامل الذي كان ينصبه وهو (أن) .
ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ ﴾ أى تأمرونى أن أعبد
فحذف أن ورفع الفعل . ولو كانت القطعة مفتوحة الروى لقال : (أجحدها)
فأعمل أن مضرة إعمالها مظهره . وقد روى هذا البيت بالوجهين جميعاً .

- ٣ -

وقال المتنبي :

(أحميا وأيسرُ ما قاسيتُ ما قتلاً والبين جَارَ عَلَى ضَعْفِي وماعدلاً)
يجوز أن يكون أراد : أحمياً وأيسرُ ما قاسيته ما قتلنى ، أو ما من شأنه
أن يقتل ، وإذا كان أيسر ما قاسيته قاتلاً ، فما ظنك بأكثره وأشدّه . وهذا
على وجهين : إما أن يكون تعجب من ذلك فقال : أنا فى حال حياة ، وأقل
مالاقيته قاتلٌ ، وإما أن يكون طمع بالحياة فأنكر ذلك ، فقال : كيف أحميا
مع هذه (الحال) . فهذان وجهان لإرادة الاستفهام . وقد يكون أحميا خبراً ،
أى أنا أحميا . وهذه حالى ، أى تجلدى . يتعجب من صبره . وقد يكون (أحميا)
اسماً يدل على المفاضلة ، أى : أثبت ما قاسيته لحياتى ما قتل ، وهذا غلوٌ
وإفراط ، لأنه إذا كان ما قتله أثبت شيء لحياته ، لم يبق له ما يوجب الموت .
(وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَهَا رِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا)

أما الرؤية فلا تقع على غير شيء ، لأن غير شيء ليس بحسوس إحساس الجوهر ،
ولا إحساس العرض ، لأن غير شيء خارج عن الجوهر والعرض ، لأن كل
واحد من الجوهر والعرض شيء ، وإنما أراد هذا الشاعر : إذا رأى غير
شيء يُحْفَلُ به ، فهو فى قوة قولك : إذا رأى شيئاً لا يحفل به ظنّه رجلاً ،

كقول العرب : إنك ولا شيء سواء ، ومحال أن يسوّى بين الموجود والمعدوم ، لأنهما في طريق التضاد ، ولكنهم يريدون إنك ولا شيء يُعبأ به سواء ولكنهم قالوا : إنك ولا شيء ، واكتفوا به من قولهم وشيئاً لا يُعبأ به ، لأن ما لا يُعبأ به كالمعدوم ، ولذلك ألزمتنا سيبويه النصب في قوله : إنما سرت حتى أدخلها ، إذا كنت مُحتقراً للسَّير ، قال الفارسي : إنما ذلك لأنه لا شيء أقرب إلى طبيعة النفي من الاحتقار ، والنفي عدم فجعل الاحتقار كالعدم .

(فَبَعْدَهُ وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْ رَكَضَتْ بِالْخَيْلِ فِي لَهَوَاتِ الطُّفْلِ مَا سَعَلَ) أي أن هذه القبيلة قلت وذلّت ، حتى لو ركضوا الخيل ، على قوة الركض ، في لهوات الطفل ، على ضعفه ، ما شعر بهم فيسئل ، بالغ بذلك كقوله : وَلَوْ قَلَمُ الْقَيْتِ فِي شِقِّ رَأْسِهِ مِنْ السُّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبٍ فأما قول رؤبة في صفة الصائد :

فَبَاتَ وَالنَّفْسُ مِنَ الْحِرْصِ الْفَشَقُ فِي الْغَابِ لَوْ يَمْضَغُ شَرِبًا مَا بَصَقَ فإِذَا أَرَادَ أَنْ هَذَا الْقَانِصُ مِنَ النَّهَمِ عَلَى صَيْدِ الْوَحْشِ ، وَخَشْيَةِ أَنْ يَسْمَعَ لَهُ حِسًّا فَيَنْفِرَ ، لَوْ مَضَغَ الْحَنْظَلُ ، لَمْ يَبْصُقْ خَشْيَةَ أَنْ يُنْفَرَهَا بَصْقُهُ ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : إِنْ نَهَمَ عَلَى التَّصْيِيدِ قَدْ شَغَلَهُ حَتَّى لَوْ مَضَغَ الْحَنْظَلُ لَمْ يَشْعُرْ بِمَرَارَتِهِ فَيَبْصُقُ .

وخص المتنبي لهواتِ الطفل لأنها مظنة السعال .

وقوله : ركضت بالخيل ، إنما وجهه : لو ركضت الخيل ، يقال : ركضت الدابة ، ولا يقال ركضتُ بها . هذا هو المعروف في اللغة ، لكن قد يجوز أن

يكون ركض بالدابة لغة ، فيكون من باب طَوَّحْتَهُ وطَوَّحْتُ بِهِ . وقد يجوز أن تكون الباء زائدة ، كقوله (سَوْدُ الْحَاجِرِ لَا يَقْرَأُ بِالْشَوْرِ) .

(كَمْ مَهْمَةٍ قَذَفَ قَلْبُ الدَّائِلِ بِهِ قَلْبُ الْحَبِّ قَضَانِي بَعْدَ مَا مَطَّلَا)

قال (المَحِبَّ) فجاء به عَلَى لفظ الفاعل ، ولم يقل الحبيب وهو يريد ، لأنه عَنَى شدة إشفاقه في المَهْمَةِ ، وذلك أن المَشُوقَ إِذَا أَحَبَّ عَاشَقَهُ ، فَإِنَّمَا يَهْجُرُهُ الْخَوْفُ وَاشٍ أَوْ رَقِيبٌ ، فَإِذَا رَأَى خَفَقَ قَلْبُهُ لِإِشْفَاقِهِ . ولو كان المَحِبُّ غَيْرَ مُحِبٍّ لَمْ يَتَجَشَّمِ الزَّيَارَةَ عَلَى شِدَّتِهَا . وهذا كقول علي بن جبلة :

يَأْبَى مِنْ زَارِنِي مُسَكَّتِمًا حَذِرًا مِنْ كُلِّ حِسٍّ فَرِعَا

فقضاني بعد ما مَطَّلَا على هذا القول ، جملة في موضع الحال . ويجوز وضع الفعل الماضي موضع الحال ، لأنه قد يوضع موضع المستقبل في قوله : إِنْ قَعَلَ قَعَلْتُ . وفيما حكاه سيبويه من قولهم : وَاللَّهِ لَا فَعَلْتُ ، يريدون لَا أَفْعَلُ .

وقد ذهب بعضهم في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ إِلَى أَنْ (حَصِرَتْ) فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، وَقَدْ فِيهِ مَنْوِيَّةٌ . وَيَشْهَدُ عِنْدِي أَنَّ حَصِرَتْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ قِرَاءَةٌ مِنْ قَرَأَ : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَةَ صُدُورُهُمْ ﴾ .

وأما قوله : (قَلْبُ الدَّائِلِ بِهِ قَلْبُ الْحَبِّ) الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ فَمَعْنَاهُ : أَنَّ دَوَادَ الدَّلِيلِ وَجِلَ كَقَلْبِ الْحَبِّ الزَّائِرِ الْمَتَوَقِّعِ لِلْفَضِيحَةِ .

وقد يجوز أن يكون (قَضَانِي بَعْدَ مَا مَطَّلَا) خَبْرًا عَنِ الْمَهْمَةِ ، أَيْ : كَمْ مِنْ مَهْمَةٍ قَدْ قَضَانِي بَعْدَ مَا مَطَّلَا ، قَلْبُ الدَّائِلِ بِهِ قَلْبُ الْحَبِّ .

وَأَمَّا (قَضَانِي بَعْدَ مَا مَطَّلَا) وَهُوَ يَعْنِي الْمَهْمَةَ ، فَمَعْنَاهُ : أَنَّ الْمَهْمَةَ طَالَتْ عَلَيْهِ ، فَمَطَّلَهُ بِالنَّجَاةِ مِنْهُ ، ثُمَّ قَضَاهُ بَعْدَ حِينٍ ، وَكَلَّاهُمَا مُسْتَعَارٌ .

وأما قوله : (قَابُ الدِّلِيلِ بِهِ قَلْبُ الْمُحِبِّ) فمعناه : أن قلب المحب يرجو ويخاف . وكذلك قلب الدليل يرجو الهداية ويخشى الضلالة .

- ٤ -

وقال أيضاً :

(مُحِبِّي قِيَامِي مَا لِذَلِكَ النَّصْلِ سَلِيمًا مِنَ الْجَرْحِ بَرِيئًا مِنَ الْقَتْلِ)
أى : يا محبى ثورتى وقيامى بدولتى ، وتركى للأسفار ، كيف أفعل ذلك ولم أكسِر سيفى ، ولا تَلَمَّته بضربى أعدائى به ، فكفى عن الكسر بالقتل ، وعن التلم بالجرح ، إذ الجرح والقتل إنما يلحتمان الحيوان ، والسيف جمادى لأحياء به . وأراد سليماً من الجرح ، فوضع الجرحى موضع الجرح . وإن شئت قلت كأنه على حذف المضاف ، أى سليماً من ألم الجرحى ، أو من هيئة جرح الجرحى ، وبريئاً وسليماً منصوبان على الحال من قوله : (مَا لِذَلِكَ) : أى استفهم عنه وهو فى هاتين الحالين ، كقوله تعالى : ﴿ فَكَأَنَّهُمَ عَنْ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ .

(أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ فَمَا أَحَدٌ فَوْقَ وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي)
أما (كأن) فلفظة تشبيه ، قال كلام بها هنا على وجهه ، كأنه يقول : لا تقل فى : كأنه الأسد ، ولا كأنه السيف ، ولا كأنه الموت أو السيل ، فكل ذلك إنما هو دونى ، ولا ينبغى أن تشبه الشئ بدونه ، إنما المعتاد عكس ذلك .
وأما (ما) فليست بلفظة تشبيه بمنزلة كأن ، إنما استجازها فى التشبيه ، لأنه وضع الأمر على أن قائلاً قال : ما يشبه ؟ فقال له المسئول : كأنه الأسد ، كأنه السيف . فكان هذه التى للمسئول ، إنما سببها (ما) التى للسائل . فجاء هو بالسبب والمسبب جميعاً ؛ وذلك لاصطحابهما . ومثل هذا كثير .

وقد يجوز أن تكون (ما) هنا بمعنى الجحد ، فجعلها اسماً ، وأدخل الحرف عليها ، كأنه سمع قائلًا يقول : ماهو (إلا) الأسد . وفي هذا معنى التشبيه أى مثل الأسد ، فأبى هو ذلك . ثم رجع إلى النوع الأشرف فقال : (فما أحدٌ فوقى ولا أحدٌ مثلى) مفضلًا نفسه عليهم .

- ٥ -

وله أيضا :

(هَدِيَّةٌ ما رأيتُ مُهْدِيَهَا إِلَّا رأيتُ العِبَادَ فى رَجُلٍ)

أى هذه هدية ، ويجوز هدية على البدل من قوله : (بما بعثت به) . وقوله : ما رأيتُ مُهْدِيَهَا إِلَّا رأيتُ الأنام فى رجل : أى أن فضائل الأنام مجموعة فى شخص واحد منه ، فلا مُعْتَبَر بالعدد ، إذا حاز معانيهم أجمعين وحده ، كقوله أيضا :

غدا الناس مِثْلِيهِمْ له لا عَدِمَتُهُ وَأَصْبَحَ دَهْرِي فى ذَرَاهُ دُهور
ونحو قول بعض الحكماء وقد رَضِيَ تلميذاً له من بعض تلاميذه ، يقال
إن ذلك التلميذ (رَسْطًا لَيْسَ) فقال : واحد كَألف ، وليس ألف كواحد
وقال أبو نواس :

لَيْسَ عَلَى الله بِمُسْتَنْكَرٍ أن يجمع العالم فى واحد

- ٦ -

وله :

(ولا وَقَفْتُ بِجِسْمٍ مُسْنًى ثَالِثَةٍ ذِي أَرْسَمٍ دُرُسٍ فى الأَرْسَمِ الدُّرُسِ)

المُسْنًى ، والمِسَا ، والمَسَاء : واحد ، كالصُّبْح ، والصَّبْح ، والصَّبَاح . أى
لولا هذه الظبية الإنسانية ، لم أقف على رسوم هذه الدار ثلاثاً بين يوم وليلة

أَسْأَلُهَا . وَلَمْ يُرَدَّ أَنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهَا بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ إِقْفَارِهَا ، لِأَنَّ الدَّارَ لَا تَدْرُسُ
بَعْدَ ثَلَاثٍ .

وإِنَّمَا عَنَى أَنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهَا ثَلَاثًا ، وَصَفَتَهُ الْجِسْمَ بِأَنَّهُ ذُو أَرْسَمٍ دُرُسٌ ،
ذَهَبَ فِيهَا إِلَى نَحْوِهِ وَامْحَاثِهِ . وَاسْتَعَارَ لَهُ أَرْسَمًا حِينَ شَبَّهَ بِهِذَا الرَّبْعَ الدَّارِسَ
وَالْأَرْسَمَ ، كَقَوْلِهِ فِي صِفَةِ الدَّارِ :

مَا زَالَ كُلُّ هَزِيمٍ الْوَدْقِ يُنَجِّهَا وَالشُّوقُ يُنَحِّلُنِي حَتَّى حَكَّتْ جَسَدِي
وَهَذَا الْبَيْتُ أَبْلَغُ فِي نَحْوِ جِسْمِهِ ، لِأَنَّهُ جَعَلَ الدَّارَ يَحْكِي جِسْمَهُ فِي النَّحْوِ ،
فَإِذَا جِسْمُهُ أَتَمَلَ مِنْهَا .

وَفِي هَذَا الْبَيْتِ أَعْنَى (وَلَا وَقَفْتُ بِجِسْمِ ..) لَمْ يَجْعَلْ لْجِسْمِهِ فَضْلًا عَلَى
الدَّارِ فِي النَّحْوِ .

وَدُرْسٌ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ دَرِّسٍ وَأَنْ يَكُونَ جَمْعُ دُرُوسٍ ، كَصَبُورٍ
وَصُبْرٍ ، وَأَنْ يَكُونَ جَمْعُ دَارِسٍ كَبَازِلٍ وَبُرُلٍ .

(مَا ضَاقَ قَبْلَكَ خَلْخَالٌ عَلَى رَشَاءٍ وَلَا سَمِعْتُ بِدِيْبَاجٍ عَلَى كُنْسٍ)
يَقُولُ أَنْتَ كَالرَّشَاءِ فِي الْحَسَنِ ، وَسَاقُ الرِّشَاءِ دَقِيقَةٌ ، فَكَيْفَ خَالَفْتَ أَنْتَ
الرِّشَاءَ ، بَأَنَّ ضَاقَ خَلْخَالُكَ عَنْ سَاقِكَ . وَلَوْ أَلْبَسْتَ سَاقَ الرِّشَاءِ خَلْخَالًا ، جَالٍ
عَلَيْهَا وَلَمْ يَثْبُتْ .

(وَلَا سَمِعْتُ بِدِيْبَاجٍ عَلَى كُنْسٍ) : أَيُّ عَلَى هَوْدَجِكَ سَتُورٍ دِيْبَاجٍ . وَلَمْ
نَسْمَعْ قَبْلُ بِدِيْبَاجٍ عَلَى كِنَاسٍ . إِنَّمَا الْكِنَاسُ غُصُونُ أَوْ أَسْوَقُ شَجَرٍ أَوْ تَحَافِرِ
أَرْضٍ . وَأَنْتَ قَدْ خَرَقْتَ الْمَعْتَادَ ، بِكَوْنِ الدِّيْبَاجِ عَلَى كِنَاسِكَ . وَمَنْ رَوَاهُ عَلَى
كُنْسٍ ، أَرَادَ عَلَى ذِي كِنَاسٍ . وَهَذَا عَلَى النَّسَبِ ، إِذْ لَا فِعْلَ لَهُ . وَنَظِيرُهُ
مَا حَكَاهُ سَيَبَوِيهٌ : جَرِحٌ ، وَسَتِيهٌ ، وَطَعِمٌ وَنَهْرٌ ، وَأَنْشَدَ :
« لَسْتُ بِلَيْلٍ وَلَكِنِّي نَهْرٌ » أَيُّ : ذُو نَهَارٍ .

فأما قراءة من قرأ ﴿ في أيام نَحِسَاتٍ ﴾ ، فذهب الفارسي إلى أنه من باب
فَرَقٍ ونَرَقٍ ، توهموه على الفعل وإن لم يكن له فعل ، لم يقولوا نَحِسَ
النهار .

وهذا الذي قاله الفارسي غير قوي عندي ، أحسن منه أن يُحمل على
النسب ، لأن نظيره كثير ، كما قد حكينا عن سيبويه ، وتوهم الفعل في مثل
نَحِسَ قليل في كلامهم .

- ٧ -

وله أيضا :

(فَجَعَلْتُ مَا تُهْدِي إِلَيَّ هَدِيَّةً مِنيَّ إِلَيْكَ وَظَرَفَهَا التَّأْمِيلُ)
يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أَرَادَ : لَمَّا جَلَّ قَدْرُكَ عَمَّا تَنَالَهُ يَدِي وَلَمْ تَبَالِغْ
إِلَهِةَ يَدِكَ الَّتِي هِيَ كِفَاؤُهُ ، جَعَلْتُ مَا تُهْدِيهِ إِلَيَّ ، هَدِيَّةً مِنِّي إِلَيْكَ ، فَمَا يَعْدِلُ
جَلَالَه قَدْرُكَ إِلَّا جَلَالَةُ جُودِكَ ، وَجَعَلْتُ ظَرْفَهَا تَأْمِيلِي أَنْ تَقْبَلَهَا مِنِّي .
وَالْآخَرُ : أَنْ يَكُونَ اسْتَحْقَاقُهُ قَالًا : مَا عَلِمْتُ أَنَّ (مَا) تَتَحَفَّنِي بِهِ
أَوْ تَزَوِّدُنِيهِ لِرَحَلَتِي ، سَبِيلُكَ أَنْ تُمْسِكَ عَنِّي وَلَا تُطْلِقَنِي ، وَأَنْ تَعُدَّهُ هَدِيَّةً مِنِّي
إِلَيْكَ ، بِإِمْسَاكَكَ عَنِ إِهْدَائِكَ إِيَّايَ .

- ٨ -

وله أيضا :

(أَمْطَرُ عَلَى سَحَابٍ جُودِكَ ثَرَّةً وَانْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لَا أُغْرِقُ)
أَيُّ إِنْ عَطَاكَ جَاوَزَ الْقَدَارَ ، فَكَأَدَ يَقْتُلُ الْمُعْطَى فَرْحًا ، فَتَلَاَفَ عُقَاتُكَ
مِنْهُ ، لِثَلَاِ يَبَاغِ بِهِمُ الْيَحْسَدُ الْمَهْلِكُ ، فَيَكُونُ كَالْمَاءِ الْمُفْرَقِ ، كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :
تَسْتَشِيرُ الْقَلْبَ لَوْلَا اتِّصَالُهَا بِحَسَنِ دِفَاعِ اللَّهِ وَصُورِ سَائِهِ

وقد يجوز أن يكون قوله : (انظر إلى بِرَحمة) أى لانكلفتى من الشكر
 قدر الواجب فيهلكنى ذلك ، فكنى عن ضعفه عن الواجب عليه من الشكر
 بالفرق . وقال ثروة وهو يعنى السحاب لأن السحاب جمع سحابة ، وكل جمع
 ليس بينه وبين واحده إلا الهاء ، فلك تأنيثه وتذكيره ، وجمعه وإفراده .

- ٩ -

وله أيضا :

(وَقَلْبُكَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ دَخَلْتَ بِنَاً وبِالْجَنِّ فِيهِمَا دَرَّتْ كَيْفَ تَرْجِعُ)
 يتعجب من ذلك . أى قلبك فى الدنيا ، وهو من السعة بحيث لو دخلت
 الدنيا فيه بنا وبالجن ، أعجزنا الرجوع ، وتُهنأ فى سعته ، فكيف وسعت
 الدنيا قلبك ؟ وهلاً ضاقت عن حملة ، لا فرها عن عظمه . يبيئنه ما قبله ،
 وهو قوله :

أَلَيْسَ عَجَبًا أَنْ وَصَفَكَ مُعْجَزِي وَأَنْ ظَنُّونِي فِي مَعَالِكَ تَظَلَعُ
 وَأَنَّكَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرِكَ فِيكُمَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ الْأَرْضِ أَوْسَعُ

- ١٠ -

وله أيضا :

(طَوِيلُ النِّجَادِ طَوِيلُ الْعِمَادِ طَوِيلُ الْقَنَاءِ طَوِيلُ السَّنَنِ)
 النجاد : حماله السيف ، فطوله كناية عن طول القامة ، وذلك مما يمدح
 به كقوله هو :

قُلُوبُهُمْ فِي مِضَاءٍ مَا امْتَشَقُوا أَبْدَانُهُمْ فِي تَمَامٍ مَا اعْتَمَلُوا
 وكقوله :

وَعَالَ فَضُولُ الدَّرْعِ مِنْ جَنَبَاتِهَا عَلَى بَدَنِ قَدْ الْقَنَاءِ لَهُ قَدْ

وطولُ العِمَادِ : كنايةٌ عن السُّؤْدُودِ ، وأصلُ العِمَادِ : ما عُمِدَ به البيت ،
أى أُقِيمَ . يقال : عَمَدَتِ البيتَ وعَمَدَتْهُ ، وعِمَادُ سَيْدِ الحِلَّةِ : مَرْمُوقٌ يُقَصَّدُ ،
فكَانَ عِمَادَهُ ، وإن سَارَى عُمُدَ أهلِ الحِلَّةِ ، أطولُ بكثرةِ الشَّاعِمينَ له ،
والقاصدينَ نحوه . وطولُ القَنَاةِ والسَّنَانِ : كنايةٌ عن الحِذْقِ بالطَّعَانِ . ولهذا
وصفتِ العربُ أرمَاجَها بالطولِ ، يريدونَ جودةَ العملِ بها ، والقوةَ على
تصريفِها ، لا أنَّها طَوَالٌ في ذاتِها ، لأنَّ طولَها مُبَعَّدٌ عن القِرْنِ ، ولا يَحْمَدُ
ذلكَ إلا الجَبَانُ . ولو كانَ طولُ القَنَاةِ في ذاتِها مَحْمُوداً ، لكانَ السيفُ لكونه
أَقْصَرَ منها .. مَذْمُوماً . وإنما صفةُ القَنَاةِ بالطولِ ، كصفةِ السيفِ بالطولِ .
لا يريدونَ في كلِّ ذلكَ إلا الحِذْقَ بالضَّرَابِ والطَّعَانِ .

ومما يَدُلُّكَ على أنَّ طولَ القَنَاةِ غيرُ مَحْمُودٍ ، أنَّ طولَ القَنَاةِ قد يُورِثُهَا الخَطْلُ .
قال الأَصْمَعِيُّ : طولُ القَنَاةِ أربعُ عَشْرَةَ وأَقْصَرُها سَبْعٌ والممدوحُ بينهما ،
وهو ما كانَ طوله إحدى عَشْرَةَ كقولِ الشاعر :

وَأَسْرَرَ خَطِيئًا كَأَنَّ كُؤُوبَهُ ثَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرَبَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ

وكذلك قال البَحرِيُّ :

كالرَّمَحِ أَذْرَعُهُ عَشْرٌ وَوَاحِدَةٌ فَمَا اسْتَبَدَّ بِهِ طَوْلٌ وَلَا قِصَرٌ
(يَرَى حَدَّةَ غَامِضَاتِ الْقُلُوبِ إِذَا كُنْتُ فِي هَبْوَةٍ لَا أَرَانِي)

أى أَنَّهُ ماضٍ يَقْطَعُ كلَّ عَضْوٍ يَلْقَاهُ ، حتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى القَلْبِ ، فَكَانَهُ إِنَّمَا
قَطَعَ مَادُونِ القَلْبِ مِنَ الأَعْضَاءِ حِينَ رَأَى القَلْبَ ، فَهَتَكَ إِلَيْهِ الحُجُبَ الَّتِي
دُونَهُ ، إِذْ لَمْ يُمْكِنْهُ الوُصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا بِاخْتِرَاقِهَا الهَبْوَةِ ، وَأَرَانِي هُنَا : مِنْ رُؤْيَا
الْعَيْنِ ، لِأَنَّهَا غَيْرُ مُتَعَدِّيَةٍ ، فَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَا أَرَى نَفْسِي ، لِأَنَّ فِعْلَ
الْفَاعِلِ إِذَا كَانَ حَسِيًّا ، لَمْ يَتَعَدَّ إِلَى ذَاتِهِ بِكِنَايَةِ الْمُتَكَلِّمِ . لَا يَجُوزُ ضَرْبُ بَنِي ،

وإنما يتعدى فعل الفاعل إذا كان حسيًّا إلى ذاته بلفظ النفس . يقولون : ضربت نفسي وفي التزويل ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْهُمْ فَقَدْ تُنِي وَعَدَمُتُنِي ، وهذا نادر غير معمول به .

لكن لما كانت أرى التي هي للعين مطابقة اللفظ لأرى التي هي للقلب ، تتعدى على هذه الصورة ، لأنها غير حسية ، كقولهم : أراني ذاهبًا . استجاز أن يُجْرَى (أرى) التي للعين مجراها .

وعلى هذا أوجه أنا ما حكاه سيبويه من قول العرب : أما ترى أي برق هاهنا ؟ فُعِلَّتْ فيه أرى . ورؤية العين لا تُعَلَّقُ وإنما تعلق رؤية القلب ، ورؤية القلب بصرية لا نفسانية . لكنها لما طابقت في اللفظ (ترى) التي هي للقلب ، وكانت هذه تعلق استجازوا تعلق التي للعين . على أن الفارسي قد ذهب في هذا الذي حكاه سيبويه إلى أنها رؤية قلب .

- ١١ -

وله أيضا :

(رَمَانِي خِسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ اسْتِهِ وَآخِرُ قَطْنٍ مِنْ يَدِيهِ الْجَنَادِلُ)

يذهب إلى أن عدوه ضد له . هُوَ جَمُّ الفضائل ، وعدوه جَمُّ النقائص والردائل ، ولذلك وقع بينهما التنافر ، لأن الضدَّ مُحَارِبٌ لخصه ، والشكل مُسَالِمٌ لِشكله فهو يقول : لا يعاديني إلا ناقصٌ لجرى العادة بمعادة ذي النقص لدى الفضل . فإذا عابني — والإجماع قد وقع على فضلي — فهو لا محالة ناقص . وقد صرح عن ذلك بقوله في الأخرى :

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كاملٌ
أي أنه لو كان فاضلاً مثلي ، ماذمتني لتشاكنا في الفضل ، ولأنه لو كان

فَاضِلًا لِنَقْصٍ وَفَضَّلَتْ . فَأَوْجِبْ ذَلِكَ تَضَادًّا وَتَعَادِيًّا كَقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :
لَقَدْ آسَفَ الْأَعْدَاءُ مَجْدُ ابْنِ يَوْسُفَ . وَذُو النِّقْصِ فِي الدُّنْيَا بَذَى الْفَضْلِ مُوَلِّعُ
وَقَوْلِهِ : (مِنْ صَائِبِ اسْتِهِ ، وَآخِرَ قُطْنِ) : أَرَادَ مِنْ بَيْنِ صَائِبٍ يَرْمِيهِ ،
وَأَخْرَجَ هَذِهِ صِفَتَهُ ، أَيْ أَنَّهُ ضَعِيفٌ يُعَدِّي ضَعْفَهُ الْجَعْدَلُ فَيَضْمَعُ ، حَتَّى لَا يُؤْثِرَ
كَأَنَّهُ لَا يُؤْثِرُ الْقُطْنَ إِذَا رُمِيَ بِهِ .

وَصَائِبُ اسْتِهِ : أَيْ مُصِيبُهَا . يُقَالُ : صَابَ الشَّيْءُ وَأَصَابَهُ .

وَخَصَّ ذَكَرَ اسْتِهِ مِنْ بَيْنِ مَائِرِ الْأَعْضَاءِ لَوَجْهِينِ :

أَحَدُهُمَا : قَصْدُ الْاسْتِخْفَافِ بِهِ فِي ذِكْرِ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَالْآخَرُ أَنَّ هَذَا النِّاقِصَ
الْمُتَنَقِّصَ لِي مُغْلُوبٌ مَهْزُومٌ . وَالْمَهْزُومُ لَا يَقَعُ سِلَاحُهُ إِلَّا عَلَى مَا يَلِي ظَهْرَهُ ، فَخَصَّ
هَذَا الْعَضْوُ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا .

وَالْأَجُودُ عِنْدِي أَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ الْاسْتِخْفَافَ ، وَالشَّمَّ ، وَالسَّبَّ بِذَلِكَ
كَثِيرٌ . وَلِذَلِكَ سَمِيَتِ السَّبُّةُ وَالسَّبُّ .

وَأَصْلُ النَّاسِ : الْأَنَاسُ ، حَذَفُوا الْهَمْزَةَ لِكَثْرَةِ اسْتِمَالِهِمْ إِيَّاهُ ، وَذَلِكَ مَعَ
الْلَامِ ، وَقَدْ جَاءَ مُحَذَوْفًا وَلَا لَامَ فِيهَا ، كَمَا جَاءَتِ الْهَمْزَةُ فِيهِ مَعَ اللَّامِ فِيمَا أَنْشَدَهُ
أَبُو عَثْمَانَ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الْمَنَايَا يَطْلِعْنَ عَلَى الْأَنَاسِ الْآمِنِينَ

وَلَمَّا ذَكَرَ سَيْبُويهَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَوْنَ الْأَلْفِ وَاللَّامِ فِيهِ خَلْفًا مِنْ
الْهَمْزَةِ قَالَ : وَمِثْلُ ذَلِكَ . أَنَاسٌ : فَإِذَا أُدْخِلَتِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ قَلَّتِ النَّاسُ . إِلَّا
أَنَّ النَّاسَ قَدْ تَفَارَقَ : الْأَلْفُ وَاللَّامُ وَيَكُونُ نَكْرَةً . وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَكُونُ
فِيهِ ذَلِكَ ، وَهُوَ فَصْلٌ مَعْرُوفٌ فِي بَابِ مَا يَنْتَسِبُ عَلَى الْمَدْحِ وَالْتَعْظِيمِ وَالشَّمِّ
فِي بَابِ النِّدَاءِ .

وقوله : (وَآخَرَ قُطْن) الجيد في قُطْن الرُفْعُ ، لأنه جوهراً والجوهر لا يوصف به . إلا أن الجرّ في مثل هذا قد يَسُوغُ ، وذلك على توهم الصفة ، يُقدر الجوهر صفة بقدر ما يحتمله وضعه ، نحو ما حكاه سيبويه عن العرب من قولهم : مررتُ بسرجٍ خَزَّ صَفْتُهُ ، لأن الخَزَّ وإن كان جوهراً فهو في معنى كَيْنٍ صفة . قال : ومن العرب من يقول : (مررت بقاع عَرَفَجٍ كله) . فيجعلونه كأنه وصف . قال الفارسي : كأنهم يقولون : مررت بقاع خشن كله . وإنما قدّره بِخَشْنٍ ، لأن العرفج شاك ، والشوكُ خَشْنُ المس . فإذا جرّ فقال : (وَآخِرَ قُطْنٍ من يديه الجنادل) فكأنه قال : وآخر لين أَوْ ضَعِيفٍ من يديه الجنادل .

(ومن جاهلٍ بي وهو يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عَلَيَّ أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ)
(وَيَجْهَلُ أَنِّي مَالِكُ الْأَرْضِ مُسِيرٌ وَأَنِّي عَلَى ظَهْرِ السَّمَاكِينِ رَاجِلٌ)
ومن جاهل : معطوف على (صائب استه) . أي أنه قد اشتمل بالجهل وَلَا يَعْلَمُ أنه جاهل ، بالغ في استجهاله ، فلم يُبق له أثراً من العلم ، إذ لو علم أَنَّهُ جاهلٌ لَكَانَ له جزء من العلم .

وكذلك أيضاً بالغ في استجهاله بقوله :

* وَيَجْهَلُ عَلَيَّ أَنَّهُ بِي جَاهِلٌ *

يقول : لا علم له بالبتة ، وكذلك يجهل قدرى عند نفسي ، فلا يعلم أنني إذا ملكت الأرض ، كنتُ مُعِدِّماً عند نفسي ، لقصور ذلك عن قدرى ، وأني إذا علوتُ السماكين ، كنت عند نفسي راجلاً ، لأنّ ذَاتِي أعظم قدراً وأكرم خطراً . و (مَالِكُ الْأَرْضِ) : حال ، والنية فيه الانفصال ، أي مالِكاً للأرض . والظرف في قوله : (على ظهر السماكين) متعلق بمحذوف أي مستقراً على ظهر السماكين ، وهو حال ، فالجورور في موضع الحال ، وأراد

على (ظهور السماكين) ، أو (ظهري السماكين) فوضع الواحد موضع ذلك . ومثله كثير ، وحسن ذلك أن السماكين يذكران كثيراً معاً ، فصارا كالواحد .

(فما وَرَدَتْ رُوحَ امرئٍ رُوحُهُ لَهُ ولا صَدَرَتْ عَنْ بَاحِلٍ وَهُوَ بَاحِلٌ)
أى لم تَرِدْ سُيُوفُنَا رُوحَ امرئٍ إلا صار غيره ، إما بكونه إلى العنصر وإما لغيره على المذهب الذى ليس بحميد . ولا وردت باخلاً بماله وذاته ، قَدَّرَ أَنْ يَبْخُلَ عَلَيْهَا بِهِمَا ، أو بواحدة منهما .

(يُخَيِّلُ لِي أَنَّ الْبِلَادَ مَسَامِيى وَأَنْتَى فِيهَا مَا تَقُولُ الْعَوَازِلُ)
خَيَّلَ لَهُ الشَّيْءَ وَخَيَّلَ إِلَيْهِ : أَى شَبَّهَ حَتَّى حَسَبَهُ كَاثِناً ، يقول : قولُ الْعَوَازِلِ لَا يَثْبُتُ فِي سَمْعِي ، كَمَا لَا أَثْبُتُ أَنَا فِي بَلَدٍ . أَرَادَ : وَأَنْتَى فِيهَا مَا يَقُولُ لِي الْعَوَازِلُ ، مِنَ النَّهْيِ لِي عَنِ التَّقَرُّبِ وَضُرُوبِ التَّصَرُّفِ ، كَقَوْلِهِ :
أَوَانَا فِي بِيوتِ الْبَدْوِ رَحَلِي وَأَوْنَةُ عَلَى قَدِّ الْبَعِيرِ
ومثلُ هذا كثير في شعره .

- ١٢ -

وله ايضا :

(ابْعَدْ بَعِدَتْ بِيَاضًا لَا بِيَاضَ لَهُ لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ)
(ابْعَدْ : أَى أَهْلَكَ . بَعِدَ الشَّيْءُ بَعْدًا : هَلَكَ ، وَبُعِدَ بُعْدًا : ضِدَّ قَرُبٍ .
ودعاؤه عليه بالبُعد : أَبَاحَ مِنْ دَعَائِهِ عَلَيْهِ بِالْبُعدِ ، لِأَنَّهُ إِذَا هَلَكَ فَقَدْ صَارَ إِلَى الْعَدَمِ ، وَإِذَا (بُعِدَ) كَانَ فِي الْوُجُودِ وَإِنْ لَمْ يُقَرَّبَ . وَالْبُعدُ أَنْحَى لَهُ مِنَ الْبُعدِ . وَقَوْلُهُ (بِيَاضًا لَا بِيَاضَ لَهُ) : أَى لَا بِيَاضَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَلَا يَحْدُثُ عَنْهُ بَشَرٌ وَلَا فَرَحٌ .

والعربُ تَصِفُ الحُزْنَ بالسَّوَادِ ، والسُّرُورَ بالبَيَاضِ . وهو معنى
وله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ . وقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ وأراد : (ابتعدَ بَعِدَتْ ذَا بَيَاضٍ) ، لأنه إنما
يخاطب الشعر الأبيض ، لا العَرَضُ الذي هو البَيَاضُ . (لأنْتَ أسود في عيني
من الظلم) أيها الشيب .

فأما قوله : (أسودُّ في عيني من الظلم) ، فخطأه فيه قوم . قالوا : إن
(فَعَلَ) (أَفْعَلَ) ، هذا على أكثر من ثلاثة أحرف ، وهو (اسودَّ)
فلا تقع المفاضلة فيه إلا بأشَدَّ وَأُبَيِّنَ وغيرهما من الأفعال الثلاثية ، التي تصاغ
نُيُوصَلُ بها إلى التعجب من الأفعال التي على أكثر من ثلاثة .

وهذا منهم غلط . ليست (أفعل) هنا للمفاضلة ، ولا (مِنْ) متعلِّق
بأسود ، على حد تعلُّق (مِنْ) بأفضل في قولك : زيد أفضل من عمرو . وإنما
هو كقولك لأنْتَ أسود ، معدود من الظلم في عيني . (كَمِنْ) غير متعلقة
بأسود ، كتعلُّق (مِنْ) بأفعل التي للمفاضلة ، وإنما هي في موضع رفع ، حالة
محل الظرف ، بمنزاتها في قول الأعشى :

فلست بالأكثر منهم حصيً وإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَائِرِ

فلا يجوز أن تكون (مِنْ) متعلقةً بالأكثر ، لأن اللام تُعاقِبُ
مِنْ وإِنَّمَا هي هنا بمنزلة الظرف . ولذلك جعل القارمي (مِنْ) هنا بمنزلة ساعة
في قول أوس بن حبر :

فإِنَّا رَأَيْنَا الْعَرْضَ أَخْوَجَ سَاعَةً إِلَى الصَّوْنِ مِنْ رِبْطِ يَمَانٍ مُسَهَّمٍ
(بِحُبِّ قَاتِلَتِي وَالشَّيْبِ تَغْذِيَّتِي هَوَايَ طِفْلاً وَشَيْبِي بَالِغَ الْحُلُمِ)

..
أَيَّ عَذَيْتُ نَفْسِي بِحُبِّ هَذِهِ الَّتِي قَتَلَنِي حُبُّهَا بِالشَّيْبِ . فأما تغذيتي نفسي
بالحب في حال طفولتي ، وأما في الشَّيْبِ ، ففي حال بلوغِي الحُلُم ، أَي هَوَيْتُ
وأنا طفل ، وشَبِيتُ من ذلك الحب وأنا مُحْتَلِمٌ ، فجَعَلَ الحُبَّ والشَّيْبَ لنفسه
غذاءين وهما مُهْلِكَانِ لِمُتَمَتِّعِيَانِ . والياء في تغذيتي تكون في موضع الفاعل ،
فيكون المفعول حينئذ محذوفاً ، أَي تغذيتي نفسي ، كما تقول : عَجِبْتُ من
ضرب زيدٍ عمراً . ويجوز أن تكون في موضع المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله ، أَي
عُذِّيتُ . وهَوَايَ : يجوز أن يكون مبتدأً وخبره الحال الذي هو طفلٌ
كقولك : أَكْثَرُ شُرْبِي السُّوْبِقَ مَلْتَوْتَا . والقول في شَيْبِي وبَالِغِ الحِلْمِ ،
كالقول في هَوَايَ طِفْلاً . وكأنه قال : بَالِغاً الحِلْمِ .

ويجوز أن يكون هَوَايَ في موضع جر على البدل من حُبِّي ، وشَيْبِي حينئذ
في موضع جرٍّ معطوفٍ على هَوَايَ . والأول أقوى .

(شَيْخٌ يَرَى الصَّلَاةَ الْخَمْسَ نَافِلَةً وَيَسْتَحِلُّ دَمَ الْحِجَّاجِ فِي الْحَرَمِ)
يعني بالشيخ هنا : المَجْرَبُ إِذْ لَا تَكُونُ التَّجَرُّبَةُ لغير ذَوِي السِّنِّ
والخُنْكَةَ ، كقول الرياحي :

أَخُو خَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أَشَدِّي وَنَجَدَنِي مُدَاوِرَةُ الشُّنُونِ
في كلامهم : ابن خمسين : لَيْثٌ عَفْرَيْنٌ ، وقد قال هو في موضع آخر :
(سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَايِخَ كَأَنَّهُمْ مِنْ طَوْلِ مَا التَّمُّوا مُرْدُ)

مشايخ : جمعُ مَشِيخَةٍ وَمَشِيوْخَاءٍ على حذف الزائد . (يَرَى الصَّلَاةَ
الْخَمْسَ نَافِلَةً) : أَي أَنَّهُ لَا يَعْنِي بِمَفْرُوضَاتِ الدِّينِ ، وَلَا تَمْنَعُهُ مِمَّا يَشَاءُ إِذَا أَمَكَنَهُ
مَاطِلُهُ . وَيَسْتَحِلُّ دَمَ الْحِجَّاجِ فِي الْحَرَمِ : أَي أَنَّهُ مَبَالِغٌ فِي الْمِضَاءِ وَالنَّفَازِ ، حَتَّى
لَا يَرُدُّهُ التَّحَرُّجُ الَّذِي يُوْجِبُهُ الدِّينُ فَضْلاً عَمَّا سِوَاهُ . وَيَرَى هَاهُنَا : مِنْ رُؤْيَا

القلب ، لأن الصلاة فعل عَرَضِي ليس بجوهر محسوس ، فتكون حاسة البصر واقعة عليه . وفي الحَرَم تميم بديع .

(وَرَبَّ مَالٍ فَقِيرًا مِنْ مَّرْوَتِهِ لَمْ يُثَرِّمْهَا كَمَا أَثَرِي مِنَ الْعَدَمِ)
أى أن اللثيم الغنى يمنع نفسه حظها ، والفقر السَّمَح إذا وجد أعطاهما حظها ، فالفقر مع السماحة أجدى على صاحبه من الغنى مع اللؤم ، كقول حسان بن حنظلة :

إِنَّا لَعَمْرُ أَيْبِكَ يَحْمَدُ ضَيْفُنَا وَيَسُودُ مُغْتَرِبًا عَلَى الْإِقْلَالِ
وتقدير البيت : لم يثر هذا اللثيم الغنى من غناه ، كما أثرى هذا الفقير السَّمَح من العدم .

وقد يجوز أن يعنى أن ثروة هذا اللثيم الغنى من الفقر ، أكثر من ثروته من الغنى ، أى أن حالة المدمم أظهر عليه من حالة الغنى .
فأما قوله :

(يَجْنِي الْغِنَى لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ)
فمعناه المبالغة . أى أنهم يمنعون أنفسهم حظها في حال الغنى ، فلا يقدرُونَ بل يذمُونَ بظهور حال الفقر عليهم ، وإن كانوا أغنياء . وأما إذا ظهرت عليهم حال العدم وهم معدمون ، فلا ذم عليهم ، بل هذرهم في ذلك بين .

— ١٣ —

وله أيضا :

(حَاشَى الرَّقِيبَ فِخْائَتَهُ ضَمَائِرُهُ وَغِيْضَ الدَّمْعِ فَانْهَلَتْ بِوَادِرِهِ)
يريد : استثنى الرقيب ، وأخرجه مما كان يعرف سره ، لأنه كان في أول أمره يبوح بسرّه إلى بعض إخوانه ، ويخفى ذلك عن الرقيب . فلما تمادى

ذلك به أفرط عليه ، إلى أن بخل وبكى ، وذَلَّ وشكا ، فعلم الرقيب ذلك منه .
(غاب الأمير فغاب أخيرُ عن بلدٍ كادتُ لفقدِ اسمه تبكى منابرُه)

كان هذا الأمير المجهول مخطوباً له بمحص أيام ولايته إياها ، فأزيل عنها
فانقطع الاختطاب باسمه على منابر هذه المدينة ، فحنت المنابر وبكت لذلك .

(قد اشتكت وحشة الأحياء أربعةً وخبرت عن أمي الموتى مقابرُه)

الماء في مقابرُه : للبلد ذاك ، كما كانت في المنابر له . أى توحش إليه
الأحياء ، وهذا ممكن ، والأموات ، وهذا غير ممكن ، لكنه بالغ بالموتى ،
وأفرط بقوله : إنَّ المقابرُ تُخبرُ عن أمي الموتى ، فالنصف الثانى أغلى من
الأول ، لأن الأحياء يتوحشون ، وإن كان فيه غلوٌ أيضاً لإسناده الشكوى إلى
الأربع فيه . وكان الأربع إنما اشتكت رقةً لما تراه من توحش أهلها ،
وبعداً بذلك .

وإن شئت قلت : خلّيت الأربع بعد الأمير من سكانها ، فتشكت
توحشها إلى الأحياء (وهذا) أولى ، لتطابق إسناد الأسى إلى الموتى .

(نَحْمَى السُّيُوفُ عَلَى أَعْدَائِهِ مَعَهُ كَأَنَّهُمْ بَنُوهُ أَوْ عَشَائِرُهُ)

أى إن السيوف تحمى على أعدائه معه ، تعصباً له وحباً ، حتى كأن السيوف
من مظاهرتها ونصرها له ، وتبليغها إياه ما شاء من عدوه ، بنون له أو عشائر .
قال أبو الفتح : وهذا أبلغ من قول أبى تمام :

كأنما هي فى الأوداج والغة وفى الكلى تجد الغيظ الذى تجد

لأن أبا الطيب قد جعل السيوف بنين له وعشائر . وإذا كانت المناسبة
استحكمت العصبية ، وازدادت الأنفس حمية ، وأبو تمام لم ينطُ يته بشيء من
معنى المناسبة .

(إِذَا انْتَضَاهَا لِحَرْبٍ لَمْ تَدْعُ جَسَدًا إِلَّا وَبَاطِنُهُ لِلْعَيْنِ ظَاهِرُهُ)
انتضاها : جرّدها . أى إن الدم الذى هو باطن الجسد يفيض فيصير
ظاهراً . وقيل تقطع الأشلاء وتقدّ الجلد ، فيظهر من الجسم ما كان باطنا .

- ١٤ -

وله أيضا :

(وَمِنْ جَسَدِي لَمْ يَتْرِكِ السُّقْمُ شَعْرَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا وَفِيهَا لَهُ فِعْلُ)
أى أن السُّقْمَ نال كل طائفة من طوائف جَسَدِي : اللَّحْمُ وَالْعَصَبُ
وَالْعَظْمُ ، فَأَنَحَلَهُ وَبَرَاهُ ، حَتَّى الشَّعْرَ الَّذِي هُوَ أَرْقُ طَوَائِفِ جَسْمِي ، فَإِنَّهُ أَثَرٌ
فِيهِ بِالشَّيْبِ . وَالشَّيْبُ سَقَمٌ ، لِأَنَّهُ مُشْعِرٌ بِفَنَاءٍ ، كَمَا أَنَّ السُّقْمَ كَذَلِكَ .
ولذلك قال بعض الشعراء في صفة الشيب :

هُوَ السُّقْمُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مَوْْلٍ وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الشَّيْبِ سُقْمًا بِلَا أَلَمٍ
وقد يجوز أن يعنى أَنَّهُ قَذَفَ فِي أَصْفَرِ طَوَائِفِ جَسْمِي ، وَهُوَ الشَّعْرُ ،
بهذه النَّازِلَةُ الْعَظِيمَةُ الشَّنِيعَةُ ، وَهُوَ الشَّيْبُ فَتَبَسَّ عَلَى سَائِرِ الْجَسْمِ بِمِثْلِ هَذَا
الْقِيَاسِ ، كَمَا يُسْتَدَلُّ بِالأَصْفَرِ عَلَى الأَعْظَمِ ، وَبِالأَقْلِ عَلَى الأَكْثَرِ ، أَيْ إِذَا كَانَ
فَعْلُهُ فِي الشَّعْرِ هَذَا ، فَمَا ظَنُّكَ بِاللَّحْمِ ، وَمَا يَحْمَاهُ مِنَ الْعَصَبِ وَالْعَظْمِ ؟

(هُمَامٌ إِذَا مَا فَارَقَ الْغَمَدَ سَيِّغُهُ وَعَايَدَتَهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا النَّصْلُ)
أى أن مضاءه كمضاء السيف ، وبشره وبشاشته كفرنده وصمالة ، فانت
تشك فيهما حتى لاتميز أحدهما من صاحبه . وهذا كقول أبي تمام :

* مُنْصَلَّتَا كَالسِّيفِ عِنْدَ سَلَةٍ *

وقال رؤبة : * كَأَنِّي سِيفٌ بِهَا إِضْلَيْتُ *

ونحوه عندي قوله هو أيضاً :

* كَفَرَنْدِي فِرَنْدُ سِيفِي الْجَرَازِ *

أى كبشرى عند القتال وبشاشتى وفرحى بتأثيرى فى أقرانى ، فرند سىنى
هذا الجُرَازُ : القاطِع ، وذهب قوم إلى أنه عَنَى بفرنده نفسه : سهومه
وتغيره من السفر والجِدِّ والتعب . فكنى عن ذلك السُّهام بالفرند ، لدلالته
على شرف الهمة ورفعة النفس ، وإنما الصحيح الأول كقوله فى موضع آخر:
أرى من فرندى قطعةً من فرنده

وَجُودَةٌ ضَرَبِ الْهَامِ فى جُودَةِ الصَّقْلِ
إذا قيل حِلْمًا قال لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الْفَتَى فى غير مَوْضِعِهِ جَهْلٌ
أى طلبُ الرفق فى موضع النِّزال خديعة لا يخلد إليها أريب ، كقوله :
يناشدنى حاميمٌ والرمح شاجرٌ فهلا تلا حاميم قبل التقدم
وإنما يروم بذلك قِرْنَهُ منه التماسَ نَهْزَةٍ أو حَذْبًا إلى كشف شدة
عن نفسه .

(ولولا تَوَلَّى نَفْسِهِ حَمَلَ حِلْمَهُ عَنِ الْأَرْضِ لَانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا الْحِمْلُ)
الحِمْلُ : المصدر ، والحِمْلُ : الاسم . وناء بها : أثقلها ، وفى التنزيل
(مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) . ولا يقال (نَاءَ) إلا فى حد الإِتِّبَاعِ
لِسَاءٍ ، يقال : (له عندى ما سَاءَ وناء) ، وقد يكون مع الإِتِّبَاعِ صيغ لا توجد
فى حد الأفراد ، كقولهم هَنَاءُ ومَرَأَةٌ ، فإذا أفردوه قالوا أَمْرَأَةٌ . وقالوا :
إِنِّى لَأَتِيهِ بِالْغَدَايَا وَالْعَشَايَا ، والغداة لا تجمع على غَدَايَا ، لأن (فُلَّةً)
لَا تُكْسَرُ عَلَى فَعَائِلٍ . لكنهم تجوزوه لما قرنوه بالعشايَا ، ولا عليك اتِّبَاعُ
الثانى الأول ، أم صيغ الأول على حكم الثانى ، لأن مذهب العرب فى ذلك ،
أن تصوغ الكلام من وجه واحد طلباً للمشاكلة .

ومعنى البيت : أن حمله رَزِينٌ فلو لم يتوَلَّى حَمْلَهُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، ووكل

الأرض بحمله ، أثقلها فأنهدت . وإنما يوصف الحلم بالرزانة لما يتبعه من
الوقار ، كقول الآخر :

أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتزيد جاهلنا على الجهال
وقد قال هو أيضاً :

وبقيات حلمه عافت النا من فصارت ركابةً في الجبال
(وَحَالَتْ عَطَايَا كَفِّهِ دُونَ وَعْدِهِ فَلَيْسَ لَهُ إِجْجَازٌ وَعْدٍ وَلَا مَطْلٌ)

أى أن عطاياه بلا عِدَّة . والإنجاز والمطل : عَرْضَانِ أو خاصَتَانِ للوعد .
فوجودهما بوجوده ، فإذا ارتفع الوعد ارتفعت خاصته اللتان هما الإنجاز والمطل ،
وكذلك كل خاص ومخصوص ، إذا انتفى المخصوص انتفت الخاصة ، كالضعف
وقبول العلم والأدب اللذين هما خاصتا نوع الإنسان . فإذا انتفى الإنسان انتفت
هاتان الخاصتان .

وإنما مثلتُ الوعد بالإنسان ، وإن كان الوعد عَرْضاً ، والإنسان جَوْهراً
تَقْرِيباً وَتَثْبِيْثاً . فلا تظن بنا غير ذلك ، ولو وثقنا بهم بنى الزمان ، اغنيانا عن
إطالة البيان .

(كَفَى ثَمَلًا فُخْرًا بِأَنْكَ مِنْهُمْ وَدَهْرٌ لَّأَنْ أُمْسِيَتْ مِنْ أَهْلِهِ أَهْلٌ)

أى ودهرٌ يكونك من أهله . أى دهر مستحق لذلك . وَرَفَعَهُ بِفَعْلٍ مُضْمَرٍ
أى وليفخر دهرٌ ، وَحَسُنَ هَذَا الْإِضْمَارُ ، لَأَنْ قَوْلُهُ : (كَفَى ثَمَلًا فُخْرًا بِأَنْكَ
مِنْهُمْ) فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ : لَتَفْخَرُ ثَمَلٌ ، فحمل الثانى على المعنى ، فكأنه قال :
لَتَفْخَرُ ثَمَلٌ وَلَيَفْخَرُ دَهْرٌ ، والحمل على المعنى كثير ، فأهل : صفة لدهر ، وأراد
كَفَى الْفَخْرُ ثَمَلًا فُخْرًا بِكَوْنِكَ مِنْهُمْ .

وله ايضا :

(أَبْرَحْتَ يَامَرَضَ الْجُفُونِ بِمَرَضٍ مَرَضَ الطَّبِيبُ لَهُ وَعِيدَ الْعُودُ)
أَبْرَحْتَ : بلغت في تعذيبه ، وتجاوزت النهاية ، ومنه قولهم : أَبْرَحْتَ
فارسا : أى بلغت الغاية ، وتجاوزت النهاية . ومَرَضَ الجفون : فتورها .
والمريض : يعنى نفسه ، لأن مرض الجفن أمرضه ، فيقول : بلغت يامرض الجفن
يامراض مريض ، مَرَضَ الطَّبِيبُ لَهُ : إمّا رحمةً ، وإمّا عجزا عن شفاؤه .
وَمَرَضَ الْعُودُ لشدّة ما رأوا به فَعِيدُوا .

ولابن جنى فى هذا البيت كلام أجله عن أن أعزوه إليه .

وقوله : (مرض الطبيب له) ، فله : فى موضع الصفة للمريض ، ومعنى
له : أى (من) أجله . وقد يكون فى موضع المفعول كقولك : أنا عليم بك
ووكيل عليك .

(فَلَهُ بَنُو عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الرُّضَا وَلِكُلِّ رَكْبٍ عَيْسُهُمُ وَالْقَدْفَدُ)

يريد أنه قصد بنى عبد العزيز ليشفوه مما به ، ولم يأخذ سيرة الذين يأخذون
بقول امرئ القيس : (وإِنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقٍ) .. البيت ، لأنهم
يَروْنَ البُعْدَ مِنَ الْمَحْبُوبِ مَا يُرِيحُ . فترك هو هذا ، ونحا إلى بنى عبد العزيز ،
يذهب إلى أن شغل بنى عبد العزيز هؤلاء أن يُريحوا من هذا المرض ، وشغل
كل ركب أن يركبوا العيس ، ويَشُوا فى القفار .

وبعض الناس يقول : إن العيس لبنى عبد العزيز ، والأحسن ما بدأنا به .

(نِقَمٌ عَلَى نِقَمِ الزَّمانِ يَصُبُّهَا نَعِمْ عَلَى النِّعَمِ التى لا تُجْحَدُ)

أى نعمه البوادرى العود : تدفع نِقَمَ الزمان ، فتغنى من فقر ، وتنفك من

أُسْرٍ ، والأُسْر من نَقَم الزمان ، فهو يَصَبُّ هذه النِّعَم فينتَقِم بها من نَقَم الزمان ، لأن جُودَه وغيائِه إذا أزالا الفقر والأُسْر ونحوهما من النقم ، فقد انتقما منها ، فهن إِذَنْ نَقَمٌ على النِّعَم الزمانية ، وَنَعَمٌ على الأسير والفقير ونحوهما ممَّنْ أصابه الدهر يَنْقَمُه .

(مَنْ فِي الْأَنَامِ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا تَقُلْ مَنْ فِيكَ شَأْمٌ سِوَى شُجَاعٍ يُقْصَدُ)
الشَّام ، مذكر ، وتقدير البيت : مَنْ فِي الْأَنَامِ مِنَ الْكِرَامِ سِوَى شُجَاعٍ يُقْصَدُ يَادُنْيَا ، وَلَا تَقُلْ (مَنْ فِيكَ يَأْشَأْمٌ) ، نخص بذلك الشَّام وحده ، فإنه أَوْحَدُ الدُّنْيَا جَمِيعًا . لَا أَوْحَدُ الشَّامَ وحده .

(أَرْضٌ لَهَا شَرَفٌ سِوَاهَا مِثْلُهَا لَوْ كَانَ غَيْرُكَ فِي سِوَاهَا يُوجَدُ)
أى مَنبِجُ هذه أَرْضٌ شَرِيفَةٌ ، وَغَيْرُهَا مِثْلُهَا ، لَوْ لَا كَوْنُكَ بِهَا ، فَإِنَّمَا شَرَفَتْ عَلَى الْبِلَادِ بِكَ لَا بِذَاتِهَا .

(بَقِيتَ جُمُوعُهُمْ كَأَنَّكَ كُلُّهَا وَبَقِيتَ بَيْنَهُمْ كَأَنَّكَ مُفْرَدٌ)
أى أَغْنَيْتَ غَنَاءَ الْكُلِّ ، فَكَأَنَّكَ كُلَّهُمْ كَقَوْلِهِ : (إِلَّا رَأَيْتُ الْعِبَادَ فِي رَجُلٍ) .

وَبَقِيتَ بَيْنَهُمْ كَأَنَّكَ مُفْرَدٌ ، أَى لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يُعَدَّ ثَانِيًا لَكَ ، وَإِنْ كَانَ حَوْلَكَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ .

(مَا شَارَكَتَهُ مَنِيَّةٌ فِي مُهْجَةٍ إِلَّا لَشَفَرَتِهِ عَلَى يَدِهَا يَدٌ)

العرب تقول : لَكَ عَلَى فُلَانٍ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ ؛ أَى الْمَزِيَّةُ الظَّاهِرَةُ .

فمَعْنَى الْبَيْتِ : إِنْ لَشَفَرَتِهِ الْأَثَرُ الْأَظْهَرُ ، فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ ؛ لِأَنَّ تَأْثِيرَ السِّيفِ أَظْهَرُ مِنْ تَأْثِيرِ الْمَنِيَّةِ ، لِأَنَّ تَأْثِيرَ السِّيفِ جُسْمَانِي عَلَيْهِ يَقَعُ الْحَسَرُ ، وَتَأْثِيرُ الْمَنِيَّةِ نَفْسَانِي ، لَا يَقَعُ عَلَيْهِ حَسَرٌ .

وقد يجوز أن تكون للشفرة اليد على المنية ، من جهة أن المنية معلولة
للسيف ، والسيف علة لها . والعلة أشرف من المعلول ، فوجبت المزية للسيف
بذلك .

وقد يتوجه البيت على أن كلَّ شريكين ، فمن المعتاد الأغلب أن يكون
أحدهما أقوم بالأمور ، فتعلو يده يد صاحبه ، فإذا شاركت المنية سيفه فحكمه
أمضى ، والأول عندى أقوى .

(قَطَعْتَهُمْ حَسَدًا أَرَاهُمْ مَا بِهِمْ فَتَقَطَّعُوا حَسَدًا لِمَنْ لَا يَحْسُدُ)

أراهم ما بهم : أى كشف لهم عن تقصيرهم عنك ، ولو اتزن له أراهم ما هم به
كان أدخل فى الصناعة المنطقية ، فتقطعوا حسداً لمن لا يحسد : أى هم
يحسدونك لنقصهم عنك ، وأنت لا تحسد أحداً ، لأن الفضائل كلها متجمعة لك ،
فلم يبق لك ما تحسد عليه غيرك .

وقوله : أراهم ما بهم ، جملة فى موضع الصفة .

(أَنَّى يَكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمُ وَأَبُوكَ وَالثَّقَلَانِ أَنْتَ مُحَمَّدٌ)

هذا محال من القول وسفه ، أى أنك أنت الإنس والجن ، وأبوك
محمد ، هذا يعنى أبا المدوح ، فما لهذه البرية وادعائها آدم أباه ، وهذا من
قبيح الضعف ، وطريق السخف ، وقد دخل به العقاب فى أنه لم يحسن تأليف
البيت ولم يوفق لإقامة إعرابه . ألا تراه فصل بين المبتدأ والخبر بجملة أجنبية
فى قوله : (وأبوك والثقلان أنت محمد) . وموضع الكلام : أبوك محمد ،
والثقلان أنت . وهذا لا يكاد يسيفه لنفسه الذى يقول :

ضحك الناس وقالوا شِعْرٌ وَضَاحٌ الْيَمَانِ
إِنَّمَا شَعْرَى قَيْدٌ قَدْ عُمِدَ بِخُلْجَانِ

وقال أيضا :

(طَلَبْتُ جَسِيمَ مَا طَلَبِي وَإِنَّا نَخَاطِرُ فِيهِ بِالْمَهْجِ الْعِظَامِ)

أراد جسيمَ طَلَبِي ، و (ما) : زائدة . والعظام هاهنا : كناية عن العز والشرف .

أى يقول : أنت إنا نَخَاطِرُ فى طلب الملك بالمهج العزيزة التى لاخلَفَ منها إذا قتلت .

(وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَى شَخْصًا لَأَدْمَى رَأْسَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي)

أى لو شخص الدهرُ لَأَثَرَتْ فيه بسيفي ، والدهر ليس بشخص لأنَّ وجُودَ النور وعدمه ، لاختلاف حركة الفلك ، فتمناه هو شخصا ليوقع به ، غُلُوا منه وعلُوا ، وعليه دائرة السَّوء .

(إِذَا امْتَلَأَتْ عُيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي فَوَيْلٌ لِلتَّيْقِظِ وَالنَّامِ)

أى أروعُهم يأسى متيقظين ، ويحلمون لى ، وذلك بما بقى فى نفوسهم من الروع ، كقوله هو :

يَرَى فِي النَّوْمِ رُمَحًا فِي كَلَاهُ وَيَخْشَى أَنْ يَرَاهُ فِي الشَّهَادِ

ومادة كل ذلك قول الشاعر :

وَعَلَى عُدُوكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصَدَانِ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْإِظْلَامِ

فَإِذَا تَنَبَّهَ رُعْتَهُ وَإِذَا هَذَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سَيْوفُكَ الْأَحْلَامِ

وأراد المتنبي : إذا امتلأت عيونُ فرسان الخيل ، فحذف المضاف ، وأراد فويلٌ لها فى التيقظ والنام ، فأسند الويلَ إليهما مجازاً لاحقيقة ، لأن التيقظ والنام عَرَضَانِ لا يلحقهما ويُل .

وقد يجوز أن يضع المصدر موضع الاسم، كأنه قال : فويل للمتيقظ والنائم،
كقولهم : ماء غورٌ : أى غار ؛ ومثله كثير .

- ١٧ -

وله أيضا :

(أذا الغُصْنُ أم ذا الدَّعْصُ أم أنت فتنةٌ)
وذِيًّا الذى قَبَّلْتَهُ البرقُ أم ثَغْرُ)
أى : أقدك غُصْنٌ ؟ أم رِدْفُك دِعْصٌ ؟ و (ذِيًّا) ، تصغير (ذَا) .
وإنما صغره ، لأنه أشار إلى الثغر ؛ والثغر يوصف بالصغر ، ألا ترى إلى قول
النَّظَّام يصف عجبه من امرأة طرحت خاتمها في فيها فقال :
* مِنْ رَمِيهَا الخَاتَمُ فِي الخَاتَمِ *

شَبَّهَهَا بالخَاتَمِ لِصَغَرِهِ و (أم أنت فتنةٌ) : يكون فيه (أم) القديلة
لألف الاستفهام ، وتكون منقطعة كَهَلْ ، وقد اعترض السؤالُ عن الجملة ،
أعنى قوله : (أم أنت فتنة) بين أثناء الكلام عن الأجزاء ، لأن القَدَّ ،
والرِّدْفَ ، والثغر ، كلها طوائف ، وأنت جملة . وإنما كان ينبغى ، لو استقام
له ، أن يقرع بالسؤال عن الطوائف ، ثم يُجمل ، أو يُجمل مبتدئا فيقول : أنت
فتنة ، ثم يأتى بالطوائف .

وأما هذا الفصل عندى بين النظائر بالغريب ، فقلق غير متمكن ، وهذا
إنما (يحكيه) أهل المنطقية . وكذلك قوله : (وذِيًّا الذى قَبَّلْتَهُ البرقُ أم
ثَغْرُ) كان أصنع أن يقول : (بَرَقٌ) ، لمكان (ثَغْرُ) ، لأنها نكرتان .
(فَتَى كُلَّ يَوْمٍ يَحْتَوِي نَفْسَ مَالِهِ رِمَاحُ المَعَالَى لا الرُّدَيْنِيَّةُ السُّمُرُ)
تُغَيِّرُ عَلَى مَالِهِ رِمَاحُ المَعَالَى ، يعنى المدايح . أى أن رماح المدايح التى تُبْنَى
بها المعالى ، تُغَيِّرُ عَلَى مَالِهِ ، كقول أبى تمام :

* وآمله غادر عليه فسأله *

وقال : رماحُ المعالي ، ولم يقل سيوف المعالي ، توطئةً للردينية السمر .
وقوله : (نفس ماله) ، ليس للمال نفس في الحقيقة ، إنما تجوز بذلك ،
كما تجوز بأن جعل للمعالي رماحا ، وليس هناك رمح ولا نفس ، وعلى هذا
أوجه أنا قوله :

أَلَسْتُ مِنَ الْقَوْمِ الْأَلَى مِنْ رَمَاحِهِمْ نَدَاهُمْ وَمِنْ قَتْلَاهُمْ مُهْجَةُ الْبُخْلِ
لما استعار للبخل مهجة مقتولة ، جعل للندي رُمحاً قتلوا به مهجة البخل .
لا على ما ذهب إليه أكثرُ مفسري هذا الشعر ، من أنه عني بقوله : (من
رماحهم ندام) : أنهم يجودون ، وإنما يجودون بما تُنفق عليهم رماحهم من
النَّهَب . وما أدري ما أعمام عن هذا على وضوحه .

— ١٨ —

وله أيضا :

(وَلَا الدِّيَارُ الَّتِي كَانَ الْحَبِيبُ بِهَا تَشْكُو إِلَيَّ وَلَا أَشْكُو إِلَى أَحَدٍ)
شكوى الديار إنما هي باعتبار النُّظَار من سوء آثار الزمان عليها . كقول
على رضي الله عنه مخاطباً القبور : فإن لم تُجيبك جهاراً ، أجابتك اعتباراً .
ويقول الشاعر :

وَعَظْمَتِكَ أَجْدَاثٌ صُمْتُ وَنَعْتِكَ أَلْسَنَةٌ خَفْتُ
وَتَكَلَّمْتُ عَنْ أَوْجُهُ تَبَايَ وَعَنْ صُورٍ سُبْتُ

فيقول : إن دمعى حال دون تأملِ آثار البلاد في الديار ، فيقوم مقام
شكواها إلى ، أي : لولا مَنعُ الدمع إياي من التأمل ، لرأيت سوء صنع
الدهر بها ، لكن الدمع كفاني وحماني النَّظَرَ ، كقول الآخر :
فَعَيْنَايَ طَوْرًا تَفَرَّقَانِ مِنَ الْبُكََا فَأَعَشَى وَطَوْرًا تَحْسِرَانِ فَأَبْصَرُ

ولهذه العلة يقول الشاعر منهم لرفيقه : تبصّر وانظر ، كقول امرئ القيس :

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَل تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ سَوَالِكِ نَقَبًا بَيْنَ حَزْمَيَّ شَعِيبِ
وقال آخر :

* بَل تَبَصَّرَ ، فَأَنْتَ أَبْصَرُ مِنِّي *

أى أن الدمع قد حال بيني أنا ، وبين التأمل ، بإغراقه ناظري ؛ وقد بكيت حتى أَكَلَّ الدمعُ بصرى . (ولا أشكو إلى أحد) ، أى أنها قفر لا أحد فيها فأشكو إليه ، أى ليس بها أحد يُشكى إليه ، فأنا أدع الشكوى لذلك ، ونفيه العام هنا كقول النابغة :

(عَيَّتْ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدٍ)

وقد يتوجه الببت على أنه لم يبق في الدار فضل للشكوى بما هدمها وأبادها من البلى ، ولا فئ أنا فضل للشكوى . أى قد ضعفت عن ذلك ، والأول أوجه .

(أَيْ الْأَكْفُ تُبَارِي الْغَيْثَ مَا اتَّفَقَا حَتَّى إِذَا افْتَرَقَا عَادَتْ وَلَمْ يَعُدْ)
الأكف : جمع كف ، قال سيبويه : ولا يكسر على غير ذلك .
أي كف سوى كف هذا الممدوح تعارض الغيث ؛ أو تباريه ؟ حتى إذا أقلع الغيث عادت الكف للندى . وهى تلك الكف بعينها ، ولم يعد الغيث ، لأن ذلك الغيث بعينه لا يعود أبدا . وفى قوله : (عادت) ، إشعار بأنها أقلمت وإنما قاله توطئة لقوله : (ولم يعد) ، ومثل هذا كثير فى كلامهم ، كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ ، وانتصار المؤمنين من الكفار ، ليس باعتداء ولا ظلم ، ولكنه ذكر الاعتداء هنا لتقدم (فمن اعتدى) . ومثله قول الشاعر :

ألا لا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
وقوله :

... تَبَارَى الْغَيْثَ مَا اتَّفَقَا حَتَّى إِذَا افْتَرَقَا عَادَتْ وَلَمْ يَبْدُ
يُسَمَّى تَرْجِيحًا ، قَدْ وَقَعَتِ الْمَسَاوَاةُ بَيْنَ الْكَفِّ وَالْغَيْثِ بِلا فَضْلٍ
لأحدهما عَلَى صاحبه . فَإِذَا أَقْلَعَ الْغَيْثُ وَدَامَتِ الْكَفُّ تَجُودٌ ، فَقَدْ فَضَّلَتْ
الْغَيْثَ الْكَفُّ وَرَجَعَتْ عَلَيْهِ .

- ١٩ -

وله أيضا :

(وَفَشْتُ مَرَّاثِرُنَا إِلَيْكَ وَشَفَّنَا تَعْرِيبُنَا فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ)
أى لما جَهَدْنَا التَّعْرِيبَ ، اسْتَرْوَحْنَا إِلَى التَّصْرِيحِ ، فَانْتَهَكَ السَّتْرَ . وَإِنْ
شَتَّ : لَمَّا عَرَّضْنَا ؛ ظَهَرَتْ دَلَائِلُ الْحُبِّ عَلَيْنَا كَفَيْضِ الدَّمْعِ ، وَتَغْيِيرِ اللَّوْنِ ،
فَعَادَ التَّعْرِيبُ تَصْرِيحًا ، بِهَذِهِ الْأَدْلَةُ الَّتِي أُعْرِبَتْ عَنِ الْحُبِّ ، وَصَرَّحَتْ بِهِ ،
وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ لَمْ نُرِدْ التَّصْرِيحَ ، فَتَقْدِيرُهُ . فَبَدَا لَكَ التَّصْرِيحُ مِنْ تَعْرِيبُنَا .
وَمَعْنَى شَفَّنَا عَلَى هَذَا الْقَوْلِ : نَقَصَ تَصْبِرُنَا ، وَغَيَّرَ تَجَلَّدَنَا ، وَقَدْ يَكُونُ وَشَفَّنَا :
أى شَفَّ قَوَّتُنَا عَلَى التَّكْتُمِ فَبَكَيْنَا ، فَخَصَلَ التَّعْرِيبُ تَصْرِيحًا .

(شِمْنَا وَمَا حَجَبَ السَّمَاءُ بَرُوقَهُ وَحَرَى يَجُودُ وَمَا مَرَنَهُ الرِّيحُ)

شِمْنَا : أَيْ نَظَرْنَا . وَهُوَ يَسْتَعْمَلُ فِي الْبَرْقِ وَالنَّارِ . قَالَ :

نَشِيمُ بَرُوقِ الْمَزْنِ أَيْنَ مَصَابُهُ وَلَا شَيْءَ يَشْفِي مِنْكَ يَا بَنَةَ عَفْزَرَا
وَقَالَ ابْنُ مِقْبَلٍ فِي النَّارِ :

وَلَوْ تُشْتَرَى مِنْهُ لِبَاعِ ثِيَابِهِ بِنَبْعَةِ كَلْبٍ أَوْ بِنَارِ تَشِيمُهَا

أى شِمْنَا الْبَرُوقَ ، وَلَمْ يُحْجِبِ السَّمَاءُ . أَيْ لَا غَيْمَ هُنَاكَ ، فَيُحْجِبُ أَدِيمُ

السَّاءُ ، وإِنَّمَا عَنِ خَيَالِ يَدِيهِ ، وَإِن شئتُ قُلْتُ : إِنَّ الْجَوَّ يَسِمُ بِالْبَرْقِ بَعْدَ تَعَبُّهِ بِالْغَيْمِ ، وَهُوَ يَبْقَى أَبَدًا ، فَبَرْقُهُ فِي صَحْوٍ ، وَلَا يَلْحَقُهُ عُبُوسٌ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْعُبُوسُ كَالْغَيْمِ . فَجُودُهُ هُنَى ، وَلَيْسَ الْغَيْثُ كَذَلِكَ ، لِأَنَّهُ وَإِن حَلَّى الْأَفْقَ بِالْبَرْقِ ، فَإِنَّهُ يَجْبِجُ حَسَنَ السَّمَاءِ ، وَجَمَالَ سِمَتِهَا ، وَيُحْجِبُهَا بِالْغَيْمِ وَهَذَا قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ هُوَ :

فَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تَرُدُّ فَضِيلَةَ الشَّمْسِ تَشْرِقُ وَالسَّحَابُ كَنُحُورِهَا
عَنِ السَّحَابِ الْكَنُحُورِ : نَدَاهُ ، وَبِالشَّمْسِ : بَشَرَهُ ، وَحَسَنَ وَجْهِهِ الْوَضَى ،
وَسَنَشْبِعُ شَرْحَ ذَلِكَ فِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .
(وَحَرَى يَجُودُ وَمَا مَرَّتَهُ الرِّيحُ) . أَيْ حَرَى أَنْ يَجُودَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَمْرِيَهُ
الرِّيحُ .

يَذْهَبُ إِلَى تَخْلِيصِ جُودِ هَذَا الْمَدُوحِ مِنَ الْكَدْرِ ، وَتَقْضِيلِهِ عَلَى الْمَطَرِ ،
لِأَنَّ مَاءَ الْمَطَرِ وَإِن كَانَ طَهُورًا نَافِعًا ، فَإِنَّ هُنَاكَ مَا يُسْكَدِرُهُ ، وَهُوَ الْغَيْمُ الَّذِي
يَطْمِسُ نَوْرَ الشَّمْسِ ، فَيُولِدُ الْكَرْبَةَ فِي النَّفْسِ وَالرِّيحِ الَّتِي يَتَوَقَّعُ مِنْهَا الْأَفَاتُ
وَأَنْوَاعُ الْجَوَائِحِ . وَإِن شئتُ قُلْتُ : إِنَّ الرِّيحَ هُنَا مُسْتَعَارَةً ، وَإِنَّمَا كُنِيَ بِهَا عَنْ
السُّؤَالِ ، لِأَنَّ السُّؤَالَ يَسْتَخْرِجُ النُّوَالَ ، كَمَا أَنَّ الرِّيحَ تَمْرِي الْمَاءَ . فَيَقُولُ :
جُودُهُ مُتَبَرِّعٌ يُغْنِي عَنِ السُّؤَالِ ، كَقَوْلِهِ هُوَ :

وَإِذَا غَنُوتَا بِعَطَائِهِ عَنْ هَزِّهِ وَآلِي فَأَغْنِي أَنْ يَقُولُوا وَآلِهِ
وَلِذَلِكَ قَالَ هُوَ أَيْضًا :

وَالْجِرَاحَاتُ عِنْدَهُ نَعَمَاتٌ سَبَقَتْ قَبْلَ نَيْلِهِ بِسُؤَالِ
وَسَيَأْتِي شَرْحُهُ فِي مَوْضِعِهِ :

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ :

* وَحَرَى يَجُودُ وَمَا مَرَّتَهُ الرِّيحُ *

وعلى هذا القول الأخير قول البحرى :

مواهباً ما تَجَشَّمْنَا السؤال لها إِنَّ الغمام قليبٌ ليس يُحْتَفَرُ
ويجوز (وحرى مجود) بإضمار (أن) ، أى وحرى أن مجود .
(ما مرته الريح) . جملة فى موضع الحال .

- ٢٠ -

وله أيضا :

(لَمْ يَلْقَ قَبْلَكَ مَنْ إِذَا اشْتَجَرَ الْقَنَا)
جَعَلَ الطَّعَانُ مِنَ الطَّعَانِ مَلَاذًا
إِنْ شِئْتَ قُلْتَ معناه : أنك تلقى نفسك للطعان مُحْتَقَرًا لها ، لها بك
الأقران . وإن شئت قلت معناه : إنك تلوذ من الطعن بطعنك لعدوك ،
علما أنك إن تَهَيَّبْتَهُ ولم تطعمه طعنك فإنما تدفعه بالإقدام ، لا بالإحجام ،
(لأنه) تمكين للعدو .

ولهذا قالت العرب : إن الحديدَ بالحديد يُفْلَحُ : أى إن الشر إنما يدفع
بمثله . كقول قطرى :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِىَ الْحَيَاةَ لَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةَ مِثْلِ أَنْ أَتَقَدَّمَ
وقال المتنبى فى نحوه أيضا :

فَإِنْ تَكُنِ الدُّوَلَاتُ قِسْمًا فَإِنَّهَا لِمَنْ هَوَّنَ الدُّنْيَا عَلَى النَّفْسِ سَاعَةً
لِمَنْ وَرَدَ الْمَوْتَ الزَّوَامُ تَدُولُ وَلِلْبَيْضِ فِي هَامِ الْكَمَاةِ صَلِيلُ
(لَمَّا رَأَوْكَ رَأَوْا أَبَاكَ مُحَمَّدًا فِي جَوْشَنِ وَأَخَا أُبَيْكَ مُعَاذًا)

أى (راو) برؤيتهم إياك عمك وأباك . يذهب إلى قوة شبه
بهما كقولهم أبو يوسف أبو حنيفة ، أى مثله ، وقد قال المتنبي فى هذا المعنى :
لو تنكرت فى المكرِّ يقوم حلفوا أنك ابنه بالطلاق

- ٢١ -

وله ايضا :

(وكأنا عيسى بن مريم ذكره وكأن عازر شخصه المقبور)
عازر هذا : أحياء عيسى ، وأقامه من قبره ، فكذلك ذكر هذا الميت
بحييه ، كما أحيى المسيح عازر . وترك صرف عازر لأنه أعجمى .

- ٢٢ -

وله ايضا :

(تشقق منهن الجيوب إذا بدت وتخضب منهن اللحي والمفارق)
(تشقق منهن الجيوب) . أى إن البعولة والبنين يقتلون بها ، إذا جردت
من أغمارها ، فيشقق الثكالى جيوبهن . (وتخضب منهن اللحي والمفارق)
أى يخضبن بالدم ، حتى يشكل الشاب والسكران والشيخ ، فلا تعرف الثكلى
بعلها من ابنها .

(يعاجى به : مأنطق وهو ساكت ؟ يرى ساكتا والسيف عن فيه ناطق)

الصمت والنطق : ضدان ، والضدان لا يجتمعان فى محل واحد ، فى وقت
واحد ، لكن هذا الملك ينطق السيف عنه وفمه ساكت ، فالأحجية من
البيت فى الشطر الأول وتحليلها فى الثانى . ونطق السيف عنه ؛ عمله فى عصاته
وعُداته ، إذ السيف جاد ، والجاد لا نطق له . وإنما هو كقوله :

• وقالت الأنساعُ للبطنِ الحَقَر •
ولو قصيت هذا لَطالَ الكلام ، لأن في مثله يطولُ المثال .

- ٢٣ -

وله ايضا :

(وَتُشْكِرُ مَوْتَهُمْ وَأَنَا سُهَيْلٌ طَلَعْتُ بِمَوْتِ أَوْلَادِ الزُّنَا)
أكثرُ الموتِ الواقعِ في البهائم ، إنما هو عند الرِّعاءِ بِطُلُوعِ سُهَيْلٍ ، فقد
أضدادَه من جهلهم . بهائمٌ يُمَيِّتُهُمْ سُهَيْلٌ . قال :
وكان أضرَّ فيهم من سُهَيْلٍ إِذَا أَوْفَى وَأَشَامَ مِنْ قُدَارٍ
وقال المنجمون : طُلُوعُ سُهَيْلٍ طُلُوعُ ضُرٍّ وَوَيْلٌ . فيقول هو : طُلُوعُ
ضُرٍّ عَلَى أَوْلَادِ الزُّنَا . ولم يعن بذلك أنهم لزنية في أنسابهم ، إنما أراد
أنهم يَعْتَرِضُونَ إلى الفضل وليسوا منه ، كما ينتسب بنو الزنا إلى غير آبائهم .
وسُهَيْلٌ : اسم جاء على بناء التصغير

- ٢٤ -

وله ايضا :

(مَلَامُ النَّوَى فِي ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ كَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنْ سَقَمٍ)
أى أن مَلَامَ النَّوَى فِي ظُلْمِهَا لى ، واستتارها بمحبوبتى غاية الظلم ،
لأن في الإمكان ، وطبيعة تأثير الزمان أن تكون النوى عاشقة لهذا المحبوب
كعشتى ، فيورثها ذلك سَقَمًا كَسَقَمِي ، فالحكم ألا أومها ، لأن من لم يؤثر
عليك إلا نفسه فليس بمؤثر عليك أحدا .
وبالغ بقوله : غاية الظلم ، مُقدرا أن بالنوى من الوجد مثل مابه . وذاكر

الشُّقْم ولم يذ كر العشق استغناء بذ كر المُسْتَبِيب عن السبب . وأراد ملامى للنوى ،
فأضاف المصدر إلى المفعول ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾
(طَوَالَ الرُّدَيْنِيَّاتِ يَقْصِفُهَا دَمِي وَبَيْضُ السُّرَيْجِيَّاتِ يَقْطَعُهَا لَحْمِي)
إن شئت قلت : إن دمه يقصف الرمح بحدته وقوته ، أى أنه أقوى من
الرمح . (وببيض السُّرَيْجِيَّاتِ يَقْطَعُهَا لَحْمِي) : أى أنه أهدأ من السيف ، فهو
يؤثر في السيوف تأثير السيوف في غيره .

وقد يكون أن الرماح والسيوف تنبو عنه ، ولا تؤثر فيه البتة . فكان
دَمَهُ كَسَرَ الرمح ، وكان لجمه قَطَعَ السيف . وقد يجوز أن يعنى أنه من
نفسه وعشيرته في منعة . فإذا أصابه طعن أو ضرب ، أكثر الطعن في طلب
ثأره ، حتى تَنَقَّصَ الرماح ، وتقطع السيوف .

(مُذِلُّ الْأَعْزَاءِ الْمُعِزُّ وَإِنْ يَثْنُ بِهِ يُثْمُهُمْ فَالْمَوْتِمْ الْجَابِرُ الْيَتِيمُ)
أى مُذِلُّ مَخَالِفِيهِ الْمَعَادِينَ لَهُ ، وَمُعِزُّ مَخَالِفِيهِ الْمَعَاضِدِينَ لَهُ . وَإِنْ يَثْنُ :
أى يقرب به يَتْمُهُمْ ، أى يَتِّمُ أَبْنَاءَهُمْ بِقَتْلِهِ آبَاءَهُمْ ، فإنه يجبر يَتْمَهُمْ بِعَوْدِهِ
عليهم ؛ واكتفاله إِيَّاهُمْ بَعْدَ الْآبَاءِ .

وقد يجوز أن يُؤْتَمَّ قَوْمًا وَيَجْبُرُ يَتْمَ آخَرِينَ ، لم يكن هو الذى أُيْتِمُّهُمْ .
(إِذَا بَيَّتَ الْأَعْدَاءُ كَانَ اسْتِمَاءُهُمْ صَرِيرَ الْعَوَالِي قَبْلَ قَعْقَعَةِ الْأَجْمِ)
أى يطوى سرّه ؛ وَيَخْفَى حَسَّهُ ، حتى يكاد يُخْرَسُ الْأَجَامُ فَلَا يَخْرَسُ .
وهذه مبالغة فى طي الخبر .

وقد يجوز أنه اعتقل الرمح أولاً ، فإن أمكنه إجمام الفرس ؛ وإلا ركه
غير ملجم .

(مع الحزم حتى لو تعمّد تركه لِأَلْحَقَهُ تَضْيِيعُهُ الْحَزْمَ بِالْحَزْمِ)

أى أن حرمه طبيعى ؛ فلو تعدد تركه لانعكس تضديعه الحزم حزمًا ،
إذ ليس فى قوته غير ذلك .

(وفى الحربِ حتى لو أرادَ تأخرًا لأخره الطبعُ الكريمُ إلى القُدُمِ)
أى إن طبعه إتيان الفضائل ، وتنكُّب الرذائل ، فلو رام التأخر مُمتَحِنًا
لطبيعته تلك ، لتأنى عليه الطبع ، فردّه إلى التقدُّم .

وقد اطردَ هذا المعنى فى غير هذا الموضع من هذا الشعر ، كقوله :
(لهُ رَحْمَةٌ تُحْيِي العِظَامَ وَغَضَبَةٌ بِهَا فُضِّلَتِ لِلْجُرْمِ عَنْ صَاحِبِ الْجُرْمِ)
يُحْيِي العِظَامَ : مبالغةٌ فى قوتها على الإحياء . وَغَضَبَةٌ : أى إذا أغضبه
المجرم الجانى تجاوز له غضبه قدر جُرمه ، فأما تجاوز به قدر جرمه فأهلكه ،
وأما تهاون به فتركه .

(دُعِيتُ بِتَقْرِيبِكَ فى كُلِّ مَجْلِسٍ فَظَنَ الَّذِى يَدْعُو ثَنَائِي عَلَيْكَ اسْمِي)
أى أنى لَزِمْتُ مدحك ، وَخَصَصْتُ حمدك ، حتى عُرِفْتُ بذلك ، وغلب
على اسمى العلمُ وَكُنْيَتِي ونَسَبِي ، وظن الذى يدعو ثنائى عليك اسمى : أى قيل
لى : يا مَدَحُ ابنِ إِسْحَاقَ ، ذهابًا إلى أن ذلك اسمى لا اسم لى غيره ، وأراد
يدعونى ، فحذف المفعول . وَثَنَائِي واسمى : مفعولا ظن . وإنما أراد الصفة
المشتقة من ثنائى عليك ، كقوله : يا حامد ، ويا مَدَح . ولم يرد المدح ولا الحمد ،
لأنهما عَرَضَانِ ، والمسعى جوهر ، فلا يدعى الجوهر بالعَرَضِ .

(وَثِقْنَا بِأَن تُعْطَى قُلُوبُ تَجِدُ لَنَا لَخِلْنَاكَ قَدْ أُعْطِيَتْ مِنْ قُوَّةِ الْوَهْمِ)
يذهب إلى أنه لو عَدِمَ فضيلةٌ فى وقت ، لُظُنَ فيه أنها موجودة أو تُعْطَتْ
وذلك لما يُعْتَادُ من وجود الفضائل فيه ، وهذا كالصديق يَكْذِبُ فيَتَوَهَّمُ
كَذِبَهُ صدقًا ، لما جرت به العادة من صدقه .

وقد عَظُم إعياء أبي الطيب في هذه القصيدة جداً .

فمن ذلك أنه عكس الأمر بين الفاعل في بيته الذي هو (طِوال
الرُدَيْنِيَّات . . .) .

ومنه : أنه جَعَلَ الضَّدَّ يَنْقَلِبُ إلى ضده كقوله : (لَأُحَقِّقَهُ تَضْيِيعَهُ الْحَزْمَ
بِالْحَزْمِ) . وليس من شأن تضييع الحزم أن ينتج الحزم .
وكذلك قوله :

وفي الحرب حتى لو أراد تأخراً لأخّره الطبعُ الكريم إلى الأُدم
فجعل التأخر ينعكس إلى التقدم .

ومنه : أنه جعل العَدَمَ يُظَنُّ به الوجود ، كقوله :

(. . . فلو لم تجد لنا خللناك قد أعطيت . . .)
(فكم قائل لو كان ذا الشخص نفسه لكان قرأه مَكْمَنَ العسكرِ الدَّهْمِ)

النفس روحانية : فإما تعظم عظمها روحانياً كعظم العالم العلوي . والجسم
جوهر متكاثف ، فلو تجسّمت هذه النفوس لعظم جرمها ، وكانت ذات طوائف
جسمانية عظيمة . فكان ظهر هذا الجسم يستر وراءه عسكراً عظيماً فيحجبه ،
وإن شئت قلت : لو كان شخصه على قدر نفسه في العِظَم ، لكان ظهره مَكْمَنَ
عسكر كبير . وخَصَّ الظَّهْرُ ، لأنه لا غُضُون فيه ، فالكمون فيه أصعب .
(عَظُمْتَ فَلَمَّا لَمْ تُكَلِّمْ مَهَابَةً)

تواضعت وهو العُظْمُ عُظْمًا عن العُظْمِ)

أى عَظُمْتَ عِظْمًا طَبِيعيًا ، فَلَأَتِ الصَّدُورَ هَيْبَتُكَ ، حتى لو تكلمت
فَأَرَحْتَ مَا بِالنَّاسِ مِنْ تَهْدِيبِهِمْ لَكَ ، تواضعت عظمًا عن التعظم ، وهو العُظْمُ في
الحقيقة ، لأن العظمة والكبرياء إنما يليقان بالأعظم وهو الباري سبحانه .

و (عَنْ) في قوله : (عن العُظم) ، متعلق بقوله عُظْمًا : بمعنى تعاضم
وهو نصب على الحال أو المصدر . وتقدير البيت : تواضعت عُظْمًا عن العُظم
وهو العُظم أى ذلك التواضع هو العُظم الحقيقي .

- ٢٥ -

وله أيضا :

(أَحَادٌ أَمْ سِدَاسٌ فِي أَحَادٍ لِيُيَلِّتُنَا الْمُنَوَّحَةُ بِالتَّنَادِي)
أى أواحدة لِيُيَلِّتُنَا هذه أَمْ سِتٌّ في واحدة . لِيُيَلِّتُنَا : صفرها تصغير
التعظيم ، كقول أوس :
فَوَبَقِ جُبَيْلٍ شَاهِقِ الرَّأْسِ لَمْ يَكُنْ لِيُبْلَغُهُ حَتَّى بَكَلَّ وَيَعْمَلَا
فَقَالَ جُبَيْلٌ . والجبلُ الذى هذه حاله ليس بجبيل ، إنما هو جبيل .

وإنما وجه تصغير التعظيم ، أن الشيء قد يمتظم ، في نفوسهم ، حتى ينتهى
إلى الغاية ، فإذا انتهى إليها ، عكس إلى ضده ، لعدم الزيادة في تلك الغاية ،
وهذا مشهور من رأى القدماء الفلاسفة الحكماء : أن الشيء إذا انتهى انعكس
إلى ضده ، ولذلك جعل سيبويه الفعل الذى يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، وهى
نهاية التعدى بمنزلة الفعل الذى لا يتعدى إلى مفعول . قال : لأنه لما انتهى فلم
يتعدَ صار بمنزلة ما لا يتعدى . وهذا منه ظريف جداً .

والتنادى : القيامة ، لما جعل الليلة سِتًّا استطالما بعد ذلك ، فجعلها هو
أكثر مدة ، فقال : إنها منوطة بالبعث .

وأحاد : خبر مبتدأ مقدم ، ولا يكون مبتدأ لأنه نكرة ، وَلِيُيَلِّتُنَا معرفة ،
فهو أولى بالابتداء ، وصغرَ الليلة على القياس .

(مَتَى لَحَظْتُ بَيَاضَ الشَّيْبِ عَيْنِي فَقَدْ لَحَظْتُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ)

أى حزنى على بياض شيبى كحزنى عليه لو رآته عيني فى سواد ناظرها .
كقول أبى دلف :

فى كل يوم أرى بيضاً قد طلعت كأنما طلعت فى ناظر البصر
(متى ما ازددت من بعد التناهى فقد وقع انتقاصى فى ازديادى)
أى إذا ازددت عمراً بعد تناهى الأشد ، فتلك الزيادة فى سننى نقصان
منى ، لأنه قد بلغ غاية النماء ببلوغ الأشد ، فهو آخذ بعد ذلك فى التحلل إلى
بسيط العنصر ، كقوله هو وقد مدح بعض الأمراء بشعر عدد أبياته أربعون :
فبعثنا بأربعين مهراً كلُّ مَهْرٍ ميدانه إنشاده
عدد عشته يرى الجسم فيه أرباً لا يراه فيما يزاده
أى عدد عشته أيها المدوح ، لأن سن المدوح حينئذ ، كانت أربعين .
فسوى عدة الأبيات بعدة سنيه ، وقال : (يرى الجسم فيه أرباً لا يراه
فيما يزاده)

يعنى بالأرب : النماء ، ولا يكون إلا إلى الأربعين . فإذا زيد عليها عمراً
لم ير الجسم فى ذاته نماءً ، إنما هو راجع عن التركيب إلى التحلل .

(وأبعدُ بُعدنا بعد التدانى وأقربُ قرُبنا قُرب البعادِ)
يقول : كنت منه بعيداً ، فكان البعد منى حينئذ قريباً ، والقربُ
بعيداً .

فلما جئته وقربت منه ، انعكست الحال ، فعاد البعد بعيداً وكان قريباً ،
وعاد القرب قريباً وكان بعيداً .

ونسب الإبعاد والتقريب إلى هذا المدوح ، لأن انعكاس الحال ، إنما
كان بسببه . فلو لا هو لم يتبع البعد الذى كان قريباً ، ولا قرب القرب الذى كان

بعيداً . وإخراجه مصدر أبعد وقرب على بُعد وقرب ، وإنما مصدرهما إبعاد وتقريب . على قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أى : نبتكم نباتاً . وكذلك أبعد وقرب ، مطاوعهما بُعد وقرب ، فأخرج المصدر عليهما ، ومثله كثير .

(وَأَنَّكَ لَا تَجُودُ عَلَى جَوَادٍ هِبَاتُكَ أَنْ يُلَقَّبَ بِالْجَوَادِ)

أى لم تترك هباتك أحداً غيرك يستحق أن يُلَقَّبَ بالجواد إذا قيس بك . ولنخص ذلك : أى لا تجود هباتك على أحدٍ بهذا الاسم ، وإن كانت لا تمنع غيره من ضروب العطايا ، (فَأَنْ) على هذا القول نصب إسقاط الحرف أى بأن يُلَقَّبَ . وهباتك فاعل بتجود . ولا تكون التاء فى تجود للمخاطبة ويكون (هِبَاتُكَ) بدلاً من الضمير الذى فى تجود ، ولا يجوز ذلك البتة ، لأن المخاطب لا يبدل منه البتة . ومن هنا منع سيبويه البديل فى قولك : بك المسكين مررت . إنما تنصبه على الترحم ، أو على نية إسقاط الألف واللام فى قول يونس ، فيكون منصوباً على الحال . وقد كره هو أيضاً قول يونس وقال : ولو جاز هذا لقلت : مررت بعبد الله الظريف تريد ظريفاً .

- ٢٦ -

وله أيضا :

(إِذَا مَا سَتَ رَأَيْتَ لَهَا ارْتِجَاجًا لَهُ لَوْلَا سَوَاعِدُهَا تَزُوعَا)

أى إنها منعمة تهتز فى مشيتها : فلولا سواعدها لبزها اهتزازها ثوبها .

(تَرْفَعُ ثَوْبَهَا الْأُرْدَافُ عَنْهَا فَيَبْقَى مِنْ وَشَاحِيهَا شُوعَا)

أى يرفع ردفها ثوبها عن جسمها . والوشاح عن الخصر ، فيبعد بينهما وبين الثوب ، كقوله :

أَبَتِ الرُّوَادِفُ وَالْثَدَى لِقَمَصِهَا مَسَّ الْبَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظَهُوراً
(ذِرَاعَاهَا عَدُوّاً دُمْلَجِيهَا يَخَالُ ضَجِيعُهَا الزَّئِدَ الضَّجِيعَا)

إن شئت قلت : إنَّ الدُّمْلَجِيْنَ يلزمان الذراعين لأنهما عِبلتان كقوله :
تَجُولُ خَلَائِلُ النِّسَاءِ وَلَا أَرَى . لَرَمَلَةٍ خَلْمَخَالاً يَجُولُ وَلَا قُلْبَا

وإن شئت قلت : إنَّ الذراعين عَدُوّاً دُمْلَجِيهما ، لأنهما يُقَصِّيان
الدملجين ، وَيُشِيحَانِهما ، حتى يكادا يكسرانها . وهو عندي كقول جرير :
لَهَا قَصَبٌ رِيَّانٌ قَدْ شَجِيتَ بِهِ خَلَائِلُ سَلَى الْمَصْمِتَاتُ وَسُورُهَا
سُورٌ : جَمْعُ سِوَارٍ . وكقول القطامي في صفة امرأة :

* إِذَا يَمِيلُ عَلَى خَلْخَالِهَا انْقِصَا *

ويروى : (انقصما) . ويقويه : (ذِرَاعَاهَا عَدُوّاً دُمْلَجِيهَا)

ولو أراد الأول لقال : سِوَارَاهَا عَدُوّاً سَاعِدِيهَا .

على أني لا أَحْبَرُ ذلك ، لأنَّ العَدُوَّ من باب المضاف في غالب الأمر
أعنى أنك إذا كنت عدواً لشيء كان لك عدواً . فقوله : ذِرَاعَاهَا عَدُوّاً
دُمْلَجِيهَا كقوله : دُمْلَجَاهَا عَدُوّاً ذِرَاعِيهَا .

(يَخَالُ ضَجِيعُهَا الزَّئِدَ الضَّجِيعَا) : أي زندها عِبل يظنه الضجيع من
عِبَالَتِهِ جَسَماً .

(أَحْبَبْتُكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمَلٌ ثَبِيرًا وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيْعًا)

معنى هذا البيت الأبدية ؛ أي إني أحبك حتى يجر النمل ثبيراً . وهذا
لا يكون عند أحد أبداً . وحتى يقال : رِيعُ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى
هَذَا الْمَنْزَعِ لَا يُرَاعُ عَنْده .

وقد أحسن في هذا الاستطراد وإن كان قرّنه إمكانيًا ، أعني بقوله :

(وابنُ إبراهيم ربيع) فتناهى وهو قوله : (أو يقولوا جرّ نملٍ ثبيراً) ، لكن الثاني عنده في الامتناع كالأول ، وإن كان في تحصيل الحقيقة ليس مثله ، وكذلك حبه إياها إلى أن يجر النمل ثبيراً شعر كذب .

(وليس مُودِّباً إلاّ بِنَصْلِ كَفَى الصَّمَامَةُ التَّعَبَ القطيعا)

أى أُرهب سيفه الناس ، حتى ليس تفعل في أيامه ما تستحق عليه السوط فضلاً عن غير ذلك ، فقد كفى سيفه السوط التعب . وإن شئت قلت : إنه لا يُنزل عقوبة بجهان إلا القتل ، لا يضربه بسوط ، فقد استغنى بالسيف عن السوط . وكفى السوط التعب لذلك .

(فلا عَزَلٌ وأنت بلا سلاحٍ لحاظك ما تكون به مَنِيعاً)

العَزَلُ : عَمُّ السلاح عامّة . واللحاظ : جمع لحظة ، وقد يكون مصدر (لاحظ) ، أى ملكت هيبتك القلوب ، فنظرتك تُغنى عن السلاح ، فإن هيبتك إذا نظرت قاتلة ، لإقدامك وإن كنت بلا سلاح .

فقوله : (بلا سلاحٍ) جملة في موضع الحال ، أى فلا عَزَلَ بك ، وإن كنت غير متسلح . وقوله : (لحاظك ما تكون به مَنِيعاً) يجوز أن تكون فيه (ما) بمعنى الذى ، فيكون على هذا ما بعدها صلة لها . ويجوز أن تكون نكرة بمنزلة شيء ، فما بعدها في موضع الصفة ، لأنها إذا كانت نكرة لزمها الصفة ، كما أنها إذا كانت معرفة لزمها الصلة . ونظيره في الوجهين قوله تعالى : ﴿ هذا ما لدى عَتِيدٍ ﴾ .

ويجوز أن تكون (ما) زائدة كأنه قال : لحاظك تكون به مَنِيعاً .

ومنيع . يجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول ، أى ممنوعاً تحمياً ، وأن يكون
فاعل ككريم . يقال : مَنَعَ مناعة فهو مَنِيْع كرفع رَفَاعَةٍ فهو رفيع .

(وَجَاوَدَنِي بِأَنْ يُعْطِيَ وَأَحْوَى فَأَغْرَقَ نَيْلَهُ أَخَذِي سَرِيعاً)

أى نازعنى الجود : بأن يُعطى هو ، وآخذ أنا ، ولم يكن للمتنبى هنالك
جُود ، لكن الآخذ لما كان : يجودُ هذا الجود ، صار كأنه جُود . وهو
أحسن عندي ممن قال : إن جود المتنبى إنما كان بالأخذ .

ونظير هذا القول الذى ذهبنا أنا إليه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ
فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ وليس قتل هؤلاء المأمورين للمعتدين عليهم اعتداء . ولكنها
مكافأة اعتداء ، فسُمِّيَ باسم السبب الذى هو الاعتداء . وكقول عمرو بن
كثوم :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
(فَأَغْرَقَ نَيْلَهُ أَخَذِي سَرِيعاً) : أى مَلَّيْتُ الأخذ ولم يَمَلَّ هو العطاء .

- ٢٧ -

وله ايضا :

(أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ أَحَدْتُ شَيْءَ عَهْدٍ بِهَا الْقِدَمُ)

العافى : الدارس . والهِمَمُ : جمع هِمَّةٍ وقد قيل هِمَّةٌ بالفتح . ولا يمتنع أن
يكون هِمَمٌ جمع اهمة أيضا ، فقد جاءت فعلة مكسرة على (فَعَلَ) كبَدْرَةٍ
وبَدَرٍ وهَضْبَةٍ وهِضْبٍ . ومن المعتل ، ضَيْعَةٌ وضِيعٌ ، وخَيْمَةٌ وخَيْمٌ .

ومعنى البيت ؛ أنه يسفهُ الناس فى بكائهم الديار والأطلال إذا هفت ، ويقول
لهم : أولى عافٍ بدموعكم همُّ الرؤساء فى هذا الزمان ، فقد عَفَّتْ حتى صار

أَحَدْتُ عَهْدَ بِهَا قَدِيمًا ، فَمَا تَفْضُلُ هِمُّهُمْ عَنْ مَلَاذُ بَطُونِهِمْ وَفُرُوجِهِمْ ، فَأَيَّاهَا
فَابْكُوا لَا الدَّيَارَ ، فَهِيَ أَوْلَى بِالْبُكَاءِ عَلَيْهَا مِنْهَا ، لِأَنَّ الْهَمَّ الْمَعْدُومَةَ أَعَزَّ قَدَمًا
مِنَ الدَّارِ . وَإِذَا كَانَ أَحَدُ عَهْدَ بِهَا قَدِيمًا ، فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِ الْأَحَدِ .

(مِلْتُ إِلَى مَنْ يَكَادُ يَنْكَأُ إِنَّ كُنْتُمَا السَّائِلَيْنِ يَنْقَسِمُ)

يَخَاطَبُ صَاحِبَهُ ؛ أَيِ آثَرْتُ بِقَصْدِي وَتَأْمَلِي مِنْ لَوْ سَأَلْتُمَاهُ وَلَا شَيْءَ
لَدَيْهِ إِلَّا شَخْصَهُ لَا نَقَسَ يَنْكَأُ شَقِيْنِ ، اِعْتِيَادًا لِلنَّوَالِ وَأَلَّا يَرُدَّ ذَوِي السُّؤَالِ .
(يُرِيكَ مِنْ خَلْقِهِ غَرَائِبُهُ فِي مَجْدِهِ كَيْفَ يُخْلَقُ النَّسَمُ)

إِنْ شِئْتُ قُلْتُ : إِنْ اللَّهُ لَطَفَ خَلْقَهُ لِلنَّسَمِ كَمَا شَاءَ ، حَتَّى دَقَّ عَلَى الْوَهْمِ
تَصَوُّرُ كَيْفِيَّتِهِ ، وَلِهَذَا الْمَدُوحُ غَرَائِبُ مِنْ خَلْقِهِ تُوصِّلُهُ إِلَى اقْتِنَاءِ الْمَكَارِمِ ،
تَغْرُبُ وَتَلَطُّفُ ؛ فَمَنْ تَأْمَلَاهَا ، فَكَأَنَّهُ قَدْ تَأْمَلُ خَلْقَ اللَّهِ لِلنَّسَمِ . وَذَلِكَ تَعْظِيمُ
لِقَدْرِ مَا يَأْتِيهِ ، لِشَبْهِهِ بِخَلْقِ اللَّهِ ، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ !

وَإِنْ شِئْتُ قُلْتُ : إِنَّهُ بِحَسَنِ أَفْعَالِهِ وَيُمْنِهَا تَحْيَا النُّفُوسُ ، فَكَأَنَّهُ بِذَلِكَ
يُحْيِيهَا وَيَنْشِئُهَا وَلَيْسَ الْخَلْقُ عِنْدَهُ فِي قَوْلِهِ (يُرِيكَ فِي خَلْقِهِ غَرَائِبُهُ) الْخَلْقُ الَّذِي
هُوَ إِيجَادُ الْمَعْدُومِ ، وَإِخْرَاجُهُ إِلَى التَّكْوِينِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ عَلَيْهِ إِلَّا بَارِئُنَا
جَلَّ وَعَزَّ ، وَإِنَّمَا الْخَلْقُ هَاهُنَا : كُنَايَةٌ عَنِ الصَّنْعِ ، وَكَفَى عَنْهُ بِإِفْظِ الْخَلْقِ ،
ذَهَابًا إِلَى ابْتِدَاعِ هَذِهِ الْغَرَائِبِ ، وَهَذَا مِنْ شَدِيدِ الْمُبَالَغَةِ . وَرَبَّمَا كَفَى بِالْخَلْقِ
عَنِ الصَّنْعِ . وَبَيْنَ الْخَالِقِ وَالصَّانِعِ فَرْقٌ ، لَا يَلِيْقُ إِضَاحُهُ بِهَذَا الْكِتَابِ .
وَالنَّسَمُ : جَمْعُ نَسَمَةٍ ، اِشْتَقَتْ مِنَ النَّسِيمِ ، كَمَا اِشْتَقَّ الرُّوحُ مِنَ الرِّيحِ ، وَالنَّفْسُ
مِنَ النَّفْسِ .

(تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ كَأَنَّهَا فِي نُفُوسِهِمْ شِيَمٌ)

لَا شَيْءَ أَصْفَى وَلَا أَبْطَلُ مِنَ النُّورِ ، فَلِذَلِكَ تُوصَفُ الْجَوَاهِرُ الصَّافِيَةُ بِهِ .

وأولى شيء بذلك الأمور النفسانية ، لأنها أذهب في البقاء وعدم السراب من الجسمانية . والشَّيْئَةُ نفسانية ، والوجه جسماني . والعَرَضُ : يجوز أن يكون بالجسم ، فلم يخلُص إلى النفسانية كخلوص الشَّيْئَةِ ، فشبه أبو الطيب الأعراض والأوجه بالشَّيْءِ في الشروق والصفاء ، وتناهى البقاء . وإن شئت قلت : وضع هذا الكلام على أنه قد عَلِمَ أنه شَيْئَةٌ مُشْرِقة علماً عاماً ، وقدَّم ذلك لمزبَّة الشَّيْئَةِ ، وهي الطبيعة ، على الوجه والعَرَضُ ، فحمل الوجه والعرض بعد ذلك عليها ، تشبيهاً لهما بها . والأوْجُه ما قدمناه من أن الشَّيْئَةَ نفسانية ، فهي أملك بالصفاء ، والوجه والعَرَضُ جسمانيان ، فحملهما عليها .

(كأنها في نهارها قمرٌ حَفٌّ بها من جنانها ظلمٌ)
شبه البحيرة في استدارتها بالقمر كقول ابن الرومي يصف رغيلاً :
ما بين رؤيتها في كفه كُرَّةٌ وبين رؤيتها قوزاء كالقمرِ
وشبه الجنان على حافاتها ، بالظلم من شدة خضرتها ، وذلك لأن النبات إذا اشتدت خضرته اذْهَمَ ، كقوله سبحانه وتعالى في وصف الجنتين ﴿ مُدْهَمَّتَانِ ﴾ وقال الراجز يصف سائمة عَدَّتْ على كلاً ناجم مُخْضَرُ :
فَصَبَّحَتْ أَرْعَلَ كَالنَّبَالِ ومظلمها ليس على الدغال
وقال : (في نهارها) ليستغرب وجود الظلم نهاراً ، واختار ذلك لكان القمر ، إذ القمر في غالب أمره ، لا يكون إلا مع الليل ، وهذه البحيرة بالشام وليست البحيرة تصغير بحر ، لأن البحر مذكور ، فلا تثبت الماء في تصغيره ، إنما هي تصغير (بَحْرَةٌ) ! وهو القاع العظيم يُنبِت السِّدْرَ ، كقول النمر بن تولب في صفة روضة :

وكانها دَقْرَى تَخَيَّلَ نَبْتُهَا أَنْفٌ يغم الضال نبتُ بحارها
(ناعمة الجسم لا عظام لها لها بنات وما لها رَحِمٌ)

وصفَ جسمَها بالنعمة لأنه ماء ، والنعمة إنما تكون في النامي ، وهما
الحيوان والنبات ، وأما الماء ؛ فلا يقبل نماء . وإنما كثرته بعد القلة كمية
لا كيفية . لكن لما كان الناعم صافي البشرة ، وكان الماء صافياً ، استعار
له النعمة ، كما يقال في البرود ذوات الدُّرر والفرائد : ناعمة . وإنما هو على
الاستعارة .

(لها بنات وما لها رَحِمٌ) : أغرب بذلك ؛ لأن البنات مولودة ، ولا تلد
إلا الرحم ، فهذه ذات بنات بغير رحم ولدتهن . وعنى بالبنات : سَمَكها ؛
كأنه لما ربَّين فيها واغتذَّين ، صرن لها بنات .

وإن شئت قلت : إن الماء للسماك كاللبن للمولود . فلما غذتها هذه البحيرة
بما فيها ، صارت كالوالدة المرضعة . وقد أَلَمَّ المتنبي في هذا بقول ابن الرومي
يستهدى سمكا :

وبنات دجلة في قبائلكم مأسورة في كل مُعْتَرِك

إلا أن المتنبي زاد عليه بقوله : (وما لها رَحِمٌ) ، فأغرب .

(يُنْقَرُ عَنْهُمْ بَطْنُهَا أَبَدًا وما تشكى وما يسيل دمٌ)

يُحَاجِي بذلك ، لأن شق البطون الحيوانية يُشَكِي ويُدْمِي . وهذه
البحيرة يُشَقُّ بطنها عن سمكها ، فلا تشكى ولا تَدْمِي بدمها الحيوانية .

(وقد توالى العِمَادُ منه لكم وجادتِ المَطَرَةُ التي نَسِمُ)

الوسمى : أول المطر ، لأنه يَسِمُ الأرض بالنبات . والعَهْدَةُ : المَطَرَةُ
تأتى بعد الوَسْمَى ، تعهد الأرض بالنبات .

واعتمادُ الشعراء الاعتداد على الملوك بتكرار مدحهم فيهم ، وتمهيدهم
بذلك الحقوق عندهم ، كقول أبي تمام :

لها أخوات غيرها قد سمعتها وإن لم ترُغْ بي مُدَّة فستسمع
فيقول : هذه القصيدة الثانية من جملة العهد التي تتعهد الأرض ، وأما
القصيدة الأولى التي كانت كالوسمى فقد جادت .

- ٢٨ -

وله أيضا :

دارُ الملم لها طيفٌ يهددني ليلاً فما صدقت عيني ولا كذباً

أى تهددني الطيفُ بالهجر ؛ كما كانت رؤيته تفعل في اليقظة ، والحلم
جارٍ على عاداته في اليقظة ، فما كذب الطيفُ فيما تهددني به ، لأن الهجرَ
واقع . وما صدقت عيني في رؤية الخيال ، لأنه زور لا حقيقة . والألف واللام
في (الملم) للمرأة ، وانفعل للطيف ولها . واللام فيها للاستحقاق لالملك
لأن الطيف غير مملوك ، وإنما هي مستحقة له من حيث كان إياها في المعنى .
(عُمرُ العدوِّ إذا لاقاه في رَهَجٍ أَقْلٌ من عُمرٍ ما يحوى إذا وهباً)
ليس الموهوب بمحوى فيصح قوله : أَقْلٌ من عمر ما يحوى إذا وهباً ، لأن
ما فارقه بالهبة ، فليس في ملكه ، وإنما عني : إذا أراد أن يهب . فاكتمنى
بالمعلول الذي هو الهبة عن العلة التي هي الإرادة .

(وَتَغِيْطُ الْأَرْضُ مِنْهَا حَيْثُ حَالَ بِهِ وَنَحْسُدُ الْخَيْلُ مِنْهَا أَيَّهَا رَكِبَا)
غبطت الرجل : إذا تمنيت مثله ماله من النعمة ، ولم تُرد زوالها عنه .
وحسدته ؛ إذا تمنيت ماله بزواله عنه . فجعل الأرض تغبط ، لأنها جِرم واحد

متصل . والذات الواحدة لا يريد بعضها ببعض كراهة ، وجعل الخيل تحسد لأنها جمع غير متصل الأجزاء ، ولا مُتداخلها وإنما هي أشخاص مفترقة ، وإن ضمها نوع فهي متغايرة بالشخص ، ومشاركة بالنوع ، والأشخاص متشاكلة ومتعادية . فمن المألوف أن يُحِبَّ بعضها بعض .

و (أيها) : منصوب بركب ، ولا يكون بتحسد ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله إلا أن يكون حرف جر .

(بَكْلٌ أَشْعَثَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِمًا) حتى كأن له في قتله أرباباً (

أى أنه يستبشر بالمنية إذا كانت في سبيل المَعَالاة ، لأن ذلك يُعقبه ذكراً رفيعاً ، ومثله كثير ، كقول الشاعر :

إذا قتلوا أقرانهم لم يروهم وإن قتلوا لم يقشعروا من القتل
إلا أن أبا الطيب أغرب بقوله : (مبتسماً) ، فهو أبلغ في قلة المبالاة بالمنية من قوله : (لم يقشعروا) . وقال أبو تمام :

يَسْتَعَذِبُونَ مَنَابِمَ كَأَنَّهُمْ لَا بَيَّاسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا
إلا أن الابتسام أبلغ من الاستعذاب ، لأن الابتسام مُشعرٌ بلذة نفسانية .

- ٢٩ -

وله أيضا :

(بِأَبَى الشَّمُوسُ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبًا اللَّابِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِيَا)

الشموسُ هنا : النساء . والجَانِحَاتُ : الموائيل للغروب . فإن شئت قلت : إنه شبههن بالشموس في هذه الحال ، لأنه لقيهن ، فأظهرن الخفر ، أو خفرن فسترن بعض محاسنهن ، وأبقين بعضا : إما للمباهاة ، وإما لأنهن لم يتمكن

إلا ذلك ، فجعلن كالشموس التي أخذت في الغروب ، نغفى بعضها ، وبقى بعضها ، كقول قيس بن الخطيم :

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة بدأ حاجبٌ منها وضئت بحاجبٍ

وإن شئت قلت : إن هؤلاء النساء غبن في الخدور والهوادج ، فكأنهن شمسٌ غوارب . هذا قول أبي الفتح ، وليس عندي بقوى ، لأنهن إذا غبن في الخدور والهوادج ، فهن غير محسوسات ، والشمس إذا جنحت للغروب فبعضها محسوس ، وبعضها غير محسوس . ولم يقل الشاعر : بأبي الشمس غواربا فيتأول عليه أنه غنى النساء اللواتي أخفتن الخدور ، وإنما قال : البجائحات ، والجنوح لا يقتضى كُلية الغروب .

فإن قلت : فقد قال : (غواربا) ، فأشعر ذلك بغروب كُلى ، قلنا : قد أثبت الجنوح قبل ذلك . وإنما قال : غواربا ، وهو يذهب إلى أنها آخذة في الغروب ولما تقرب بعد . كقولهم في العليل إذا يئس منه : هو ميت ؛ وإن لم يمت بعد . وقد يجوز أن يوقع غواربا على الكل حين غرب الجزء تجوزاً لا حقيقة .

- ٣٠ -

وله أيضا :

(سلامٌ فلولاً الخوف والبخلُ عنده لقلتُ أبو حفصٍ علينا المسلم)
أى إني ارتحت بسلام هذا الطيف على ، كارتياحي بسلام هذا الممدوح ، فكأن سلامه على تسليم أبي حفص على . لكن الفرق بين الخيال وتسليم أبي حفص أن تسليم الخيال يتخلله البخلُ بتمام الوصل وتحقيقه ، والخوف من فراقه ، وألم معاتبته على بطعم الغمض بعده . فتسليمه كدِرْ بهذه الآفات ، وتسليم أبي حفص لا يلحقه بخلٌ ولا خوفٌ ، بل هو الشرف السابغ الهنيء .
(وأغربُ من عنقاء في الطيرِ شككه وأعوزُ من مسترفٍ منه يُحرّم)

ليس الشكل هنا : الصورة لأن صورته موجودة ، وعنقاء مُغْرِب معدوم
البيّنة . فلا يقال في موجود إنه أغرب من معدوم . والشكل هنا : المِثْل ، أى
أن شكله اسمٌ واقع على غير مُسمّى ، أى لا شكل له ، كما أن العنقاء
اسم لغير مسمى . وإنما يوجد الشكل ملفوظا به في نقي الشكل عنه ، أعنى في
قولك : ماله شكلٌ ، فتفهّمه ، فإنه معنى منطقي .

(وأعوز من مُسترفِدٍ منه يُحرم) : أى أن نظيره عدم ، كما أن مُسترفِداً
منه محروماً عَدَم .

وقال : (أعوز) وإنما هو أشد إعوازاً ، لأنه جاء به على حذف الزائد .
هذا قول أبي الفتح . وليس على حذف الرائد كما قال ، لأنه يقال : عازّه الأمر
وأعوزّه . فأعوز في بيت المتنبي على (عاز) ، لا على (أعوز) .

وإنما يتوهم حذف الزائد إذا لم يوجد عنه مندوحة ، كقولهم : ما أعطاه
للدّرم وآتاه للجميل وأولاهُ للمعروف ، فإن هذه كلها على حذف الزائد .
والمُسترفِدُ : طالب الرّفْد ، لأن باب استفعل في غالب الأمر ، وإنما هو للطلب
والمحاولة ، كاستخرج واستشمن واستجاد .

قال سيبويه : وقالوا مرّةً مستعجلاً ، أى مرّةً طالباً ذلك من نفسه ،
متكافأ إياه .

- ٣١ -

وله ايضاً :

(أركائبُ الأُحبابِ إنّ الأذُمعَا تَطِسُ الخُذودَ كما تَطِسُنَ اليرْمُعَا)
أى أن اللمع يؤثر في الخُذود تأثير كُنَّ في اليرْمُع ، وهو الكَذان .
وتَطِسُ : تكسِر ، وليس هناك كسر ، وإنما بالغ في التأثير ، فكأنى
عنه بالكسر ، لا بالكثير .

(نَظِمَتْ مواهبه عليه تَمَائِمًا فاعْتَادَهَا فَإِذَا سَقَطْنَ تَفَرَّعًا)

أى اعتقاده فى مواهبه أنها تقيه المذام كاعتقاده فى التمايم أنها تقيه
السوء ، فإذا خلا منهم تفرّع ، كفرّع ذى التمايم إذا سقطت عنه . وإنما ضرب
ذلك مثلا . ولو قال : فلو سَقَطْنَ تَفَرَّعًا : لكان أشبه بالمعنى ، لأن قوله :
(فإذا) يُشعر بسقوطهن فى بعض الأوقات ، لكن سقوطها إنما يكون لعدم
مال أو انقطاع سؤال ، فهذا توجيه قوله : (فإذا سقطن) ، و (تَمَائِمًا) منصوبة
على الحال ، وإن كانت اسما ، لأن فيها معنى حَوَارِص ، وقد يكون الاسم الجامد
حالاً ، على توهم الصفة ، كقوله تعالى : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۝ ﴾ . قال
سيبويه : (وسمعنا من العرب من يقول : العجب من بُرٍّ مَرَزَنَا به قبلُ ، فقيرًا
بدرهم فقيرًا بدرهم) فقيرًا بدرهم حال ، وهذا واسع كثير .

(يَهْتَزُّ لِلجَدْوَى اهْتَزَّازَ مُهَنَّدٍ يَوْمَ الرَّجَاءِ هَزَزَتْهُ يَوْمَ الْوَعَى)

أى اهْتَزَّازَهُ للعطايا والجَدْوَى ، اهْتَزَّازُ السيف عند الْوَعَى ، والوعى :
صوت الحرب . والغبن أعلى فى الحرب . وإنما الْوَعَى والوعى : الصوت ،
فسميت الحرب بهما لمكان الصوت .

- ٣٣ -

وله أيضا :

(وَرَبِيعًا يُضاحِكُ الغَيْثُ فيه زَهَرَ الشُّكْرِ من رِياضِ المعَالِي)

أى أنه مَظَنَّةٌ للنعم ، وأهل لوافر القسم ، كما أن الربيع مَظَنَّةٌ للخصب وزمن
الإمراع . مع مافيه من الاعتدال ، وتساوى الأحوال . فلذلك سُمى هذا الممدوح
ربيعاً . أى أنه مشتمل على النعم العَرَبُوبَةِ بالشكر كاشتمال زمن الربيع على
ضروب النواوير ، وأنواع الأزاهير . وقوله : (يضاحك الغيث فيه) : عنى

بالغيث النعمة . وجعل الشكر زهرا ، لأن النعمة هي التي أنبتت الشكر ، كما
ينبت الغيثُ الزَّهر ، فهذا الممدوح كما أنعم عليه شكر . وإذا كان غيث
وزهر ، فلا بد من روضة ، وهي الأرض . التي تنبت الزهر ، وكل ذلك
مستعار .

(والجراحاتُ عنده نغماتٌ سبقتُ قبل نيله بسؤال)

من طبيعة الكريم ، أن يبادر بالنوال من غير أن يُحوج إلى السؤال ،
لأن في ذلة السؤال مالا يفى به فضلُ المستول . فإذا كان ندَى من غير مسألة
فهى اليد البيضاء التي لم يشنها تكدير ، ولا خالطها تنغيص . فإذا سبقت
المسألة نوالَ المستول الكريم ، سرَّ بذلك سرورا مشوبا بالكراهية ، إذ
(طبيعته) إثارة الجود قبل السؤال ، فنغمات السائل عنده ، كالجراحات التي تُصيب
الشجاع فتسرُّه من جهة الثبات ، سرورا يخالطه الكراهية ، لما يلحقه من
الأم . وإن شئت : لم تمثل ذلك بجراحات الشجاع ، وقلت : إن نغمات سائله
جراحات عنده تؤلمه ، إذا لم يكن نيله له من غير سؤال .

(وَبَقَايَا وَقَارِهِ عَافَتِ النَّاسَ فَصَارَتْ رَكَاةً فِي الْجِبَالِ)

كأنه استبدَّ بالوقار أجمع ، إلا أنه بقيت منه بقية ، فتلك البقية عافت
نوعَ الإنسان ، لِمَا رَأَتْهُ به من قلة الاحتمال لها ، والعجز عن الاستقلال بها ،
لضعف مُنتَهه ، وَوَهِي قوته . فعدلت إلى أجسام الجواهر الأرضية ، وهي الجبال ،
إذ لم تجد جوهرًا يستقل بها إلا إياها .

وإن شئت قلت : إن لوقاره (هَيُولَى) خَلْقَ منها فما فَضَلَ من تلك
الهَيُولَى يكون رَكَاةً في الجبال . وهو قريب من القول الأول .

(واستعارَ الحديدَ لوناً وألقى لونه في ذوائبِ الأطفالِ)

الحديد هنا : كناية عن السيوف والأسنة والنصال ، ولونهن الغريزي :
 البياض لكن استعارت لونها غيره ، وهو احمرارها بالدم ، ولذلك جعله مستعاراً ،
 لأنه لون غريب . إنما هو لمكان الدم الذي صبغها به ، فيقول : لما صبغ سيوفه
 ورماحه بالدم ، أشاب بأهوالها الأطفال فكأنهن لما استعارت غير لونها ، أعارت
 لونها ذوائب الأطفال . وكان لونها قبل ذلك السواد . كما كان لون السيوف
 البياض قبل ذلك .

- ٣٣ -

وله ايضاً :

(أَسْفَى عَلَى أَسْفَى الذَّى دَلَّهْتَنِي عَنْ عِلْمِهِ فِيهِ عَلَى خَفَاءِ)
 ليس يأسف في الحقيقة على الأسف ، إنما يأسف على تمييزه الذي كان
 يعقل به أسفه . فحقيقة الكلام ، أَسْفَى عَلَى عَقْلِي الذَّى كُنْتُ أَحْصَى بِهِ أَسْفَى .
 (فيه على خفاء) : أى أنك قد دللتني حتى ما أشعر بأسفِي .
 وقد كان ينبغي له أيضاً أن يذهب عليه ، لو كان مُدَلِّهاً ، أسفه على هذا
 الأسف ، إلى ما لا نهاية له ، لكن هذا مقطع شعري فلا تتقصين بالمنطق ،
 فيقد . وما أحسن هذا المثل العامي ، الذي هو قولهم : الاستقصاء فرقة ،
 ولا تستخفن بذكر هذا المثل ؛ فقد ذكره أبو نصر الفارابي في باب من
 البرهان :

(وَشَكَيْتِي فَقَدْ السَّقَامَ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ)
 وهذا البيت أيضاً يشبه الأول : لما لم يشك فقد السقام لأنه مكروه ،
 والمكروه لا يستوحش أحد من فقدته ، ولكن شكا فقد أعضائه ، لأن السقام
 عَرَضُ وَالْعَرَضُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْجَوَاهِرِ ؛ فَإِذَا عَدِمَ أَعْضَاءَهُ فَقَدْ عَدِمَ السَّقَامَ .
 وإنما شكافي كلاً الأكبر ، واستسهل الأصغر .

(فَتَبَيْتُ تُسَيِّدُ مُسَيِّدًا فِي نِيَّهَا إِسَادَهَا فِي الْمَهْمَةِ الْإِنْضَاءِ)

الإِسَاد : سرعة السير ، وقيل : سير الليل . والنَّي : الشَّحْم . وتقدير البيت : فتبيت تُسَدُّ مُسَدًّا الْإِنْضَاءَ فِي نِيَّهَا إِسَادَهَا فِي الْمَهْمَةِ . وَالْإِنْضَاءُ : الهزال . أَيْ أَنَّ الْإِنْضَاءَ الْحَادِثَ عَلَيْهَا مِنَ التَّعَبِ ، يُسَدُّ فِي نِيَّهَا أَيْ يَسْرِي فِيهِ مُسْرَعًا ، فَيَأْخُذُ مِنْهُ ، كَمَا تُسَدُّ هِيَ فِي هَذَا الْمَهْمَةِ الَّذِي تَقْطَعُهُ . يَقُولُ : يَأْخُذُ السَّيْرُ مِنْ جَسَمِهَا كَأَخْذِهَا هِيَ مِنَ الْمَهْمَةِ ، فَقَدْ أَفْنَاهَا السَّيْرُ كَمَا أَفْنَتْ هِيَ الْمَهْمَةُ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ جَسَمِهَا شَيْءٌ . كَمَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمَهْمَةِ ، فَسَدًّا فِي اللَّفْظِ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي فِي تَسَدُّ ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لِلْإِنْضَاءِ وَالْإِنْضَاءُ : فَاعِلٌ بِقَوْلِهِ : مُسَدًّا . وَتَحْقِيقُ الْحَالِ فِي ذَلِكَ ، أَنْ تَقُولَ : فَتَبَيْتُ تَسَدُّ ، وَالْإِنْضَاءُ مُسَدُّ فِي نِيَّهَا ، وَالْعَائِدُ إِلَى الضَّمِيرِ الَّذِي فِي تَسَدُّ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ الْمَفْظِيَّةِ ، مَا فِي نِيَّهَا وَإِسَادَهَا مِنَ الضَّمِيرِ .

وتقدير لفظ البيت ، على ما صورته لك يُؤدِّيك إلى حقيقة إعرابه ، لكنِّي ذهبتُ إلى التبيين .

(وَكَذَا الْكَرِيمُ إِذَا أَقَامَ بِبَنْدَةٍ سَالَ النَّضَارُ بِهَا وَقَمَ الْمَاءُ)
أَيْ أَنَّهُ يَبْتُ الذَّهَبُ وَيَصْرِفُهُ فِي كُلِّ وَجْهِ ، فَكَأَنَّهُ بِكَثْرَتِهِ يَسِيلُ وَيُمَاعُ ، حَتَّى يَخْجَلُ الْمَاءُ مِنْ كَثْرَتِهِ ، فَيَقِفُ حَائِرًا . يُقَالُ : قَامَ الْمَاءُ : إِذَا جَمَدَ فَلَمْ يَسِلْ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ أَيْ ثَابِتًا غَيْرَ مُنْصَرَفٍ ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ بَعْدَ هَذَا : (جَمَدَ الْفِطَارُ . . .) وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : يَخْجَلُ الْفَطْرُ مِنْ سَيْلَانِ الذَّهَبِ ، فَيَعُودُ سَيْلَانَهُ — بِإِضَافَتِهِ إِلَى سَيْلَانِ الذَّهَبِ — جُمُودًا ، إِلَّا أَنَّهُ يَجْمَدُ عَنِ السَّيْلَانِ .

(مَنْ يَهْتَدِي فِي الْفِعْلِ مَا لَا يَهْتَدِي فِي الْقَوْلِ حَتَّى يَفْعَلَ الشُّعْرَاءُ)
أَيْ هُوَ مَنْ يَهْتَدِي فِي الْفِعْلِ إِلَى مَا لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ الشُّعْرَاءُ فِي الْقَوْلِ حَتَّى

يفعل . يقول : ذهنتُ في الفعل أنفذ من أذهان الشعراء في القول ، فإذا أغربوا في مدحه لم يك ذلك الإغراب من غوص أذهانهم على المعاني . إنما نظروا إلى فعله الذي غاص عليه هو بذهنه . فاهتدوا إلى القول بما رأوه من فعله .

ولولا ذلك لم يهتدوا ، فإذا فعلت ما وصفه من فعله .

(مَنْ نَفَعَهُ فِي أَنْ يُهَاجَ وَضُرُّهُ فِي تَرْكِهِ لَوْ تَفَطَّنَ الْأَعْدَاءُ)

إنما جعل نفعه في أن يُهَاجَ ، لأنه إذا هيج أوقع بالأعداء ، فأغار وغنم ، وأثرى ، واتسعت كفه للجود . وتلك بغيته من الثروة . وضُرُّه في تركه أي إذا سُوِّمَ سَأَلَمَ ، وهو في ذلك يجود بما عنده حتى ينفد ، فلا يجد ما يجود به . فهذا وجه ضُرُّه في تركه .

وإن شئت قلت : البأس وحبُّ الحرب في طبيعته ، فإذا هيج مُكِّنَ بما في طبعه ، والإنسان ينفعه تحريكه إلى ما في سَعِيَّتِهِ ، لأن في ذلك كل بلوغ . أمنيته ، وضُرُّه في تركه : أي أنه مُشْتَمَلٌ للقتال بطبيعته ، فإذا سُوِّمَ اشتاق إلى مشاهدة ما في طبعه ، فضُرُّه شوقه إلى ذلك إذا لم يمكنه مشاهدته ، كقوله هو :
فَلَا تُبْلِغَاهُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهُ شُجَاعٌ مَتَى أَذْكُرْ لَهُ الطَّعْنَ يَشْتَقِي
والقول الأول عندي أحسن ، لقوله بعد هذا :

(قَالَسْلَمُ يَكْسِرُ مِنْ جَنَاحَيْ مَالِهِ بِنَوَالِهِ مَا تَجْبُرُ الْهَيْجَاءُ)

أي أنه يجود بماله فيُسَلِّمَ ، ثم يُغَيِّرُ فتَجْبُرُ الهيجاءُ ما انثلم ، ثم يسلم فيعود إلى طبعه الأول من الجود ، فكما هاضت السِّلْمُ ماله جبرتها الحربُ ، وبالعكس ، أي كلما جبرته الحربُ هاضته السِّلْمُ .

(يَا أَيُّهَا الْمُحْيِيَا عَلَيْهِ رُوحُهُ إِذْ لَيْسَ بِأَتِيهِ لَهَا اسْتِجْدَاءُ)

(أحياء عليه روحه) : بأنه لم يستوهبه ولو استوهبه لأعطاه فعدِمَ ، فإن لم يستجده

روحه أحيآله . وعدى (المَحْيَا) بعلَى ، لأنه فى معنى المحبوس عليه روحه .
(اَحْمَدُ عُفَاتَكَ لَا فُجِغْتَ بِفَقْدِهِمْ فَلَتَرَكُ مَا لَمْ يَأْخُذُوا إِعْطَاءُ)

يقول : احمدهم على أن لم يستجدوك رُوحَكَ ، إذ لو استجدوك إياه ،
لَحِقَكَ طبع السكرم والسخاء على هَيْبَتِهِ لَهُمْ ، فقد استوجبوا أن تَحْمَدَهُمْ على ترك
هذه الروح لك ، لأنه عَطَاءٌ مِنْهُمْ لَكَ ، كما ينبغى لَهُمْ أن يَحْمَدُوكَ عَلَى
مَا أُعْطِيْتَهُمْ مِنْ مَالِكَ فَهُمْ يَقْتَضُونَكَ الشُّكْرَ عَلَى عَطَائِهِمْ ، كما تقتضيهمْ أَنْتَ
إِيَّاهُ عَلَى عَطَائِكَ لِأَنَّ الْمَعْطَى بِطَبِيعَتِهِ يَجِبُ أَنْ يَشْكُرَ . فَأَعْطِ مِنْ نَفْسِكَ أَيَّهَا
الْمَدُوحُ ، كما تطلب من غيرك . بل أَنْتَ أَوْلَى بِشُكْرِهِمْ ، لِأَنَّ الَّذِى تَرَكَوْا لَكَ ،
وهو الروح ، أَنْفُسُ مَنْ الَّذِى أُعْطِيْتَهُمْ ، وهو المال .

وقوله : لَا فُجِغْتَ بِفَقْدِهِمْ : إنما حد الصنِيعَةُ أَنْ تُشْكُرَ لِأَنَّهَا إِذَا شُكِرَتْ
حَيَّتْ وَإِذَا كُفِّرَتْ مَاتَتْ ، لِأَنَّ كُفْرَهَا لَهُ سِتْرٌ .

فيقول : لِأَمَانَتِ صَنَائِعِكَ عِنْدَ عُفَاتِكَ بِكُفْرِهَا وَقَلَّةِ شُكْرِهَا . دَعَا بِذَلِكَ لَهُ
وإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : لَا فُجِغْتَ بِحَمْدِهِمْ : أَى لَا فَارَقْتَكَ الْمَرْوَّةُ ، فَيَفِضِ بِكَ فِرَارَهَا ،
إِلَى ضِدِّ حَمْدِ عُفَاتِكَ لَكَ .

(لَا تَكْثُرُ الْأَمْوَاتُ كَثْرَةَ قَوْلِهِ إِلَّا إِذَا شَقِيتَ بِكَ الْأَحْيَاءُ)

أى أَنَّ الْأَمْوَاتَ أَقْلَاءُ ، حَتَّى تَعُودَ فِيهِمْ ، فَيَكْثُرُونَ حِينَئِذٍ .

وقوله : (إِلَّا إِذَا شَقِيتَ بِكَ الْأَحْيَاءُ) : جَمْعَةٌ عَنْ قَوْلِهِ : إِلَّا إِذَا
مِتَّ ، أَى إِذَا مِتَّ وَشَقِيتَ الْأَحْيَاءَ بِفَقْدِكَ ، قَلَّتِ الْأَحْيَاءُ ، وَكَثُرَتِ الْأَمْوَاتُ .
وَقَالَ : كَثْرَةُ قَلَّةٍ : لِأَنَّ الْأَمْوَاتَ وَإِنْ كَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ ، فَهُمْ قَلِيلٌ لَعَدَمِهِمْ
لِلْفَنَى ، وَأَخَذَهُمْ فِي الْفَنَاءِ .

وإن شئت قلت : كثرة قلة : أى كثروا بك وأنت واحد ، والواحد قليل ، فتكثروهم بك تكثر قلة .

وقد يتجه هذا البيت على معنى آخر ، وهو أن الأحياء إنما ينالون الحياة بئدائهم ، فإذا عُدِمَ بالوت ، مات الأحياء الذين كانوا يتعيشون بذلك ، فكثرت الأموات بموت هؤلاء الأحياء بعده .

وقد يجوز أن يعنى بالأحياء هاهنا أعداءه . يقول : لا تكثر الأموات إلا إذا ضاربتك أعداؤك ، فغلبتهم وقتلتهم ، فحينئذ تكثر الموتى بهم . وشقاء الأعداء به قتله إياهم ، وقال : كثرة قلة : لأن ما يدخل تحت الفناء قلة في الحقيقة ودل ذلك على أن أعداءه كثير . والقولان الأولان عندي أوجه .

أخبرني بعض أهل بغداد ، أن المدوح بهذه القصيدة أدركته الوفاة بعد إنشاد المتنبي إياه هذا الشعر بأيام قليلة ، فكان يتقلب على فراشه ويردد هذا البيت الذي فسرناه .

(أبدأت شيئاً منك يُعرف بدؤه وأعدت حتى أنكر الإبداء)
أى أعدت أعظم مما بدأت به ، حتى لا يسمى المبدأ به بالإضافة إلى المعاد .

وإن شئت قلت : أعاد المعروف كثيراً ، حتى صار كأنه لا بدء له .
(لم تسم ياهارون إلا بعد ما أفترعت ونازعت اسمك الأسماء)
أى تنافست فيك الأسماء ، رغبة في الشرف بذاتك ، وتغالبت فليجأت إلى الاقتراع ففاز هذا الاسم وهو هارون بك . وتقديره لم تسم هارون ياهارون فاكتمني من ذكر المفعول الثاني بقوله : ياهارون ، لأن نداءه إياه به دليل على أنه اسمه . وهذا من أحسن الحذف وأوجزه .

(فَعَدَوْتَ واسْمَكَ فِيكَ غَيْرُ مُشَارِكٍ)

والناسُ فِيمَا فِي يَدَيْكَ سَوَاءٌ)

أى لم تُسَمِّ بِغَيْرِ هَذَا الاسمِ مِنَ الأَسْمَاءِ الَّتِي نَازَعْتَهُ فِيكَ ، وَالنَّاسُ فِيمَا لَدَيْكَ سَوَاءٌ : أَى أَنَّهُ وَإِنْ لَمْ تَشْرِكْ فِيكَ الأَسْمَاءَ فَالنَّاسُ مُشْتَرِكُونَ فِي مَالِكَ شِرْكٍ تَسَاوٍ .

(وَلَاجِدْتَ حَتَّى كِدْتَ تَبْخُلُ حَائِلًا)

لِلْمُنْتَهَى وَمِنَ السَّرُورِ بُكَاءُ)

إِنْ شِئْتَ قُلْتَ : بَلَغَ جُودُكَ الْغَايَةَ . وَمَعْرُوفٌ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا انْتَهَى انْعَكَسَ ضِدًّا فَكَذَلِكَ جُودُكَ ، لَمَّا انْتَهَى فَلَمْ يَكْ مُزِيدًا ، كَادَ أَنْ يَسْتَحِيلَ بِخُلَا . وَقَوْلُهُ : وَمِنَ السَّرُورِ بُكَاءُ : (أَى) أَعْلَمْتُ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا انْتَهَى عَادَ إِلَى ضِدِّهِ كَالسَّرُورِ إِذَا أَفْرَطَ كَانَ بُكَاءً . وَقَالَ : (كِدْتَ تَبْخُلُ) ، وَلَمْ يَقُلْ : حَتَّى تَبْخُلْتَ ، اسْتِقْبَاحًا مِنْهُ أَنْ يُوجِبَ عَلَيْهِ الْبَخْلُ .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : تَنَاهَيْتَ فِي الْجُودِ ، فَبَخُلْتَ أَنْ يُشَارَكَكَ أَحَدٌ فِي اسْمِهِ ، فَخَالَ الْجُودُ بِخُلَا ، كَمَا يَحُولُ السَّرُورُ بُكَاءً .

وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ عِنْدِي أَوْجَهُ ، إِذْ لَوْ كَانَ عَلَى الْقَوْلِ الْآخِرِ ، لَمْ يَكُنْ يَكِيدُ مَعْنَى لِأَنَّهُ نَقْصَانٌ مِنْ مَدْحِهِ ، إِذْ يُخْلَهُ بِأَنْ يُشَارَكَكَ فِي اسْمِهِ الْجُودُ غَيْرُ مَذْمُومٍ . وَأَمَّا فِي الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَالْبَخْلُ الْمَطْلُوقُ مَذْمُومٌ . فَتَفْهَمُهُ ، فَإِنَّهُ جَيِّدٌ لَطِيفٌ .

وقوله : للمنتهى : أى من أجل الانتهاء .

(لَمْ تَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا حَمَّتْ بِهِ فَصَبَّيْهَا الرُّحَضَاءُ)

الرُّحَضَاءُ : عَرَقُ الْجُمَى يُرْحَضُ : أَى يَعْسَلُ . أَى لَمْ يُحَاكِ السَّحَابُ

بمطره ، ولا ناوأك ، لأنه معترف أنك أندى منه . وإنما تأمل بذلك وأيقن بالعجز عنه ، فخذك فحماً حتى حسّاده ، فطرها إنها هو عرقُ حَمَاهَا .

(لَو لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي مِنْكَ هُوَ

عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءُ)

جعل الوري جزءاً منه ، بعد أن جعله جزءاً من الوري . فالأول حقيقة ، والثاني مجاز ، لا يكون الكلُّ جزءاً للجزء . هذا خلفٌ ، لكن جماعهم منه ، إشعاراً أنه جمال هذا النوع ، به عُرِفَ ، وإليه نسب ، فكأنه إنها يكون منه ، كقوله :

أنى يكونُ أبا البرايا آدمُ وأبوك والثقلان أنت محمدُ

وهذا قبيح داخل في الشنّع .

وقوله : عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاءُ : أى لو لم تكن من ولديها كان نسلها كلا نسل ، حتى كأنها عقيم ، لم تلد قط .

وقوله : بمولد نسلها : أى عُدَّتْ عَقِيماً على أنها قد ولدت .

- ٣٤ -

وله ايضاً :

(يَحُولُ بَيْنَ الْكَلْبِ وَالتَّأْمَلِ)

إن شئت قلت إن الظبي يُجهد الكلب فيشغله عن التأمل : وإن شئت قلت : إنه يمنع الكلب أن يتأمله بسرعة ، كقول البحري يصف فرساً :

جَارَى الْجِيَادَ فَطَارَ عَنْ أَوْهَامِهَا سَبَقًا وَكَادَ بِطَيْرٍ عَنْ أَوْهَامِهِ

وهذا أبلغ من قول أبي الطيب ، لأن سبق الوهم أدلُّ على السرعة من

سبق الطرف مع لفظ الطيران ، والطيران أبلغ في السرعة ، ولذلك شَبَّهت العرب خيلها بالطير كقول لبيد :

وَكَأَنِّي مُلْجِمٌ سُوْدًا نَقَا

وكقول الآخر :

كَأَنَّ غُلَامِي إِذَا عَلَا حَالَ مَتْنِهِ عَلَى ظَهْر بَازٍ فِي السَّمَاءِ مُحَاقٌّ
(لَهُ إِذَا أُدْبِرَ لَحَظُ الْمُقْبِلِ)

أى أنه من تَبَيَّنَ بِرَأْيِ جِهَاتِهِ ، فَكَأَنَّهُ بَرَى مَا وَرَاءَهُ كَرُؤَيْتِهِ مَا أَمَامَهُ .
(شَبَّهَهُ وَسَمَّى الْحِضَارَ بِالْوَلِيِّ)

الوسمى والولى هنا : مستعار ، وأصلهما فى المطر ، الوسمى الأول .
والولى الثانى . يقول : ثانى جريه مثل أوله كقولهم : فرس ذو عَقَب .
أى جريه الثانى كجريه الأول ، وذلك لشدة وصلابته ، حتى إن إعياءه .
كجهامه .

وهذا كقوله فى موضع آخر يصف فرسا :

وَأَقْتُلْ أَيْ الْوَحْشِ قَفَيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلْ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

أى أنه من الْمَنْعَةِ وَالنَّشَاطِ . فى آخر عَدْوِهِ ، مثله فى أوله ، وحسن
استعاراته الوسمى والولى لأول الجرى وآخره ، لأنهم يستعملون لفظ الغيث فى هذ
النحو كقولهم : فَرَسٌ سَكَبَ ، وَقَيْضٌ وَغَمَرٌ ، وَبَحْرٌ . كل ذلك جواد ،
وهُنَّ مِنْ صِفَاتِ الْغَيْثِ وَالْمَاءِ . وقالوا : شَايِبُ الْجَرَى ، كقولهم شَايِبُ
المطر ، وهى الدَّفْعُ مِنْهُ .

(وَعُقْلَةُ الظِّي وَحَتَفُ التَّمْفِلِ)

أى إذا رأى الكلبُ الظبيَّ والتَّغَفَّلَ وهو ولد الثعلب ، كان عُقْلَةً للظبي
يأخذه ويمنعه من الهرب ، ويهلك التتفل . وهذا كقول امرئ القيس :

بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ

أى أن هذا الفرس قيدٌ للوحش ، فكذلك هذا الكلب ، عُقْلَةً للظبي ،
وحْتَفٌ للتتفل . وقد قال المتنبي أيضاً مثله فى هذا الموضع :

يَتَقَبَّلُونَ ظِلَالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ أَجَلِ الظَّالِمِ وَرَبْقَةِ السَّرْحَانِ

قول : ربة السرحان كقول امرئ القيس : قيد الأوابد ، وزاد عليه
أجل الظليم . فبيته هذا الأخير مكافئ لبيته الأول ، لأن الحُتْفَ كالأجل
والرَّبْقَةَ كالعُقْلَةَ . وصح له الشرف على امرئ القيس .

(لو كَانَ يُبْلَى السَّوْطَ تَحْرِيكَ بَلَى)

أى أن هذا الكلب تجدول مضمَر كاسَّوْط ، فكما أن السوط لا يُبَايَه
التحريك ، كذلك هذا الكلب لا يبليه شدة عَدُوهِ ولا ينتصه ، ولو كان
السَّوْط الذى شبيه له فى الجَدُل الضمَر والاستعمال له يُبْلَى لبلَى الكلب .

(فَجَالٌ مَا لِلْمَقْزِرِ لِلتَّجَدُّلِ)

أى صُرِعَ فصارت قوائمه التى كانت للقفز إلى التجدل . أى التزوق
بالجدالة وهى الأرض .

(وَصَارَ مَا فِى مَسْكِهِ فِى الْمِرْجَالِ)

المرجل : قدر النحاس حاصة ، مذكر من بين أسماء القدر ، يقول : سُلِخَ
عنه جالده ، وأدخل فى القدر ، فعاد ما كان من لحمه فى الجلد رهين المِرْجَالِ ، وأراد :
ما كان فى مَسْكِهِ ، ففى مسكه من صلة الذى ولا يكون خيراً لكان هذه
المراة ، لأن تلك لا تضمر ، وتعمل ، لأنها فعل كونى غير مؤثر وتلك

منع سيبويه إضمارها وإعمالها ، فقال : (واعلم أنه ، لا يجوز لك أن تقول :
عبد الله المقتول ، وأنت تريد : كُنْ عبد الله المقتول) . ولذلك حمل الفارسي
قوله تعالى : ﴿ فوجد فيها رجالان يقتتلان هذا من شيعة وهذا من عدوه ﴾
على الحكاية ، لا على إضمار (كان) استدلالاً بما قدمت من كلام سيبويه .

- ٣٥ -

وله أيضا :

(رَأَيْنَا بَيْدَرَ وَأَبَاهُ لَبْدِرٍ وَلُودًا وَبَدْرًا وَلِيدًا)

معنى هذا البيت : التعجب من خرق العادة ، وهو من ظريف المجازة .
فبدر الأول : اسم المدوح . والآخران : عنى بهما البدر المعروف .

يقول : ليس من طبيعة البدر الفلكي أن يلد ولا أن يولد . فلما رأينا بداراً
هذا المدوح وأباه وجدنا بوجودنا إياه بداراً مولوداً ، ووجدنا بوجود آباه
ولوداً البدر . فقد خرق علينا المعتاد ، فوجب التعجب .

وحاصل البيت : وجدنا بيدر هذا المدوح بداراً وليداً . ولا كبير فائدة
في وجود الآباء ، لأن المولود والوالد من باب المضاف والمضاف إليه . فإذا
وجد بداراً مولوداً ، فلا محالة أن له والدين . فإذا ذكره الآباء هنا حشو ،
إلا أن يُفيدنا بذلك أن آباءه بدور . وليس بكبير فائدة أيضاً ، لأن النوع
لا يلد غير نوعه ، فتفهّمه .

(طَلَبْنَا رِضَاهُ بِتَرِكِ الَّذِي رَضِينَا لَهُ فَتَرَكْنَا السُّجُودَا)

أى رضينا أن نسجد له إذا رأيناه إكباراً نهو إيثاراً ، إلا أنه لا يريد ذلك
منا ، لأن هذا إنما ينبغي لله عز وجل ، فطلبنا نحن حينئذ رضاه ، بترك السجود
الذي رَضِينَا لَهُ . فقد مدح بداراً هنا بشيئين :

أحدهما : جلالة القدر ، حتى رُئِيَ أهلاً للسجود له . والآخر : تورُّع
بدر عن هذا الذي رضىه المتنبى له ، قبحاً لكلامه ، ونهراً في هذا الموضع
وأشباهه لنظامه .

وقوله : فتركنا : معطوفٌ على طلبنا ، ولا يكون معطوفاً على رضينا ،
لفساد المعنى ، وأن (الذي) لا يعود عليه من المعطوف على صلته شيء .
(بِهَجْرٍ سَيْوْفِكَ أَغْمَادَهَا تَمَنَّى الطُّلَى أَنْ تَكُونَ الْغُمُودَا)
أى أن سيوفك مسلوكة أبداً ، فأغمادها خلوة ، والسيوف في الطلى ، فتمنى
الطلى أن تكون الأغماد ، لتخلو منها كما خلت الغمود .

(فَأَنْتَ وَحِيدُ بَنِي آدَمَ وَلَسْتَ لِفَقْدِ نَظِيرٍ وَحِيدَا)
أى : واحدٌ في الفضائل ، وكرم الشئائل ، ولم يحترم الزمان نظراءك .
بل لك نظراء في حب المجد ، والسعى إلى ابتناء الحمد ، ولكنهم لم يؤثروا من
ذلك ما أوتيته ولا حُبُّوا بما حُبَّيته ، وليس أوانك خلواً من السادة ، فتكون
أنت إنما سُدَّتْ نُخْلُوُ الوقت من ذوى السيادة ، لأن تلك سيادة لا تتبين لها
مزية . وإنما الفخر أنك ذو نظراء ، وأنتك مُوفٍ عليهم ، بخلاف قول
الشاعر :

خَلَّتِ الدِّيارُ فَسُدَّتْ غَيْرَ مُسَوِّدٍ وَمِنْ الشَّقاءِ تَفَرَّدِي بِالسُّودَدِ

- ٣٦ -

وله أيضا :

(حَدَقَ يُدِمُّ مِنَ الْقَوَاتِلِ غَيْرَهَا بَدْرُ بْنُ عَمَّارٍ بْنِ إِسْمَاعِيلَا)
أى أنه يُدِمُّ كل مظلوم فيقيده من وائره وينصفه . إلا من قتله
هذه الحدق ، فإن هذا الأمر على جلالته ، لا يقوى مظلومها ولا يُقيدُ قَتِيلَهَا .
وهذا نحو قوله في سيف الدولة :

وَقِيَ الْأَمِيرُ هَوَى الْعَيُونِ فَإِنَّهُ مَالًا يَزُولُ بِبَأْسِهِ وَسَخَائِهِ
 (وَكَاْنَا غَرَّتْهُ عَيْنٌ فَأَذْنَى لَا يُبْصِرُ الْخُطْبَ الْجَلِيلَ جَلِيلًا)
 تعجب من الأسد كيف آتته . ولقاؤه من أجل الخطوب . لكن عين
 الأسد غرته ، فلم تره إياه على صفته التي هو عليها من المهابة والجلالة ، فأقدم
 لذلك ، ولو أرتة عينه إياه على ماهو به ، لأحجم ولم يقدم ، وهذا كقوله
 في موضع آخر :

ذَمُّ الدُّمُسْتَقِ عَيْنِيهِ وَقَدْ طَلَعَتْ سُودُ الْغَمَامِ فَظَنُّوا أَنَّهَا فَرَاعُ
 أى أن عيني الدُّمُسْتَقِ احتقرتا المسلمين ، فأرتاه جموعهم قليلة ، فأقدم فوقه
 عليه البلاء ، فذم عينيه ، لكذبهما حين ألقى الأمر على خلاف ما أوهمته . ونحوه
 قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذَا التَّيَّمُّمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ .
 إلا أن رؤية الدُّمُسْتَقِ والأسد لما أُلْفِيَا دون ماهو به ، خلاف هذا الذي في
 التَّنْزِيلِ من جهة وموافق من جهة ، وذلك أن تقليل الكفار في أعين المؤمنين
 إنما كان تثبيتاً لقلوب المؤمنين ، فذلك خير أريد بهم ، كما أريد بالأسد
 والدُّمُسْتَقِ الشرهما وأما قوله تعالى : ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ فهذا مطابق لحال
 الأسد والدُّمُسْتَقِ لأن الله تعالى إنما قلل المؤمنين في عيون الكافرين ليحتقروهم
 فَيَنْتَبِتُوا . ولذلك قال تعالى ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أى إنما قلل
 الكفار في أعين المؤمنين ليكون أجراً للمؤمنين عليهم ، وقلل أولئك في أعين
 الكافرين ليقدموا عليهم ، فتدور عليهم دائرة السوء .

- ٣٧ -

وله أيضا :

(أَبْعَدُ نَائِي الْمَلِيحَةِ الْبُخْلُ فِي الْبُعْدِ مَالًا تَكَلَّفُ الْإِبْلُ)
 جعل النأي أنواعا ، أبعدها البخل ، إذ سائر أنواع النأي يرجى دُنُوهُ ،

إِنَّمَا يَلْبَسُ الْمَحْبُوبُ وَإِنَّمَا يَتَجَشَّمُ السَّيْرُ إِلَيْهِ . فَأَمَّا الْبُخْلُ فَلَا احْتِيَالُ فِيهِ ، لِأَنَّهُ مِنْ قَبْلِ الْمَحْبُوبِ نَفْسَهُ ، لِأَمْنٍ قَبْلَ كُنْأَى أَوْجَبِهِ . وَلِذَلِكَ قَالَ : (فِي الْبُعْدِ مَا لَا تَكَلَّفُ الْإِبِلُ) : أَيْ أَنَّ بُخْلَ هَذِهِ الْمَلِيحَةِ مَسَافَةٌ نَفْسَانِيَّةٌ لَيْسَ لِلْإِبِلِ فِيهَا عَمَلٌ ، فَلَا تَكَلَّفُهَا وَلَا تَعْتَمَلُ فِيهَا . إِنَّمَا تَكَلَّفُ الْإِبِلُ قَطْعَ الْأَرْضِ .

وهذا كقوله هو :

لَوْ عَدَا عَنْكَ غَيْرَ هَجْرِكَ بُعْدٌ لَأَرَارَ الرَّسِيمُ مُخَّ الْمَنَاقِ
أَيُّ لَوْ كَانَ بَعْدُكَ مِنْ جِهَةِ الْمَسَافَةِ الْأَرْضِيَّةِ لِأَعْمَلْنَا إِلَيْكَ الْإِبِلَ حَتَّى نَهْزِلَهَا
وَلَكِنْ بِمَدِّ نَفْسَانِي . إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ هَجْرِكَ . فَالْهَجْرُ هُنَا كَالْبُخْلِ فِي
بَيْتِهِ الْأَوَّلِ إِلَّا أَنَّ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ أَوْجَزُ ، لِأَنَّهُ انْتِظَمَ قَضِيَّتَيْنِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا
مُسْتَفْنِيَةً بِذَاتِهَا مَعَ قَصْرِ عَرْوَضِهِ .

(مَلُولَةٌ مَا يَدُومُ لَيْسَ لَهَا مِنْ مَلَالٍ دَائِمٍ بِهَا مَلَالٌ)
أَيُّ أَنَّهَا تَمَلُّ كُلَّ دَائِمٍ ، إِلَّا مَلَلَهَا فَإِنَّهُ دَائِمٌ ، وَهِيَ مَعَ دَوَامِهِ لَا تَمَلُّهُ .
(قَفَا) عَلَى هَذَا مَفْعُولٌ بِمَلُولَةٍ ، لِأَنَّ مَفْعُولًا عِنْدَ صَاحِبِ الْكِتَابِ مِمَّا
يَقْطَعُ .

وَمِنْ رَوَاهُ تَدُومٌ : جَعَلَ (مَا) جَعْدًا ، أَيْ مَا تَثَبَّتْ . دَامَ الشَّيْءُ : ثَبَّتَ .
حَكِي سَيْبُوهُ عَنِ الْعَرَبِ : (مَا تَدُومُ لِي أَدُومُ لَكَ) أَيْ أَدُومُ لَكَ مَا تَدُومُ
لِي . وَأَرَادَ مَا تَدُومُ صَلَاحُهَا أَوْ مَا تَدُومُ لِلْمَلِيلِ .

(بِصَارِمِي مُرْتَدٍ بِمُخْبَرَتِي مُجْتَزِي بِالظَّلَامِ مُشْتَمَلٌ)
أَيُّ لِصَاحِبِ لِي فِي سَفَرِي إِلَّا سَفِي مُرْتَدِيًا بِهِ ، وَلَا دَلِيلَ لِي إِلَّا خَبَرَتِي
بِالْقَلَاةِ ، وَلَا مَانِعَ لِي مِنَ الْأَعْدَاءِ سِوَى الَّذِي يَسْتَرِنِي عَنْهُمْ .

وقوله : (بِمَخْبِرَتِي مَجْتَرِي) : كقوله :

ذَرَانِي وَالْفَلَاةَ بِلا دَلِيلٍ وَوَجْهِي وَالْمَجِيرَ بِلا لِثَامٍ .
ورفع ذلك كله بإضمار مبتدأ ، أى أنا مُرْتَدٍ بِمَخْبِرَتِي مشتمل ... الخ .
(أَصْبَحَ مَالاً كَمَالِهِ إِذْ دَوَى الْحَا جَةً لَا يُبْتَدَى وَلَا يُسَلُّ)

أى نُصَرِّفُهُ عَلَى احْتِكَامِنَا وَاقْتِرَاحِنَا ، كَمَا يُصَرِّفُ مَالَهُ ، فَلَا هُوَ يَبْتَدِئُنَا بِالْعَطَاءِ ، وَلَا نَحْنُ نَسْأَلُهُ . أى فكما أنا لَانِسْتَاذِنُ مَالَهُ ، بَلْ نَأْخُذُهُ مُنْحَتَكِينَ ، كَذَلِكَ لَانِسْتَاذِنُ بَدْرًا فِي أَخْذِ مَالِهِ . قَدْ اسْتَوَى هُوَ وَمَالُهُ فِي أَنَّهَا لَا يُسْتَاذِنَانِ ، وَلِذَلِكَ قَالَتِ الْعَرَبُ : مَا هُوَ إِلَّا دَهْشِيمَةٌ كَرِّمٌ ؛ أى يَأْخُذُهُ الْوَارِدُ كَيْفَ شَاءَ ، لَا يَعْصِرُ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ، كَمَا أَنَّ الْهَشِيمَةَ ، وَهِيَ الْعُودُ الْيَابِسُ لَا تَتَعَذَّرُ عَلَى مُخْتَطِبِهَا وَلَا تَحْجُجُهُ إِلَى تَعَبٍ فِي تَنَاوُلِهَا .

(إِنْ أَذْبَرْتُ قُلْتُ : لَا تَلِيلَ لَهَا أَوْ أَقْبَلْتُ قُلْتُ : مَالُهَا كَفَلُ)
التَّلِيلُ : الْعُنُقُ وَمَا يَلِيهَا مِنَ الصَّدْرِ ، أى صَدْرُهَا الْمَقْبِلُ يَحْجُزُ عَنْ كَفْلِهَا ، وَكَفْلِهَا الْمُدْبِرُ يَحْجُزُ عَنْ صَدْرِهَا ، فَأَنْتَ مِنْ حَيْثُ تَأَمَّلْتَهَا رَأَيْتَهَا مُشْرِفَةً ، وَالْمُسْتَحْبَبُ مِنَ الْفَرَسِ أَنْ تَهْتَزَّ مَقْبَلَةً وَتَنْصَبَّ مَدْبِرَةً ، فَبَاهِتَ رَازِهَا مَقْبَلَةً يَخْفَى الْكَفَلُ ، لِإِشْرَافِ التَّلِيلِ ، مَا بَانَ صَبَابُهَا يَخْفَى التَّلِيلُ لِإِشْرَافِ الْكَفَلِ .

(أَنْتَ تَقِيضُ اسْمِهِ إِذَا اخْتَلَفْتَ قَوَاضِبُ الْهِنْدِ وَالْقَنَا الذُّبُلُ)

جَعَلَ اسْمَهُ وَهُوَ بَدْرٌ ، دَالاً عَلَى صَوْرَتِهِ وَطَبِيعَتِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْبَدْرَ إِنَّمَا يُسَمَّى بِهِ الْقَمَرُ إِذَا قَابَلَ الشَّمْسُ قَامِتاً نَوْرًا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ سَعْدٌ لَا نَحْسٌ .

يَقُولُ : فَأَنْتَ خِلَافُ هَذَا الْاسْمِ ، أى خِلَافَ طَبِيعَةِ الْمُسَمَّى بِهَذَا الْاسْمِ فِي الْحَرْبِ ، لِأَنَّكَ فِي السَّلَامِ طَلَقْتَ نَيْرٌ ، وَحِظْتَ السَّعَادَةَ ، وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْبَدْرِ وَفِي الْحَرْبِ عَمُوسٌ مُهْلِكٌ ، وَتِلْكَ طَبِيعَةُ زُحَلٍ . فَأَنْتَ فِي الْحَرْبِ عَلَى غَيْرِ

ما أنت به في السلم طبيعة . فقد وجب لاسمك في الحرب أن يكون غير اسمك في السلم . وقال : (أنت تقيض اسمه) ولم يقل ؛ ضِدَّ اسمه ، لأن التقيض أشدُّ مباينة لتقيضه ، من الضدُّ لضده .

(أَنْتَ لَعَمْرِي الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَلَكِنَّكَ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ زُحَلٌ)
أى أنك سَعَدَ في السلم ، وشيمنتك في الحرب ضدَّ ذلك ، وليس بالبدر ولا بزُحَل في الحقيقة ، وإنما عني بالبدر أنه مُسْعِد ، وبزُحَل أنه مُنْجِس ، والمنير هنا : مفيد لأن البدر قد يتلبَّسه الغيم فلا يُنِير .

(مَدَدْتَ فِي رَاحَةِ الطَّيِّبِ يَدًا وَمَا دَرَى كَيْفَ يُقَطِّعُ الْأَمْلُ)
أى كفك مجتمع الآمال قد اتَّصَلَتْ بها ، كأن عُرِوْقَهَا قد صارت آمالاً ، والطيب لا معرفة له بِبُضْعِ الْأَمَالِ ، ولا بِمَعَانَاتِهَا ، إنما يعانى الأبدان ، فلا تلحقته ملاماً ، لأنك كلَّفْتَهُ مَا لَا يُحْسِنُ ، والإنسان إنما يلام على تقصيره فيما يُعْزَى إِلَيْهِ عَلَيْهِ ، فإن قصر فيما ليس من علمه فغير مَلُوم .
وقوله : (كيف يقطع الأمل) لم يرد القطع المُفْسِد ، وإنما أراد كيف يقطع الأمل للإصلاح .

- ٣٨ -

وله ايضاً :

(فَمَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مُقَامًا وَلَا أَزْمَعْتُ عَنْ أَرْضٍ زَوَالًا)
أى أنى ملازم لظاهر بعبيرى ، فكأنى مقيم ، وأنا مع ذلك سائر . فإمكانى يتقسم ما بين الحالين . لأنى لا ظاعن ولا قاطن .

(إلى بدر بن عمار الذى لم يَكُنْ فِي غُرَّةِ الشَّهْرِ الْهِلَالَا)
البدرُ يبدو هلالاً ثم يتزايد ، ولا يسمَّى بدرًا حتى يكمل ، وبدر بن عمار

لم يك قط هلالاً ، بل لم يزل كاملاً . وهذا منقطع شرعي ، لأنه لم يك قط هلالاً ولا بدرًا . وكأنه لم يزل بدرًا ، لأن ذلك لم يزل اسمه . وهذا البيت وإن كان المقصود به المدح ظاهراً فقد يجوز أن يقصد به الذم باطنًا . لأنه لا بدر على الحقيقة إلا وقد كان في غرة الشهر هلالاً . وهذا لم يك هلالاً ، فليس إذن بدرًا .

فالحاصل له من ذلك ، أنه بدرٌ بالتسمية ، لا بالطبيعة ، فيكون ذلك مقتضياً للهزؤ ، ونخرج مُشَبِّها لقوله :

وفارقتُ شرَّ الأرض أهلاً وتربةً بها علويُّ جدُّه غيرُ هاشمٍ
(جوابُ مُسَائِلِي أَلَهُ نَظِيرٌ وَلَا لَكَ فِي سُؤَالِكَ لَا ، أَلَا ، لَا)

تقديرُ البيت : جوابُ مُسَائِلِي : (أله نظيرٌ) : ألا ، لا ، أي ليس له نظير ، فلا جدُّ ، وألا : استفتاح (ولا لك في سؤالك) نظير ، لا ، أيها السائل ، فلا الثانية تأكيد ، وإنما حاجة الكلام : ولا لك أيُّها السائل نظير ، إذا شككت في أنه لا نظير له ، حتى أحوجك ذلك إلى السؤال . فقوله : (ألا ، لا) : خبر المبتدأ الذي هو قوله : (جوابُ مُسَائِلِي) . وقوله : (ولا لك) معطوف على قوله : (ألا ، لا) فعكس ، بأن قدم المعطوف على المعطوف عليه .

(وَقَالُوا : هَلْ يُبَلِّغُكَ الثَّرِيَّا قُلْتُ نَعَمْ إِذَا شِئْتُ اسْتِغْنَا) (

أي أنا معه فوق الثريا ، فإذا أردت أن يبلغني إياها ، فإنما أبلغها بأن يحطني إليها ، فأنا لا أريد منه بلوغ الثريا ، إلا أن أشاء التسفل لأن العالي لا يبلغ ما هو أخفض منه إلا بأن يحط إليه .

وهذا كقوله :

فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ مَا طَلَبُوا فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةَ نَزَلُوا

أى أن علوهم الآن فوق كل غاية ، فإذا أرادوا غاية محدودة ، نزلوا إليها ، إلا أن هذا البيت الآخر أنخم معنى . وأصل ذلك قول البحترى لمحمد ابن على :

لمحمد بن على الشرف الذى لا يلدحظ الجوزاء إلا من على
أى أنه فوق الجوزاء ، فإذا لحظها فإنما يلحظها من فوقها .

(فقد وجلت قلوب منك حتى غدت أوجالها فيها وجالا)

أبى وجلت قلوبهم ، حتى غدت أوجالهم ؛ فوجلت الأوجال ، وهذه مبالغة كقولهم : جن جنونه . وقالوا : شعر شاعر . ومثله كثير حكاه سيبويه وسائر أهل اللغة . قال سيبويه : سألت الخليل عن ذلك ، فقل : أرادوا المبالغة والإشادة . ووجال : جمع وجيل كوجيع ووجاع ولو قال : وجانى ؛ يريد جمع وجيل ، لكان كحبيج وحباجى وحبط وحباطى .

(يفارق سهمك الرجل الملاقى فراق القوس ما لاقى الرجالا)

أى إن سهمك كلما لاقى رجلا خرقه ونفذ منه على ما هو به من قوته الأولى هند فراق القوس ، وذلك دأبه ما لقي الرجال وإن كثروا . يصفه بجودة الرمى وقوة النزع . فما : منصوبة على الظرف ، والقوس : فى موضع نصب . أى فراقه القوس . فأضاف المصدر إلى المفعول ، كقوله تعالى : لا يسأم الإنسان من دعاء الخير .

- ٣٩ -

وله ايضا :

(أفدى المودعة التى أتبعتمها نظرا فرادى بين زفرات ثنا)

أى حضر الرقيب فحذره ، قللت نظراته ، وغلبت الحسرة ، فكثرت

زَفَرَاتُهُ . حتى كانت الزَّفَرَاتُ ضِعْفَ النظراتِ . فلذلك جعل النظراتِ
 فرادى ، والزَّفَرَاتُ ثَنَاءً . واحتاج إلى قَصْرِ (ثَنَاء) و ثَنَاءٌ معدُولٌ عن
 (اثنين اثنين) المقتضية (ثنتين ثنتين) ، ولا تكون معدولة عن (اثنين
 اثنين) لأن المعدول بمدد المعدول عنه . وقال . زَفَرَاتُ فُسْكَنِ الفاء للضرورة ،
 كقول ذي الرُّمَّة :

أَبْتُ ذِكْرًا عَزَّذَنَ أَحْشَاءَ قَلْبِهِ خُفُوقَ وَرَقَصَاتِ الْهَوَى فِي الْمَفَاصِلِ
 (وَتَوَقَّدَتْ أَنْفَاسُنَا حَتَّى لَقَدْ أَشْفَقْتُ تَحْتَرِقُ الْعَوَاضِلُ بَيْنَنَا)

أَشْفَقَ من احتراق العَدُولِ مع شَنَائِهِ لَهُ ، خشية أن يتم احتراقه بما هما
 عليه من توقد النفس . فقال : إن العواذل إنما احترقن بتوقد أنفاسهما عند
 التقائهما ، وأراد (أن تحترق العواذل) أى (من أن) فحذفها ، وأبطل
 عملها بحذفها . وإن شئت نصبت الفعل على مكان (أن) فكانت بمنزلة
 مُؤَثَّرٍ غَابَ وَبَقِيَ تَأْثِيرُهُ دَالًّا عَلَيْهِ .

(مَنْ لَيْسَ مِنْ قَتْلَاهُ مِنْ طُلُقَائِهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ دَانَ مِنْ حِينَا)
 يقول : عِدَاهُ قَتْلَاهُ وَأَسْرَاهُ ، ومن أفلت منهم فإنما هو طليقه ،
 بصفحة عنه .

(ومن ليس من دان ممن حِينَا) دَانَ الرجلُ : أطاع . أى من لم يكن
 من دائنيه فهو من مُحِينِيهِ . وأراد : دَانَ لَهُ ، فحذف للعلم بها . ومن هنا
 بمعنى الذى ، كأنه قال : الذى ليس من قتلاه معدود فى طلقائه ، والذى ليس
 من دائنيه مُحِينٍ . فقوله : (من طُلُقَائِهِ) فى موضع خبر المبتدأ ، الذى هو
 (مَنْ) الأولى . وقوله : ممن حِينَا خبر مبتدأ ، الذى هو (مَنْ) الثانية .
 (وَقَطَعْتُ فِي الدُّنْيَا الْفَلَاحَ وَرَكَابِي فِيهَا وَوَقْتِي الضُّحَى وَالْمَوْهِنَا)

أى أفنيت الأمكنة والأزمنة والركائب . وكان يجب أن يقول : ووقتي الضحى والموهن لأن الموهن نحو من الزمن الليلي ، نصف الليل . والضحى : أول الزمن النهاري . فقابل هو الموهن الذى هو نصف الزمن . الليلي ، بالضحى ، الذى هو أول الزمن النهاري . ولو قال قائل : عنى بالضحى اليوم كله ، وبالموهن الليل كله ، وأقام الجزء مقام الكل ، كما أقيم الكل مقام الجزء فى قوله تعالى : (وَإِنَّكُمْ لَمَرُُونٌ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ) الآية ١٣٧ من سورة الصافات لكان جائزاً ، فَتَفَهَّمْهُ فَإِنَّهُ لَطِيفٌ .

(أَمْضَى إِرَادَتِهِ فَسَرَفَ لَهُ قَدْ وَاسْتَقَرَّبَ الْأَقْصَى فَتَمَّ لَهُ هُنَا)
 إن شئت قلت : متى قال غيره : سوف أفل ، قال هو : قد فعلت ، فسبق . ومتى قال غيره : ثمّ الجرم أو السماء مستبعدا ، قال هو — (هُنَا) مستقربا .

وإن شئت قلت : إذا نوى أمراً سابق نيتته بفعله ، فصار المستقبل ماضياً ، ومتى لحظ أمراً بعيداً أعمال عزمه ، فقرب عليه فتناوله .
 (نَيْطَتْ كَهَائِلُهُ بِعَاتِقٍ مِّخْرَبٍ مَا كَرَّ قَطُّ وَهَلْ بَكَرُّ وَمَا انْشَى)
 إنما يكون الكرّ بعد الانثناء فالانثناء علة له ، فإذا لم يكن انثناء لم يكن كرّ ، لأنه إذا ارتفعت العلة ارتفع المعلول ، فيقول : هذا المخرّب ما كرّ لأنه لم ينثن ، فيعقب الانثناء بالكرّ .

(تَتَقَاصَرُ الْأَفْهَامُ عَنْ إِدْرَاكِهِ مِثْلَ الَّذِي الْأَفْلَاكُ فِيهِ وَالْذُّنَا)

غاية ما أدركت الأفهام ، الفلك وما فيه ، فأما ما هو فيه ، فلم يدركه وهم ولا فهم : فيقول : إدراكه معوز كإدراك ما فيه الدنيا والفلك . والذُّنَا : جمع الدنيا ، كالعُلَا جمع العُلَيَا ، وهذا مطرد .

(لَا يَسْتَكِنُ الرَّعْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ يَوْمًا وَلَا الْإِحْسَانُ إِلَّا يُحْسِنَا)

أى لا يتصور الخوف بين ضلوعه ، ولا يتصور أيضاً بينهما العلم بالأيحسـن .
بل هو مُحسِنٌ لأن يُحسِنَ ، وغيره محسن الا يحسن أى الإحسان غلبه . والإحسان
هنا أن يكون المعرفة ، كقول فلان مُحسِنٌ لعلم كذا ، ويجوز أن يكون الإحسان
الذي هو ضد الإساءة ، فكأنه قال في كل ذلك : ولا يُحسِن ترك الإحسان ؛ إنما
يُحسِن الإحسان . وهذا كقول الآخر أَنشدناه أبو الفتح :

تُحْسِنُ أَنْ تُحْسِنَ حَتَّى إِذَا رُمْتَ سِوَى الْإِحْسَانِ لَمْ تُحْسِنِ

إلا أن هذا البيت بعيد ، لأنه نسب إلى الممدوح مرام غير الإحسان .
(سَلَكْتَ تَمَائِيلَ الْقِيَابِ الْجَنُّ مِنْ شَوْقِهَا فَأَذَرْنَ فِيكَ الْأَعْيُنَا)
أى سَلَكْتَ الْجَنُّ صُورَ الْقِيَابِ ، لتنظر إليك شوقاً ، وإنما قال :
(تمائيل القِيَابِ) ولم يقل (القِيَابِ) ، لأنهم يزعمون أن الجن تألف
التصاوير الموضوعة على أشكال الحيوان . وقد قيل : إنما كُرِهَ اتِّخَاذُهَا فِي
الْقِيَابِ وَالْمَسْتُورِ وَالْبُسْطِ لِهَذَا .

(وَعَجَبْتُ حَتَّى مَا عَجَبْتُ مِنَ الظُّبَا وَرَأَيْتُ حَتَّى مَا رَأَيْتُ مِنَ السَّنَا)
الظُّبَا : السيوف . والسَّنَا : الضوء . أى عَجَبْتُ مِنَ السِّيُوفِ حَتَّى أُنْسِتُ
بِالْعَجَبِ ، وَأَخْلَدْتُ إِلَيْهِ ، فلم أعجب بعد ، وَرَأَيْتُ لِمَا نَهَنَ حَتَّى عُشِّي بِصَرِي
فلم أر . فصدر البيت كقول أبي تمام :

حَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ
(فَطَنَّ الْفَوَادُ لِمَا أَتَيْتُ عَلَى النَّوَى وَإِذَا تَرَكْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَفْطَنَا)
أى لم تقتصر على العالم بما صنعتُ ، حتى علمت ما تركته مخافة أن يفطن
به . وقيل معناه : قد علمت ما كان من شكرى وثنائى عليك ، وهو الذى

فَطَنَ فَوَادِكَ لَهُ . وَكَذَلِكَ فَطَنَ أَيْضًا لِمَا تَرَكْتُهُ ؛ خَوْفًا أَنْ يَفْطَنَ لَهُ ، مِنْ تَنْقُصِكَ أَيْضًا ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ تَرَكِي لِدَكَ إِلَّا مَخَافَةً أَنْ يَفْطَنَ فَوَادِكَ لَهُ ، فَكَيْفَ وَطَبِيعَتِي فَيْكَ خِلَافُ ذَلِكَ . وَالْبَيْتُ يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الْإِخْلَالِ بِقَلْبِ بَذْرِ بْنِ عَمَّارٍ . وَيَقْوِيهِ قَوْلُهُ :

(أَضْحَى فِرَاقُكَ لِي عَلَيْهِ عُقُوبَةٌ لَيْسَ الَّذِي قَاسَيْتُ شَيْئًا هَيْنًا) أَيْ عُوْقِبْتُ عَلَى تَقْصِيرِي عَنْ وَاجِبِكَ ، بِفِرَاقِكَ الشَّدِيدِ عَلَى الْكُرْهِ إِلَى ، فَلَيْسَ الَّذِي لَاقَيْتَهُ مِنْ ذَلِكَ بَهَيِّنٍ ، أَيْ يَسِيرٍ . وَلَا يَرِيدُ الْمُهَيِّنُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْعَزِيزِ .

- ٤٠ -

وله أيضا :

(يَتَدَاوَى مِنْ كَثْرَةِ الْمَالِ بِالْإِقْدِ - لِأَلِ جُودًا كَأَنَّ مَالًا سَقَامُ) أَيْ يَتَشَافَى بِالْجُودِ ، حَتَّى كَأَنَّ الْمَالَ مَرَضٌ يَبْغِي إِزَالَتَهُ ، وَالْإِقْدَالُ بُرٌّ يُطْلَبُهُ .

وقوله (كأن مالا سقام) — أراد كأن وجود مال ، لأن المال لا يقال له سقام إذ هو جوهر والسقام عرض .

(حَسَنٌ فِي عَيُونِ أَعْدَائِهِ أَقْدٌ بَجْحٌ مِنْ ضَيْفِهِ رَأَتْهُ السَّوَامُ)

أَيْ هُوَ حَسَنُ الصُّورَةِ غَايَةً إِلَّا فِي عَيُونِ أَعْدَائِهِ ، لِمَلْهِمْ بِإِهْلَاكِهِ إِيَّاهُمْ ، أَقْبَحُ مِنْ ضَيْفِهِ فِي عَيُونِ السَّوَامِ ، لِمَلْهَا إِذَا رَأَتْ الضَّيْفَ أَنَّهَا مَنْحَوْرَةٌ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

حَبِيبُ إِلَى كَلْبِ الْكَرِيمِ مَنَاخُهُ بَغِيضٌ إِلَى الْكُوفَاءِ وَالْكَلْبُ أَبْصَرُ وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ . فَقَوْلُهُ : (فِي عَيُونِ أَعْدَائِهِ) : ظَرْفٌ لِأَقْبَحَ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ

بحسن ، لأنه لا يحسن في عيون أعدائه . وتقدير البيت : حسن في عيوننا معشر
أحبابه ومن لا يشقى به ، لكنه بخلاف ذلك في أعين عداه . وقد بالغ بالقبح ولم
يبالغ بالحسن ، لأن قبحه في عيون أعدائه ، أمدح له من الحسن في عيون
أحبابه .

(وَعَوَارٍ لَوَامِعٌ دَمُهَا الْحِلُّ وَلَكِنَّ زِيَّهَا الْإِحْرَامُ)

اللوامع : السيوف لبريقها . ووصفها بالعُرَى : لاعتيادها مفارقة أغمارها .
وعوارٍ : جمع عار ، لاجمع عُرَيَان ، لأن فُعْلَان لا يكسر على (فواعل)
(دَمُهَا الْحِلُّ) : أى أنها مستحيلة للدماء ، على أن زِيَّهَا الْإِحْرَامُ : أى أنها
مجردة أبداً كالمُحْرِم والمحرم لا يَسْفِكُ الدماء . فقد اجتمع في هذه السيوف
طبيعة الحل وزى الإحرام .

(وَمِنَ الرُّشْدِ لَمْ أَزُرْكَ عَلَى الْقُرْبِ عَلَى الْبُعْدِ يُعْرِفُ الْإِلْمَامُ)
كان قريباً منه فلم يزُرْهُ ، ثم بعدَ فزاره ، ليكون ذلك أدلَّ على إجلاله
وإعظامه له ، فأوجبه . وأراد : من الرُّشْدِ أَنى لم أَزُرْكَ . وقوله (على
البعْدِ) : متعلق بيعرف . وعلى القرب متعلق بأزُرْكَ .

- ٤١ -

وله ايضا :

(تَخْلُو الدِّبَارُ مِنَ الظُّبَاءِ وَعِنْدَهُ مِنْ كُلِّ تَائِبَةٍ خَيَالٌ خَاذِلٌ)

كفى بالظباء عن الحسان . أى تَخْلُو الدِّبَارُ عَنْ كَانِ بِهَا . والخيالُ غير
مفارق لى . وكفى بالتائبة عن صغارها ، لأن الجداية وهى الصغيرة من الظباء
تتبع أمها . ولما جعل المرأة غزاةً جعل الخيال خاذلاً ، كما تَخْذُلُ الظبية عن
القطيع ، أى تتأخر .

وإن شئت قلت : جعل الخيال بمنزلة ولد الغزال ، وَرَبَّةَ الخيال بمنزلة الغزال . فتابعة بمعنى متبوعة على هذا القول . وجعله الخيال بمنزلة الولد لها تعسف لأن الخيال رُوْحَانِي ، فهو أَلْفُفٌ من رؤية الخيال ، كما أن الصغير الجسم أَلْفُفٌ من الكبير . وَخَاذِلٌ : أى خَذَلَهَا وزارنى . فَمِنْ — على هذا — تكون للتبعيض والجنس ، فَتَنَّهُمَهُ .

(كَافَأْنَنَا عَنْ شِبْهِهِنَّ مِنَ الْمَهْمَا فَلَهُنَّ فِي غَيْرِ التُّرَابِ حَبَائِلُ)
كَافَأْنَنَا : من الكَفُوْءُ ، وهو المثل ، والمها : بقرا الوحش : يُشَبِّهُ النساءَ بهن في سواد الخدق . والحبائل : الشَّرَكُ ، واحدها : حِبَالَةٌ ، أى صِدْنَا المها وهن أشباه النساء ، بحبائل منصوبة لهن في التراب ، فكافأنا عن فعلنا بأشباههن بأن صِدْنًا كما صِدْنَاهُنَّ ، طلباً نثارهن ، إلا أن النساء صِدْنًا بحبائل لم تُنصب لنا في التراب ، وهى الأعين والحدود وغيرها من المحاسن الظاهرة ، كاللباس والأعطاف والقُدود ، وكلهن حبائل إلا أنها لا تثبت في التراب .

(مِنْ طَاعِنِي تُغَرِّ الرِّجَالِ جَاذِرٌ وَمِنْ الرِّمَاحِ دَمَالِجٌ وَخَلَاخِلُ)
كَتَى بِالْجَاذِرِ هُنَا عن النساء ، كما كَتَى عَنْهُنَّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ بِالطَّبَاءِ أى يَنْبَغِي أَنْ تُعَدَّ جَاذِرُ الْإِنْسِ مِنْ طَاعِنِي تُغَرِّ الرِّجَالِ ، لِأَنَّهُنَّ يَفْعَلْنَ مِنَ الْقَتْلِ مَا لَا يَفْعَلُ الطَّاعِنُ . وَيَنْبَغِي أَنْ يُعَدَّ الْحَلِيُّ مِنَ السِّلَاحِ ، لِأَنَّهُ سِلَاحُ النِّسَاءِ ، كَقَوْلِ الْأَعَشَى :

إِذَا هُنَّ نَازِلْنَ أَقْرَانَهُنَّ وَكَانَ الْمِصَاعُ بِمَا فِي الْجُوءِ
يعنى بما تَضَمَّنَتْ الْجُوءُ مِنَ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ . وَلَوْ جَعَلَ السِّلَاحَ مُحَاسِنَهُنَّ لَكَانَ أَلْيَقَ بِالشَّعْرِ . وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ السِّلَاحُ فِي الْمَعْتَادِ لَيْسَ بِجُزْءٍ مِنَ الْمُتَسَلِّحِ ، جَعَلَ سِلَاحَهُنَّ مَا لَيْسَ بِجُزْءٍ ، مِنْهُنَّ الدَّمَالِجُ وَالْخَلَاخِلُ وَكَانَ مَصُوعُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، كَمَصُوعِ الْحَدِيدِ لِرِجَالِ الْحَرْبِ .

وقد يجوز أن يكون أراد . من طاعني ثغر الرجال جآذر ، ومن السلاح
دُمْلَجٌ وَخَلْخَالٌ يذهب في ذلك إلى التعجب . وحذفت الألف التي لفظها
الاستفهام ، ومعناها هنا الإنكار . لأن اللفظ مُكْتَفٍ بذاته ، لما فيه من
معنى التعجب ، كقول أبي تمام :
أَسْرَبِلُ هُجْرَ الْقَوْلِ مَنْ لَوْ هَجَوْتُهُ إِذَنْ لَهَجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي
أى أَسْرَبِلُ ، فحذف الألف . ومثله كثير إذا تضمن الكلام معنى
الإنكار والتعجب .

- ٤٢ -

وله أيضا :

(صَغَّرَتْ كُلَّ كَبِيرَةٍ وَكَبُرَتْ عَنْ لَكَاةٍ وَعَدَدَتْ سِنَّ غُلَامٍ)
أى فعلت الصنائع الحسان . فصغرت كل صنعة جسيمة فعلها غيرك ،
بالإضافة إليها . وجللت عن التشبيه بشيء من الأشياء التي لا نظير لها في العالم .
كالشمس والبدر والبحر . وعددت سن غلام : أى نلت هذه النهاية ،
وبلغت تلك الغاية في حد صباك . فذاك أغرب وأشرف .

فقوله (وعددت سن غلام) جملة في موضع الحال . كأنه قال : بلغت
كل ذلك غلاماً ، وكان ينبغي أن يقول : (صَغَّرَتْ كُلَّ عَظِيمَةٍ) مَكَانَ
(كَبِيرَةٍ) لأن الصَّغَرَ عند الأوائل ، إنما يقابله العِظَم . ولكنه حمله على طريق
اللغة ، لأن الكبير وإن كُنِيَ به عن المُسِنَّ ، فقد يكون للعظيم . إلا أن غير
المشترك في التقابل ، خير من المشترك ، فتفهمة .

(مَهْلًا أَلَا لِلَّهِ مَا صَنَعَ الْقَفَا فِي عَمْرٍو حَابٍ وَضَبَّةٍ الْأَغْتَامِ)

أراد عَمْرٍو حَابِسٌ ، فرخم المضاف اضطراباً ، كقوله أنشده سيبويه :

أودى ابن جُلهم عبادة بصرته ان ابن جُلهم أمسى حيّة الوادى
قال : أراد بن جُلهمه ، والعرب يُسمون الرجل جُلهمه ، والمرأة جُلهم .
كل ذلك حكاة سيبويه .

والأغتم : جمع أغتم . كسر أفل على أفعال ، وهو قليل . ونظيره
أعزل وأعزال ، وهو الذى لاسلاح له ، وأغرل وأغزال وهو الذى لم يُختن .
(أحجارُ ناسٍ فوق أرضٍ من دمٍ ونُجومٍ بيضٍ في سماءٍ قتّامٍ)
لما استعار للدم أرضاً ، استجاز تسمية جُثث القتلى أحجاراً وشبه البيض
للمعانها في القتام بالنجوم النيرة في الظلام .

(وذراعٌ كلّ أبى فلانٍ كُنيةٌ حَمَلَتْ فَصَاحِبُهَا أَبُو الْإِيْتَامِ)
أى وفى ذلك المُمترِكِ أذرعٍ قطعت من قوم كانوا يُكنّون أبا زيد ،
وأبا عمرو ، وأبا عبد الله ، وغير ذلك من أنواع الكُنى . فلما قُطعت منهم
ماتوا ، فكُنّى كل واحد منهم أبو الأيتام .

- ٤٣ -

وله ايضا :

(عَذِرَى مِنْ عَذَارَى مِنْ أُمُورٍ سَكَنَ جَوَانِحِي بَدَلِ الْخُدُورِ)
عذارى : أى خطوب أبكار لم تُصِبْ أحداً قبل . هذا معنى المذرة فيهن .
و (مِنْ) ها هنا للتبيين . أى ايست هؤلاء العذارى من النساء ، إنما هى
من أمور الدهر ، أى أعذرى ، أو مَنْ عاذرى ؟ وقوله : (سَكَنَ جَوَانِحِي بَدَلِ
الخدور) جملة فى موضع الصفة لعذارى ، وبهذه الصفة مع قوله : (مِنْ أُمُورٍ)
خَلَصَ عَذَارَى الْخُطُوبِ هُنَا : مِنْ عَذَارَى النِّسَاءِ ، لَا يَسْكُنُ الْجَوَانِحَ إِنَّمَا

يَسْكُنُ الخُدُورَ . فَأَقَامَ جَوَانِحَهُ لِعَذَارَى الْهُمُومِ مُقَامَ الْخُدُورِ لِعَذَارَى النِّسَاءِ .
بَدَلَ ظَرْفٍ . أَيْ مَكَانَ الْخُدُورِ ، كَمَا حَكَاهُ سَيَبَوِيهِ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : إِنْ
بَدَلَكَ زَيْدًا ، أَيْ إِنْ مَكَانَكَ . قَالَ : وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : اذْهَبْ مَعَكَ بِفُلَانٍ ،
فَيَقُولُ : مَعِيَ رَجُلٌ بَدَلَ فُلَانٍ ، أَيْ يَغْنَى غَنَاءَهُ ، وَيَكُونُ فِي مَكَانِهِ .

- ٤٤ -

وله أيضا :

(مَنَافِعُهَا مَا ضَرَّ فِي نَفْعِ غَيْرِهَا تَغْذَى وَتَرْوَى أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَأَ)

أَيْ أَنْ ضُرَّهَا لِنَفْسِهَا مَنَفَعَةٌ لَهَا ، إِذَا جَرَّ ذَلِكَ نَفْعًا لغيرِهَا تَفَوُّنًا بِالْمَجْدِ ،
وَاحْتِسَابَ الْأَجْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ﴾ . أَيْ طَلَبًا لِلْأَجْرِ . ثُمَّ فُسِّرَ قَوْلُهُ : (مَنَافِعُهَا مَا ضَرَّ فِي نَفْعِ غَيْرِهَا) .
بِالنِّصْفِ الثَّانِي ، فَقَالَ : (تَغْذَى وَتَرْوَى أَنْ تَجُوعَ وَأَنْ تَظْمَأَ) . أَيْ أَنَّهَا
تَجُوعُ لِتُخَصَّ غَيْرُهَا بِطَعَامِهَا ، فَهِيَ تَغْذَى بِذَلِكَ الْجُوعِ وَلَا يُؤْثِرُ فِيهَا ، بَلْ
هُوَ نَمَاءُ اجْسَمِهَا . وَتَظْمَأُ لِتُخَصَّ غَيْرُهَا بِشَرَابِهَا ، فَذَلِكَ الْعَطَشُ رِيٌّ لَهَا ،
إِذَا هُوَ فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ .

فَتَلْخِيصُ الْقَضِيَّةِ . أَنَّهَا تَغْذَى بِالْجُوعِ ، وَتَرْوَى بِالْعَطَشِ . وَكَانَ وَجْهُ
الصَّنْعَةِ — لَوْ اسْتَقَامَ لَهُ الْوِزْنُ — أَنْ يَقُولَ . تَشْبَعُ وَتَرْوَى ، لِيُقَابَلَ الْجُوعُ
بِالشَّبَعِ ، كَمَا قَابَلَ الْعَطَشُ بِالرَّيِّ . لَكِنْ لَمَّا كَانَ فِي التَّغْذَى مَا يُشْعِرُ بِأَنَّهُ رُبَّمَا
كَانَ مَعَهُ الشَّبَعُ ، تَسَمَّحَ بِهِ ، وَأَرَادَ (أَنْ تَظْمَأَ) فَبَدَلَ الْهَمْزَةَ إِبْدَالًا
صَحِيحًا ، حَتَّى أَلْحَقَهَا بِحُرُوفِ الْعَلَّةِ ، وَذَلِكَ لِحَاجَتِهِ إِلَى الْوَصْلِ ، لِأَنَّ الْهَمْزَةَ
لَا يُوَصَّلُ بِهَا الرَّوِيُّ ، وَلَا يَطْرُدُ هَذَا فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّهُ خَفَّفَ الْهَمْزَةَ تَخْفِيفًا قِيَاسِيًّا ، لِأَنَّ الْهَمْزَةَ إِذَا

خففت تحقيراً قياسيًّا ، لم توصل به ، لأنه في نية الهمزة . فمن حيث لا يوصل بالهمزة مُحَقَّقَةٌ ، لا يوصل بها مخففة تحقيراً قياسيًّا ، فتفهمه فإنه لطيف .

(إذا قلَّ عَزَمِيَّ عَنْ مَدَى خَوْفٍ بَعْدِهِ فَأَبْعَدُ شَيْءٍ مِمَّنْ لَمْ يَجِدْ عَزَمًا)

أى أن الممكن من المطالب ، إذا لم يعزم عليه طالبه ، كان بمنزلة الممتنع . والفرق بين الممكن الذى لا يجد عَزَمًا وبين الممتنع ، أن الممكن إذا عَزِمَ عليه نيل ، والممتنع لا يُنَالُ البتَّة ولو عزم عليه . وقوله : (فَأَبْعَدُ شَيْءٍ مِمَّنْ) : يريد فأبعد الممكنات ممكن لا يُعَزَمُ عليه . ويجوز أن يكون شَيْءٌ هاهنا يجمع الممكن والممتنع ، لأن العقل لا يشك في أن الممتنع أبعد الأشياء .

وتلخيصه : إذا قلَّ عَزَمِيَّ بَعْدَ مَطْلَبِيَّ فَأَبْعَدُ مِنْهُ مَطْلَبٌ مِمَّنْ ، لم يجد لَدَىَّ عَزَمًا .

- ٤٥ -

وله ايضا :

(سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِّمَتْ ذَوَاتُهَا دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدٌ مَوْصُوفَاتِهَا)

السَّرْبُ : القطيع من الظباء والشاء والبقرة . وعَنَى (بالسَّرْبِ) هنا النساء ، تشبيهاً لَهُنَّ بالظباء . والحاسنُ : واحدها حُسْنٌ على غير قياس . وذواتها : صواحبها . أى هَوَايَ سِرْبٌ حُرِّمَتْ ذَوَاتِ مَحَاسِنِهِ ، وذوات الحاسن هنَّ ذلك السَّرْبُ . فكأنه قال : حُرِّمَتْهُ ، بأن حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ . وقد يجوز أن يكون سرب مبتدأ ، ومحاسنه مبتدأ آخر ، أو بدلاً من سِرْبٍ . وحُرِّمَتْ ذَوَاتِهَا : خبر عن الحاسن ، والمبتدأ الثانى وخبره ؛ خبر عن سِرْبٍ . فلا يحتاج على هذا القول إلى إضمار (هَوَايَ) . وأن يكون سِرْبٌ خبر مبتدأ مضمَر : أولى كما قدمنا ، لقبح الابتداء بالنكرة . ثم قال : (دَانِي الصِّفَاتِ

بعيدُ موصوفاتها) : إنما دنت صفاته عليه ، لأنه يتقدّر على وصفهن بما أوتيته من اللسن ، والمنطق الحسن . وبعدت موصوفات السرب ، لأنهن مقصورات محجوبات ، أو ممنعات ، والضمير في (موصوفاتها) : راجع إلى السرب وإن كان مذكراً . لكن جاز ذلك ، لأنه في معنى الجماعة . ولا يجوز أن يكون راجعاً إلى الصفات ، لأنه نوع من إضافة الشيء إلى نفسه .

(وكانها شَجَرٌ بدا لكنها شَجَرٌ جَنِيَتْ المَرَّ من ثمراتها)

أى كأن العيس شَجَرٌ من علوهن . والعرب تشبه الجمول كثيراً بالنخل ، وذلك لما يضعون على الموارج من الرقم والعنّون الملونة ، فيشبهون ذلك بالزهور والبسر الملون . ولم يشبه المتنبى الموارج وما عليها بذكر النخل ، وإنما عني علو الإبل ، فشبهها بالشجر عامة ، ثم قال : (لكنها شَجَرٌ جَنِيَتْ المَرَّ من ثمراتها) ، يعنى بذلك : إبعاد الإبل حبايبه عنه ، وقد بين ذلك بقوله :

(لا سرت من إبلٍ لو أنى فوقها لمحت حرارة مذمعى سماتها)

دعا عليهن ألا يسرن ، إشفافاً من بعد حبايبه عنه إذا سارت .

(وترى المروّة والفتوة والابوة في كل مليحة ضراتها)

يعنى أن الملائح يعشقنه ، وهو يؤثر عليهن المروّة والأبوة والفتوة ، وذلك أن هذه الثلاثة ينهينه عن عشق النساء ويأمرن بحجبهن أنفسهن . فعلم الملائح أن هذه الخصال الثلاث يضررن بهنّ عنده ، كما تضر المرأة عند بعلمها ضراتها ، إذ لولاهن لواصلهن .

(ومقانب بمقانب غادرتها أقوات وخش كن من أقواتها)

المقنب : القطعة من الخيل . أى صرفت مقنب غيرى بمقنبى . فهذا معنى

قوله : (وَمَقَانِبٍ بِمَقَانِبٍ غَادَرَتْهَا) وقوله : (أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنْ مِنْ أَقْوَاتِهَا) أى صرعت هذه المقانب ، فركبتها أقواتا للوحوش ، التى كانت من أقوى هذه المقانب ، فعاد الأمر بالعكس ، وجعل الوحش الآكلة لهم مما كانوا يقتاتون به ، لأن العرب تأكل الذئب ، والضبع والهلباع والفهد ونحو ذلك من آكلة الإنسان . وقد شبه بعضهم هذا البيت بقول البحترى :

كلانا بها ذئبٌ يحدثُ نفسه بصاحبه والجِدُّ يتبعه الجَدُّ
وليس مثله ، لأن البحترى لم يأمل أكل الذئب كما أمل الذئب أكلة
ولمّا قال : كلانا قاتل لصاحبه ، الذئب يريد أكلى ، وأنا أريد قتله .

(أَقْبَلْتُهَا غُرَّرَ الْجِيلَادِ كَأَنَّمَا أَيْدَى بَنَى عِمْرَانَ فِي جِبْهَاتِهَا)
الكريم يوصف بيباض اليد ، وهى الخيل التى أقبلتها هذه الوجوه .
هُنَّ غُرَّرَ ، فكان غُرَّرَها أيدى هؤلاء موضوعة فى جبهاتها . يعنى أقبلتها خيلاً
سابقة ، يُقبلون جباهها كما تقبل أيدى بنى عمران . فهذا معنى التشبيه .

(تَكْبُو وَرَاءَكَ يَا أَيُّنَ أَحْمَدُ قُرَّحٌ لَيْسَتْ قَوَائِمُهُنَّ مِنْ آلَاتِهَا)

القرح هنا : كناية عن الرجال الكحول للذَّكَّين . وأصله فى الخيل ،
واحدها قارح ، وهو الذى أتى عليه خمس سنين من نتاجه . فشبه المدوح
بفرس جواد ، وشبه مبارز به بخيل قرح ، كقوله :

فَدَى لِأَبَى الْمِسْكِ الْكَرَامُ فَإِنَّهَا سَوَابِقُ خَيْلٍ يَهْتَدِينَ بِأَدْهَمِ
أى بفرس أدْهَمِ . وخصّه بالذهمة ، لأنه عنى به كافوراً .

وقوله : (لَيْسَتْ قَوَائِمُهُنَّ مِنْ آلَاتِهَا) : أى ليست قوائمه آلات لها
لأنها تعثر وتكبو وتضعف عن مجاراتها ، فكان هذه القوائم ليست من آلاتها

إذ لو كانت آلات لها لنصرتها ولم تخنها ولا أظهرت فضلك أيها المدوح على هذه القرّح . وإنا قوائمها من آلاتك أنت ، لدالاتها على سبقك ، إذا كبت هذه القرّح وراءك ، فهن آلاتك المبيّنة لفضلك لا آلاتها ، لأن من نصرك وخذل مناوئك ، فإنما هو آلة لا لمناوئك ، وإن كان أهلاً له ، وجزءاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى ليس من أنصارك ولا معاضدك ، إنما هو من أعدائك . ولم ينف أنه ابنه حقيقة ، لأن نساء الأنبياء لم يفجرن .

وذكر القوائم هنا ، لذكره الخيل ، ذهاباً إلى الصنعة . وإنا القوائم هنا كناية عن الخصال والفضائل النفسانية . وقيل : إن الضمير في آلياتها «وراءك» ، أى لا يتبعك إلاّ خيل قوائمها أثبت من قوائم هذه القرّح . وأما قوائم هذه فقصرة عن متابعتك ، والصبر على مجاراتك .

(سُقِيَتْ مَنَابِتُهَا الَّتِي سَقَّتِ الْوَرَى بِبَنْدَى أَبِي أَيُوبَ خَيْرِ نَبَاتِهَا)

الصنعة سارية في هذا البيت ، وذلك أنه جعل للنفوس منابت ، وليست النفوس نباتية فتنبت ، وإذا لم تنبت فلا منبت لها ، ومعناه : سقى الله أهل هذا المدوح بنداه لأنهم أجواد ، فإذا أفاض عليهم جوده ، أفاضوه على من سواهم . وقوله : (وخير نباتها) الهاء للمنابت . ودعا للمنابت بسقيا النبات لها ، وتغذيتها إياها ، قلباً للعادة . لأن المنبت يغذى النبات ، والنبات لا يغذى المنبت ، إذ المنبت غير نام ، ولكنه أغرب بذلك ، وجعل المدوح خير نبات المنابت التي هو منها ، لأنه أشرفها وأوسطها ، فالباء التي في قوله : (بندى أبي أيوب) على هذا التفسير متعلقة بسقيت . وقد يجوز أن تكون متعلقة بسقت . ويكون سقى المنابت غير مبين . فكأنه قال : سقيت منابتها ، وأمسك ولم يذكر ما تسقى به .

(لَوْ مَرَّ بِرُكُضٍ فِي سَطُورِ كِتَابَةٍ أَحْصَى بِحَافِرِ مُهْرِهِ مِيَانَهَا)
يصفه بالخلق في الفروسية . وخص المهز لتكون أغرب ، لأنه إذا فعل
ذلك بالمهر وهو غير ماهر ولا مرتاض ، كان أقدر أن يفعل ذلك بالقادح ،
لارتياضه وانقياده .

(يَضَعُ السِّنَّانُ بِحَيْثُ شَاءَ مُجَاوِلًا حَتَّى مِنْ الْأَذَانِ فِي أَخْرَاطِهَا)
يصفه أنه حاذق بالطعن ، حتى إنه يضع السنَّان في خَرَّتِ الأذن . وقوله
مُجَاوِلًا : حال مُفِيدَةٌ . وَالْمُجَاوِلُ : الْمُجَارِي فِي مَيْدَانِ الطَّعْنِ ، وذلك أنه إذا
فعل وهو جائلٌ في الحرب ، كان أقدر عليه وهو في الميدان وادع .
(لَا خَلْقَ أَسْمَحُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَأَى نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِيهَا)
أى المعروف عنك الجود بكل ما سئلته ، فلا أحد أسمح منك إلا إنسان
عرف هذه الشيمة منك ، فلم يسألك نفسك . وجعله أسمح منه ، لأنه ترك له أنفس
الأشياء ، فكأنه قد جَادَ عليه بما لم يجد هو بمثله على أحد ، لأن الجود بالنفس
أقصى غاية الجود وهذا كقوله هو :

يَأْتِيهَا الْمُجْدَى عَلَيْهِ رُوحُهُ إِذْ لَيْسَ يَأْتِيهِ لَهَا اسْتِجْدَاءُ
وَقَدْ أَنْعَمَ شَرْحُهُ فِيمَا تَقْدَمُ . وَرَأَى : مَقْلُوبَةٌ عَنْ رَأَى ، قَالَ الشَّاعِرُ :
فَلَيْتَ سُويْدًا رَأَى مَنْ فَرَّ مِنْهُمْ وَمَنْ جَرَّ إِذْ يَحْدُونَهُمُ بِالرَّكَائِبِ
وَيَدُلُّكَ عَلَى أَنْ (رَأَى) مَقْلُوبَةٌ عَنْ رَأَى ، أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لَهَا مَصْدَرٌ ، إِذْ
الْأَفْعَالُ الْمَقْلُوبَةُ لَا مَصَادِرَ لَهَا عِنْدَ سَيَبُويَه ، وَلَا أَعْرَفَ أَحَدًا خَالَفَهُ . وَلَوْ كَانَتْ
(رَأَى) لَفَتْ فِي رَأْيَتِهِ ، لَكَانَ لَهَا مَصْدَرٌ . وَهَذَا أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ التَّصْرِيفِ ،
فَتَفَهَّمْهُ .

وَالْخَلْقُ فِي هَذَا الْبَيْتِ : بِمَعْنَى الْخَلْقِ . وَلِذَلِكَ أُبْدِلَ (عَارِفٌ) مِنْهُ .

إذ لو كان الخلق مصدراً لم يُجزَّ إبدال عارف منه ، لأن الجواهر لا تبدل من الأعراض . وإنما كان يَنْصِبُهُ على الاستثناء المتقطع ، مع أن المصدر لا معنى له في هذا البيت . ولذا حَذَرْنَا منه إغراباً (بالإعراب) .

(غَلَتِ الذِي حَسَبَ الْعُشُورَ بآيَةٍ تَرْتِيْلُكَ الشُّوْرَاتِ مِنْ آيَاتِهَا)

غَلَتِ في الحساب ، وَغَاطِطَ في القول . هذا فرق . وقيل : هما سواء . يمدح إمام أنطاكية ، فيصفه بتجويد التلاوة ، وَحُسْنِ التَّادِيَةِ ، حتى جعل حُسْنَ لفظه وترتيبه للقراءة في الإعجاز ، بمنزلة الآية ، فيقول : يجب أن تكون قراءتك هذه مضافة إلى الآيات ، تُعَدُّ بصورة في النفس آية ، فقد غَلِطَ حُسَابَ الْعُشُورِ إذا لم يُعَدِّوا قراءتك منها . وكان يجب أن يقول : ترتيلك للعشور من آياتها ، أو الأعشار من آياتها ، فكان أذهب في الصنعة .

وهذا البيت كله (خَلْفَ) من وَجْهَيْنِ . أحدهما : طريق الغلو الذي لا مَسَاغَ له في الذات اللَّقِيْنَةُ المتيقنة . والآخر : أن الترتيل عَرَضٌ في اللفظ وليس بذات لفظ ، والآية لفظ . وإنما التَّرتِيلُ في ذات اللفظ كالعرض في الجوهر ، فلا ينبغي أن يُعَدَّ ماهو عَرَضٌ في الجوهر جزءاً من ذات الشيء ، فتفهمة ، فإنه لطيف المعنى .

(لَا تَعْذُلِ الْمَرَضَ الَّذِي بِكَ ، شَائِقٌ أَنْتَ الرَّجَالُ ، وَشَائِقٌ عِلَاتِهَا)

كان هذا المدوح عليلًا ، فيقول : لا تلم المرض المعتمد لك ، والحال بك ، لأنك محبَّبٌ إلى النفوس وإلى أحوال النفوس ، فكما أنك تشوق النفوس فتذهب نحوك ، وتحلُّ بك ، كذلك الأحوال ، والعلة نوعٌ من الحال ، فلا عتاب عليها في حبها لك .

فتلخيص البيت : لا تعذل مرضك ، لأنك تشوق الرجال ، وتشوق عِلَلَهَا

فثائق : خبر مبتدأ مقدم ، وأنت مبتدأ . أى أنت شائق الرجل وعنده .
 ولا يجوز أن يكون شائق مبتدأ ، وأنت فاعل بشائق ، لأن اسم التفاعل إنما
 يعمل عمل الفعل إذا كان (معتمداً) على شئ . قد عمل في الاسم قبله ، أعنى ،
 كانه يكون خبراً لمبتدأ ، أو فاعلاً لفعل ، أو صفة نوصوف ، أو حالا لذى
 حال ، ونحو ذلك ، فأما أن يكون يعمل عمل الفعل وهو مبتدأ ، فلا يجوز .
 فلو قلت : ضاربٌ زيداً تريد : اضرب زيدا كان خطأ .

(فإذا نوتَ سَفَرًا إِلَيْكَ سَبَقْتَهَا فَأَضَفْتَ قَبْلَ مُضَافِهَا حَالًا لَهَا)
 هذا البيت متعلق بهذا البيت الذى قبله : أى أن الرجل إذا نوتَ
 سَفَرًا^(٢) إِلَيْكَ سَبَقْتَهَا بإضافتك أحوالها ، قبل إضافتك إياها . وإضافته لحالاته
 قبوله لها بجسمه ، لأنه فى ذكر المرض ، عَرَض ، والعَرَض يطلب محلاً ،
 ومحله الجسم . ويشبه ذلك قوله بعد هذا :

(وَمَنَازِلُ الْحُمَى الْجُسُومُ قَتْلٌ لَنَا مَا عَذَرُهَا فِي تَرْكِهَا خَيْرَاتِهَا)
 أى إذا كانت الأمراض أعراضاً ، ولم يكن للعَرَض بُدٌّ من جسمه ،
 وأمكن العَرَضَ جسمك الذى هو خير الجسوم ، فكيف يُعذر
 على تركه .

(قَالِيَوْمَ صِرْتُ إِلَى الَّذِي لَوْ أَنَّهُ مَلَكَ الْبَرِّيَّةِ لِاسْتَقْلَ هِبَاتِهَا)
 هذه الهاء فى موضع المفعول به ، أى لاستقلَّ أن يهبها لعالم آخر . فكان
 يجب على هذا أن يقول : لاستقلَّ هبَّتها . لأن الهبة هنا المصدر ، لا انهبوب ،
 ولكنه جمع المصدر ، لأنه عنى به الموهوبين ، ولأنه مصدر متنوع ، لأنه كان
 يهبها فرادى ومثنى ، ومازاد على ذلك من السكم ، فقد تنوع المصدر باختلاف
 الأعداد ، فاستجاز الجمع لذلك .

(مُسْتَرْخَصٌ نَظَرَ إِلَيْهِ بِمَا بِهِ نَظَرَتْ ، وَعَثْرَةُ رِجْلِهِ بَدِيَّتِهَا)

« مَا بِهِ نَظَرْتُ » : يعنى أعين البرية . أى أن النظر إليه رخيص
بأعينها يعنى بفقدائها الأعين . وكذلك عَثْرَةُ رَجُلِهِ لو اشتريت بديات البرية
لكانت رخيصة .

- ٤٦ -

وله أيضا :

(وَتَرَكُوكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ)

يعنى لا يسمع شيئاً ، كقول النابغة : « وَتِلْكَ تَتَى تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِيعُ »
والدَّوِيّ : الصوت . وهذا البيت مضمن بما قبله . أى إنما انجدد السيف ،
والفتكة البكر ، وأيام حرب يُسْمَعُ لها من اجتماع الأصوات المختلطة الواصلة
إلى الأذان ، مثل صوت البحار الذى يسمعه الإنسان إذا أطبق أذنيه بأنمله .
والأنامل هنا : الأصابع ، واحدها أنملة ، من باب تمرّة وتمر ،
وليس بتكسير أنملة لأن هذين البناءين إنما يكسران على (أفعال) . وقوله
« تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ » : يجوز أن يكون السمع اسماً للأذن ، فلا يحتاج فى هذا
القول إلى حذف . ويجوز أن يكون السمع هنا : الحِسَّ لا الجوهر الذى يُحَسُّ
به ، فإذا كان ذلك ، فلا بد من حذف ، كأنه قال : تَدَاوَلَ مَوْضِعَ سَمْعِ الْمَرْءِ
وإلى هذا ذهب أبو على فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾
وجّهه على الوجهين جميعاً .

(إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرَفْعَكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ

عَلَى هَبَةٍ فَالْفَضْلُ فَيَمْنُ لَهُ الشُّكْرُ)

أى إذا اضطررت إلى ناقص فتفضل عليك فشكرته فقد حصل الفضل لذلك
الناقص فمن الحق أن تتجامى رجاء الناقص ، لتلايتيح لك فضلاً منه عليك ،

فيكون الفضل له . وقال : (الفضل فيمن له الشكر) أى : الفضل للشاكر ، لا للمشكور ، لأنه يُشَرَّفُ هذا الناقص بشكره ، أو ينفعه به .

(وَغَيْثٍ ظَنَنَّا تَحْتَهُ أَنْ عَامِراً عَلَا لَمْ يَمُتْ أَوْ فِي السَّحَابِ لَهُ قَبْرٌ)

عامر : جَدَّ هذا المدوح . يصف سحاباً بكثرة الماء ، حتى كأن عامراً علا إلى الفلك فأمطر الناس جوده ، أو دفن في السحاب ، فهو يجود بالماء وإن كان فيها مَيِّتاً .

وقوله : (لم يمت) بدل من قوله : (عَلَا) . وقد يجوز أن يكون حالاً من الضمير الذى فى علا أى علا غير مَيِّتٍ .

(أَوْ ابْنَ ابْنِهِ الْبَاقِي عَلَى بْنِ أَحْمَدٍ يَجُودُ بِهِ لَوْ لَمْ أَجُزْ وَبَدَى صِفْرُ)
أى لولا أنى جُزْتُ به خالى اليد منه ، لما شككت أن أحدهما هناك .
ويدى صِفْرُ : جملة فى موضع الحال .

(إِلَيْكَ طَعْنًا فِي مَدَى كُلِّ صَفْصَفٍ

بِكُلِّ وَآةٍ كُلِّ مَا لَقِيتُ نَحْرُ)

أى قطعنا إليك الأراضى البعيدة بكل ناقة خفيفة مُوثَّقة ، تفعل فى الأرض البعيدة ما تفعل الطعنة فى النحر . ومعناه أنها تتوغل الطعنة فى الصدر ، وتبلغ الغاية ، كما تبلغ الطعنة إذا وصلت إلى القلب .

(إِذَا وَرِمَتْ مِنْ لَسَعَةٍ مَرِحَتْ لَهَا كَأَنَّ نَوَالاً صَرَّ فِي جِلْدِهَا النَّبْرُ)

النبر : دُوبَيْبَةٌ تُلْسَعُ الْإِبِلُ ، فَتَحْبِطُ مُوَاضِعُ لَسَعِهَا وَتَرِمُ ، يقول : إذا لسعها النبر لم تألمه ، لاعتيادها إياه ، وطَّيَّبَ نَفْسَهَا ، وَفَرِحَتْ لَهُ ، حتى كأن تلك اللسعة التى أورمت جلدها ، صرَّت فيها نوالاً لها ، فهى تفرح لذلك ، كما يفرح المعطى بالعطية .

وقوله : « كَانَ نَوَالاً » : يجوز أن يكون نوالاً منصوباً بكأن ، والجملة التي هي (صرّ في جلدها النَّبْر) : خير كَان . وفيه ضعف لأن اسم (إن) نكرة غير مؤيدة بالصفة . وخير منه عندى أن يكون في (كَان) إضمار الشأن أو الحديث ، أى كَان الأمر أو الحديث ، ونوالاً : مفعول لصرّ .
 فقوله : « نَوَالاً صَرّاً فِي جِلْدِهَا النَّبْر » : تفسير للمضمر الذى في (كَان) .

(فَجِئْنَاكَ دُونَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ فِي النَّوَى

وَدُونَكَ فِي أَحْوَالِكِ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ)

قوله : (دُونَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ فِي النَّوَى) حال أى جئناك وأنت أقرب إلينا من الشمس والبدر ، وهما دونك في المجد وشرف القدر .

(لِسَانِي وَعَيْنِي وَالْفُؤَادُ وَهَمْتِي أَوْدُ اللَّارَاتِي ذَا اسْمِهَا مِنْكَ وَالشُّطْرُ)

الأودُ : الاحياء ، واحدم وُد . فيقول : هذه الأعضاء منى تُحب ما قابلها من أعضائك التي أسماؤها هذه .

وقوله : (وَالشُّطْرُ) : أى كَان هذه الأعضاء منى شقيقة سَمِيَّتْهَا مِنْكَ ، حتى كأنهما اقسمتا جزءاً من العنصر الذى منه كَوْنُهَا . وإذا كان هذا في الأعضاء ، فكان لسانى موافقاً للسانك ، يقول ماتقول ، وعينى مطابقة لعينك تستحسن ماتستحسن ، وفؤادى ملائم لفؤادك ، يهوى مايهواه ، وهذه عُمدَةُ أعضاء الإنسان فالجملتان شقيقتان . فنحن إذْ نَشَقِيقَان .

وأما قوله : وهمتى ، فزيادة ، لأن الفؤاد محل الهمة ، فهو يغنى عنها .

- ٤٧ -

وله أيضا :

(أَقَلُّ فَعَالِي بَلَهَ أَكْثَرُهُ مَجْدُ وَذَا الْجَدُّ فِيهِ نَلْتُ أَمْ لَمْ أُنَلْ جَدُّ)

بله : يُنْصَبُ بِهَا وَيَجْرُ ، النصب على أنه اسم للفعل كرؤيد . والجبر على

أنه مصدر ، وإن لم يكن له فعل ، فقد وجدنا مصدراً دون فعل ، كويل وأخواتها . أى أقلُّ فعلى شرف . دَعُ أَكْثَرُهُ ، كقول القائل فكيف أَكْثَرُهُ . وهنا إفراط في القول ، لأنه ليس فوق الشرف منزلة ، فيكون أَكْثَرُهُ أَعْلَى من الشرف . إلا أن الشرف يتفاضل في ذاته . فإذا كان أَقْلُ فَعَلُهُ شَرْفاً ، فأكثره شرفٌ أَعْلَى من ذلك .

وقوله : (وذَا الْجِدُّ فِيهِ نَلْتُ أُمِّ لَمْ أَنْلِ جَدُّ) . الهاء عائدة إلى المجد ، أى ود الْجِدُّ فِي طَلَبِهِ جَدُّ .

الْجِدُّ : الاجتهاد والتشمير . وَالْجَدُّ : الْبَخْتُ . ويقول : جِدَى فِي الْأُمُورِ بَخْتُ . وإن لم أَنْلِ بِهِ بَخْتًا ، لَأَنَّ الْجِدَّ مَعْدُودٌ فِي السَّعَادَةِ ، لِكَوْنِهِ مِنَ الْقَضَائِلِ النَّفْسَانِيَّةِ ، الَّتِي يَبْعَثُ عَلَيْهَا الْأَنْفَةُ وَالشَّهَامَةُ ، كَمَا أَنَّ التَّوَانِي يُعَدُّ فِي الشَّقَاوَةِ لِكَوْنِهِ مِنَ الرِّذَائِلِ الَّتِي يَبْعَثُ عَلَيْهَا الْعِجْزُ وَالسَّامَةُ ، يَقُولُ : فَأَنَا إِنْ لَمْ أَنْلِ بِسَعْيٍ حَظًّا نَلْتُ بِهِ عِنْدَ نَفْسِي وَغَيْرِي عُذْرًا أَحْصُلُ بِهِ عَلَى رَاحَةِ نَفْسِي ، لَا يَلْحَقْنِي كَلَامٌ مِنْ أَحَدٍ : كَقَوْلِهِ : (وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ) ؟

(سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَائِخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طَوْلِ مَا التَّشَمُّوا مُرْدُ)

مشايخ : جمع مَشَيْخَةٍ ، حكيماؤه عن أبي زيد ، وقد يجوز أن يكون جمع مَشْيُوخَاءَ ، الذي هو اسم لجمع شيخ ، فكان ينبغي على هذا (مشايخ) ، لكنه اضطر لحذف ، كقوله :

والبكراتِ الفسجِ العطامسا

فسبهم بالمرْد ، لأنهم التشموا حتى لم تظهر لحامهم ، كما لم يظهر للرد لحى . ولو اترن له لكان أحسن أن يقول : كأنهم من شدة ما التشموا ، لأن كيفية

الالتئام حَبَبَتْ لحام ، بإحكامهم إياها . والثلة كيفية ، والطول كمية .
فالكيفية أولى بما ذهب إليه .

وإن قلت : إنهم أطلوا الالتئام حتى حَبَبُوا مُرْدًا كان له وجه .

(تَلَجَّ دُمُوعِي بِالْجُفُونِ كَأَنَّمَا جُفُونِي لِعَيْنِي كُلِّ بَاكِية خَذُ)

أى أن جفونى مساربٌ للدمع لا يخلو منها ، حتى كأنها خذت
لكل باكية .

فالدمع يلازمها كما يلازم خذ الباكية .

وإن شئت قلت : ذهب فى ذلك إلى غزر الدمع . أى أن جفون دموعى
مُجْتَمِعُ الدموع ، حتى كأنها خذ لعينى كل باكية .

(سَرَى السَّيْفُ مِمَّا تَطْبَعُ الهِنْدُ صَاحِبِي)

إلى السيفِ مِمَّا يَطْبَعُ اللهُ لا الهِنْدُ)

صاحبي : نعت للسيف . ولا يكون على حد قولك (ضاربى) المنقولة من قولك :
زيد ضاربٌ عمراً ؛ لأنه لا يقال : زيد صاحبٌ عمراً ، وذلك أن هذه الصفة جُرِّدَتْ
من معنى الفعل ، فلم يعدَّوها من المصادر ، وقولهم : (الله درُّك) فدرك : مصدر
وقد أجمدوه حتى قال سيبويه : هو بمنزلة قولهم : (الله بلادك) وقوله : (مما تطبع
الهِنْدُ) ، يعنى السيف الذى عنصره الحديد ، وهو الذى يَطْبَعُ الهِنْدُ . والسيف
الثانى : هو الممدوح ، وهو الذى يطبعه الله لا الهِنْدُ ، لأن الهِنْدُ لا تَخْلُقُ وإنما
الخالق الله وحده :

(يَكَادُ يُصِيبُ الشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمِيهِ وَيُمْسِكُهُ فِي سَهْمِهِ الْمُرْسَلِ الرَّدُّ)

يصفه بالقوة فى الرماية ، والعلم بها ، فيقول : يصرف سهمه كيف شاء ، حتى
لو أراد رده بعد إرساله مثلاً ، أمكنه ذلك . و (يمكنه) : يجوز أن يكون

معطوفاً على (يَصُيب) . فيكونان جميعاً داخلين تحت (يكاد) . ويجوز أن يكون من الفعل الذي هو خبر (يكاد) فيكون ذلك أبلغ . وكلتا القضيتين حاخلة في الامتناع ، لا يجوز أن يصيب شيئاً قبل رميه له . ولا أن يقارب ذلك . وكذلك القول في القضية الثانية . والماء في (رميه) يجوز أن تكون ضميراً لشيء فيكون مجروراً في موضع نصب . كأنه قال : من رميه هو . ويجوز أن يكون ضميراً لفاعل ، والمفعول على هذا محذوف ، أى من قبل رميه إياه .

- ٤٨ -

وله أيضاً :

(حَوَّلِيْ بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلَقَ

تُخْطِى إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِفْهَامِهَا بِمَنْ)

أى أنهم لا يعقلون و (مَنْ) إنما يستفهم بها عن يعقل ، فإذا استفهمت عن هؤلاء بمن فانت مخطئة . إذ لا حظ لهم فيها وإنما حظهم (ما) التى هى لما لا يعقل ، وإن شئت قلت : إنهم وإن كانت صورهم صورَ الناس ، فهم بهائم ، لجهلهم ، وإنما تُعامل الأنواع بطبائعها لا بأشكالها ، ولذلك أخذت الحكماء في حدودها طبائعها دون صورها ، حتى إن بعضهم قال استضعافاً للحدِّ المأخوذ من الصورة : (فإنه لا يُستنكر أن يكون إنسان على شكل سمكة ، كما لا يستنكر أن تكون سمكة على شكل إنسان) . وأراد (تُخْطِى) ، فأبدل إبدالاً صحيحاً للضرورة ، كما أنشد سيبويه : (فارعى قزارة لا هناك المرتع) .

ولو خفف تخطى قياساً فجعلها بين بين ، لا نكسر البيت ، لأن الهمزة المخففة بين بين عند سيبويه برمتها مخففة .

(وَمَذْقَعَيْنَ يَسْبُرُونَ صَحْبَتَهُمْ عَارِينَ مِنْ حُلٍّ كَاسِينَ مِنْ دَرَنٍ)

أى ورب فقراء بأرض قنر صحبتهم وبليت بهم (عارين من حُلٍّ) :

أى هم اللصوص لا يتسربلون ، (كاسين من دَرَنٍ) : يصف شعثهم وقشفهم . وإنما يُعَدُّ ما مُنِيَ به وبلى ، من مكاره الأيام ، وصحبة من لم يكن أهلاً للصحبة .

(كَمْ مَخْلَصٍ وَعُلَا فِي خَوْضٍ مَهْلَكَةٍ وَقَتْلَةٍ قُرْنَتْ بِالْدَمِّ فِي الْجُبْنِ)

أى : كم إنسان أقدم ، فسلم وعلا مع إقدامه ، ولم يضره اقتحامه الهلكة ، وآخر جُبْنٍ ، قُتِلَ مع جُبْنِهِ ، ومات مع ذلك ، مذموماً على نكوله مأوماً . وقوله : « فِي الْجُبْنِ » متعلق بقتلة ، كأنه قال : وقتلة فِي الْجُبْنِ قُرْنَتْ بِالْدَمِّ ، كما أن قوله (فِي خَوْضٍ مَهْلَكَةٍ) متعلقة بمخلص وعُلا .

(مَدَحْتُ قَوْمًا وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ)

قَصَائِدًا مِنْ جِيَادِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ)

عنى بالقصائد: الجيوش ، وإنما كنى عنها بذلك ، لقوله : (مدحت قوماً) واستعمل النظم مكان التشديد ، لكان القصائد ، وجعلها من جِيَادِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ ، لأنه عنى بالقصائد العساكر ، والعساكر إنما تأتلف من الخيل وفرسانها ، ولوقال : (من إناث الخيل والحصن) لكان أذهب في الصنعة ، لأن الحصن : الفحول من الخيل ، فكان يطابق الإناث ، لقوله تعالى : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ . وأما (من جِيَادِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ) ، فقسمة غير سالمة ، لأن الحصن قد تدخل في جِيَادِ الْخَيْلِ ، وكذلك جِيَادِ الْخَيْلِ قد تدخل في الحصن ، إذ بعض الجياد حصان ، وبعض الحصن جواد . ومن عنى بالحصن الجياد ، ما ذهب في باب القُبْحِ ، لأنه لا يوجب قسمتها ، إذ الجياد هي الحصن .

(تَحْتَ الْعَجَاجِ قَوَائِمُهَا مُضْمَرَةٌ إِذَا تَنَوَّشِدْنَ لَمْ يَدْخُلَنَّ فِي أُذُنِ)

عنى بالقوافى الخليل ، وخصها بالذكرا لأنها أشرف ما فى الشعر ، لاشتغالها على اللوازم ، كالرؤى والصلة والخروج والرّدف والتأسيس ، وغير ذلك من طوائف التافية ، وإذا جادت القوافى ؛ مَرَّتْ جودتها فى الشعر . واستبحار أن يجعل القوافى (مُضْمَرَة) ، لكنائيتها بها عن الخليل .

(إذا تُنْوِشِدُنْ لم يدخن فى أذن) : فرق مايج صحيح ، لأنهن لسن فى الحقيقة قوافى ، فتلج فى المسامع ، وإنما هن خيل ، وليس هناك تناشد . إنما استبحاره للنظ القصائد والقوافى .

(غَضُّ الشَّبابِ بَعِيدٌ فَجْرٌ لَيْلِيَّةٌ مُجَانِبُ الْجَفْنِ لِلْفَحْشَاءِ وَالْوَسَنِ)

يستغرب العبادة مع الشباب . و (بعيد فجر ليلته) : أى لا ينام ، فأخر ليلته بعيد من أولها . (مُجَانِبُ الطَّرَفِ لِلْفَحْشَاءِ وَالْوَسَنِ) : هذا اختصار مليح . وما أحسن مقابله الشباب بالفحشاء ، والسهر بالوسن . وكأنه قال : غَضُّ الشباب ، بجانب الطَّرَفِ لِلْفَحْشَاءِ ، طويل الليل ، بجانب الطَّرَفِ للوسن .

(أَلْقَى الْكِرَامُ الْأَلَى بَادُوا مَكَارِمَهُمْ)

عَلَى الْخَصِيبِ عِنْدَ الْفَرَضِ وَالسُّنَنِ)

(الألى) : بمعنى الذين بادوا من صلة (ألى) . أى باد هؤلاء الكرام وألقوا مكارمهم على هذا المدوح ، كأنهم كفّلوه إياها ، كما يكفل الوصى اليتيم .

(فَهِنَّ فى الْحَجَرِ مِنْهُ كَلِمًا عَرَضَتْ

لَهُ الْيَتَامَى بَدَا بِالنَّجْدِ وَالْمِنَنِ)

فُهْنٌ : يعنى هذه المكارم الملقاة عليه اتى كَلِمًا . يقول : هذه انكارم التى مات أهلها ، وبقيت يتامى فى حجر هذا القاضى المدوح ، فهو يفرق أمواله

فيهم ، ويبدأ منهم بالمجد والمنة . فهما من جملة الأيتام ، يظهرهما ويؤثرهما ، كما يفعل الربُّ المشبِّل . وقوله : (بدأ) : أراد (بدأ) فأبدل إبدالاً صحيحاً للضرورة . كما تقدم في تخطي ونحوها .

- ٤٩ -

وله ايضا :

(لَقَدْ حَازَنِي وَجْدٌ بِمَنْ حَازَهُ بُعْدٌ فَيَا لَيْتَنِي بُعْدٌ وَيَا لَيْتَنِي وَجْدٌ)

أى الوجد خلّنى فقد حازنى ، والبعد خلّقه فقد حازه ، يقول : فياليتنى بُعد لأحوزه كما حازه البعد وياليتته وجد فيجوزنى كما حازنى الوجد ، فنجتمع ولا تفرق .

(سُهَادٌ أَتَانَا مِنْكَ فِي الْعَيْنِ عِنْدَنَا رُقَادٌ وَقَلَامٌ رَغَى سَرَبُكُمُ وَرَدٌ)

استحسن كل مكروه أتى من قباهم ؛ واستلطف كل جافٍ لهم ، حتى جعل الشهاد رُقَاداً ، والقلام — وهو ضرب من الحمض — وَرْدًا . كل ذلك لحبه إياهم .

(إِذَا غَدَرْتُ حَسَنَاهُ وَفَتٍ بَعْدَهَا وَمِنْ عَهْدِهَا أَلَّا يَدُومَ لَهَا عَهْدٌ)

شيمة المرأة : الغدر . وهى اتى عهدت عليه ففتى غدرت فقد أوفت بعهدا (وَسَيَفَى لَأَنْتَ السَّيْفُ لَأَمَّا سُلَّةٌ لِضَرْبٍ وَمِمَّا السَّيْفُ مِنْهُ لَكَ الْغَمْدُ)

أقسم بسيفه ، ثم تلقى القسم بقواه لمدوح ، لأنك السيف ، أى إنك أمضى من السيف بل أنت السيف فى الحقيقة ، إذ لولاك لم يكن للسيف غناء كقولاه :

إِذَا ضَرَبْتُ يُمْنَاهُ بِالسَّيْفِ فِي الْوَعَى

تَبَيَّنْتَ أَنَّ السَّيْفَ بِالْكَفِّ يَضْرِبُ

(وَمِمَّا السِّيفُ مِنْهُ لَكَ الْغَمْدُ) : الشَّيْءُ إِنَّمَا يُضَانُ بِمَا هُوَ دُونُهُ فِي الْقَدْرِ ،
 لِيَكُونَ لَهُ وَقَاءٌ . يَقُولُ : فَأَنْتَ أَشْرَفُ مِنَ السِّيفِ ، لِأَنَّ السِّيفَ مَطْبُوعٌ مِنَ الْحَدِيدِ ،
 وَأَنْتَ تَلْبَسُ الدَّرْعَ وَالْجَوَاشِينَ وَالتَّرِكَ ، فَهِنَّ لَكَ كَالْغَمْدِ . وَإِذَا كُنْتَ
 أَنْتَ مَصُونًا بِمَا السِّيفُ مِنْهُ مَصْنُوعٌ ، فَلَا مُحَالَةَ أَنْكَ أَشْرَفُ مِنَ السِّيفِ ، لِأَنَّ
 السِّيفَ مَسَاوٍ لِلدَّرْعِ فِي الْقَدْرِ ؛ لِأَنَّ جَوْهَرَهُمَا سَوَاءٌ . وَالدَّرْعُ لَكَ لِبَاسٌ .
 وَالْغَمْدُ فِي قَوْلِهِ : (وَمِمَّا السِّيفُ مِنْهُ لَكَ الْغَمْدُ) : مَرْفُوعٌ بِالِابْتِدَاءِ . وَخَبْرُهُ :
 (مِمَّا السِّيفُ مِنْهُ) ، فَغَمْدُكَ مِنَ الْحَدِيدِ الَّذِي طُبِعَ مِنْهُ السِّيفُ :

(كَانَ عَطِيَّاتِ الْحُسَيْنِ عَسَا كَرًّا فَفِيهَا الْعَبْدِيُّ وَالْمُطَهَّمَةُ الْجُرْدُ)

الْعَسَاكَرُ إِنَّمَا يَأْتَلَفُ مِنَ الْخَلِيلِ وَالرِّجَالِ . وَهَذَا يَهَبُ الْخَلِيلَ وَالْعَبِيدَ . فَهَذَا
 وَجْهُ الْكَيْفِيَّةِ فِي تَشْبِيهِهِ عَطَايَاهُ بِالْعَسَاكَرِ . ثُمَّ يَكْثُرُ هَبُهُ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ ،
 حَتَّى يَعُودَ فِي كَثْرَةِ الْعَسَاكَرِ . فَهَذَا تَشْبِيهُهَا بِالْعَسَاكَرِ مِنْ جِهَةِ الْكَمِيَّةِ .
 وَالْعَطِيَّةُ : الْمُعْطَى لَا الْعَطَاءُ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَجْزِ تَشْبِيهُهُ بِالْعَرَضِ بِالْجَوْهَرِ ،
 فَتَفْهَمُهُ .

(حَبَانِي بِأَثْمَانِ السَّوَابِقِ دُونَهَا مَخَافَةَ سَيْرِي إِنَّهَا لِلنَّوَى جُنْدُ)
 (وَشَهْوَةَ عَوْدِي إِنْ جُودَ يَمِينِهِ ثَنَاءُ ثَنَاءِ وَالْجَوَادُ بِهَا فَرْدُ)

أَيُّ أُعْطَانِي الدَّنَائِرَ دُونَ الْخَلِيلِ ، مَخَافَةَ أَنْ أُبَيِّنَ عَنْهُ ، لِأَنَّ الْخَلِيلَ جُنْدُ
 لِلنَّوَى وَأَعْوَانُ . وَ (شَهْوَةَ عَوْدِي) أَيُّ أَرَادَ أَنْ أَقِيمَ فَيُؤَالِي لِي عَطَايَاهُ . إِنْ
 جُودَ يَمِينِهِ ثَنَاءُ ثَنَاءِ : أَيُّ أَيَادِيهِ مَثْنَى ؛ وَهُوَ فِي ذَاتِهِ فَرْدٌ . وَإِنْ شُنْتُ
 عَنَيْتَ بِالْعُودِ ، أَنَّهُ مَعْدُومُ النِّظِيرِ فِي جُودِهِ ، كَمَا يُقَالُ : رَجُلٌ وَاحِدٌ : لَامِثِلُ لَهُ ،
 قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ :

يَحْمِي الصَّرِيمَةَ أَحَدَانُ الرِّجَالِ لَهُ صَيْدٌ وَمُجْتَرِيٌّ بِاللَّيْلِ هَمْسُ

فكانه قال : والجواد بها أوحد .

(فَمُ فِي جُمُوعٍ لَا يَرَاهَا ابْنُ دَأْيَةٍ وَمُ فِي ضَجِيجٍ لَا يُحْسُ بِهِ الْخُلْدُ)

ابن دأية : الغراب ، سُمِّي بذلك لأنه يقع على دأية البعير ، وهي فقارته ، فيعقرها . والعرب تصف الغراب بصحة البصر ، حتى عنوا به فقالوا : أبصر من غراب ، والخلد : فأرة عمياء لا سمع بها ، زعموا . يقول : فما يرام الحديد البصر ولا يُحس بهم الذكي الحس بالغة . وليس يذهب في ذلك إلى قلة جموعهم ، وجفوت لجُمهم ، إنما يذهب إلى احتقارهم ، وقلة غنائهم ، ومثله في ذلك الاستضعاف قوله :

قَبْعَدَهُ وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْ رَكَضَتْ بِالْخَيْلِ فِي لَهَوَاتِ الْفُطُلِ مَسْعَلًا

- ٥٠ -

وله أيضا :

(أَرَا كَيْفُ مُعْوِصَاتِ الْقَوْلِ قَسْرًا فَأَقْتُلَهَا وَغَيْرِي فِي الطَّرَادِ)

أبى أنا ذو بديهة ، فإذا عورضت في قول الشر فرغت وغيري بعد في تاجينه وتسديته ومعاناته ، وليس هناك قتل ولا طراد ، وإنما استعارهما وأقتلها : بمعنى أصيبتها وأملكها كقولهم : قتل الأمر علما . والمعوص : الأبي المتنع .

- ٥١ -

وله أيضا :

(أَنَا لَا ثَمِي إِنْ كُنْتُ وَقْتُ اللَّوَائِمِ عَلِمْتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ)

قوله : (أنا لا ثمي إن) كقوله : أنا مثلك إن فعلت كذا . أي ضرنى الله

مثل لا ثنى في قلة اللب والجهل بالحب. وقيل أراد : أنا لائم نفسي أى جعلنى الله
لائماً لها ، وهذا أضعف في العربية ، إنما تستعمل العرب في مثل ذلك أنا لائم
نفسى هذا مذهب سيبويه . وقد أنشد بعض الكوفيين :

(ندمتُ على ما كان منى عدمتُنِي)

فلى هذا يجوز (أنا لائى) أى لائم نفسى .

يقول : إن كنت علمت بحالتي وعقلت أمرى بين تلك المعالم ، كقول

الأشتر :

بَقِيتُ وَفَرِيَّ وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَا
إِنْ لَمْ أَشُنْ عَلَى ابْنِ حَرْبٍ غَارَةً تَعْدُو بَيِضُ فِي الْكَرِيهَةِ شُوسِ

(وَلَكِنِّي مِمَّا شُدِّهْتُ مَتِّيمٌ كَسَالٍ وَقَلْبِي بِأَيْحَ مِثْلُ كَاتِمٍ)

أى ولكنى متيم كسالى مما شُدِّهْتُ وذَهَلْتُ . أى قد أفرط ذهولى ،
حتى كَانِي ذَهَلْتُ عن الهوى ، فَعُدْتُ كَالسَّالِي ، ومعنى كل ذلك أنه يريد :
لم يخلص لى حال ولا يَثْبُتُ لى حقيقة ، وإنما يقول إنه بقى فقيد العقل ، وَمَنْ
قَدَّ عَقْلَهُ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ تَذَكُّرٌ وَلَا سُلُوكٌ ، ونحو هذا قوله تعالى فى صفة أهل
النار : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ . وإن شئت قلت : ذَهَلْتُ عن الشكوى ،
حتى كَأَنِّي سَالٌ وذهوله عن الشكوى إما أن يكون عَدَمُ حِسِّهِ بِتَلَاثِي جَسَمِهِ
كقوله هو :

وَشَكَيْتِي قَدُّ السَّقَامِ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ لِمَا كَانَ لِي أَعْضَاءُ

وقلبى بائح مثل كاتم : أى أنه قد ظهر على الحب ، فكأن قلبى بائح به

وهو مثل كاتم ، أى أنه لم يقصد إظهار ذلك . ومعنى كل ذلك نفى القصد
لا طوله .

(عَنْ الْمُقْتَنِيِّ بِذَلِكَ التَّلَادِ تِلَادَةٌ وَمُجْتَنِبِ الْبُخْلِ اجْتِنَابَ الْحَارِمِ)

أى يقتنى بذل التلاد مكان تلاده ، فأعقبه ذلك ذكراً فى البذل ،
فكأنه قال : عن المقتنى الذكر الجميل ، يبذل التلاد مكان تلاده . الذى كان
اقتناه ، لما فى تلاده من البقاء فى الذكر الجميل المقتنى مكانه . من البقاء .

فتلاده هندی — منصوب بالظرف ، كما أنك لو أظهرت المضاف
المحذوف قلت : مكان تلاده ، كان منصوباً على الظرف ، فلما حُذِفَ المضاف ،
عمل الفعل فى المضاف إليه ذلك العمل نفسه ، كقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ
الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ . ولو قال : (تلاده) ، فرفعه بالمقتنى على السعة لجاز . أى
كأن ماله يدعوهُ أن يبذله فيَقْفُوهُ بذلك نفراً . فكان المال هو المقتنى له ذلك .
ولا كلام فى قوله : (وَمُجْتَنِبِ الْبَخْلِ اجْتِنَابِ الْحَارِمِ) لظهوره .

(كَأَنَّكَ مَا جَاوَدْتَ مَنْ بَانَ جُودُهُ عَلَيْكَ ، وَلَا قَاوَمْتَ مَنْ لَمْ تُقَاوِمِ)

إن شئت قلت : إن حسادك جاودوك فى الجود والبأس ، حتى غلبتهم
فيهما ، فكأنك بعد غلبتك إياهم ما جاودوك ولا قاتلوك . ثم جعل للفضية مثلاً
مطلقاً ، أى أياً الإنسان من غلبتك بعدما غلبته فكأنك ما غلبته ، وإن شئت قلت :
كل من جاودته فُتِّتَهُ ، وكل من حاربته غلبته ، حتى كأنك إنما اخترت من المجاودين
والمحاربين من وثقت بظهورك عليه ، ولم يكُ ذلك قصدك ، إذ لو كان ذلك
لم يكُ محموداً منك ، لأنك لم تشجع إلا على من علمت أنه رونك ولا جاريت
فى الندى إلا من علمت أنك فوقه . هذا كله لا يُمَدِّح به . ولكنك إنما
كنت الظاهر على المجاودين المحاربين ، بفضيلتك النفسانية ، ومزيتك الطبيعية
إلا أنك اخترت من هو دونك . وقوله : (من لم تقاوم) كقوله : ولا قاتلت
من باتت شجاعته عليك ، فهذا اللفظ المسلوب فى معنى لفظ آخر مُثَبَّت ،
وإنما ذكرت لك هذا لتثبت قدمك فى تبيينه .

وله ايضا :

(غَدَا النَّاسُ مِثْلِيهِمْ بِهِ لَاعَدِيَّتُهُ وَأَصْبَحَ دَهْرِي فِي ذَرَاهُ دَهْوَرَا)
 أى فيه من الفضائل ما فى كل الفضلاء . فقد صار الناس به ناسين .
 ولا يعنى بالناس جميع نوع الإنسان ، لأن فى جماع النوع رفيعاً ووضيعاً ، وإنما
 عنى بالناس الفضلاء من الناس ، ولولا ذلك لم يقتض مدحاً ، كقول
 أبي نواس :

كَيْسَ عَلَى اللَّهِ بُسْتَنْكِرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ
 لَمْ يَرِدِ الْعَالَمُ كُلَّهُ ، إِنَّمَا عَنَى رُفَعَاءَهُمْ وَخِيَارَهُمْ .
 (وأصبح دهرى فى ذراه دهورا) :

يقول : جنيت من لزيد تمر العيش فى دهرى عنده ، ماجناه أهل كل
 دهر من حلوا تمر دهرهم ، فصار دهرى بذلك دهوراً .

وله ايضا :

(وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ)

قد يكون القول صحيحاً فى ذاته ، ولا تلوح صحته إلى الجاهل به ، فيعيبه ،
 لأنه يظنه على خلاف ما هو به . من كلام الحكماء : (من علم أنس ، ومن
 جهل استوحش) . وقال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ
 تَأْوِيلُهُ ﴾ : أى لو فهموه لعلموه ، فأمنوا به . ويشبه هذا البيت قوله هو :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالَا

وله أيضا :

(كَفَرَنْدِي فَرَنْدُ سَيَفِي الْجُرَّازِ لَدَّةُ الْعَيْنِ عَهْدَةٌ لِلْبِرَّازِ)

الفرند : ماء السيف ، فارمى معرب . وإنما هو ما بين الباء والفاء . والعرب تعرب مثل هذا بالفاء المحضة ، والباء المحضة . هذا قول سيبويه في باب اضطراد الإبدال في الفارسية .

الجرَّاز : الماضي النافذ . وإنما شبه فرنده بفرند السيف ، لأن فرند السيف ، دليلٌ عَلَى مضاء حَدَّة . وعنى بفرند نفسه هنا شحوبه ، وتغير لونه من الأسفار والتعب ، فجعله فَرَنْدًا ، لأنه دليل على مضاء عزمه ، كما أن فرند السيف دليل على مضاء حده .

ففي ذلك شبه فرنده بفرند السيف ، وإن لم يكن شحوبه في الحقيقة فرندًا ، بل هو خلاف الفرند ، فإنما سَمَّاهُ به ، لأنه محمودٌ منه ، كما أن ذلك محمود من السيف . ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم (لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمِسْكِ) وليس الخُلُوفُ بطيب ، ولكن لدلالته على ما يحبه الله عز وجل من الصيام .

وأما ابن جني فقال : عَنَى أن جوهر سيفي كجوهري . فإن كان عني بالجواهر الفرند ، فخطأ ، لأن الفرند إنما هو صفاء السيف بما يحدث من الصَّقال ، فهو لذا عَرَضَ .

وإن كان عني بالجواهر سِنَخ هذا السيف ، أى أن سِنَخِي في نوع الإنسان كسِنَخ سيفي هذا في نوع الحديد ، فصفاء فهمي من جهة شرف جوهري ، كما أن صفاء هذا السيف من جملة شرف جوهره ، فهو حسن .

ويقوى ذلك أنه قد استطرد في أبيات السيف من هذا الشعر ، تشبيهه
نفسه به ، وجعله نفسه في نوعه ، كسيفه في نوعه . ثم أخبر عن نفسه فقال :
هو لذة العين ، أى أنظر إليه فأستماحه ، وهو أيضاً عُدَّةٌ للقتال .

(ودقيقٌ قدى الهباء أنيقٌ متوالٍ فى مُستَوٍ هزهازٍ)

أى وفيه فرند دقيق ، قدر الهباء فى شكله وتضاؤله . متوالٍ : متتابع .
فى مستَوٍ ، أى فى متن مُستَوٍ . فأقام الصفة مقام الموصوف ، وقواها بهزها ،
فحسن ذلك .

(يامُزِيلَ الظلام عَنِّي وروضى يَوْمَ شُرْبِي وَمَعْقِلِي فى البرازِ)

البرازُ : الصحراء . يقول لسيفه : إذا اسودَّت الدنيا على بنزول الملمات ،
كشفتها عنى وفرجتها . وقد يعنى به أنه يزِيلُ الظلام عنه بِمائه وضيائه .
(وروضى يوم شُرْبِي) : شبهه بالروض فى خضرته ، وجعله روضة يوم شربه ،
على ما تجرى به عادة الشجاع من تلقفه سيفه وتزييه طرفه فيه ، متأملاً لحسنه
وما هية جَوْهَرِهِ . وكان أذهب فى الصنعة أن يقول : (وروضى) لأن الروض
جمع ، وهو يخاطب واحداً ، ولكن هذا واسع كثير . (وَمَعْقِلِي فى البرازِ) : أى
انى أمتنع بك إذا امتنع غيرى بحصن ، لأن الشجاع إنما يلجأ إلى سلاحه لا إلى
معقل ، كقوله هو :

(جواشنها الأسنة والسيوف)

وكقوله : (فلا أحارب مدفوعاً إلى جُدُرٍ)

وإن شئت قلت : إذا كفت فى الصحراء فلم أجده معقلاً ، فانت أيها السيف
هناك معقلى .

(إن برقى إذا برقت فعالى وصليلى إذا صلتت برتجازى)

يذهب بذلك إلى التقريب بين نفسه وسيفه ، لَمَّا أن مثل نفسه به في جوهره .
 أراد أن يكمل تشبيهها به في أعراضه ، فيقول : أيها السيف ، لا تظنني مُقَصِّراً
 عنك ، بَنَ لَأَلَمَعَ لِي كَلَمَعُكَ ، وَلَا صَلِيلُ لِي كَصَلِيلِكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ قَدَّرْتَ
 ذَلِكَ ، فَأَنْتَ مَخْطِئٌ ، لِأَنَّ مَا يُوَازِي لَمَعَكَ وَصَلِيلَكَ مِنِّي ، أَشْرَفُ مِنْ أَلَمَعِكَ
 وَصَلِيلِكَ . أَنَا أَفْعَلُ بِكَ يَوْمَ الرَّوْعِ مَا يَكْسُو جَبِينِي وَسَائِرَ وَجْهِهِ ضِيَاءٌ ،
 اسْتَبْشَاراً بِهِ وَفَرْحاً . فَذَلِكَ الْبَشَرُ هُوَ بَرَقَ لُؤْزِي لِبَرْقِكَ ، وَأَرْتَجَزُ بِشَعْرِي
 إِذَا صَلَّتْ فَيَقُومُ ذَلِكَ مَقَامَ الصَّلِيلِ لَكَ فَإِذْ لَا يُقَصِّرُ حَالِي عَنْ حَالِكَ .

(وَلَقَطَعِي بِكَ الْحَدِيدَ عَلَيْهَا فَكَلَانَا لَجْنِسِهِ الْيَوْمَ غَارِ)

وهذا أيضاً زيادة في تقريبه بين نفسه وسيفه . يقول : أَنَا أَقْتُلُ أَقْرَانِي وَهُمْ
 جَنْسِي ، وَأَنْتَ تَقْطَعُ عَلَيْهِمُ الدُّرُوعَ وَالْمَغَافِرَ وَالتَّرَكَّ ، وَكُلَّ ذَلِكَ جَنْسُكَ ، فَقَدْ
 حَكَيْتَ فِعْلَكَ فِي نَوْعِكَ ، بِفَعْلِي فِي نَوْعِي . أَنَا إِنْسَانٌ أَقْتُلُ إِنْسَاناً ، وَأَنْتَ حَدِيدٌ تَقْطَعُ
 حَدِيداً . وَهَذَا مِنْ أُبْدَعِ الصَّنْعَةِ ، مَثَلُ نَفْسِهِ بِذَاتِهِ ، فِي سَيْفِهِ بِذَاتِهِ ، ثُمَّ عَرَضُهُ
 الْمُتَّصِلُ بِهِ الَّذِي لَا يَتَعَدَاهُ ، كَالْبَرْقِ وَالصَّلِيلِ ، ثُمَّ فِي عَرَضِهِ الَّذِي يُوقِعُهُ بغيره ،
 عَنْ حَرَكَةٍ وَاسْتِعْمَالٍ ، وَهُوَ قَطْعُهُ الْحَدِيدَ ، فَقَدَّمَ مَا هُوَ مِنَ الذَّاتِ لَا يَتَعَدَاهَا ،
 وَأَخَّرَ مَا يَتَعَدَى الذَّاتَ . فَتَفْهَمُهُ فَإِنَّهُ غَرِيبٌ .

(كَيْفَ لَا يَشْتَكِي وَكَيْفَ تَشْكُوا)

وَبِهِ لَا يَبِينُ شَكَاها الْمَرَّازِي (

أَيُّ كَيْفٍ لَا يَشْتَكِي هَذَا الْمَدُوحُ وَهُوَ الَّذِي يَتَحَمَّلُ الْمَغَارِمَ ، وَيَتَكَلَّفُ
 الْمُؤَنَ بِذَاتِهِ ، وَمَالَهُ فِيهِ الْمَرَّازِي . وَكَيْفَ تَشْكَاها هَؤُلَاءِ وَقَدْ احْتَمَلَهَا هُوَ عَنْهُمْ
 فَالْعَجَبُ مِنْ شَكْوَاهُمْ وَلَا رُزْءَ بِهِمْ ، وَمَنْ يَحْتَمِلُ الرِّزْيَةَ عَنْهُمْ لَا يَشْتَكِي .
 فَتَقْدِيرُ الْقَضِيَّةِ : وَبِهِ الْمَرَّازِي لَا يَبِينُ شَكَاها .

والمرازي : جمع مرزاة ، وكان حكمه المرازى ، فأبدل إبدالاً صحيحاً
قياسياً ، لأنه لا يوصل بالهمزة المخففة إلا هكذا ، أعنى أن نبدل إبدالاً محضاً ، حتى
تلتحق بحروف العلة ، ولذلك استشهد سيبويه على أن الهمزة تبدل إبدالاً صحيحاً
في حال الاضطرار ، كبيت عبدالرحمن بن حسان بن ثابت :

وكنْتَ أَذْلًا مِنْ وَتِدِ بَقَاعِ يُشَجِّجُ رَأْسَهُ بِالْفِهْرِ وَاجِي

اعتقد البديل في واج صحيحاً ، لأن القطعة جيمية ، فالوصل ياء محضة .

وهذا الاستشهاد من دقائق سيبويه ، ولطائفه التي برز فيها الممارى ،
وسبق المجارى .

- ٥٥ -

وله أيضا :

(فَمَتَى أَقُومُ بِشُكْرِ مَا أَوْلَيْتَنِي وَالْقَوْلُ فَيْكَ عَلُوٌّ قَدَرِ الْقَائِلِ)
أى أن مدحك يُشَرِّفُ مادحك ، فكما شكرتك على نوالك بالشعر ، رفع
شعري فيك من قدرى ، فاقتضانى الشكر على ذلك شكراً آخر ، إلى غير
نهاية . (فمتى أقوم بشكرك) يؤنس نفسه من القيام بشكركه ، ويجعله داخلاً
في الامتناع .

فهذا استفهام فيه معنى النفي ، أى لا أقوم بشكر ذلك أبداً .

- ٥٦ -

وله أيضا :

(كَأَنَّ عَلَى الْجَوَانِبِ مِنْهُ نَارًا وَأَيْدِ الْقَوْمِ أَجْنِحَةُ الْفَرَاشِ)
أى على جوانب هذا السيف نار . شبه لمعته إذا هزَّ بلسان النار ، وشبه
أيدى القوم فى تطايرها حوالى ناره بالفراش المتهافت فى النار . وقال : أجنحة
الفراش ، لأن طيرانها إنما يكون بالأجنحة . وقد كان يعنى من ذلك الكلام : وأيدى

القوم فراش . ولكن أبدع بقوله : (أجنحة الفراش) ولا معنى لرواية من روى
(كأن على الجاجم) لقوله : « وأيدى القوم » وإنما كان يسوغ لو قال :
وهن أجنحة الفراش يعنى الجاجم . فأما كوز السيوف على الجاجم كالنار
وتطير الأيدى مع ذلك ، فتشبيه بعيد .

(يَدْمَى بَعْضُ أَيْدِي الْخَيْلِ بَعْضًا وَمَا بِهِ عَجَابَةٌ أَثَرُ ارْتِهَاشٍ)

العجابة : عَصِيْبَةٌ فوق الحافر . والارتهاش : أن تضرب يد الفرس ،
فتنعقر ذراعاه ، لأن ذلك الاضطراب يحدث عنه احتكاك . فيقول : إنما دميت
أيدى هذه الخيل بعجلة الهزيمة ، والازدحام فى الحرب ، لارتهاش كان أصابها .
ولو وصفها بالارتهاش ، كان ذلك عيباً لها ، ولم يقتض مدحاً .

(تَقُوهُ حَامِرًا فِي دِرْعٍ ضَرْبٍ دَقِيقِ النَّسِجِ مُلْتَهَبِ الْحَوَاشِي)

أقام الضرب فى تحصينه له ، مقام درع دقيقة النسيج . ووصفها بالنهاب
الحواشى ، ذهاباً إلى حدة ضربه .

(مِنْ الْمُتَمَرِّدَاتِ يُذَبُّ عَنْهَا بِرُفْحَى كُلِّ طَائِرِهِ الرَّشَاشِ)

أى قوسى هذه متمردة كالشيطان المرید ، أذُبُّ عنها بالطعن المرش .
ولو قال : يَذُبُّ عنها رُفْحَى بكل طائره الرشاش ، لكان أليق ؛ لأن
الرمح فاعل اطعنته . والطعنة منفعة له . فكأنه عكس إدلالاً وانساعاً .

(عَلَيْكَ إِذَا هَزَلْتَ مَعَ اللَّيَالِي وَحَوَالِكَ حِينَ تَسْمَنُ فِي هِرَاشٍ)

الهزال هنا: مَثَلٌ لإِدْبَارِ الدُّوَلِ ، وَالسَّمْنُ : مَثَلٌ لِإِقْبَالِهَا . يقول : إذا
ساعدك الزمان بالإقبال عليك تهارشوا فى طلب المنفعة حوالبك .

وذكر الهراش تخسيساً لهم ، لأنه من فعل الكلاب . فإذا ألت بك نوابه
فهم عليك أعوانه . والعرب تكنى بعلَى على خلاف ما تكنى معه بَمَعَ .

فع واللام : للموالاة . وعلى : للتخللان والمعادة . قال تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ومعنى هذا البيت متداول كثير . ومنه قول بعض المُحَدِّثِينَ :

وَكُنْتُ أَخِي بِإِخَاءِ الزَّمَانِ قَلَمًا نَبَا صُرْتُ حَرْبًا عَوَانَا

وقد ير البيت : عليك مع الليالي إذا هزلت ، وحولك في هراش إذا سمعت أى أنهم هم كذلك .

- ٥٧ -

وله أيضا :

(خَلَا وَفِيهِ أَهْلٌ وَأَوْحَشَنَا وَفِيهِ صِرْمٌ مُرَوِّحٌ إِبِلَةٌ)

الصِّرْمُ : الجماعة من الناس ، أى أنه خال عندي وإن كان فيه أهل ، لأنهم غير أحبائي الذين عاهدت بها ، وهو موحش وإن كان فيه صِرْم من الناس ، لعدم أولئك الأحباء . ويقويه بعد هذا :

(لَوْ خُلِطَ الْمِسْكُ وَالْعَبِيرُ بِهَا وَلَسْتَ فِيهَا لَخِلْتُهَا تَفْلَةً)

وإنما تحسن الأمكنة في عيون المحبين باختيازها المحبوبين . وقوله : (وفيه أهل) : جملة في موضع الحال . وكذلك قوله : (وفيه صِرْم) جملة في موضع الحال أيضا ، فإذا رددتها إلى الإفراد ، فكأنه قال : خلا عامراً ، وأوحشنا أهلاً .

(يَنْصُرُهَا الْغَيْثُ وَفِي ظَامِنَةٍ إِلَى سِوَاهُ وَسُحْبُهَا هَاطِلَةٌ)

ينصرها : يسقيها . قال :

مَنْ كَانَ أَخْطَاهُ الرَّبِيعُ فَإِنَّمَا نَصَرَ الْحَجَّازُ بَغِيثَ عَبْدِ الْوَاحِدِ

وإنما قيل في المكان المسقى : نصره الغيث لأن المكان في غالب الأمر
 إنما يُهَجَّر لجذبه . فذلك الهجر خذل له . فإذا سقى أغشب وأخصب فاستدعى
 مَنْ رَحَلَ عنه ، فكأنه نُصِرَ بالعودة ، كما خُذِلَ بالترك ، ولذلك دُعِيَ للدار
 بالسُّقيا ، لتخصبَ فيعودها من حلَّ بها ، فيعودَ عامراً ما كان منها غامراً .
 يقول : الدار ظامئة إلى من رَحَلَ عنها ، إلا إلى الغيث الذي ينصرها
 هذا وسحبها هِطلة ، ليكون ذلك أبلغ في استغراب الظما . وما أشبه
 هذا بقوله :

إذا أردت كُيِّتَ اللون صافيةً وجدُّتها وحيبُ النفس مَفْقودُ
 قوله : (وهي ظامئة) : جملة في موضع الحال . وكذلك (وسحبها هِطلة)
 والشَّحْب : جمع سَحَاب لاجمع سحابة لأن (فعالة) لا تَكْسَرُ على فُعْل .
 إنما جمع سحابة : سحائب .

(واحرباً منك يا جدأيتهما مُقيمةً فاعلَى ومُرَّ تحيلة)

الجدأية : الظبية . أى : واحرباً منك ياظبية هذه الدار . أقمتِ أو ارتحلتِ ،
 لأنك إن رحلتِ عَدَمْتُكَ ، ولا خفاء بحال من عَدِمَ حبيبهِ . وإن أقمتِ مُنِعْتَ
 مني وقُصِرَتْ عني . فمقامك وارتحالك سواء ، كلاهما عائد على بالحرب ،
 وهو الهُلك . ومثله قول الآخر :

(والقريب الممنوعُ منك بعيدُ) . وقوله ؛ (منك) : أى من خُبِّكَ
 ومن أجلك . واستعمل (وا) هنادون (يا) . لأنه أشهر أعلام التفجع
 والندبة .

(وَبَيْضُ غِلْمَانِهِ كَنَائِلِهِ أَوَّلُ نَحْمُولِ سَيِّئِهِ الْجَمَلَةِ)

جعلهم محمولين حاملين لأنهم إذا حملوا إلى المعطين البدر والثياب كانوا

في جملة الهبات فكأنهم حملوا أنفسهم مع حملهم الهبات . وقوله : (أول محمول
 سيبه) قدمهم في السيب لأنهم أشرف أنواعه . وقال : (بيض غلمانه)
 يعني : الصقلب والروم لأنهم أئمن من الزنج والنوب وأحسن في الأعين
 وهذا البيت كقوله :

كَأَنَّ عَطِيَّاتِ الْحُسَيْنِ عَسَاكِرُ فُتِيهَا الْعَبْدِيُّ وَالْمُطَهَّمَةُ الْجُرُودُ

(وراكب الهول يُفْتَرِه لو كَانَ لِلْهَوْلِ مَحْزَمٌ هَزَلَهُ)
 أى أنه يركب الهول دائماً ، لا يُفْتَرِه ولا يُرِيحُه ، فلو تجسم الهول ،
 فكان مركوباً يُشَدُّ عليه الحزام ، لَهَزَلَ ذلك المَحْزَمُ ، بدوام الركوب
 وملازمته ، وخصَّ المَحْزَمُ دون طوائف الجسم ، لأنه موضع الركوب
 والهمز .

(قَدْ هَذَبَتْ فَهْمَهُ الْفَقَاهَةُ لِي وَهَذَبَتْ شِعْرِي الْفَصَاحَةُ لَهُ)

والفقاهاة : الفهم . تقول العرب : ماله فقاهاة ولا فصاحة .

يقول : فقاهاة في الشعر قد هذبت فهمه لي ، باستحسانه ما أنقح من
 شعري فيه ، حتى ما يستحسن غيره من الشعر المتعسف المَخْشُوبُ .
 وهذبت فصاحته شعري له ، أى لما علمت أنه فصيح ، نقيت ألقاظ شعري
 واستجديتها ، فكانت فصاحته هي التي هذبت شعري .

(فَأَكْبَرُوا فِعْلَهُ وَأَصْغَرَهُ أَكْبَرُ مِنْ فِعْلِهِ الَّذِي فَعَلَهُ)

أى أعظموا فعل أبى العشار ، وَأَصْغَرَهُ هُوَ ، أى استصغره ، لأنه صغير
 بالإضافة إليه ، كما هو عظيم بالإضافة إليهم . ثم قطع فقال : « أَكْبَرُ مِنْ
 فِعْلِهِ الَّذِي فَعَلَهُ » : أى الفاعل أَكْبَرُ مِنَ الْفِعْلِ الْمُنْفَصِلِ عَنْهُ .

(فَصَرْتُ كَالسَّيْفِ حَامِداً يَدَهُ مَا يَحْمَدُ السَّيْفُ كُلُّ مَنْ حَمَلَهُ)

أَمْ ، أَجاءَ الفهم عني ، كما أجاد الضرب بالسيف ، فأنا كسيفه في أني أحمد
فهمه ، كما يحمد السيف يده . إلا أن السيف يحمد منه جُسمانياً وهو يده .
وأنا أحمد منه نفسانياً وهو فهمه .

(ما يحمد السيف كل من حمّله) : أي ليس كل حامل له يجيد الضرب
به ، فيكون حامداً لكل من حمّله . وكذلك أنا ، ليس كل أحد
يفهم شعري ، فأحمدهم كما حدث هذا المدوح .

- ٥٨ -

وله ايضاً :

(أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهُوَ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ
وَرُدُّوا رُقَادِي فَهُوَ لَحْظُ الْحَبَائِبِ)

إن شئت قلت : طال على الليل فلا صباح ، وأمهروني الحزن فلا رُقَاد ،
وكل ذلك بمغيب من أحببت . فيقول : أَعِيدُوا الْكَوَاعِبِ إِلَيَّ ، فإذا كان
ذلك قَصْرَ ليلي ، وجاء الصباح . وَرُدُّوا الْحَبَائِبِ إِلَيَّ ، فإن رُقَادِي عندهن ،
فإذا عُدْنَ عَاودِي نومي .

وإن شئت قلت : غاب عنه الصباح بمغيب الكواعب ، لأن الدنيا تُظلم
على المحزون ، فإذا أراد أن يُردَّ ذلك عليه ، استدعى أن يُردَّ إليه الرُقَاد .
لأنه قد كان يرى الخيال فيه وفي الخيال أنس فلما عدم الرقاد ، عدم الخيال الذي
كان يأنس به .

وقوله : (فهو لحظ الحبايب) أي أن سبب رُقَادِي نظري إليهن ، فإذا لم
ألحظن مهرتُ غرضاً إليهن .

(أَرَاكَ ظَنَنْتِ السَّلَكَ جِسْمِي فَفَقِيتِهِ)

عليك بِدُرٍّ عَنْ لِقَاءِ التَّرَائِبِ)

السلك : الخيط . يقول : عهدت جسمي ناحلاً ، فلما رأيت السلك حسبته إياه ؛ ومن عادتك البخلُ بالعناق . فَحَجَزَتْ بَيْنَ السَّلَكِ وَبَيْنَ تَرَائِبِكَ بِنِظَامِ الدُّرِّ عَلَيْهِ ، جَرِيًّا عَلَى ، اعتدته من البخل .

وقوله : (عليك) : ظرف في موضع الحال .

(إِلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ مِنْ إِذَا اتَّقَى عِضَاضُ الْأَفَاعِي نَامَ فَوْقَ الْعَقَارِبِ)

ضَرُّ العقرب ، أسهل من ضَرِّ الْأَفَاعِي ، فهو يزجر عاذلته على اقتحام المهلك ، والاهتجام على صعب المساك ، فيقول لها : إِلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَا أَصْبِرُ عَلَى الصَّغِيرِ مِنَ الْأَذَى ، فَرَقًا مِنَ الْعَظِيمِ ؛ وَإِنْ كَانَ أَيْسَرُ مِنَ الْمَوْتِ ؛ كَمَا أَنَّ سَمَّ الْعَقَارِبِ أَخَفُّ مِنْ سَمِّ الْأَفَاعِي ؛ وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ :

* إِنْ الْمَنِيَّةُ عِنْدَ الذَّلِّ قَنَدِيدُ *

(أَتَنِي وَعِيدُ الْأَدْعِيَاءِ وَأَنَّهُمْ أَعَدُّوْا لِي السُّودَانَ فِي كَفْرِ عَاقِبِ)

(كَفْرُ عَاقِبِ) : موضع بالشام ، وأرصد له فيه قوم يريدون إهلاكه .

(وَالْأَدْعِيَاءِ) : ناس ادَّعَوْا إِلَى عَلَيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدِّهِمْ لَحَذَرْتُهُمْ فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي قَوْلُهُمْ غَيْرُ كَاذِبِ)

أَيُّ لَوْ صَدَقُوا هَؤُلَاءِ الْأَدْعِيَاءَ الْمُوَعِدُونَ لِي ، فِي ادَّعَائِهِمْ قُرْبِيَّ عَلَيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لَحَذَرْتُهُمْ لَشَرِّهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ ، فَهَلْ فِيَّ وَحْدِي يَكُونُ قَوْلُهُمْ صَادِقًا ، كَمَا يَكُونُونَ فِي نَسَبِهِمْ ، كَذَلِكَ يَكُونُونَ فِي تَوَعُّدِهِمْ إِيَّايَ .

(بَأَى بِلَادٍ لَمْ أَجُرْ ذَوَائِي وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَّأهُ رَكَائِي)

أما جرُّه ذوائبه : فكناية عن الغزال والتغنى ، كقول الآخر :

أَيَّامَ أَسْحَبُ لَمَتِي عَفَرَ لَمَلًا وَأَغْضُ كُلَّ مُرَجَّلٍ رِيَانٍ

وأما وطء ركائبه المكان ، فكناية عن الغزو ، يقول : كلُّ مكان قد

شاهدت إما طالب غزلي ، أو غازی أمل .

(كَأَنَّ رَحِيلِي كَانَ مِنْ كَفِّ طَاهِرٍ فَأَثْبَتَ كُورِي فِي ظُهُورِ الْمَوَاهِبِ)

أى أن مواهب هذا المدوح مُشْرِقَةٌ وَمُغْرَبَةٌ . فكان رحيلي كان من كفِّه ،

وهي مكانُ المطايا ، فَأَثْبَتَ كُورِي فِي ظُهُورِ مَوَاهِبِهِ فَمِنْ تَشْرِيقِ بَيْ وَتَغْرِبِ .

ووجه اتصال هذا البيت بالذي قبله ، أى لم أدع موضعاً إلا أتيت به ، كما أن

مواهب طاهر لم تدع موضعاً إلا أتته . وإنما صح لى ذلك بإثباته رحلى على ظهور

مواهبه السيّارة .

وجعل للمواهب ظهوراً ، لذكره الكور الذى موضعه الظُّهر . وهذا مجاز .

إذ لا ظهر لمواهبه ولا بطن .

(قَلَمَ يَبْقُ خَلْقٌ لَمْ يَرِدْنَ فَنَاءَهُ وَهَنَّ لَهُ شَرِبٌ وَرُودَ الْمَشَارِبِ)

يُحَقِّقُ تَشْرِيقُ مَوَاهِبِهِ وَتَغْرِيْبُهَا . وَأَخَذَهَا مِنَ الدُّنْيَا فِي كُلِّ أَفْقٍ وَقَطْرٍ .

فيقول : لم يبق خلقٌ إلا وقد وردت هبات طهر فناءه ؛ إما قادماً بها

من لدنه ، وإما محمولة إليه . والخلق هنا : بمعنى الخلق ، إذ لا معنى للمصدر

فى هذا الموضع .

(وَهَنَّ لَهُ شَرِبٌ وَرُودَ الْمَشَارِبِ) : أى وهى وإن كانت مشارب الآمالين ،

فإنها تطلب الآمالين الزُّوار ، مع طلبهم إياها طاب العِطَاش للمشارب . وقوله :

(وَهَنَّ لَهُ شَرِبٌ) : يتعجب من أنها لم تشرب ، وهى تطلبهم طاب الضمان

للماء . وهذا نحو قول أبى تمام :

فَأَضَحَّتْ عَطَايَاهُ نَوَازِعَ شُرَّذَالٍ يُسَائِلُنَ فِي الْآفَاقِ عَنْ كُلِّ سَائِلٍ
إِلَّا أَنْ بَيْتَ أَبِي الطَّيِّبِ أَغْرَبَ . وَتَلَخَّيْصُهُ : فَلَمْ يَبْقَ خَلْقٌ لَمْ يَبْرِدْ
فِنَاءَهُ وَرُودَ الْمَشَارِبِ ، عَلَى أَنْهِنَّ شَرِبَ لَذَّةَ الْخَلْقِ .

(فَقَدْ غَيَّبَ الشُّهَادَ عَنْ كُلِّ مَوْطِنٍ وَرَدَّ إِلَى أَوْطَانِهِ كُلِّ غَائِبٍ)
أَيُّ دَعَا صَيِّتَهُ فِي السَّخَاءِ النَّاسِ حَتَّى غَابُوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ ، مُسَافِرِينَ إِلَيْهِ .
ثُمَّ أَغْنَى هَؤُلَاءِ السَّفَرَ ؛ فَرَدَّهُمْ إِلَى أَوْطَانِهِمْ ، وَكَفَاهُمْ عَنِ السَّفَرِ إِلَى غَيْرِهِ ،
بِمَا أَقَادَهُمْ إِيَّاهُ . قَالَ بَعْضُ النُّفَادِ : وَهَذَا كَقَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ :

وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بِلَغْنٍ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُمْ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامٌ
وَلَيْسَ عِنْدِي امْتَلَهُ ، لِأَنَّ الْمُتَنَبِّيَّ قَالَ : أَغْنَى هَذَا الْمَدُوحُ قُصَادَهُ ، وَرَدَّهُمْ
إِلَى أَوْطَانِهِمْ ، فَكَفَاهُمْ السَّفَرَ . وَأَبُو نُوَّاسٍ قَالَ : إِذَا بَلَغَتْ الْمَطِيُّ بَنَّا هَذَا
الْأَمِيرَ ، حَرَّمْنَا ظُهُورَهَا عَلَى الرِّجَالِ ؛ أَيْ لَمْ نَرْكَبْهَا أَبَدًا ؛ وَلَا امْتَنَاهَا ، جَزَاءَ
لَهَا عَلَى تَبْلِيغِهَا إِيَّانَا أَمَلْنَا مِنْ لِقَائِهِ . وَلَمْ يَذْكُرْ عَطَاءً ؛ وَلَا كِفَايَةَ سَفَرٍ ، أَلَا تَرَاهُ
يَقُولُ بَعْدَ هَذَا ؛ مُبَيِّنًا لَعَلَّةَ تَحْرِيمِ ظُهُورِهَا عَلَى الرِّجَالِ :

قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامٌ
(أَنْاسٌ إِذَا لَاقُوا عِدَى فَكَأَنَّمَا سِلَاحُ الَّذِي لَاقُوا غُبَارُ السَّلَاحِ)
السَّلَاحُ : الطُّوَالُ مِنَ الْخَيْلِ وَغَيْرِهَا . وَإِنْ شَتَّتْ قَلْتُ : سِلَاحُ أَعَادِيهِمْ
بِمَنْزِلَةِ غُبَارِ الْخَيْلِ فِي أَنَّهُ لَا يَعْأُ بِهِ . وَخَصَّ السَّلَاحَ ، لِأَنَّ الطُّوَالَ أَخْفُ ،
فَغُبَارُهَا أَخْفُ .

وَإِنْ شَتَّتْ قَلْتُ : إِنْ سِلَاحُ مَنْ لَقِيَهُمْ إِنَّمَا هُوَ إِثَارَةُ الْغُبَارِ بِالْهَرَبِ
وَالِانْهِزَامِ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ سِلَاحَهُمْ ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقِيهِمْ كَمَا يَقِي
السِّلَاحُ غَيْرَهُمْ ، أَيْ ذَلِكَ الَّذِي يَقُومُ لَهُمْ مَقَامُ السِّلَاحِ .

وَإِنْ شَتَّتْ قَلْتُ : كَانَ السِّلَاحُ هُنَا الدَّرُوعُ وَالْجُنُنُ أَيْ هِيَ عَلَيْهِمْ
أَوْهَى نَسْجًا مِنَ الْغُبَارِ تَحْرِقُهَا الرَّمَّاحُ ، كَقَوْلِهِ فِي صِفَةِ الرَّمَّاحِ :

قَوَاضٍ قَوَاضٍ نَسَجَ دَاوُدَ عِنْدَهَا إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ كَنَسَجِ الْخَذَرِ نَقِ
الْخَذَرِ نَقِ : العنكبوت ؛ شبه الدروع في خرق الرماح لها ، ومهولة
ذلك منها عليها ، بيت العنكبوت .

(رَمَوْا بِنَوَاصِيهَا الْقِيسَى فَجَحِثَتْهَا دَوَامِي الْهَوَادِي سَأَلَتِ الْجَوَانِبِ)
أى رَمَوْا نَوَاصِي هَذِهِ الْخَلِيلِ بِالْقِيسَى ، فَعَكَسَ ، (ومثله كثير) ؛ فجاءت
دَوَامِي الْهَوَادِي ، وهى الأعناق والمقاوم ، لإقدامها . وسملت جوانبها ، لأنها
لم تستعرض ولم تستدير . وكفى بالجوانب هنا عن الأعجاز والأعطاف جميعاً ،
وهم يصفون المُقَدِّمَ بأن جُرْحَهُ فى أَمَامِ جِسْمِهِ ، والمُذِيرَ بخلافه ، كقول
القُطَامِي :

لَيْسَتْ تَجْرَحُ فُرَّاراً ظَهْرُهُمْ وَفِي النُّحُورِ كُلُّهُمْ ذَاتُ أُبْلَادٍ
وقوله : (دَوَامِي الْهَوَادِي) : أَرَادَ دَوَامِي ، فَسَكَنَ اضْطِرَاراً .

(يَقُولُونَ تَأْثِيرُ الْكَوَاكِبِ فِي الْوَرَى)
فَمَا بَالُهُ تَأْثِيرُهُ فِي الْكَوَاكِبِ (

أَثَرُ فِيهَا بِاعْتِلَائِهِ عَلَيْهَا . يَقُولُ : أَثَرُهُ فِي الْكَوَاكِبِ ؛ وَهُوَ مِنَ الْوَرَى
فَكَيْفَ زَعَمُوا أَنَّ الْكَوَاكِبَ تَوَثَّرُ فِي الْوَرَى . يَذْهَبُ إِلَى تَكْذِيبِ
الْمُنْجِّمِينَ ، فَيَقَعُ فِيهَا هُوَ أَوْحَشُ وَأَفْحَشُ مِنْ قَوْلِهِمْ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : إِنْ هَذَا
الْمَدْحُوحُ أَثَرٌ فِي النُّجُومِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهَا . وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ :

فَتَبًّا لِلدِّينِ عَبِيدِ النُّجُومِ وَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا تَفْعَلُ
وَقَدْ عَرَفْتُكَ فَمَا بَالُهَا تَرَاكَ تَرَاهَا وَلَا تَنْزِلُ
(يَرَى أَنَّ مَا بَانَ مِنْكَ لَضَارِبٍ بِأَقْتَلِ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِغَائِبِ)

أى يرى أنه ليس الذى بان منك لضارب ، بأقتل مِمَّا بان منك لعائب .
أى العيب أقتل من الضرب . ففى (أن) مضمَر على شريطة التفسير ، وما
الأولى تى ، والثانية بمعنى الذى والجملة بكليتها تفسير المضمَر على شريطة التفسير .

(حَلَّتْ إِيَّاهُ مِنْ لِسَانِي حَدِيقَةٌ)

سَقَاهَا الْحَبَّاءُ سَقَى الرِّيَاضَ السَّحَابُ

الحديقة : الروضة . شَبَّهَ القصيدة بها فى حسنها ، إِلَّا أَنَّ الذى قام لها مقام
السحاب للحديقة ، إنما هو عقلى ، بأنه سقاها بفكره وبأمله ، سَقَى السحاب
الرياض ، كقول أبى تمام فى صفة الشعر :
وَلَكِنَّهُ صَوَّبُ الْعُقُولِ إِذَا انْجَلَّتْ سَحَابٌ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابِ
وَأَرَادَ سَقَى السحاب الرياضَ ففصل بين المضافين اضطراراً .

- ٥٩ -

وله أيضا :

(كُنْتُ حُبِّكَ حَتَّى عَنَكَ تَكْرِمَةٌ ثُمَّ اسْتَوَى فَيْكَ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي)
أى كُنْتُ حُبِّي عَنْ الْأَنَامِ ، حَتَّى عَنَكَ وَإِنَّمَا كَانَ كِتْمَانُهُ تَكْرِمَةً لَكَ ،
ثُمَّ غَلَبَنِي ذَلِكَ فَاسْتَوَى مِرِّي وَجَهْرِي أَيْ أَظْهَرْتُ مِنْهُ مِثْلَ مَا كُنْتُ أَخْفِي .
(كَأَنَّهُ زَادَ حَتَّى فَاضَ عَنْ جَسَدِي)

فَصَارَ سُقْنِي بِهِ فِي جِسْمِي كِتْمَانِي

أى كَانَ الْحُبُّ زَادَ حَتَّى سَقِمْتُ ، ففاضَ بَعْضُ سُقْنِي إِلَى جِسْمِي كِتْمَانِي ،
فَفَرَضَ الْكِتْمَانَ ، وَبَطَلَ ، فَظَهَرَ الْحُبُّ . وَهَذَا اعْتِدَارُهُ مِنْهُ إِلَى مُحِبِّهِ فِي
إِعْلَانِهِ بِحُبِّهِ . أَيْ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِهَذَا . وَاسْتِعَارَ الْكِتْمَانَ جِسْمًا ، وَإِنْ كَانَ
عَرَضًا ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ السُّقْمَ ، وَالسُّقْمَ عَرَضٌ ، وَالْعَرَضُ لَا يَبْدُلُهُ مِنْ مَحَلِّ .

وان شئت قلت : الهاء في كأنه راجعة إلى الكتمان . وإن لم يجز له ذكر ، كقوله : من كَذَبَ كان شراً ؛ أي كان الكذب شراً له . حكاية سيبويه . ومثله كثير في التنزيل وغيره . فيكون المعنى على هذا ، كأن الكتمان فاض عن جسد فتغشى الجسم ؛ واستتر السقم الحال فيه باستتار جسمي ، لأنه إذا استتر الجوهر الحال فيه العرض ، استتر العرض في أغلب الأمر . ولما قال إن الكتمان مشتمل على الجسم كاشمال الثوب ، استجاز أن يجعل الكتمان جسمًا مؤلفًا ، وقد خفي جسمه وظهر مافاض عليه من الكتمان ، فكان السقم في جسم الكتمان .

- ٦٠ -

وله ايضا :

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّنَا سَنُطِيعُهُ أَمَّا عَلِمْنَا أَنَّنَا لَا نَخْلُدُ)

أي علمنا أننا في طاعة الفراق والانتقاده ، لتيقننا الموت ، الذي هو أشد أنواع الفراق ، لأنه اضطراري الوجود ، وغيره من أنواع الفراق ممكن لا واجب ، وكأنه قال : نحن متيقنون لوقوعه ، لعلمنا أننا نموت . وذكر الطاعة ، لأن الامتناع من الموت ممتنع .

ومن ظريف هذا البيت : إيجابه إطاعة الجنس ، وجعله علة ذلك إطاعة النوع الضروري ، لأن النوع قابل لاسم الجنس . وهذا منه تفاسف منطقي بديع .

- ٦١ -

وله ايضا :

(أَعْلَى قَنَاقَةِ الْحُسَيْنِ أَوْسَطُهَا فِيهِ وَأَعْلَى الْكَمِيِّ رِجْلَاهُ)

(فيه) : أى فى المأزق . ومعناه : أنه لما طعن بها الفارس تحنّت ، وتقرّست .
أحد طرفيها فى المطن والآخر فى يد الطاعن ، فيعتمد عليه ، فصار أوسطها أعلى .
أنبوب فيها . (وأعلى الكى رجلاه) أى يطن الفارس فيخر مكبواً : أعلاه .
رجلاه وأسفله رأسه .

(تُنْشِدُ أَثْوَابَنَا مَدَائِحَهُ بِالسُّنِّ مَالَهُنَّ أَفْوَاهُ)

أى تدل من رآها أنا قد مدحناه ، فأخذنا مدحه ، فتخبر عن جودة .
المدح بجودتها ، إذ لا يكافى المدوح الناقد بالجيد إلا على الجيد .
وقيل : عنى أنها جدد ، فهى تتعقّب . وهذا لا يلتفت إليه .

(إِذَا مَرَرْنَا عَلَى الْأَصْمِ بِهَا أَغْنَتْهُ عَن مِسْمَعِيهِ عَيْنَاهُ)

(بها) : أى بالحلل . يقول : إذا رأى الأصم علينا هذه الحلل التى كساها
أبو العشار ، علم أننا داعون له من أجلها ، وشاكرون عليها ، لما يرى من
بهائها وسنائها وإن لم يسمع شكرنا إياه ، ولا دعاؤنا له . فعينه موثوق به ،
بل هو أشد إعراباً عن ذلك من اللسان . لأن اللسان ربما حذف إما اختصاراً
وإما لكنة . ونحو هذا البيت قوله هو :

خَلَقْتَ صِفَاتِكَ فِي الْعَيُونِ كَلَامَهُ كَاخْطَ يَمَلَأُ مِسْمَعِي مِنْ أَبْصَارِ

ونظير البيت الأول قول الأسود ، وهو نصيب :

فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَنْذَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وقال قوم لم يكنك يا أبا العشار ، فقال :

(قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ قُلْتَ لَهُمْ ذَلِكَ عِى إِذَا وَصَفْنَاهُ)

قالوا (أ لم تكنه) : يُخْرِجُ ظَاهِرَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَنَاهُ ، لَأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ
مُنْكَرًا : أ لم تقم ؟ فمعناه : قد فعلت القيام . وإذا قلت أَقُمْتَ ، لم يكن فيه

إثبات أنه قام ، وإنما هو إنكار أمر القيام . والمتنبى لم يُكنِ أبا العشائر في القطعة التي قبل هذه . وإنما قال له هؤلاء المطالبون المتبعون لزاله : (ألم تكنه) ؟ وهم مستفهمون لا منكرون ، فلم يشعر هو لمكرهم ، فاعترف لهم ، فقال : لا . ثم أعلم ما حاوره هؤلاء الحاسدون منه ، فقال هذا الشعر معتذراً ، وحكى ما واجهوه من لفظ الاستفهام .

(لا يَتَوَقَّى أَبُو الْعَشَائِرِ مِنْ كَيْسٍ مَعَانِي الْوَرَى بِمَعْنَاهُ)

أى إن صفاته مُغْنِيَةٌ عن تسميته وَتَكْنِيَّتِهِ ، لأنه منفرد بها لا يُشْرِكُ (فيها) إذ هي صفات لا يُحَلَّى بها غيره . فصارت كالاسم ، بل هي أشد اختصاصاً له من الاسم والكنية ، لأن حُسَيْنًا وأبا العشائر كثير . والصفات التي لأبي العشائر هذا ، لا تَلْحَقُ إلا إياه . فصارت لذاته كالحدد للنوع المحدود . ولذلك سَمِيَ تَكْنِيَّتَهُ مع وصفه إياه عِيًّا .

- ٦٢ -

وله أيضا :

(كَيْفَ تَرْتِي الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفْنٍ رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقٍ)

أى لا يسمعها الرثاء للباكين ، لأنه ليس يبكي من هجرها واحد ، بل كل واحد وإنما كانت ترتي لو انفردَ بأك بالبكاء ، فأما جميع الباكين من هجرها ، فلا يسمعهم رثايتها لهم . وإن شئت قلت : إن كل جفن رآها بكى من هجرها إلا جَفْنَهَا وحدها ، فإنه لا يبكي ، لأنها لا تهجره . وَيَقْوَى ذلك بعد هذا :

(أَنْتِ مِنَّا فَكُنْتِ نَفْسَكَ لِكِنِّ كِ عُوْفِيَةٍ مِنْ ضَنْيٍ وَاشْتِيَاقٍ)

فهى لا ترتي لذلك من غيرها ؛ لأنها مُعْفَاة منه . وتقدير البيت : كيف ترتي التي ترى كل جفن رآها غير راقٍ إلا جَفْنَهَا (فغير جَفْنَهَا) استثناء (وغير راق) حال . وإذا رَدَدْتَ غير راقٍ إلى الاسم المحصل فكانك قلت : كيف

ترى التي ترى كل جفن رآها با كياً ، لأن (غير راق) معناه : بك . كما
أنك إذا قلت : زيد غير عالم . فغير عالم كقولك : جاهل وأراد : راقنا ،
فأبدل إبدالاً صحيحاً ، للوصل .

(لَوْ عَدَا عَنْكَ غَيْرَ هَجْرِكَ بَعْدَ لَأَرَارَ الرَّسِيمُ مُنْعَ الْمَنَاقِ)

عدا : صرف . وأرار : ذاد . والرسيم : ضرب من السير . والمناق :
الإبل السمان . أي لو كان المانع عنك بعداً لا هجراً ، لسيرنا دأباً حتى تهزل
إبلنا ، فيذوب مخها ، فاكتفى بذكر المسبب عن ذكر السبب . ومثله قوله :

أَبْعَدُ نَائِي الْمَلِيحَةِ الْبَخْلُ فِي الْبُعْدِ مَا لَا تَكَلِّفُ الْإِبِلُ
(وَلَسِرْنَا وَلَوْ وَصَلْنَا عَلَيْهَا مِثْلَ أَنْفَاسِنَا عَلَى الْأَرْمَاقِ)

الأرماق : البقايا . أي سرنا إليك على هذه الإبل التي كانت تعود أرماقنا
ونحن كالأنفاس عليها خفة ، لما أحققنا من النجول : كقوله :

بَرْتَنِي الشَّرَى بَرَى الْمَدَى فَرَدَدَنِي

أَخَفَّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفْسِي جِرْمِي

(فمثل أنفاسنا) : حال من الضمير الذي في وصلنا (وعلى الأرماق) ظرف
متعلق بأنفاسنا . وإن شئت قلت : ولو وصلنا على هذه الإبل فقد استكرهت
حملنا فضعت عنه لما لحقها من المشقة ، كما استكرهت أرماقنا حمل أنفاسنا
لذلك .

(كَأَثَرَتْ نَائِلَ الْأَمِيرِ مِّنَ الْمَالِ بِمَا نَوَّلَتْ مِنَ الْإِبْرَاقِ)

الإبراق : التجنيب والمنع . يقول : كاثرت عطاء الأمير بمنعها . يصفها
بكثرة ذلك منها . فكأنه قال : عارضت جوده ببيعها ، ليكون أبعث على حبها ،
كقول العرب : (تَمَنَّى أَشْهَى الْكَ) . وقد يكون أنه وصفها بالعفة ، كما
وصف الأمير بالكرم ؛ أي أن عفتها في نوع العفة ، ككرم الأمير في
نوع الكرم .

(يابني الحارث بن لقمان لآتَه مِمَّكُمْ فِي الْوَغَى مَتُونُ الْعِتَاقِ)
في الوغى اختصاص حسن . يصنفهم بالشجاعة إذ لا يُدْمِنُونَ رُكُوبَ الْخَيْلِ
أَبَدًا لِإِرَاضَتِهَا وَسِيَاسَتِهَا .

(طَاعِنُ الطُّعْنَةِ الَّتِي تَطْعَنُ الْفَيْهَ لَمَقَ بِالذُّعْرِ وَالْدِّمِ الْمَهْرَاقِ)
الْفَيْلَقُ : الْكُتَيْبَةُ . وَالذُّعْرُ : الْفَرْعُ . أَيْ أَنَّهَا طُعْنَةٌ تَمْلَأُ صَدُورَ
الْكُتَيْبَةِ كُلِّهَا ذُعْرًا ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَقَعُ الطُّعْنَةُ إِلَّا بِوَاحِدٍ . فَكَأَنَّهُ بِذَلِكَ قَدْ
طَعَنَ الْفَيْلَقُ كُلَّهُ ، فَيَفْرُتُونَ .

(هُمُّهُ فِي ذَوَى الْأُسْنَةِ لَا فِيهَا وَأَطْرَافُهَا لَهُ كَالنُّطَاقِ)
أَيْ حَفَّتْ بِهِ الْأُسْنَةُ ، حَتَّى صَارَتْ لَهُ كَالنُّطَاقِ ، فَهَمُّهُ حِينَئِذٍ فِي قَتْلِ ذَوَى
الْأُسْنَةِ ؛ لِهَوَانِهَا عَلَيْهِ ، وَحَقَارَتِهَا لَدَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : (وَأَطْرَافُهَا لَهُ كَالنُّطَاقِ) : جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، يَسْتَفْرِغُ ذَلِكَ ،
وَهَذِهِ حَالُهُ . وَشَبَّهَهُ بِبَعْضِ النُّقَادِ بِقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هَمُّهَا يَوْمَ الْكُرَيْيَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ
وَلَيْسَ مِثْلُهُ ، لِأَنَّ أَبَا تَمَامٍ نَفَى عَنِ الْمَدُوحِ حُبَّ السَّلْبِ وَأَبُو الطَّيِّبِ
ذَكَرَ أَنَّ أَبَا الْعِشَّائِرِ لَا يَعْبَأُ بِالْأُسْنَةِ الْمَحْدِقَةِ بِهِ لَشَجَاعَتِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ حُبَّ السَّلْبِ
وَلَا ضِدَّهُ ، وَقَالَ : (وَأَطْرَافُهَا) وَلَمْ يَقُلْ (وَهِيَ) ، لِأَنَّ الْأُسْنَةَ لَمْ تَخَالُطْ لَحْمَهُ
بَعْدُ ، وَإِنَّمَا هِيَ عَلَى ظَاهِرِ جَسَمِهِ ، فَأَطْرَافُهَا هِيَ الْمَحْدِقَةُ بِهِ لَا جُمْلَتُهَا .

(جَاعِلٍ دِرْعَهُ مَنِيتَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ دُونَهَا مِنَ الْعَارِ وَاقٍ)
أَيْ يَجْعَلُ دِرْعَهُ مَنِيتَهُ الَّتِي تَقِيهِ الْعَارَ ، إِذَا لَمْ يَجِدْ غَيْرَ الْمَوْتِ وَاقِيًّا . وَكَانَ
أُظْهِرَ مِنْ ذَلِكَ — لَوْ أَتَزَنَ لَهُ — أَنْ يَقُولَ : جَاعِلٍ مَنِيتَهُ دِرْعَهُ .

(والأُسى قبلُ فُرقةِ الرُّوحِ عَجْزٌ والأُسى لا يكونُ بَعْدَ الفِرَاقِ)

يُسَفِّهُ رأى من شَحَّ بنفسه وجَبُنَ . فيقول : لا معنى للأُسى قبلُ فُرقةِ الروح ، لأنه في حدِّ الوجود ، فإذا حلَّ به العَدَمُ وأزالَ الوجود فلا أُسى هنالك ؛ فمن الحُكْمِ ألا يكونُ أُسى . وقيل : الأُسى لا يكون بعد الفراق ، وإنما هو قبلُ الفُرقة ، فعلى هذا يكون صدر البيت تسفيها لرأى المشفق على الذات ، وعجزه اعتذار له .

(لَيْسَ قَوْلِي فِي شَمْسٍ فَعَلِكِ كَالشَّمْسِ وَلَكِنْ فِي الشَّمْسِ كَالِإِشْرَاقِ)

جعل لفعله شمسا : استعارة لحسن أفعاله وإنارتها . فيقول : ليس ثنائى عليك في نوع الثناء ؛ مثلَ فعلك في نوع الفعل ، ولكن فعلك شمس وثنائى ، إشراقها ، أى أن ثنائى يَنْشُرُ فعلا وَيُبَيِّنُهُ كما يُظهر الإشراقُ جوهرَ الشمس . وكُنَى عن فعله بالشمس ، وعن ثنائه بالإشراق ، لأن الشمس أشرق من الإشراق ؛ من حيث كانت جوهرأ والإشراقُ عَرَضٌ فيها .

— ٦٣ —

وله أيضا :

(وَلَوْ لَمْ أَخَفْ غَيْرَ أَعْدَائِهِ عَلَيْهِ لَبَشَّرْتُهُ بِالْخُلُودِ)

غير أعدائه : الحام الطبعي . فيقول : لو لم أخف عليه الموت إلا من قبل أعدائه لتيقنت أنه خالد ؛ لتصور عداؤه عنه . وهو نحو قول جرير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مِربعا أبشر بطول سلامة يامِربَعُ

إلا أن قول أبي الطيب أبلغ ، لأن جريرا بَشَّرَ مِربعا بطول السلامة ،

ولم يفصح بالخلود . وأبو الطيب أراد أن يبشّره بالخلود .

وله أيضا :

(قَطَّعْتَ ذِيَاكَ الْخُمَارَ بِسَكْرَةٍ وَأَدْرَتِ مِنْ تَخَرِّ الْفِرَاقِ كُثُوسًا)
 الخُمَارُ : أخف من السكر . فيقول : كنت أشكو هجرَكِ مع القرب ،
 فأتبعني بَيْنُكَ ، وهو أشد من الهجر الذي كان مع دُنُوِّ الدار ، وقرب المزار .
 وكثيراً ما يستعمل هذا النحو ، أعني أنه يستصغر العظام ، بإضافتها إلى ما هو
 أعظم منها ، كقوله :

وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ أَسْتَعْظِمُ النَّوَى
 قَدْ صَارَتْ الصَّغْرَى الَّتِي كَانَتْ الْعُظْمَى
 وكقوله :

وَلَمْ يُسْلَمِهَا إِلَّا الْمَنَاءُ وَإِنَّمَا أَجَلٌ مِنَ السُّقْمِ الَّذِي أَذْهَبَ السُّقْمَا
 (وَبِهِ يُضَنُّ عَلَى الْبَرِيَةِ لِأَبِهَا وَعَلَيْهِ مِنْهَا لَاعَالِيهِ يُوسَى)
 أى يَضِنُّ عَلَى الْبَرِيَةِ أَنْ يُعَدَّ مِنْهَا وَإِنْ كَانَ مِنْ نَوْعِهَا ، لِأَنَّهُ أَشْرَفُ
 مِنْهَا جَوْهَرًا وَفِعْلًا . فَكَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَدُّ فِي نَوْعٍ آخَرَ غَيْرِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ،
 وَلَا يُنْفَسُ بِالْبَرِيَةِ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ خَطَرُهُ أَنْفُسُ مَنْ خَطَرُهَا ، فَتَقْدِيرُهُ : لِأَبِهَا
 عَلَيْهِ . « فَخَذَفَ عَلَيْهِ » لِلْعَالَمِ بِهَا ، وَكَذَلِكَ يُخْزَنُ عَلَيْهِ مِنْهَا : أَى يُخْزَنُ عَلَى
 أَنْ يُعَدَّ مِنْهَا ، فَيُبَيِّنُ حَقَّهُ ، وَلَا يُخْزَنُ عَلَيْهَا مِنْ كَوْنِهِ مَعْدُودًا فِيهَا بِالنَّوْعِيَّةِ ،
 لِأَنَّهَا دُونَهُ فِي الْقَدَرِ وَالْخَطَرِ .

وإن شئت قلت : إنه إنما يُخْزَنُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِهِمْ إِذَا هَلَكَ ، لَا عَلَيْهَا إِذَا
 هَلَكَتْ ، لَمْ يَجْزِ غَنَائُهَا عَنْ غَنَائِهِ .

فَمِنْ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ لِلْعَلَّةِ أَى مِنْ أَجْلِهَا ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي بِمَعْنَى مِنْ
 بَيْنِهَا .

وأراد : (يُوَسِّي) ؛ فأبدل إبدالاً صحيحاً للرّدْف ، في قول أبي الحسن .
وهو تخفيف قياسي في قول أبي عثمان ؛ لأنه يرى الرّدْف بالتخفيف القياسي
معاملة للفظ .

— ٦٥ —

وله أيضا :

(مَرَّتْكَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ صَافِيَةُ الْخَمْرِ
فَهَنْتُهَا مِنْ شَارِبِ مُسْكَرِ الْشُّكْرِ)
أى أنت سكران صاحباً بأريحية خلّتك ؛ فإذا شربت الخمر أسكرتها بفضل
سكر أريحيّتك . وقال مُسْكَرِ الْسُّكْرِ ولم يقل مُسْكَرِ الْخَمْرِ لأن إسكاره
السكر أبلغ من إسكاره الخمر . وهو أذهب في الشعر وأغرب ؛ لأن العَرَضُ
لا يَحْمِلُ عَرَضاً ؛ فتفهّمه . وقال : مَرَّتْكَ ؛ وإنما هو مَرَّأَتُكَ ؛ فأبدل إبدالاً
صحيحاً ، كقوله : (فَارَعَى فِزَارَةَ لَا هَنَّاكَ الْمَرْتَعُ) .

— ٦٦ —

وله أيضا :

(يَا أُخْتَ مُعْتَنِقِ الْفَوَارِسِ فِي الْوَعَى
لَأُخْوِكَ تَمَّ أَرْقُ مِنْكَ وَأَرْحَمُ)
(يَرْنُو إِلَيْكَ مَعَ الْعَفَافِ وَعِنْدَهُ أَنْ الْجَوْسَ تُصِيبُ فِيمَا تَحْكُمُ)
قيل : يخاطب محبوبته . جعلها أختاً تعففاً عنها ، وتنزهاً عن الفجور بها .
(لَأُخْوِكَ) : يعنى نفسه . (تَمَّ) : أى في موضع القتال . و (اعتناق
الفوارس) أرق منك في الهوى وأرحم ، ذلك على قساوته في الحرب . يرنو
إليك مع العفاف . . . البيت .

أى أن أخاك وهو يعنى نفسه ينظر إليك فيعجبه حسنك ، إلا أنه بعف
تشرفاً لا تديناً ، وعنده مع عفته . أن المجوس تُصيب في حكمها الذى هو
نكاح الأخوات .

وإن شئت قلت : إنه يتغزل بأخت رجل شجاع ، فيقول لها : أخوك على
شدته وبسأله ، أرق منك وأرحم ، ثم أخبر عنه أنه يرنو إليها مع العفاف الذى
تُوجبه منافرة الطبيعة لنكاح الأخوات ، فيذم نفسه على ذلك العفاف الطبيعى .
وعنده أن المجوس تصيب في نكاح الأخوات .

وقد قيل فى هذين البيتين قول لا ينبغي أن يلتفت إليه لِسُخْفِهِ .

وقوله المجوس : أراد المجوسيين ، فلذلك أدخل عليه الألف واللام . ولو
عنى القبيلة لقال إنَّ مجوسَ كقوله :

أَحَارِ أَرِيكَ بَرَقًا هَبَّ وَهْنًا كَنَارِ مَجُوسَ تَسْتَعِرِ اسْتِعَارًا
(رَاعَتُكَ رَائِدَةُ الْبَيَاضِ بَعَارِضِي^(٣) وَلَوْ أَنَّهَا الْأُولَى لَرَاعَ الْأَسْحَمُ)

الرائعة : أول ما يظهر من الشيب . والعرب تصف المرعى بالسواد ، فإذا
حَلَّتْ الشَّيْبَةُ جَعَلُوهَا (راعية) لذهب السواد ، كما تذهب الراعية من
الماشية خضرة المرعى .

(وَلَوْ أَنَّهَا الْأُولَى لَرَاعَ الْأَسْحَمُ) : أى لو تقدم البياض قبل السواد ، ثم
أعقبه السواد لكان أروع ؛ لأن السواد أروع من البياض وأهول .

(وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدَ ذَا عِفَّةٍ فَلَعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ)

المعنى : والظلم من تأليف خلق النفوس . ومعنى الظلم : وضع الشيء في

غير موضعه . وتأليف النفوس من أربعة أشياء متنافرة : من حار رطب ،

وبارد رطب ، وحار يابس ، وبارد يابس . وهى ما اعتدلت صلح الجسم ، وإذا

اختلفت فسد الجسم ، فهل يوجد ؟

(وَتَرَاهُ أَصْفَرَ مَا تَرَاهُ نَاطِقًا وَيَكُونُ أَكْذَبَ مَا يَكُونُ وَيُقْسِمُ)
أى يعظم ساكناً بهيبته ، فيغرُّ من رآه ، فإذا تكلم صغر من لكنته ،
كقوله :

وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ
زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
(وَيَكُونُ أَكْذَبَ مَا يَكُونُ وَيُقْسِمُ) : أى إذا تنهى فى الكذب أقسم
عليه أنه حق له .

— ٦٧ —

وله أيضا :

(كُنْ لُجَّةً أَيُّهَا السَّمَاحُ فَقَدْ آمَنَهُ سَيْفُهُ مِنْ الْفَرَقِ)
اللُّجَّة مَهْلِكَةٌ لِلْأَرْوَاحِ ، وَالسَّمَاحُ مَهْلِكَةٌ لِلْمَالِ . فيقول : أَيُّهَا السَّمَاحُ
اعْظُمْ ، حَتَّى تَكُونَ لُجَّةً مُهْلِكَةً لِمَا لَهُ ، فَإِنَّ سَيْفَهُ يَحْلِفُ عَلَيْهِ بِالْإِغَارَةِ
وَالنَّهْبَةِ جَمِيعَ مَا تَلْفَهُ أَنْتَ . وَلَمَّا جَعَلَ السَّمَاحُ لُجَّةً اسْتَعَارَ اسْمَ الْفَرَقِ لِلْفَقْرِ .
ونظير هذا قول الشاعر :

وَمَنْ يَفْتَقِرُ مَنَا يَعْشُ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلُ
وَقَالَ : كُنْ لُجَّةً ، وَلَمْ يَقُلْ : كُنْ بَحْرًا ، لِأَنَّ اللَّجَّةَ أَهْوَلُ مَا فِي الْبَحْرِ ،
أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَرَبَ تَسْمِيهَا (الْعَوْطَبَ) ، لَمَّا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْعَطَبِ أَوْ يُخَافُ ،
وَلَمْ يُسَمُّوا جَمَلَةَ الْبَحْرِ عَوْطَبًا .

— ٦٨ —

وله أيضا :

(أَنَا بِالْوُشَاةِ إِذَا ذَكَرْتِكَ أَشْبَهُ تَأْتِي النَّدَى وَيَذَاعُ عَنْكَ فَتَكْرَهُ)
الكَرِيمُ يَكْرَهُ ذَكَرَ إِحْسَانِهِ إِلَى مُؤَمِّلِيهِ ، حَذَرًا أَنْ يُظَنُّوا ذَكَرَ ذَاكَ

اعتداداً به عليهم وَمَنَّا ، فكان من يذكروه عنه ؛ يُشيع عنه ما يكره إشاعته ؛
وَيَنِمُّ به . والقطعة رائية ؛ ولا تكون هائية ؛ لأن بعد هذا البيت بيتاً آخره
(نَصْرُهُ) ؛ فهذه هاء إضمار ؛ متحرك ما قبلها ؛ وهاء الإضمار المتحرك
ما قبلها ؛ لا تكون رَوِيًّا .

فإن قال قائل : قد قال في المِصرَاع الأول من هذا الشعر (أنا بالوشاة إذا
ذكرتك أشبه) فَقَفَى بالهاء . قُلْتَ : لم يُقَفَّ بهاء . وليس الشعر بمصرع ،
وإنما هو في البُعد من التصريح ، بمنزلة لو قال : (إذا ذكرتكَ أمثلُ) مع
قوله تذكروه . فهذا احتيالٌ لطفه له أهل بغداد .

والذي عندي أن أبا الطيب كان جاهلاً بصناعة القوافي ؛ فانها مهنة دقيقة ،
يعجز عنها الشعراء ؛ ويغلطون فيها . نعم ؛ وقلَّ من يعرفها من النحويين إلا
الخليل وأبا الحسن إماميها وقليلاً بعدها .

— ٦٩ —

وله ايضاً :

(وَمَنْ خُدِمَتْ عَيْنَاكَ بَيْنَ جُفُونِهِ

أَصَابَ الْحَدَوْرَ السَّهْلَ فِي الْمَرْتَقَى الصَّعْبِ .)

أى أن قلبي متنزه بمناعته ؛ أى بشجاعته ؛ دافع عن نفسه ببأسه . ولكن
من كانت له عين كعينك ، أصاب الأمر الصعب بالسَّعى السهل . أى فذلك
يمكن لك مِنِّي على تمنُّعه على غيرك . والانحدار سهل ، والارتقاء صعب . فمن
كان الارتقاء عليه في سهولة الانحدار ؛ فكل صعب له سهل ،
كقول البحترى :

وَمُصْعِدٌ فِي مَضَابِ الْمَجْدِ يَطْلُعُهَا كَأَنَّهُ لِيَسْكُونِ الْجَأْشِ مُنْجَدِرُ

وقد بالغ أبو الطيب بالمقابلة بين الحدور السهل والمرتقى الصعب ؛ لسرى
طبيعة الضد في الوصفين والموصوفين . قابل الحدور بالمرتقى ، والسهل
بالصعب . ولو أمكنه أن يقابل الحدور بالصعود ؛ لكان أذهب في الصنعة .
ليوازن اللفظين .

— ٧٠ —

وله أيضا :

(وَفَاؤُكُمْ كَمَا كَالرُّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ بَأَنْ تُسْعِدَا وَالْدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ)

يخاطب خليله . وإنما كثرت مخاطبة العرب خليلين وصاحبين ؛ دون أقل
أو أكثر ؛ لأن أقل السفر المترافقين ثلاثة ، فالواحد يخاطب صاحبيه .
يذهبون في ذلك إلى أنه إن اختلف الاثنان قتل الأقوى الأضعف . فاذا كان
لهما ثالث ؛ توسط فحال بينهما في الأغلب . فلذلك لم يصطحب في الأكثر أقل
من ثلاثة لهذه العلة . هذا معنى مخاطبة العرب في أغلب الأمر الاثنين ، حتى
تجاوزوا في ذلك إلى أن خاطبوا الواحد بخطاب الاثنين ؛ كقوله تعالى :
(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ) . ومن كلامهم : يَا حَرَسِيَّ اضْرِبَا عُنُقَهُ . وقال :

فَإِنْ تَزَجُرَانِي يَا بْنَ عَفَّانَ أَزْدَجِرْ

والطاسم : الدارس . وأشجاءه : أشدّه إشجاء وإحزاناً . ولا يكون فعلاً ،
لمقابلته إياه بقوله : أَشْفَاهُ . وَأَشْفَى : اسم لا فعل . يقول : وفاؤكم كما أيّها الخليلان
بأن تسعداني على بكائي في هذا الربع الدارس ، كهذا الربع الذي بكيتُهُ ،
وذلك في ترك المساعدة في الوقوف به معي ، ففي ذلك أشبه وفاؤكم للربع
دروساً وطُموساً . ثم قال : (والدمعُ أشفاه ساجمه) : أي لا تلوماني على البكاء ،
فإن أشفى الدمع ساجمه . وقد يجوز ، (الدمعُ أشفاه ساجمه) : أي بالإسعاد
وبالدمع الذي أشفاه ساجمه . أي : وفاؤكم بالإسعاد لي ، والبكاء معي .

(دَارِسٌ) قد قارب العَدَمَ ، كما أن الربع كذلك ، فكلا كما أشجاء لى .
مَادَرَسَ ، وقد يَقْنَعُ المشُوقُ من صاحبه أن يَقِفَ معه على الربع عاذلاً ، أو عاذراً ،
وإن لم يَشْرِكْه فى شوق ولا بكاء ، كقول البحرى :

قَفْ مَشُوقًا أو مَسْعِدًا أو حَزِينًا أو مُعِينًا أو عَازِرًا أو عَذُولًا
قد يجوز أن يكون أبو الطيب عَدِمَ هذا كله من خليليه ، وأيا مواضعه
على وجه : لا مَشُوقِينَ ولا مَسْعِدِينَ ، ولا عَازِرِينَ .

والدمع على هذا : معطوف على موضع (بأن تسعدا) أى بالإسعاد .
وبالدمع الذى أشفاه سَاجُجُهُ ، يعنى بكاءه معه . والباء فى (بأن تُسْعِدَا) :
متعلق بمحذوف أى وفاؤكما بالإسعاد . ولا تكون متعلقة بـ « وفاؤكما ، الأولى ،
لأنك قد أخبرت عنها بقولك : (كالربع) فحال أن تنخبر عن الاسم وقد بقى
ما يتعلق به ، لأن هذا المتعلق به جزء منه . فكما لا ينخبر عن الاسم قبل تمام
حروفه ، كذلك لا تنخبر عنه وقد بقى ما هو جزء منه .

(مَقَّاكَ وَحَيَاتَنَا بِكَ اللهُ إِنَّمَا عَلَى الْعِيسِ نَوْرٌ وَالْخُدُورُ كَمَا تُمُهُ)
جرى فى هذا البيت على مذاهب العرب وطرائقهم ، لأنهم يُحْيُونَ بالنَّوَّارِ
وأصناف الأزهار . فلما أبصرها فى الخدور جعلها نَوْرًا فى كَهْ ، فدعاه
بالشُّقْيَا ، لينعم ويَحْسُنَ . ودعا لنفسه أن يَحْيَا بذلك النور .

(إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ الْعَيُونَ بِنَظَرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعْنَى الْمَطْيِ وَرَازِمُهُ)
يريد أن النظر إليها سببُ اقول الشعر فيها ، والتغنى به فى الطرق ،
وجميع ما يتصرفون به ، ويَحْدُون به . فتشط الإبل لذلك . إذ من طبعها أن
تنشط للحذاء .

(قِنِي تَفَرَّمِ الْأَوَّلَى مِنَ اللَّحْظِ مُنْجَتِي
بِشَانِيَةِ الْمُتَلَفِ الشَّيْءِ غَارِمُهُ)

يقول : لَحَظْتُكَ فَأَهْلَكَ اللَّحْظَةُ مُهْجَتِي . قَفَيْ عَلَى حَقِّ الْحَظِّكَ
أُخْرَى ، فَتَرُدُّ عَلَى مَا أَذْهَبَتِ الْأُولَى ، وذلك أن لكل نظرة أنظرها تأثيراً
في ، فإذا قد عَدِمَتُ المهجة بالأولى ، فعمل الثانية ردّها ، لأن الشيء إذا انتهى
في ضدّ انعكس إلى ضده .

(وَتَكْمِلَةُ الْعَيْشِ الصَّبَا وَعَقِيْبُهُ وَغَائِبُ لَوْنِ الْعَارِضِينَ وَقَادِمُهُ)

أى كمال العيش ، يعنى جميع طبقاته ، فأولهن الصبّا : وهو من النشوء
إلى الشباب ، وعَقِيْبُهُ الشباب ، وبعده غائب لون العارضين ، وهو الشيب
مالم يَقدُم ، فإذا قدم فقد كَمَلَ العيش ، وما بعد الكمال إلا النقص . والماء في
(قادمه) راجع إلى اللون ، ولا يكون راجعاً إلى (غائب) ، فيكون من
إضافة الشيء إلى نفسه ، وليس كذلك إذا كان مضافاً إلى اللون ، لأن اللون
جنس انقسم إلى نوعين : غائب وقادم ؛ والنوع غير الجنس ، فكأنه قال :
وتكملة العيش الصبّا وعَقِيْبُهُ ، وسواد الشعر وبياضه ، لأنه إذا كان البياض
غالبًا ، فالسواد حاضر .

(وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّيْبَةِ كُلُّهُ حَيًّا بَارِقِي فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِمَةٌ)

قوله : (في فازه) يعنى فازه ديباج ضربت لسيف الدولة ، والحياهنا :
الخصب ، ويعنى به سيف الدولة . والشائم : الناظر .

(إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ كَأَنَّمَا تَجُولُ مَذَاكِيهِ وَتَدْأَى ضَرَاغِمَهُ)

أى هذه الفازه مُصَوَّرَةٌ بِصُورَةِ خَيْلٍ وَأَسَدٍ ، فإذا مرت به الريح حركت
الفازه ، فتحركت هذه الصور بحركاتها ، فتُخَيِّلُ أَنَّ مَذَاكِيَهَا ، وهى الخيل
المصورة فيها تجول ، وأن ضراغِمَهَا تَدْأَى : أى تمرمراسريماً . ومن روى
(تَدْأَى) : أى تهَمِسُ الشئ لَتَخْتَلِ . والضراغم : الأسد . واحداً

ضِرْغَمٍ وَضِرْغَامٍ وَضِرْغَامَةٍ . وَأَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ جَمْعَ ضِرْغَمٍ أَوَّلَى ، لِأَنَّهُ
إِنْ كَانَ جَمْعَ ضِرْغَامٍ أَوْ ضِرْغَامَةٍ ، لَزِمَ (ضِرَاغِمٍ) لِأَنَّ الْأَلْفَ إِذَا كَانَتْ
رَابِعَةً فِي الْوَاحِدِ ، صَارَتْ يَاءً فِي الْجَمْعِ ثَابِتَةً ، إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ شَاعِرٌ ، كَمَا
أَنْشَدَ سَيِّبُوه :

وَالْبَكَرَاتِ الْفُتُوحِ الْعِظَامِيسَا

وَأِنَّمَا حَكَمَهُ الْعِظَامِيسُ ، فَخُذَفَ لِلضَّرُورَةِ ، فَإِنْ يَكُنْ ضِرَاغِمُهُ جَمْعَ ضِرْغَمٍ
وَهِيَ لُغَةٌ مَشْهُورَةٌ حَكَاهَا ابْنُ دُرَيْدٍ وَغَيْرُهُ ، أَوْجَهَ مِنْ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الضَّرُورَةِ .

(فَقَدَمَلَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِمَّا تُغَيِّرُهُ وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تُزَايِحُهُ)

(وَمَلَّ الْقَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورُهُ وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا تُلَاطِمُهُ)

ذَكَرَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ أَنَّ (تُغَيِّرُهُ) فِي الْبَيْتِ مِنَ الْغَيَرَةِ ، يَرِيدُ أَنَّ
الصُّبْحَ يَغَارُ مِنْ كَثْرَةِ مَا تَفْعَلُ فِيهِ ، مِنْ قَلْبِهِ إِلَى ضِدِّهِ ، مِنْ شِدَّةِ الْقِتَالِ ،
وَكَذَلِكَ اللَّيْلُ أَيْضًا يَغَارُ مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ يُصِيرُهُ يَوْمًا ، لِإِظْهَارِهِ فِيهِ السُّيُوفَ
وَالرِّمَاحَ ، مِنْ ضِيَائِهَا .

قَالَ أَبُو الْفَتْحِ بْنُ جَنَى : أَرَادَ تُغَيِّرُ فِيهِ ، فَخُذَفَ حَرْفُ الْجَرِّ اخْتِصَارًا .

وَقَالَ فِي (تَزَايِحِهِ) : أَيْ تَسْرِي فِيهِ ، فَاسْتَعْمَلَ (تَزَايِحِهِ) فِي
مَوْضِعِهَا .

وَالْهَاءُ فِي (تَزَايِحِهِ) مَفْعُولٌ بِهِ ، وَلَيْسَتْ بِمَعْنَى (تَزَايِحِهِ) فِيهِ . وَقَالَ
الْوَحِيدُ : لَيْسَ هَذَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ (تُغَيِّرُهُ) وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّكَ تَسِيرُ فِي بَيَاضِ
الْحَدِيدِ ، مِنَ الْبَيْضِ وَالْدُرُوعِ ، فَكَأَنَّ الصُّبْحَ يَغَارُ عَلَيْهِ إِذَا رَأَى ضِيَاءَ غَيْرِهِ
قَدْ أُلْبَسَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : (وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تَزَايِحُهُ) : يَعْنِي بِالْغُبَارِ ، كَأَنَّهُ لَيْلٌ آخِرُ

يزاحم الليل الذي هو الظلمة . وقوله : (وملّ حديدُ الهندِ مما تُلاطِئُهُ) أى
تلاطمه بأمثاله .

(قَبَائِعُهَا تَحْتَ الْمَرَاقِي هَيِّبَةٌ وَأُنْقَذُ مَا فِي الْجُفُونِ عَزَائِمُهُ)
يريد أنهم يسترون سيوفهم ويخفونها هيبة ومخافة من سيف الدولة .
وعزائمه أنقذ من شقار سيوفهم .

(سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا
سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ)
ويروى : (فوقها) ، فيكون قوله : (العقبان) فى أول البيت كناية
عن الخيل ، كما قال :

تَظُنُّ فِرَاحُ الْفُتُخِ أَنَّكَ زَرَرَهَا بِأَمَاتِهَا وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَاحُ
السحابُ : جمع سحابة . وكل جَمْعٌ ينقُصُ عن واحدٍ بالهاء ، ذلك
تذكيره وتأنيثه ، فأنت فى قوله (تحتها) ، وذَكَرَ فى قوله : صوارمه ، أخذاً
بالأمرين . ولا يمكنه هنا غير ذلك ، لمكان الوزن ، وأن هذا الشعر موصولٌ ،
ليس له خروج ، أعنى أنه ليس بعد هائه حرف لين . وقيل تأنيث هذا النوع
على الجمع ، وتذكيره على الجنس . أى قد حُشِرَتِ الْعِقْبَانُ فى أفق جيشه ، ثقةٌ
منها بما يُقْتَلُونَ ، فيكون رزقاً لهذه الْعِقْبَانِ ، كقول الأَفْوهِ :

وَتَرَى الطَيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأَى عَيْنٍ ثَقَّةٌ أَنْ سَتَمَارُ
فَالْعِقْبَانُ عَلَى هَذَا الْجَيْشِ كَالسَحَابِ ، لتكاثُفِهَا واشتباكها ولونها .
والجيش تحت هذا السحاب ، الذى هو من الْعِقْبَانِ ، سحابٌ آخر . فإذا
اسْتَسْقَتْ السحَابُ الأعلى يعنى الْعِقْبَانُ ، سَقَّتْهُ صَوَارِمُ هَذَا السحَابِ الأسفل ،
الذى هو الجيش ، بأن تضع لها القتلى ، فتزول عليها ، فتخصبُ . وجعل الأسفل

يَسْقَى الْأَعْلَى ؛ إِغْرَابًا ، لِأَنَّهُ بِمَكْسٍ مَلَجَرَتْ عَلَيْهِ الْعَادَةُ ، مِنْ أَنَّ الْأَعْلَى هُوَ
الَّذِي يَسْقَى الْأَسْفَلَ .

وقال : (إِذَا اسْتَسْقَتْ) وَإِنَّمَا الْعِيقَانِ وَسَائِرُ سَبَاعِ الطَّيْرِ مُسْتَطْعِمَةٌ
لِلْمُسْتَسْقِيَةِ ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ السَّحَابَ ؛ وَالسَّحَابُ مُسْقٍ . كَقَوْلِ أَبِي ذُؤَيْبٍ فِي
صِفَةِ السَّحَابِ :

تَرَوْتُ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَعْتُ

وَمِنْ الْحَسَنِ أَنَّ تَكُونَ الرَّوَايَةَ « يَرْحَفُ » عَلَى لَفْظِ التَّذْكِيرِ ؛ تَوَطُّةً
لِقَوْلِهِ : صَوَارِمُهُ ، فَيَكُونُ ضَرْبًا مِنَ الْإِشْعَارِ . وَجَعَلَهَا تَرْحَفُ لِكَثْرَةِ الْجَيْشِ ،
كَأَقَالُوا : كَتَيْبَةٌ جَرَّارَةٌ ، أَيْ لَا تَقْدِرُ عَلَى السَّيْرِ إِلَّا رَوِيدًا ؛ لِكَثْرَتِهَا .
(سَلَكَتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ حَتَّى لَقِيتُهُ

عَلَى ظَهْرِ عَزَمٍ مُؤَيَّدَاتٍ قَوَائِمُهُ)

الهاءُ فِي لَقِيتُهُ : عَائِدَةٌ عَلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَعَلَى : مُتَعَلِّقَةٌ بِسَلَكَتُ ..

فَالْمَعْنَى : إِنْ عَزَمَهُ قَوَى مُؤَيَّدٌ ؛ فَاسْتَعَارَ أَنَّهُ رَكِبَهُ وَسَلَكَ صُرُوفَ
الدَّهْرِ عَلَيْهِ .

— ٧١ —

وله أيضا :

(أَطْرَحُ الْمَجْدَ عَنْ كَتِفِي وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرُكُ الْغَيْثَ فِي غَمْدِي وَأَنْتَجِعُ)

كَتَنَى بِالْمَجْدِ عَنِ الرَّمْحِ الَّذِي يُحْمَلُ عَلَى الْكَتِفِ مُعْتَقِلًا ؛ لِأَنَّ كَانَ
الْمَجْدَ يُكْتَسَبُ بِهِ . فَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْ ذِكْرِ السَّبَبِ بِذِكْرِ الْمُسَبَّبِ .
وَإِنْ شَتَّتَ قُلْتُ : جَعَلَ الرَّمْحَ هُوَ الْمَجْدُ مِبَالِغَةً . كَقَوْلِهِمْ : مَا زَيْدٌ إِلَّا أَكْلٌ
وَشُرْبٌ : وَإِنْ شَتَّتَ : كَانَ الْخَذْفُ ؛ (أَيْ ذَا الْمَجْدِ) وَهُوَ الرَّمْحُ أَيْضًا ،

لإدراك المجد به . (وأطلبه) : أى أطلب أثراً بعد عين . وأترك الغيث .
 فى غمذى : يعنى السيف الذى هو سبب خصب المعيشة . وليس الغيث هنا
 ذات السيف . وإنما عنى الغيث . وإن شئت قلت : جعله الغيث مبالغة ،
 إذ كان سبباً له ، ثم قال وأطلب الرزق على غير هذا الوجه الذى لا يكره
 عيش ولا يخصب إلا به ، كقول النبى عليه السلام : « الخير فى السيف »
 والخير مع السيف .

وأصل الانتجاع : طلب الكلاً . ثم صار كل طلب : نُجعة . وحسن لفظ
 الانتجاع لتقدم ذكر الغيث .

(ذمَّ الدُّمُسْتَقَ عَيْنِيهِ وَقَدْ طَلَعَتْ سُودُ الْغَمَامِ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَزَعُ)
 أى غرت الدمستق عيناه ، ثم توهم جيش سيف الدولة قليلاً وهو
 كثير ، فأقدم اغتراراً بما خيلته إليه عينه ، فذم عينيه ولأهمها إذ لم تخبراه
 باليقين ، فترى ياه الجيش على ما هو به من السكثرة ، لأنه لو صدقته لم يقدم .
 والقزع : قطع السحاب المفرقة . يقول : ظن الجيش قليلاً كقزع السحاب ،
 وهو كسود الغمام ، وإنما شبهه بالغمام السود ، لأنه أهول منظراً ؛ ولأن فيه
 صواعق بلا غيث ، فهى أشبه بصفة الجيوش من جهة العاقبة واللون ، ألا تراهم
 قالوا : كتيبة جاواء وخضراء وخصيف . وكل ذلك إلى السواد .

فتلخيص البيت : ذم الدمستق عينيه حين أوهمته الجيش قليلاً وهو كثير ،
 فأقدم ، وكان أذهب فى الصنعة لو اتزن دون زحاف — أن يقول : (فظن) ،
 بلفظ الإفراد لأنه إخبار عن الدمستق ، ولكنه حمل الضمير عليه وعلى من
 حوله .

(كَأَنَّمَا تَتَلَقَّاهُمْ لِنَسْلُكِهِمْ فَالطَّعْنُ يَفْتَحُ فِي الْأَجْوَابِ مَا تَسَعُ)
 أى كأن خيله تريد سلوك عداه ، كما يسلك السهم الرمية ثم يمرق ،

فالطعن يفتح في أجوافهم مانع الخيل ، إشادة بالطعن ، وتشبيهاً له . كقول
قيس بن الخطيم :

سَلَكْتُ بِهَا كَفًى فَأُثْهَرْتُ فَتَقَّهَا . يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
وأراد مانع الخيل ؛ فحذف المفعول ، لتقدم ذكر الخيل .

(دُونَ السَّهَامِ وَدُونَ الْفَرِّ طَائِفَةٌ عَلَى قَوْسِهِمُ الْمُقَوَّرَةُ الْمَزْعُ)
أى قد تَفَشَّتْهم الخيلُ حتى صارت أقرب إليهم من السَّهَامِ التى فيهم ،
مباينة وليس بحقيقة ، لأن السَّهَامِ التى فيهم ، أقرب إليهم من الخيل التى عليهم .
و (دُونَ الْفَرِّ) : أى أن الخيل تمنعهم الْفَرَّار . وقال : (على قَوْسِهِمُ) ، ولم
يقُلْ على أبدانهم ؛ لأن قَوْسِهِمُ قد فاضت عن أبدانهم ، فكان الخيل عليها
دون أجسامهم ، وقيل معناه : إن هذه الخيل تَسْبِقُ السَّهَامِ وتنفوت حتى تغنى
عن الْفَرِّ . ويروى (دُونَ السَّهَامِ وَدُونَ الْفَرِّ) فيكون الْمُقَوَّرَةُ على هذا
الدروع التى قد أخلقها التداول ؛ حتى عادت كالمقوَّرة من الخيل وهى الضامرة -
المتجردة . (الْمَزْعُ) على هذا : التى قد تَمَزَّقَتْ أَشْلَاؤُهَا أى قد تَمَزَّعَتْ كما يتمزَعُ
اللحم أى يتبدد . فيكون المعنى أنه لاقيهم الْكُسى جَرًّا ولا برِّداً ؛ ولكن
هذه الدروع المقوَّرة . والرواية الأولى أصح .

(إِذَا دَعَا الْعِلْجُ عِلْجًا حَالَ بَيْنَهُمَا أَظْمَى مُتْفَارِقٌ مِنْهُ أُخْتَهَا الضَّلْعُ)

رُمِحَ أَظْمَى : أَسْمَر ؛ وقيل : ظَمَانٌ إِلَى الدَّمِ ؛ وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ؛ إِذْ لَوْ كَانَ
مِنَ الظَّمَا لَكَانَ حَرِيًّا أَنْ يُسْمَعَ مَهْمُوزًا ، وَلَمْ أَسْمَعْ كَذَلِكَ . إِلَّا أَنْ مِثْلَ
هَذَا الْإِبْدَالِ قَدْ يَجُوزُ فِي الْضَّرُورَةِ كَقَوْلِهِ : (لَاهَنَّاكَ الْمَرْتَعُ) وَلَا حَاجَةَ
بِنَا إِلَى تَوْجِيهِ ذَلِكَ هُنَا ، إِذْ الْمَشْهُورُ فِي كِتَابِ الْلُغَةِ أَنَّ الْأَظْمَى : الْأَسْمَرُ .
يقول : إِذَا تَدَاعَى الْعِلْجَانِ لَتَنَازَرَا أَوْ تَشَاوَرَا أَوْ تَنَاحَرَا ، حَالِ بَيْنَهُمَا رُمِحَ

أُظْهِرَ يَدْخُلُ بَيْنَ الضَّلَّعَيْنِ ؛ فَيَفْرَجُ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَتَفَرَّقَا . وَ (مِنْهُ) : أَى مِنْ أَجْلِهِ . وَحُسْنُ ذَلِكَ الْمَفَارِقَةِ هُنَا لِقَوْلِهِ : (حَالُ بَيْنَهُمَا) . وَكَانَ مِنْ حُسْنِ الصَّنْعَةِ لَوْ أَتَزَنَ لَهُ — أَنْ يَقُولَ : إِذَا دَعَا الْعَالِجُ صَاحِبَهُ لِيُوَازِيَ بِهِ قَوْلَهُ : (أَخْتَهَا الضَّلْعُ) ؛ لِأَنَّ الْأُخُوَّةَ وَالصَّحْبَةَ مِنْ بَابِ الْمُضَافِ وَلَكِنَّهُ ذَلِكَ أَرَادَ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا دَعَا الْعَالِجُ صَاحِبَهُ أَوْ أَخَاهُ .

(كَمْ مِنْ حُشَّاشَةٍ بِطَرِيقٍ تَضُمُّنَهَا لِلْبَاتِرَاتِ أَمِينٌ مَالَهُ وَرَعٌ)
 الْحُشَّاشَةُ : النَّفْسُ . وَقِيلَ ، بِقِيَّتِهَا . وَالْبَاتِرَاتُ : السِّیُوفُ الْقَاطِعَةُ .
 وَالْأَمِينُ هُنَا : الْقَيْدُ وَنَقَى الْوَرَعُ عَنْهُ إِغْرَابًا بِأَمِينٍ لَا وَرَعَ لَهُ . وَإِنَّمَا سَمَّاهُ أَمِينًا لِحِفْظِهِ عَلَى السِّیْفِ مَا اسْتَوْدَعَهُ إِيَّاهُ مِنَ الْأَسَارَى ؛ حَتَّى يَرُدَّهُمْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْقَتْلِ فَهُوَ أَمِينٌ لَذَلِكَ . وَلَيْسَ لَهُ وَرَعٌ ، لِأَنَّ الْوَرَعَ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ قَصْدٍ ، وَالْقَصْدُ إِنَّمَا يَكُونُ لَدَى الْعَقْلِ . وَكَذَلِكَ أَمَانَتُهُ غَيْرُ حَقِيقَةٍ . وَلَوْ كَانَ أَمِينًا عَاقِلًا لَكَانَ وَرِعًا إِذْ لَا أَمَانَةَ إِلَّا بِوَرَعٍ .

(يُقَاتِلُ الْخَطُورَ عَنْهُ حِينَ يَطْلُبُهُ وَيَطْرُدُ النَّوْمَ عَنْهُ حِينَ يَضْطَجِعُ)
 أَى تَقْصُرُ خُطَا هَذَا الْأَسِيرِ بِضِيقِ الْقَيْدِ ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْطُو . وَيَطْرُدُ النَّوْمَ عَنْهُ تَرْتُمُ حَلَقَهُ كَقَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ :

إِذَا قَامَ غَنَتَهُ عَلَى السَّاقِ حَلَقَةٌ لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرٌ

وَالْمَقَاتِلَةُ وَالطَّرَادُ فِي الْبَيْتِ مُسْتَعَارَانِ .

(قُلْ لِلدُّمُسْتَقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا)

خِيَانَتُهُمْ إِيَّاهُ : خِلَافَتُهُمْ لَهُ ؛ بِسَعْيِهِمْ إِلَى النَّهْبِ وَأَسْلَابِ الْعَدُوِّ الْمَفْرُوعِينَ .
 وَإِسْلَامُهُ إِيَّاهُمْ لَهُ : تَرْكُهُ الطَّلَبَ بِثَارِهِمْ ؛ أَوْ رِضَاهُ لَهُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ .

(وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ كَأَنَّ قَتْلَكُمْ إِيَّاهُمْ فَجَعُوا)

أى خافوكم ؛ فآلقوا نفوسهم فى دماء قتلاكم ؛ لتحسبوهم منهم ، فمتجافوا عنهم ؛ وكأنهم هم المفجوعون بقتلاكم ، يلقون أنفسهم عليهم كالقاء المفجوع نفسه على القتل تأسفاً . وقيل : كان المسلمون يأتون قتلَى الروم يتخللونهم ؛ فينظرون من به رمق فيقتلونه ، فيبئس لهم كذلك أكْبَّ عليهم المشركون فقتلوهم .

(تَشَقُّكُمْ بِفَتَاهَا كُلُّ سَلْهَبَةٍ وَالضَّرْبُ بِأَخْذٍ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ)

(بفتاها) : أى بفارسها . ذهب فى لفظ الفتى الى الرفع من شأن الفارس ؛ كقولهم : (أنت الفتى كلُّ الفتى) لا يذهب به إلى فتاء السن : لكنه كقولك : أنت الرجل . تمدحه بالصبر والثبات والنجدة ، لا تعنى به الرجولة ، التى هى الذكورىة (والضربُ بِأَخْذٍ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ) . ذهب قوم الى أنه عنى أن القتل أكثر من الناجين . وهو لعمري قولٌ والذى عندى أنه لم يعنِ بذلك الكم ؛ وإنما عنى أن الضرب يأخذ النفوس ، ويدع الأبدان ؛ والنفس فوق الجسم فى لطف الجوهر ؛ وشرف العنصر . فهذا معنى قوله : ما يدع . لا الكمية التى ذهب إليها أولاً .

— ٧٢ —

وله أيضا :

(يَرْدُ يَدَا عَنْ ثَوْبِهَا وَهُوَ قَادِرٌ وَيَعِصِي الْمَوَى فِي طَيْفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ)

(يرد يدا عن ثوبها) : كناية عن العفاف . والثوب هنا : يجوز أن يعنى اللباس ؛ وأن يعنى بعض طوائف جسمها ؛ كقول الآخر :

خَرَقُوا جَيْبَ فَتَاتِهِمْ لَمْ يُبَالُوا حُرْمَةَ الرَّجُلَةِ

قيل : يعنى بالجيب القبل . قوله (وهو قادر) : أى متمكن بها ، لا يتقى

رقيقاً لأن ذلك في النوم وأثبت لنفسه قدرة في نومه لأنه قد تنهياً للنائم أفعال اليقظة وإن كانت غير مقصودة، وقد قيل : إن قوله (يرددا عن ثوبها وهو قادر) : ان هذا إنما هو في اليقظة . وإنما أراد وهو يقظان فلم يترن له ، فكفى بالقدرة عن اليقظة لأن اليقظان أملك لذاته من النائم مع أن قادراً مقلوب لفظ راقداً . فأنايب المقلوب في المقابلة مناب الضد الذي هو يقظان . (ويعصى الهوى وهو راقداً) : أى أنه يملك نفسه عن شهوته في حال النوم . وتلك حال لا يغلب فيه عقل شهوة ، لأن التحصيل حينئذ عازب ؛ فهو يقرب بمالكه عن محبوبه في حال الرقاد .

وجملة معنى البيت : انه اعتاد العفاف في يقظته ؛ كقوله هو :

وترى المروّة والفتوة والأبوة ة في كلّ مليحة ضرائها

فاذا رأى الطيف أراه النوم ما تعود من العفة في اليقظة فحف ، فإن ذلك من خلق النفس كثير . أعنى أن ترى في حلمها ما تعودته يسقطى ؛ ولذلك علة ذكرها حذاق القدماء جالينوس وغيره . والطيف فعل من طاف يطوف إلا أنا لم نسمع فيه طوفاً . وقد يكون (فعلاً) من طاف يطيف ؛ سمي بالمصدر ، لأن طاف يطيف عندنا من باب باع يبيع واسع ولا أحمله على ما ذهب إليه الخليل في طاح يطيح قياساً عليه ؛ لأن باب باع يبيع واسع كثير .

وباب « طاح يطيح » قليل ، لا يوجد لها أخت إلا تاه يته في لغة من قال : تَوَهَّته . وحكى أبو زيد : ماهت الركبة تميّه وهو من الواو فهي ثالثة « لَطَّاحٍ وتاه » على قول الخليل :

مُخَضَّبَةٌ والقومُ صَرَعَى كأنهم وإن لم يكونوا ساجدين مساجدُ
أى هذه البلاد مُخَضَّبَةٌ ، الدماء فيها جارية والأشلاء مُنْكَبَّةٌ ومَبْطُوحةٌ
فكانها مساجدٌ مُخَلَّقةٌ لانكباب القتلى وإن لم يكونوا ساجدين .

(تَنَكَّسَهُمُ وَالسَّابِقَاتُ جِبَالَهُمْ وَتَطْعَنُ فِيهِمُ الرِّمَاحُ الْمَكَايِدُ)

تنكسهم : تقابلهم على زعمهم . فيقول : من شأن تنكيسك لهم عن متون خيلهم وهم رُكبان لها . فلما تركوا الخيل ، وركبوا الحصون والقلاع وقنن الجبال مكان الخيل ؛ فلم يمكنك تنكيسهم بالرمح حينئذ ، كما كنت تنكسهم به فرسانا ، أقمت كيدك لهم مقام الرمح فنكستهم عن الجبال به . وقوله : (والرماح المكاييد) : أى المكاييد هى التى قامت مقام الرماح لأنك وصلت بالمكيدة إلى مثل : ما كنت واصلاً إليه بالرمح . وقد أجاد فى تطبيقه قوله : (والسابقات جبالهم) بقوله : (والرماح المكاييد) .

(فَتَى يَشْتَهَى طُولَ الْبِلَادِ وَوَقْتَهُ تَضِيقُ بِهِ أَوْقَاتُهُ وَالْمَقَاصِدُ)

أى همته يقصر عنها الدهر فهو يشتهى طول الدهر ليسع همته ، وجيشه عظيم تضيق عنه البلاد فهو يشتهى أن تنسع البلاد وتطول لتحمل جمعه . فالأوقات أزمنة تضيق عن همته والمقاصد أمكنة تضيق عن جيشه . وفى البيت حذف . وتماه — لو اتزن — فتى يشتهى طول البلاد لجيشه وسعة الأوقات لهيمته فهيمته تضيق عنها الأوقات وجيشه تضيق عنه البلاد .

(أَحَبُّكَ يَا شَمْسَ الزَّمَانِ وَبَدْرَهُ وَإِنْ لَأَمْنَى فَيْكَ السُّهَى وَالْفَرَاقِدُ)

جعله شمس الزمان وبدره ليخبر عنه بكمال النورية وأنه يعم الليل والنهار بضوئه وهذا أحسن . لأن المدوح موجود نهاراً وليلاً فهو للنهار شمس وللليل بدر ، واختار البدر على القمر لأن القمر ربما لم يُغْنِ ضوؤه كبير غناء مع ما آثره من الوزن . وجعل غيره من الأملاك بالإضافة إليه سهياً وفراقداً . ولا خفاء بما بين الشمس والبدر وبين السهى والفراقداً من المراتب فى النور . فيقول : أنا أحببك أيها الملك الذى هو فى الملوك كالشمس والبدر فى النجوم اعظم تفعلك وجسامه

غنائك في نوعك وإن لآمنى فيك أملاك ؛ هم في الملوك كالسها . والفراقد في الكواكب فكيف ، أطيع من هو كالسها والفراقد فيمن هو كالشمس والبر وهما مغنيان عن السها والفرقدين . بل أحدهما مغن عنهما . والسها والفرقدان لا يتجزأان منها ولا من أحدهما وقال : (والفراقد) . وإنما هو (الفرقدان) لأن جمعهما . بما حولهما ، أو على أنه جعل كل جزء منهما فرقداً وقد فعلت العرب ذلك قبله كثيراً كقوله :

ودون الجدَى المأمول منك الفراقد

وحكى سيبويه : أنهم يقولون للبعير (ذو عنانين) جعلوا كل جزء منه عنثونا . وقال جرير : أنشده سيبويه :

قال العواذل ما لجهلك بعدما شاب المفارقُ واكتسبن قتيلا

— ٧٣ —

وله أيضا :

(يَحْدُ الرمحُ عنك وفيه قَصْدٌ وَيَقْصُرُ أن يَنالَ وفيه طُولُ)
أى هيبتك في فؤاد القرن تمخزل يده فيحيه رمحك مهابة لك بعد أن سدده ويقصر الرمح أيضاً أن ينالك هذا القرن به حذره إقدامك عليه وإن كان طويلاً . وإنما يعنى بطول الرمح العمل به وجودة التصريف له لا الطول الذى هو ضد القصر . لأن الطول عيبٌ وذلك أن الرمح إذا كان طويلاً خان فضف .

— ٧٤ —

وله أيضا :

(شَفَنَ لِخَمْسٍ إلى مَنْ طَلَبَنَ قُبَيْلَ الشُّفُونِ إلى نَازِلِ)
الشفن : النظر من فوق إلى أسفل . (خمس) : أى بعد خمس بين يوم ويلة . والعرب تغلب في مثل هذا المؤنث على الذكر ، لسبق اليلة في تاريخ الشهر .

أَي رَكِبْتَ فُرْسَانَكَ خِيَلَهُمْ إِلَى عَدُوهِمْ وَطَوَّأُوا عَلَيْهَا الْمَرَّاحَ لَيْلاً وَنَهَاراً
فَمَا نَزَلُوا عَنْهَا حَتَّى هَجَمَتْ بِهِمْ عَلَى مَطْلُوبِهِمْ . فَكَانَ نَظَرُهُمْ إِلَى مَنْ
طَلَبْتَهُ مِنَ الْعَدُوِّ قَبْلَ نَظَرِهِمْ إِلَى نَازِلٍ عَنْهُمْ . أَيْ لَمْ يَنْزِلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْهَا
فَتَنْظُرَ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا أُدْرِكُوا مَا طَلَبُوهُ ثُمَّ كَانَ النُّزُولُ بَعْدَ ذَلِكَ .

(فَأَقْبَلْنَ يَنْحَزْنَ قُدَّامَهُ . نَوَافِرَ كَالنَّحْلِ وَالْعَاسِلِ)

يَنْحَزْنَ : يَنْفَعِلْنَ وَيَتَحَوِّزْنَ فَهَلَّتِ الْوَائِي لِقَاءَ لَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا ، فَالْتَقَى
بِذَلِكَ سَاكِنَانِ فَحَذَفَ الْأَوَّلُ لِلتَّقَائِمِ . أَيْ كَانَتْ خِيَلُ عَدُوِّكَ أَمَامَكَ
وَهُوَ فِي آخِرِهَا مِنْ خَوْفِكَ . وَهِيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ نَوَافِرُ . فَاقْتَضَى الْبَيْتُ ثَلَاثَ
تَشْبِيهَاتٍ اخْتَصَرَهَا بِأَنْ رَدَّهَا إِلَى اثْنَيْنِ وَشَرَحَ ذَلِكَ أَنَّهُ شَبَّهَ الْمَذْذُوحَ
بِالْعَاسِلِ وَعَدُوَّهُ بِالْعَسَلِ الْمَطْلُوبِ لِلشُّورِ وَصَحَابِهِ بِالنَّحْلِ الَّتِي يُنْفِرُهَا الْعَاسِلُ
لِيَصِلَ إِلَى الْعَسَلِ الْمَطْلُوبِ . وَعَنِ الْبَاحِلِ هُنَا : أَصْحَابُ الْخِيَلِ . وَاكْتَفَى مِنْ
تَشْبِيهِهِ عَدُوَّهُ بِالْعَسَلِ لَفْظاً لِأَنَّ كَلَامَهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ حُسْنِ دَلِيلِ
الْخُطَابِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَاسِلٌ وَنَحْلٌ فَهَنَّاكَ عَسَلٌ لِاحْتِمَالِهِ ، وَقَوْلُهُ : (يَنْحَزْنَ
قُدَّامَهُ) : أَيْ يَنْحَازُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ .

(وَمَا بَيْنَ كَاذَتِي الْمُسْتَفِيرِ كَمَا بَيْنَ كَاذَتِي الْبَاطِلِ)

الْكَاذَةُ : لَحْمُ الْفَخْدِ أَلْفُهُ مُنْقَلِبَةٌ عَنْ وَائِي . قَالُوا ثَوْبٌ مَكْذُوبٌ : بَلْغُ
الْكَاذَةِ . وَالْمُسْتَفِيرُ : الْفَرَسُ الْمَغِيرُ ، بَنَاهُ عَلَى اسْتَفْعَلٍ لِأَنَّهُ طَلَبٌ ، وَالطَّلَبُ
يَأْتِي عَلَى اسْتَفْعَلٍ كَثِيراً عَلَيْهِ بَنِي سَيْبُويه بَابِ اسْتَفْعَلٍ .

يَقُولُ : قَدْ تَفَرَّجَ مَا بَيْنَ أَنْفَازِ الْخِيَلِ بِالرَّكْضِ ، كَمَا يَنْفَرُجُ مَا بَيْنَهُمَا إِذَا
تَفَارَجَتِ لِلْبَوْلِ أَيْ فَتَحَتْ أَنْفَازَهَا .

(فَلَقَيْنِ كُلَّ رُدَيْنِيَةٍ وَمَصْبُوحَةٍ لَبَنَ الشَّائِلِ)

يقول : إن خَيْلَ سيف الدولة لقيت مع الخارجي بعد جهدها أشدَّ
الأعراب الذين يَفْذُونَ الخيلَ الكرام التي تُؤَثَّرُ باللبن عند قِلْتة . ولقيتُ
جَيْشاً (نخارجي من الأعراب يقاتل) على ناقة قد تيقن استهلاك أصحابه
حونه . فأعرض عن ركوب الخيل ووصفه بحاله في كذبه ودَعَواه .

إنما الشائلُ بغير هاء : اللَّاقِح، وبالهاء : التي خف لبنها . والخيل إنما
تتدى بلبن الشائلة لأن اللبـن إذا خف مرأً ونجع وإنما أراد هذا الشاعر
الشائلة فحذف الهاء للضرورة .

والمصبوحة : المسقية الصُّبوح وهو ما اصطُبح بالغداة حاراً . أى كل
قناة رُدَينية وفرس ملبونة وهي أقوى الخيول . أنشد سيبويه :

لا يَحْمِلُ الفارسَ إلا الملبُونُ المَخْضُ مِنْ أَمَامِهِ وَمِنْ دُونِ
(وَطَعْنِ يَجْمَعُ شُدَّانَهُمْ كما اجْتَمَعَتْ دِرَّةُ الحَافِلِ)
« شُدَّانَهُمْ » : مَنْ شَدَّ مِنْهُمْ . والدَّرَّةُ : اللبـن يجتمع في الضَّرع .
« والحافِلُ » : إما أن يكون جملة فيعنى به الناقة فيكون من باب ناقة
يازل أى من المؤنث الذي لا هاء فيه . وإما أن يكون جزءاً فيعنى به الضَّرع
وهو عندى أجود لأنه موضع تحفل اللبـن . ومعنى البيت : أنه عني
طَعْنَتْ كُلَّ طَعْنَةٍ عَظِيمَةٍ تَجْمَعُ المتفرقين على صاحبها ، تعجباً من سعتها ، كما
تُجْمَعُ الدَّرَّةُ في الضَّرع المُحْتَفِل كقول الشاعر :

تركتُ بنى الهَجِيمِ لَهُمْ دَوَارُ إذا تَمَضَى جماعتهم تعودُ
والدَّرَّةُ في الدر كالحلـية في الحلـى . أعنى أن هاء التأنيث تعاقب الفتحة .
ومثله بَرَكٌ وبركة وهي الصدر . وَحَبٌّ وَحِبَّةٌ وهي بذور الصحراء .
(وَأُنْبَتَ مِنْهُمْ ربيع السَّبَاعِ فَأُنْتُ بِإِحْسَانِكَ الشَّامِلِ)

أقام الأشلاء للسباع ، مقام الربيع للماشية . والأول (ربيع للسباع) إنما

هو على المثل كما قيل : فلان يرعى في لحوم الناس . يقول : ألقيت لها
الأشلاء فأخصبت كما تخصب السّوام في الربيع . ونحوه قوله :
وأصبحت بقرى هنريط جائلة ترعى الطّبا في خصيب نبتة اللحّم
يعنى الروس جعلها خصيبة إشعاراً بأن أصحابها شبّان . وقوله :
(فأننت — بإحسانك الشّامل) : مبالغة وإفراط ومذهب شعرى غير
حقيقى . لكن يقول : إن السّباع قد اعتادت ذلك منهم حتى عقلت أنّه من
لدنه فشكرت لذلك .

(وكم لك من خبر شائع له شية الأبلق الجائل)
أى خبرك مشهور ظاهر شهرته كشهرة الأبلق الجائل . وذلك أن الأبلق
مشهور فى موضعه . فإذا جال كان أشهره ، لأنّه يعرف فى مواضع . وكذلك
خبرك سائر مشهور فى كل موضع .

— ٧٥ —

وله أيضا :

(واه — وإن وهب الملوك — مواهب)

دَرُّ الملوك لدرّها أغبار)

الفبر : بقية اللبن فى الضرع . فيقول : هباتك كأول الدر ، وهبات الملوك
كبقايا اللبن بعد الحلب . وأوضح من هذا أن يقول : إن مواهب الملوك
وإن كثرت وغزرت بالإضافة إلى مواهبك ، كالغبر بالإضافة إلى الدرّ الذى
هو أغزر اللبن ؛ فهذا أبين . والأول وجيه . واللام فى قوله (لدرّها) بمعنى
إلى : أى درها بالإضافة إلى درها . وقوله : (دَرُّ الملوك لدرّها أغبار) :
جملة فى موضع الصفة للنكرة . فكأنه قال : وله مواهب دَرُّ الملوك لدرّها
أغبار . وإذا ردّدت هذه الجملة إلى المرد ، فكأنه قال : وله مواهب فائقة .

وقوله : (وإن وهب الملك) : معناه : أجزل الهبة . فهذا يُحسن معنى البيت .
وبذلك عليه قوله : (دَرُّ الملك) فقد أوضح ما أراده في قوله : (وإن وهب
الملك) ولا يكون وهب هنا مجردة من معنى الغزارة لأن المدوح إذا فاق
واهباً غير مُجزل ، لم يك ذلك فضلاً وإنما فضله أن يفوق المُجزلين .

(وَبِدُونِ مَا أَنَا مِنْ وَدَادِكَ مُضْمِرٌ يُنْقِضِي الْمَطِيَّ وَيَقْرُبُ الْمُسْتَارُ)
أى بأقل من هذا الوداد الذى أضمره لك تعمل المطى فى الأسفار إلى المودود
حتى تنقضى ، فيقرب بذلك ما كان بعيداً . وذلك أن الشوق يحمل على احتثات
المطى وإغذاذ السير كقول الشاعر :

كَأَنَّ عَلَيْهَا سَائِقًا يَسْتَعِجُّهَا كَفَى سَائِقًا بِالشَّوْقِ بَيْنَ الْأَضَالِعِ

وقال :

وَعَوْدُ قَلِيلِ الذَّنْبِ عَاوَدَتْ ضَرْبَهُ إِذَا هَاجَ شَوْقٌ مِنْ مَعَاهِدِهَا كِبَرُ
وَالْمُسْتَارُ : مُفْتَعِّلٌ مِنَ السَّيْرِ . أى : يقرب الموضع الذى يسار إليه .

— ٧٦ —

وله أيضا :

(وَكَذَا تَطْلُعُ الْبُدُورُ عَلَيْنَا وَكَذَا تَقْلَقُ الْبُحُورُ الْعِظَامُ)
أى إن همتك لا تستقر لأن شيمتك الحركة كما أن البدر شأنه الحركة دائماً
كما غاب من موضع طلع على آخر وكذلك البحر يتموج فلا يستقر . وكفى
بالقلق عن التموج لأن القلق ضد الطمأنينة والاستقرار . و (كذا) : مجرور
فى موضع نصب . أى مثل طلوعك تطلع البدور ومثل قلقك تقلق البحور ومثل
طلوعه بطلوع البدر وقلته بقلق البحر إشعاراً أن المدوح كالبدر جمالاً وكالبحر
نوالاً . وقوله : (العظام) : مؤازرة للبدور لأنه لو قال البحور ولم يذكر العظام
لم يك مطابقاً للبدور ، فتفهّمه .

(والذى يضربُ الكتائبَ حتى تتلاقى الفِهَاقُ والأقدامُ)

الفقهة : ما بلى الرأس من قَر العُنق . وقيل الفهانة : مواضع الأعناق في
الروس أى ينقص الأعضاء ويضعها ، حتى يلتقى طرفا الجسم على بعد بينهما .
وإن شئت قلت : يضرب الهام ، فتسقط على الأقدام .

(فكثيرٌ من الشجاع التَّوقى وكثيرٌ من البليغ الكلامُ)

أى هيئته تروع قلوب ذوى النجدة وقلوب ذوى البلاغة لأن هذا
المدوح شجاعٌ بليغ قد بلغ الغاية فى الفضيلتين ، فأبعدُ غايات الشجاع وأعلى
منازله أن يُحسن التوقى من هذا المدوح ولا يتحدث بالظهور عليه لأن ذلك
منه سفه رأى . وأبعدُ غايات البليغ أن يقدم فيسلم عليه ولا يتحدث بإسهاب
فى مخاطبته ولا إطناب . وهذا فى أسلوب قول الشاعر :

يَغْضَى حياءُ وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَمَسِّمُ

ولأبى الطيب فضل ذكر الشجاعة والبلاغة فى بيت واحد وإفراد كل واحد
من الفضيلتين بمصرع .

— ٧٧ —

وله أيضا :

(ضُرِبْنَ إِلَيْنَا بِالسَّيَاطِرِ جَهَالَةً فَلَمَّا تَعَارَفْنَا ضُرِبْنَ بِهَا عَنَّا)

يصف خيل الروم . وذلك أن مَرِيَّةَ الروم رأت جيش سيف الدولة
فظنته جيشها فهمزت نحوه تريدُ اللحاق ، فتبين لهم قبل أن يلحقوا أنها خيل
الإسلام ، فانصرفوا هاربين عنها مُجَدِّين يضربونها بالسياط للإدبار كما يضربونها
للإقبال . و « عن » هاهنا : لَمَّا عدا الشيء أى مبعدين عنها . وقوله :
تعارفنا : أى افرقت فعرفونا وعرفناهم .

(وإن كنت سيف الدولة المصّب فيهم
فدعنا نكن قبل الضراب القنا اللدنا)

اللدن : اللين . ذكر على اللفظ لأن القنا وإن كان جمع قناة فلفظه لفظ
المذكر وما خرج من الجمع على هذه الصورة جاز تذكيره وتأنيثه . يقول :
إن كنت أنت سيف الدولة والسيف أشرف السلاح ، وهو المستغاث به
إذا اشتد البأس ، لأن الرماح والسهام قد فئت فعدنا نحن حينئذ رماحا
وقدّمنا ، فلذا فئنا أو قاربنا ذلك فكنت أنت سيف الدولة الذي يكون به
الضراب إذ لا يباشر ذلك إلا مثلك . وهذا نحو قول الآخر .

فما لم ندع قوساً وسهما مشيناً نحوم ومشوا إلينا

- ٧٨ -

وله أيضا :

(اخترت دهماً تين يامطرُ ومن له في الفضائل الخيرُ
أراد دهماً هاتين الفرسين ، فاكتفى بالإشارة من التنبيه تقول العرب :
تا ، وهاتا ، وتى ، وهاتى . وقوله : يامطر : يخاطب سيف الدولة جعله مطراً
بجوده . (ومن له في الفضائل الخيرُ) : عطف على قوله : (يامطرُ) والخيرُ :
جمع خيرة وهو الشيء المختار . أى له من الفضائل أشرفها ، أو من نوع كل
فضيلة أشرفه . أراد ومن له من الفضائل الخير فوضع « في » موضع « من » .
والفضيلة : الخصلة التي يستحق بها الفضل ، وضدها الرذيلة .

- ٧٩ -

وله أيضا :

(حصانٌ مثلُ ماءِ المزنِ فيه كتومُ السرِّ صادقةُ المقالِ)
أى هذه المرأة حصان طاهرة نقية من الشوب كماء المزن فى المزن

قبل انحطاطه إلى الأرض ومما زجته طبيعة التراب . فالهاء في قوله (فيه) :
 راجعة إلى المزن . كَتُومُ السر : يعنى محاسن خُلُقها وخلُقها ؛ وكتما إياه : صونها
 له حتى لا يُطلع عليه منها . ولما كنى بالسر عن المحاسن الخلقية والخلقية
 كنى عن صونها بالكتمان . وكأنه إنما سمى ذلك سرّاً لأنه مما يجب ألا يُعرف
 من النساء . (صادقة المقال) أي لا تدخل في ريبة فتحتاج إلى افتعال التأويل
 والتجويل للاعتذار، والكنها حسنة الخفايا سالمة الإرادة ، فصدقها يغنيها عن التماس
 الكذب . وإن شئت قلت : وصفها بصدق المقال مُطلقاً لأن ذلك من أجل
 ما يمدح به ولا حفاء بمزية الصدق .

(فَلَا غِيْضَ بِحَارِكِ بِأَجْمُومًا عَلَى عِلَلِ الْغَرَائِبِ وَالِدِّخَالِ)
 بحر جموم : كثير الماء ، وكذلك البئر . والدِّخَال : أن تدخل بميرا
 قد شرب بين بعيرين لم يشربا . والغرائب : الإبل الواردة حياض غير
 أهلها فهي مدفوعة عنها ممنوعة دونها كقول الحجاج (ولأضربنكم ضرب
 غرائب الإبل) وغيضت ، قصت غلض الماء وغيضته وفي التنزيل .
 ﴿ وَغِيْضَ الْمَاءِ ﴾ والعَلَل : الشرب الثاني من النهل . فيقول : لا غِيْضَت
 بحارك : أي لا قعر جودك عن كثرة من يرده من الغرائب وذوات الدِّخَال
 وكلاهما نوع غير مستحق للورود ، فكنى بهم عن لا يستحق جود هذا المدوح .
 وإن شئت قلت : كنى بهما عن المقيمين والطارئين عليه . أي عمّ جودك الفريقين .
 يدعوه بذلك .

— ٨٠ —

وله أيضا :

(بِنَا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَا بِكَ فِي الرَّمْلِ)
 وهذا الذي يضمني كذا الذي يُبلي

منك : أى من أجلك . تقديره : بنا فوق الرمل من الحزن بك والأسف عليك ما يُنْجِفُنَا وَيُضْنِنَا كما بك فى الرمل . إلا أن هذا لنا مُضْنٍ وذاك مُبْلٍ وكلاهما مشتبهان فى أن عملهما التَّنْقِصُ والفساد، إلا أن حالك البلى وحالنا الضنى وقال : (وهذا الذى يُضْنِي) فأشار إلى الضنى إشارة القرب لأنه مُشَاهِد . وقال : (كذاك الذى يُبْلِي) : فأشار إلى البلى إشارة البعد لأنه مُغَيَّبٌ عنه .
(تَرَكْتَ خُدُودَ الْفَانِيَاتِ وَفَوْقَهَا

دُمُوعُ تَذِيبُ الْحُسْنَ فِي الْأَعْيُنِ النَّجْلِ)

هؤلاء الفوانى كُجِّلَ الْأَعْيُنُ كَجَلًّا طَبِيعِيًّا . والكَجَلُ الطَّبِيعِيُّ يَزِيدُهُ الْحُسْنَ حَسَنًا لِأَنَّهُ كُلُّ طَبِيعِيٍّ يُقَوِّيَةُ الْمَكْتَسَبُ الْمَشَاكِلُ لَهُ ، فيقول : إن دُمُوعَ الْفَانِيَاتِ الْكُجِّلِ الْمَكْتَحَلَاتِ تَغْسِلُ الْكُجْلَ الَّذِي هُوَ زِيَادَةٌ فِي حُسْنِ الْكَجَلِ فَيَزُولُ حُسْنُ الْكُجْلِ وَيَبْقَى حُسْنُ الْكَجَلِ فَقَدْ زَالَ الْحُسْنُ الْأَكْتَسَابِيُّ الَّذِي كَانَ زِيَادَةً فِي الطَّبِيعِيِّ فَتَقْصُ الْحُسْنَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ لِلْمَكْتَسَبِ مَوْجُودًا مَعَ الذَّاتِي، وَكَأَنَّ الدَّمْعَ هُوَ الَّذِي أَذَابَهُ وَتَقْصَهُ . وَلَا يُكْنَى فِي حَدِّ الْحَقِيقَةِ عَنْ تَقْصِ الْحُسْنَ بِالْإِذَابَةِ لِأَنَّ الْحُسْنَ عَرَضٌ فَلَا يَذُوبُ وَإِنَّمَا تَذُوبُ الْجَوَاهِرُ، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ زِيَادَةُ الْحُسْنَ بِالْكَجَلِ وَكَانَ الْكَجَلُ جَوْهَرًا اسْتَجَازَ إِيقَاعَ الْإِذَابَةِ عَلَى الْعَرَضِ الْحَادِثِ عَنْهُ فَتَفْهَمُهُ .

(تَبْلُ الثَّرَى سُودًا مِنَ الْمَسْكِ وَخَدَهُ وَقَدْ قَطَرَتْ خُمْرًا عَلَى الشَّعْرِ الْجَثِلِ)

أَيُّ بَسْكَيْنِ دَمْعًا مَشُوبًا بِدَمٍ لِإِطْرَاطِ الْحَزَنِ عَلَيْكَ تَقَطَّرَتْ خُمْرًا وَوَقَعَتْ عَلَى قَوَائِبِ الْمَنْشُورَةِ عَلَى الْخُدُودِ لِلْحَزَنِ وَفِيهَا أَفْوَاهُ الْمَسْكِ فَسَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ سُودًا بِالْمَسْكِ وَخَدَهُ دُونَ الْكُجْلِ لِأَنَّ الْكُجْلَ قَدْ أَذَابَهُ الدَّمْعُ وَأَسَالَهُ .
يَقُلُ (تَبْلُ الثَّرَى) : فَأَشْعُرُ بِأَنَّهَا خَرَقَتْ الْأَرْضَ لَشِدَّةِ وَقُوعِهَا وَغَزَارَتِهَا حَتَّى يَسَخَتْ فِي الثَّرَى .

(أَلَسْتَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ رَمَاهُمْ نَدَامُ وَمِنْ قَتْلَانِمْ مُهْجَةُ الْبُخْلِ)

لما استعار للبخل مهجة مقتولة ، فجعلها إحدى قتلام ، وكان البخل إنما يُقتل بالندى ، جعل ندام رُحماً يُقتل به البخل . وقيل : من رماهم ندام : أى يجودون بما أفاضت عليهم رماحهم . والأول أولى لقوله : ومن قتلام مهجة البخل . وقوله : « مهجة البخل » : تفلسف لأنه إذا قتلت المهجة والمهجة قوام المقتول أغنى ذلك عن وصف الجملة بالقتل . وهذا منه احتيال مليح لتسوية إعراب الروى . وليس للبخل مهجة . إنما المهجة للحيوان فاستعاره وسهل ذلك حين استعار القتل للبخل . وقال : (ألسنت) . فأخرج اللفظ مخرج الاستفهام ومعناه الإثبات والتقرير كقوله تعالى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ قال جرير :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَيْنَ بَطُونِ رَاحِ

فمعناه أنت من القوم الذين شأنهم كذلك كما أن معنى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ : أنا ربُّكم . ومعنى (أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا) : أنتم خير من ركب المطايا . (وَيَبْقَى عَلَى مَرَّةٍ الْخَوَادِثِ صَبْرُهُ وَيَبْدُو كَمَا يَبْدُو الْفِرْنْدُ عَلَى الصَّقْلِ) أى إذا نزلت بك الملمات ثبت من صبرك وتبين من جلدك ما يزيدك فى النفس جلالة لأن ذلك عين الخبر والمحنة ، كما أن السيف إذا أخذ منه الصقل جلا عن جوهره الذى كان يخفيه منه الصدى فازداد شرفاً بذلك ؛ ولذلك قالوا : خرج منها كالشهاب . أى بين الفضل واضح الشرف . وقابل الخوادر بالصقل لأن ذلك كله رَوَّزٌ واختيار وداعية إلى الوقوف الصحيح من الشيء .

(بِنَفْسِي وَلَيْدٌ عَادَ مِنْ بَعْدِ حَمْلِهِ إِلَى بَطْنِ أُمٍّ لَا تُطَرِّقُ بِالْحَمْلِ)

... يعنى أنه عاد من بعد الحمل الذى تبعته الولادة إلى بطن أمٍ لا تضع حملها

يعنى الأرض لأن من تضمنته لا يخرج منها إلا إلى الحشر فجعل تضمينها له كالحمل به ، ونفى عنها التطريق الذى هو ضد الحمل وكل ذلك مستعار .

(وَمَا لِلْمُوتِ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلَا كَفٍّ وَيَسْعَى بِلَا رِجْلِ)

قوله (: دق شخصه) : كلام شعري لأن الموت عَرَضٌ والعرض لا يُشَخَّصُ ، إنما التشخيص للجواهر . وقد يُتَجَوَّزُ بِالْعَرَضِ الْحُسُوسُ كالحمرة والصفرة . فأما الأعراض النفسانية فلا تُشَخَّصُ وسوغه ذلك قوله فيه (سَارِقٌ) لأن السارق لا يكون إلا شخصاً ، فلما نسب إليه صفة لا تكون إلا فى الجواهر ، وهو السَّرَقَ استعار له التشخيص . (يَصُولُ بِلَا كَفٍّ وَيَسْعَى بِلَا رِجْلِ) : أى أنه عَرَضٌ وَالْعَرَضُ لَا يَدَّ لَهُ وَلَا رِجْلَ .

(يَرُدُّ أَبُو الشَّيْبِلِ الْخَمِيسَ عَنْ ابْنِهِ وَيُسْرِى عِنْدَ الْوَلَادَةِ لِلنَّمْلِ)

يَعْذِرُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَطِقْ دَفْعَ الْمَنِيَةِ عَنْ ابْنِهِ . يَقُولُ : إِنْ الْأَسَدُ يَرُدُّ الْخَمِيسَ عَنْ شَيْبَلِهِ وَذَلِكَ لِكَبْرِ أَجْرَامِهِمْ وَعَظَمِ أَشْخَاصِهِمْ وَيَسْلَمُهُ عِنْدَمَا يُولَدُ لِلنَّمْلِ تَأْكُلُهُ إِذْ لَا يَطِيقُ دَفْعَهَا عَنْهُ لِدَقَّةِ أَشْخَاصِهَا فَكَذَلِكَ الْمَوْتُ لَوْ نَجَّحَ لِرَدِّهِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ عَنْ ابْنِهِ وَلَكِنَّهُ عَرَضٌ غَيْرُ مُتَجَسِّمٍ وَلَا مُحْسُوسٍ ، فَلَا قُوَّةَ بِهِ عَلَيْهِ ، بَلْ سَيْفُ الدَّوْلَةِ أَعْذَرُ مِنَ الْأَسَدِ لِأَنَّ النَّمْلَ وَإِنْ دَقَّتْ فِيهِ مَرَّةً وَمَوْتُ غَيْرُ مَرْتِيٍّ ، فَدَفَعَهُ أَبْعَدَ مِنَ الْإِمْكَانِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ بَعْضِ حُكَّامِ الْعَرَبِ يَوْصِي ابْنَهُ : (فَإِنَّمَا تَغُرُّ مِنْ تَرَى وَيَغُرُّكَ مِنْ لَا يَرَى) . يَعْنِي الْمَوْتَ وَهُوَ الَّذِي لَا يَرَى .

— ٨١ —

وله أيضا :

(فَمَا تُرَجِّى النُّفُوسُ مِنْ زَمَنٍ أَحَدٌ حَالِيَهُ غَيْرُ مُحَمَّدٍ)

أى أَحَدٌ حَالَى الدَّهْرَ أَنَّ يَمُدَّ لِلْإِنْسَانِ فِي الْعُمُرِ وَيُسَلِّمَهُ ثُمَّ يُفْضِي بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْمَلَكَةِ وَتِلْكَ حَالٌ غَيْرُ مَحْمُودَةٍ لِمَصِيرِهَا إِلَى مَا لَا يُحْمَدُ ، لَكِنَّهَا

أحمد الحالين ، فما ظنك بالآخر . وإن شئت قلت : أحمد أحوالك بقاؤك بعد
صديقك ، وتلك حال غير محمود لما هو به من تعجل الوجل وانتظار الأجل .
وهذا إفراط من القول لأنه إذا كان الأحمد غير المحمود فهو مذموم لا محالة .
فأى صفة تقع على الأذم والمحمود مذموم ما هي إلا أن الأذم أذهب في باب
الذم وإلا فالذم مشتمل عليها فذكر محموداً لأنه ذهب إلى الأحمد .

(تَحْمِلُ أَغْمَادُهَا الْفِدَاءَ لَهُمْ فَانْتَقَدُوا الضَّرْبَ كَالْأَخَادِيدِ)

الأخدود : الشق الواسع في الأرض يُخَدُّ فيها : أى يحفر . شبه الضربة
العظيمة بها وكان أبو وائل تغلب هذا ، قد أسرته بنو كلاب ، فَضَمِنَ لَهُمُ الْفِدَاءَ
عن نفسه فكان مكان ما ضمن لهم من الفدية أن غزاهم فأوقع بهم . ألا ترى
إلى قوله فيه وفيهم :

فَدَى نَفْسَهُ بِضَمَانِ النَّضَارِ وَأَعْطَى صُدُورَ الْقَنَا الذَّائِلِ
وَمِنْهُمْ الْخَيْلَ مَجْنُوبَةً فَجِئْنَ بِكُلِّ فَتَى بَاسِلِ

فيقول : تحمل لهم أغماد السيوف ما ضمنه لهم من الورق والعين وغيرهما ،
وذلك منه هُزءٌ بهم أى إنما كان الفداء المحمول إليهم أن ضربوا بما في الأغماد
وهى السيوف . فكانت كل ضربة على قدر الأخدود عظماً . ولما كان المعتاد
في الفداء الذهب والفضة بالأغلب جعل السيوف ثقوداً والأغماد أكياساً ،
وحسن ذلك لأن السيف من الحديد ، والحديد يشرك الذهب والفضة في أنه
جوهراً معدنى كما أنهما معدنيان . فانتقدوا الضرب ، أى قام لهم مقام النقد .
وقيل : وقع بهم أجود الضرب كما يختار المنتقد أجود الدراهم والدنانير ، وكله
هُزء . وقوله : « كالأخاديد » : فى موضع الحال . أى انتقدوا الضرب عريضاً
ومستطيلاً . والضرب ها هنا يجوز أن يكون الجنس ، وأن يكون جمع
ضربة . فقد ذهب محمد بن يزيد فى قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾

إلى أنه جمع توبة، إلا أن أكثر ذلك إنما هو في الجواهر المخلوقة دون الأعراض،
 نحو لوزة ولوز، وموزة وموز: وقد جاء في الجوهر المصنوع منه شيء كدواة
 ودوي، وسفينة وسفين. فأما في العَرَض قليل كما قلنا. لكني أؤثر أن يكون
 الضرب هنا جمع ضربية لقوله (كالأخايد) مع ما آنسنا محمد بن يزيد في
 قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ التَّارِبِ﴾. وأضمر السيوف في قواه: (تحمل أغمارها)
 للعلم بمكانها، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وأيضاً فقد جاء ذكر الجنود
 والسيوف متصلة بهم فكأنها مذكورة.

(مَوْقِعُهُ فِي فَرَاشِ هَامِهِمْ وَرِيحُهُ فِي مَنَاخِرِ السَّيْدِ)

الفراش: قشور تكون في الرأس على العظم دون اللحم، وقيل: ما يتطاير من
 عظام الرؤوس واحده بالهاء. و (مَوْقِعُهُ): وقوعه. أي يقع هذا الضرب
 برؤوسهم فتشم الذئب رائحة الدم فتقطع إليهم لتأكلهم. فالهاء في قوله:
 (وريح) ليست للضرب لأن الضرب لا طبيعة له فيكون ذا ريح، وإنما
 الهاء للدم، فأضمره لكان العلم به، وقد يجرز أن تجعل الريح للضرب وإن كان في
 الحقيقة للدم لأن الدم إنما حدث عن الضرب فكان الريح للضرب. وإن شئت
 قلت: إذا وقعت الضربة أرشت دماً فتغير منه الهواء، حتى ينشق
 للذئب رائحته فيستدل عليه. وقوله (في مناخر السيد) كان ينبغي أن
 يقول مَنخِر السيد أو في منخري السيد. ولكنه جعل كل جزء من
 المنخر مَنخِراً، ثم جمعه كما حكاه سيبويه من قولهم للبعير: ذو عثانين
 كأنهم جعلوا كل جزء منهم عثنوناً. وعليه وجه قول العرب: آتيك عشيّانات،
 قال: جمعوا لأنه حين، كلما تصوبت الشمس، ذهب منه جزء. وأنشد
 قول جرير:

قل العواذلُ ما لجهلك بعدما شابَ الفارقُ واكتسبن قتيلاً

وإن شئت قلت : إنه غنى بالتسديد هنا : النور فجمع المنخر لذلك وكل واسع .
 (ثُمَّ غَدَا قَيْدُهُ الْحِمَامَ وَمَا تَخَلَّصُ مِنْهُ يَمِينُ مَصْفُودٍ)
 صَفَدَتِ الْأَسِيرَ وَصَفَدَتْهُ : أوثقته . وأصفدت الرجل : أعطيته بالألف
 لا غير . فمصفودٌ على صفدته . وكانت أغلال العرب القد . ولهذا قالوا في
 المرأة السيئة الخلق : غُلٌّ قَمِيلٌ ، لأنهم كانوا يشدون القيد على الأسير فيعمل .
 فعنائه : كان هذا الميت أبو وائل أسيراً في يد العدا فأنقذته منهم ثم غدا بعد
 ذلك في أسر الموت فلم يك بك قدرة على تنقذه منه وما يخلص منه يمين
 مصفود . وَعَذَرَهُ لِعَجْزِهِ عَنْ تَنْقِذِهِ إِيَّاهُ مِنَ الْمَوْتِ ، فالموت لا يخلص منه
 من أوثقه . فَأَنْتَ يَا سَيْفَ الدَّوْلَةِ غَيْرَ مَلُومٍ عَلَى أَنْ لَمْ تَنْقِذْهُ مِنَ الْحِمَامِ كَمَا تَنْقِذُهُ
 مِنَ الْأَنَامِ . (قيده الحمام) : مبتدأ وخبر في موضع خبر غدا ، واسم غدا :
 مضر فيها ، كما حكاه سيبويه من قولهم : (كل مولود يولد على الفطرة ، حتى
 يكون أبواه اللذان يهودانه أو ينصرانه) أضمر اسم يكون فيها ، وجعل الجملة
 في موضع الخبر ، وأنشد :

إذا ما المرء كان أبوه عابسٌ فحسبك ما تريد إلى الكلام
 ولو قال : (ثم غدا قيده الحمام) أو (قيده الحمام) ، لكان حسناً
 لكنه لما كان ذكره إنما هو لأبي وائل ، وقد أجراه كثيراً ، أكد ذلك
 بالمحافظة عليه فأضمره . ألا ترى قوله : (قد مات من قبلها) . . . وقوله :
 « ما كنت عنه » . . . وقوله : (أين الهبات التي يفرقها) إلى سائر ما في
 القطعة من إخباره عن أبي وائل ، واستنهامه عنه .

— ٨٢ —

وله أيضا :

(ولا فضلَ فيها للشجاعة والندي وصبر الفتى لولا لقاء شعوبِ)
 فيها : أي في الدنيا . وشعوبُ : المنية تشعب أي تفرق ، وأنشد يعقوب :

فَإِذَا جَازَ وَمَنْ تَدْعُ يَوْمًا شَعُوبُ يُجِبُّهَا
يعزى عن الدنيا ويقول إن تمام هذه الفضائل فيها إنما هو بتيقن الفناء . أى
لولا خوف الموت ، شجع كل الناس وجادوا وصبروا فلم يك أحد مخصوصاً بهذه
الفضائل دون صاحبه ولو كان كذلك لم يك لهذه الفضائل فضل لأن الأشياء إنما
تتبين بأضدادها . فلو عُدِم الضد خفى ضده . وإن شئت قلت : لو أَمِنَ الموتُ
لما كان للشجاع فضل ، لأنه قد أَمِنَ الموت . وكذلك السخي والصبور لأن اعتقاد
الخلود ، وتنقل العسر إلى اليسر والشدة إلى الرخاء مما يسكن النفوس ويسهل
البوس . هذا قول أى الفتح ، وهو حسن . وقوله : (لولا لقاء شعوب) أراد
لولا تيقن لقاءها . و (الفتى) هنا لا يعنى به فتاء السن إنما يراد به المدح .
كقولك : أنت الرجل أى الجند الصابر و كقول الهذلي :

فَتَى مَا بِنُ الْأَغْرُ إِذَا شَتَوْنَا وَحُبُّ الزَّادِ فِي شَهْرَى قَمَاحٍ
كنى بالفتوة عن الكرم ، كأنه قال : ابن الأغر كريم مُتَفَتٌّ ، ولولا
ذلك لم يعمل (فتى) فى (إذا) لأن الظروف لا تعمل فيها إلا الأفعال أو ما هو
فى طريقها ، وإذا قلت زيد فتى تعنى به السن ، فليس فيه معنى فعل .
(فَعَوَّضَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْأَجَرَ إِنَّهُ أَجَلُ مُثَابٍ مِنْ أَجَلٍ مُثِيبٍ)
إن شئت عَنَيْتَ بالمثاب سيف الدولة ، وإن شئت عَنَيْتَ به الأجر الذى
أُثِيبَ .

(إِذَا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الْكَرِيمِ مُصَابَهَا بِخُبْثٍ كَثَفَتْ فَاسْتَدْبَرَتْهُ بِطِيبٍ)
المصاب هنا الإصابة لأن المصدر قد يخرج على شكل المفعول به لأنه فى
المعنى مفعول ، فمن ذلك الميسور والمعسور والمعقول والمجلود فأما فيما جاوز الثلاثة
فقطرد كالموتى فى معنى التوفية ، والمقاتل فى معنى القتال أنشد سيبويه :

أَقَاتِلْ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتِلًا وَأَنْجُو إِذَا لَمْ يَنْجُ إِلَّا الْمَكِيسُ

والخُبثُ في هذا البيت : كناية عن الجَذَع ، وجَيْشَان النفس عند الفزع .
والطيب : كناية عن الصبر والتوطين . أى إذا جَزَعَ الفهم في أول نزول
المصائب به رَاجَعَ أمره بعد ذلك ، فعادَ إلى الصبر . وإن شئت قلت : من لم
يوطِّن نفسه للقاء المصائب قبل نزولها صعبت عليه عند حلولها فليستشعر اللبيب
التوطن على لقاء المكروه لأنه إذا لم يفعل ذلك ، ونزل به ما يكره ، عظم
عليه وجزع منه ثم يحول بعد ذلك إلى الصبر ، لا جَدْوَى له في الجزع . فالحكمة
أن يبتدىء أولاً بما يعود إليه آخرًا كقول الشاعر :

رَأَى كُلَّ شَيْءٍ إِلَى غَايَةِ فَصِيرٍ آخِرُهُ أَوَّلًا

وقد فسّر المتنبي معنى هذا المتقدم بقوله بعد هذا :

(وَلِلْوَاجِدِ الْحَزُونِ مِنْ زَفَرَاتِهِ سُكُونٌ عَزَاءُ أَوْ سَكُونٌ لُغُوبٌ)

أى لا بد للمحزون أن يسكن حزنه : إما تعزياً وهو الحميد ، وإما إعياء وهو
اللغوب . وإن شئت قلت : إن لم يصبر تعزياً واحتساباً ، وإلا صبر لغوباً حين
لا أجر له ولا فضل .

— ٨٣ —

وله ايضاً :

(فَلَمْ لَا تَلُومِ الذِي لَا مَهَا وَمَا قَصُّ خَاتِمَتِهِ يَذُبُّ)

كأن لا تلام هذه الخيمة على عجزها عن الاستقرار على سيف الدولة
والاعتلال له حين تقوضت . فيقول : لا ينبغي أن تلام لأن ذلك ليس في وسعها ،
ولا استطاعتها ، وليس على تارك ما يطيق لوم . فإن كان الإنصاف أن تلام هذه
الخيمة على ما ليس في طوقها ، فلم لا تَلُوم لائمتها على أن لم يطق أن يجعل

فصّ خاتمه يذبل ؟ لأنها قد استويا في العجز وإنما كان ينبغي أن يلومها من أطلق التّختم بهذا الجبل . فإذن لا أحد يقدر على ذلك فلا تلوّن الخيمة على قروضها ، وضعفها عن حمل سيف الدولة ، لأن العجز عن الممتنع قد وضع فيه العُذر ، و (لِمَ) : لفة في (لِمَ) فاشية معروفة .

(فَمَا اعْتَمَدَ اللَّهُ تَقْوِيضَهَا وَلَكِنْ أَشَارَ بِمَا تَنْعَلُ)
أى لم يقوضها ليحزّنك ، ولكن أشار عليك بالرحيل نحو ما اختاره لك من الجهاد ؛ وسلوك سبيل الرشاد . والإشارة من الله عز وجل عليه : إنما هي إلهامه إياه ، وليست على حد الإشارة الإنسانية ، لأن هذه إنما هي الجوارح . وربنا تعالى يحلّ عن ذلك .

(رَأَتْ لَوْنَ نُورِكَ فِي لَوْنِهَا كَلَوْنِ الْغَزَالَةِ لَا يُغْسَلُ)
وهذا عذر الخيمة في سقوطها ، أى أنها رأت لون نورك في لونها كنور الشمس فراعها ذلك ، لأنها ظنتك الشمس ؛ التى هى ملك الكواكب ، فلذلك سقطت لأنها استعظمت حملها لك ، وقوله : (لَا يُغْسَلُ) أى اتصل نورك بها ، حتى صار فيها كالشامة التى لا تُمَحَى بالغسل .

(وَقَدْ عَرَفْتِكَ فَمَا بِأَلْهَا تَرَكَ تَرَاهَا وَلَا تَنْزِلُ)
هذا البيت شنع وكفر لِمَا عَنَى أن هذه الكواكب غير عاقلة لأنها لو كانت عاقلة لعرفتكَ ، وتبيّنت أن محلّك فوق محالها ، فكانت تنزل إليك فإذا لا تنزل ، فهى غير عارفة بك ، وإذا هى غير عارفة بك ، فهى غير عاقلة . ولعمري ، فقد ذهب فى ذلك إلى تكذيب من ادعى أن الكواكب تعقل وإن كان قد فلا .

— ٨٤ —

وقال أيضا :

(وَمَا عَفَّتِ الرِّيحُ لَهُ مَحَلًّا عَفَاهُ مِنْ حَدَا بِهِمْ وَسَاقَا)

أى لم تغف الرياح هذا المنزل ، وإنما عناه بتقليلهم عنه وإخلاصهم له .
 (نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ وَالْعَيْنُ شَكَرَى فَصَارَتْ كُلُّهَا لِدَمْعٍ مَاقَا)
 شَكَرَى : أى مَلَأَى لم تقض بعدُ . وَالْمَاقُ : مجتمع الدمع . فلما رأتهم
 متحملين ، فاض الدمع من جميع جوانبها ولم يمحض الماق وحده ، بل صارت
 العين كلها للدمع مَجْرَى ، فكانها كُلُّهَا مَاقٍ ، كقول الشاعر :
 أَقْلَبُ عَيْنِي فِي الْفَوَارِسِ لَا أَرَى حِرَاقًا وَعَيْنِي كَالْحَبَّاجَةِ مِنَ الْقَطْرِ
 أى تَمَلَّأَتْ كُلُّهَا مِنَ الدَّمْعِ حَتَّى عَادَتْ كَالْحَبَّاجَةِ ، وَهِيَ تُفَاقِهُ الْمَاءُ .
 وَلَا أَقُولُ : إِنْ الْأَلْفُ فِي « مَاقٍ » مَبْدَلَةٌ مِنَ الْهَمْزَةِ ، لِمَكَانِ الرَّدْفِ ،
 لِأَنَّهُمْ قَدْ قَالُوا « مَاقٍ » بِزَنَةِ « مَالٍ » وَكَسَرُوهُ عَلَى أَمْوَاقٍ كَأَمْوَالٍ ، فَدَلَّ
 ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَلْفَهُ مَنقَلَبَةٌ عَنْ وَاوٍ ؛ كَأَلْفٍ مَالٍ . وَلَوْ لَمْ نَعْرِفْ مَاقًا مَكْسَرًا عَلَى
 أَمْوَاقٍ ، لَعَلَّمْنَا أَنَّ أَلْفَهُ مَنقَلَبَةٌ عَنْ هَمْزَةٍ ، لَقَوْلِهِمْ مَاقٍ مَهْمُوزَةٌ .
 (وَخَصَرَ تَثَبُّتُ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقًا)

إِنْ شِئْتُ قُلْتُ : إِذَا نَظَرْتَهُ الْعَيْنُ اسْتَحْسِنَتْهُ ، فَلَمْ تَعُدَّهُ ، وَتَثَبَّتْ فِيهِ . فَكَثُرَ
 النَّاظِرُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى كَانَهُ مَتَنَطِّقٌ بِالْحَدَقِ . وَإِنْ شِئْتُ قُلْتُ :
 تَثَبَّتِ الْأَبْصَارُ فِيهِ لِبِضَاضَتِهِ وَنَعْمَتِهِ ؛ فَكَأَنَّ مَائِثَةً فِيهِ مِنْ حَدَقِ النَّاظِرِينَ إِلَيْهِ
 نِطَاقٌ لَهُ . وَأَرَادَ كَأَنَّ عَلَيْهِ نِطَاقًا مِنَ الْحَدَقِ الْمُحْدِقِ بِهِ .

(أَبَاحَ الْوَحْشَ يَا وَحْشُ الْأَعَادَى فَلِمَ تَتَغَرَّضِينَ لَهُ الرَّفَاقَا)
 الْوَحْشُ مُؤَنَّثٌ . وَيُرْوَى (أَبَاحَكَ أَيُّهَا الْوَحْشُ الْأَعَادَى) . وَالْأَعَادَى :
 جَمْعُ الْجَمْعِ : عَدُوٌّ وَأَعْدَاءٌ وَأَعَادٍ ؛ وَأَصْلُهُ أَعَادِي كَقَطَاعِي ؛ فَحُذِفَتْ إِحْدَى
 الْيَاءَيْنِ تَخْفِيفًا ، ثُمَّ حُذِفَتِ الْأُخْرَى حَذْفًا لِفِعْرِ عِلَّةٍ ؛ وَصَارَ التَّنْوِينُ عَوْضًا مِنْهَا .
 وَأَرَادَ (الْأَعَادَى) لِأَنَّهُ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ ؛ بِكَوْنِهِ مَفْعُولًا ثَانِيًا لِأَبَاحَ فَاضْطَرَّه

الوزن إلى تسكين الياء . والرفاق : جمع رُفقة كحفرة وحفار ، وعلبة وعِلاب
والمعنى أيتها الوحش ؛ قد أباحك هذا المدوح أعاديه قتلهم وصرعهم لك ؛
وحكمك في أكلهم ، فلم تتعرضين له الرفاق السائرة إليه ، وقد أغناك عن
الاعتساف والطلب فيمن أجزرك من أعاديه ؛ وجعله لك أكلة .

(إذا أنعلن في آثار قوم وإن بُعدوا جعلنهم طرّاقا)

الطرّاق : ما طبقت عليه النعل فخرزت به ؛ وهو طبقة السفلى . وقيل
الطراق : نعل تطرح تحت النعل ؛ استظهاراً وتوكيداً . أى إنها إذا أنعلت في
طلب قوم أدركتهم فداستهم ؛ فصارت أشلاؤهم نعلاً لتلك النعال .

(أقام الشعرُ ينتظر المطايا فلما فاقَت الأمطارَ فاقا)

انتظر الشعر أن تحسن ، فأشكر وأشعر . فلما فاقَت عطايك الأمطار ،
فاق شعرى الأشعار كقول البحترى :

قد أتتكَ القوافى غيباً فائدةً كما تفتحُ بعدَ الوابل الزَّهرُ
(يقصرُ عن يمينك كلُّ بحرٍ وعمّا لم تُلقه ما ألاقا)

لاقَ الشيء وألاقه : أمسكه . ولاقَ هو نفسه : أمسك . أنشد سيبويه :

تقول : إذا استهلك ما لا للذة فكهة هشيء يكفيك لائق

يقول : يقصر البحر عن يمينك جوداً ؛ ويقصر ما ألاق من الأغلاق ،

عما بذلته أنت . أى إنما تعطيه أنت أكثر مما يمسكه البحر في ذاته .

- ٨٥ -

وله أيضاً :

(لا الحلمُ جادٌ به ولا يمثاله لولا أدُّ كَارُ وداعيه وزِياله)

أى مثله لا يستطيع الحلم أن يصوره ، لأنه أرفع من ذلك . لكنى تذكرته

حين نذكر وداعه ومزاييلته ؛ فثبت ما امتثلت منه في هاحسى ؛ فأراني النوم
إياه . فأذن لم يجد لديه إلا تذكرة له . وهذا رأى بعض الفلاسفة فيما يراه النائم .
وقال أبو تمام :

زار الخيال لها لا بل أزاركم فكر إذا تم فكر الخلق لم ينم
وإن شئت قلت : إنه بالغ بصفة هجر محبوبه له فقال : لا يسمح لي بمواصلة
في يقظة ولا نوم ؛ وإنما أطلت تذكره ؛ وواصلت ذلك ليلاً ونهاراً حتى رأيت
خياله . وأبلغ منه قول الآخر :

« صدت وعلت الصدود خيالها »

فهذا يصف أنه لم ير خيالها .

(إن المبدأ لنا للنائم خياله كانت إعادته خياله)

أى كنا قبل النوم نتخيل خياله بالتذكر والتفكر ؛ فلما نمنا رأينا خيال
ذلك الخيال الذى كنا نتخيلناه . وإن شئت قلت : إنه كنى بذلك عن قلة
الزمن الذى استمتع فيه بالخيال . والإعادة بمعنى المبدأ ، وضع المصدر موضع
الاسم ولا يكون الخيال هو الإعادة ، لأن الخيال جوهر والإعادة عرض .

(نجبني الكواكب من قلائد جيده ونثال عين الشمس من خلخاله)
السابق من هذا البيت إلينا ؛ أنه شبه دُرّ قلائده بالكواكب لبياضه ،
وخلخاله بعين الشمس لاستدارته ولونه ، إن كان من ذهب ولكن أطف من
هذا أن يقول إن هذا المحبوب ممنوع لا تصل اليد إلى العبث بقلائد جيده ،
ولا تمس خلخاله الأيدي ، فيقول : من مس قلائده فكأنه جنى الكواكب
لبعدها ومنعها ، ومن نال خلخاله ؛ فكأنه نال الشمس لذلك أيضاً مع التشبيه
الذى تقدم ذكره ولو قال : « ونثال الشمس من خلخاله » كان كافياً في المعنى .

لكن قال : « عين الشمس » لأن هذه الجارحة مستديرة . وإن شئت قلت :
لأنه متى بعين الشمس حقيقة جوهرها ، لأن هذه الجارحة من الحيوان .
(يَنْتُمُ عَنِ الْعَيْنِ الْقَدِيمَةِ فَيْكُمْ) وَسَكَنْتُمْ طَيَّ الْفُؤَادِ الْوَالِهَ)
فيكم : أى من أجلكم ، كما تقول : هُجرت فيك : أى من أجلك .
وليست (فى) هنا للوِعاء (وسكنتم طيَّ الفؤاد) : كان يعنى من ذلك أن
يقول : وسكنتم الفؤاد . ولكنه وطأ بذكر الوطن صنعةً ونسباً ، إلى حفظ
إعراب القافية وجعل الهاء الأصلية فى الواله صلةً لأن العرب تصل بها أصلاً كما
تصل بها زائدة . قال :

ضوريَّةٌ أولعتُ باشتهاها ناصلةُ الحقَّوينِ من إزارها
يطرقُ كلبُ الحى من حذارها أعطيتُ فيها طائماً أو كارها
حديقةً غلباءُ فى جدارها وفرساً أنى وعبداً فارها
فوصلَ بالهاء الأصلية فى قوله كَارِهاً وفَارِهاً كما وصل بالزائدة فى سائر
الآيات .

(فَدَنَوْتُمْ وَدُنُوتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ وَسَمَحْتُمْ وَسَمَّاخُكُمْ مِنْ مَالِهِ)
أى فكر فيكم فأدناكم فؤاده ، ولم تدنوا أنتم بإرادتكم . فالمنُّ للفؤاد
لا لكم ، وسمحتم وسمآحكم من ماله . أى سمحتم له بالزيارة ، وسمآحكم من لدنه ،
لأنه إنما كان لِمَا امتثله خاطرهم من ذكراهم ، وتصوّر لقيامهم . ولما ذكر
السمآح استجاز ذكر المال ، وإلا فلا حقيقة له .

(إِنِّى لِأُبْغِضُ طَيْفَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ إِذْ كَانَ يَهْجُرْنِى زَمَانٌ وَصَالَهُ)
إنما شناً الطيف ، لأنه وصله أيام هجر الحبيب له ، وهو الموجب لزيارة
الطيف لأن إمكان الوصل الحقيقى لا يكاد يكون معنى خيال إنما الخيال مع
عدمه لما يحدث من الشوق والتوق .

وقيل معناه : إذا كان الحبيب يهجرني زمان وصال الخيال ، وهذا من الضعف بحيث لا يلتفت إليه . وإنما نقلته تعجباً .

(إن الرِّيحَ إذا عَمَدَنَ لناظِرٍ أَغْنَاهُ مُقْبَاهُهَا عَنْ اسْتِعْجَالِهِ)
أى لهذا المدوح من شيمة المبادرة إلى الجود ، ما يغنى عن السؤال ، كما أن للريح من السرعة ما يغنى عن الاستعجال لها . والهاء فى استعجاله يجرز أن تكون للناظر ، فتكون فى موضع الفاعل ، أى عن استعجاله إياها ، ويجوز أن تكون للمقبل ، فتكون الهاء فى موضع المفعول . وذلك أن الاستعجال مصدر ، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

(غَرَبَ النُّجُومُ فَفَزَنَ دُونَ هُمُومِهِ وَطَلَعَنَ حِينَ طَلَعَنَ دُونَ مَنَالِهِ)
أى قد نال ما هو أعلى من النجم ، وهمته فى ذلك غير مقتنعة بما نالت ، ولا مقتصرة عليه ، فهى تطالبه بما هو أبعد من مطالعها ومغاربها .

- ٨٦ -

وله أيضاً :

(الناعِلُ الفَعْلَ لَمْ يَفْعَلْ لِشِدَّتِهِ والقائلُ القولَ لَمْ يُتْرِكَ وَلَمْ يُقَلْ)
أى يفعلُ الفَعْلَ الذى لم يفعله غيره . بل عجز عنه وقصر ، لشدة وثقل مئونه ، و (القائلُ القولَ لَمْ يُتْرِكَ) : أى لَمْ يُتْرِكَ الناسُ اجتهداً فى أن يقولوا مثله ، فهذا معنى قوله « لَمْ يُتْرِكَ » : لكن لم يقدرُوا عليه ؛ فهذا معنى قوله : « وَلَمْ يُقَلْ » . وهو كقول البحترى :

فى غايةٍ طُلِبَتْ وقصر دُونُهَا من رَامَهَا فَكَأَنَّهَا ما تُطَلَّبُ
أى لما كان الطلب علةً للإدراك ؛ ثم لم تك هذه الغاية مدركة ، كان الطلب كأن لم يكن .

وتقدير البيت : الفاعل الفعل الذى لم يفعل ؛ والقائل القول الذى لم
يقُلْ ؛ فحذف (الذى) ومثله كثير ؛ أنشد سيبويه :

لَوْ قُلْتَ مَا فِي قَوْمِهَا لَمْ تَيْشَمِ يَفْضُلُهَا فِي حَسَبٍ وَمِيسَمِ
(هو الشجاعُ يَعُدُّ البخلَ من جُبْنٍ وهو الجوادُ يَعُدُّ الجُبْنَ من بَخَلٍ)

أى إنه شجاع جواد ؛ لأن إحدى هاتين الصفتين منوطة بالأخرى ؛
لأن الشجاع يجب له أن يعلم أن البخل جُبْنٌ وهَلَعَ من الفقر ؛ فإن كان
بخيلاً فهو ناقص الشجاعة ؛ لحذرهِ من الإعدام ؛ وَيُحِبُّ للجواد أن يعلم أن
الجُبْنَ بخلٌ بالنفس ؛ فان لم يك ذا شجاعة فهو ناقص الكرم ؛ لبخله بذاته .

فهذا المدوح قد تَبَيَّنَ له أن البخل جُبْنٌ ؛ وان الجُبْنَ بُخْلٌ ؛ فلم يرض
إحدى الخطتين دون صاحبتهما ؛ فشجّع وكرّم . ومثله قوله هو أيضا :

قلت إن الفتى شَجَاعَتُهُ تُرِيهِ فِي الشُّحِّ صُورَةَ الْفَرَقِ

وقد اجاد ابن الرومى تلخيص ذلك وتسهيله ؛ فقال :

البخلُ جُبْنٌ والسماحُ شَجَاعَةٌ لاشكَّ حين تصحَّحَ التَّخْصِيلاً

جُبْنُ البخلِ من الزمانِ وصَرْفُهُ فَهَيْبُ الْإِفْضَالِ وَالتَّنْوِيلِ

(وَكَمْ رِجَالٍ بَلَا أَرْضَ لِكَثْرَتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمْ أَرْضًا بَلَا رَجُلٍ)

أى كانوا كثيراً قد غَطَّوا الأرض بكثرتهم حتى خَفِيَتْ ، فكأنهم
بلا أرض البتة ؛ يقول : قتلْتهم أنت حتى عادت تلك الأرض الموطأة بكثرتهم ؛
أرضاً لا ترى فيها رجلاً . وأوقع (كَمْ) على جميع هذا ؛ لأنها خبر .

قال :

كَمْ دُونَ سَلَمَى فَلَوَاتٍ بِيَدِ مُنْضِيَةٍ لِلْبَازِلِ الْفَيْدُودِ

وقوله : (تركت جمعهم أرضاً بلا رجل) جملة في موضع جر ، لأن موضع كم هنا رفع بالابتداء .

(يَا مَنْ يَسِيرُ وَحُكْمُ النَّاطِرِينَ لَهُ فِيمَا يَرَاهُ وَحُكْمُ الْقَلْبِ فِي جَذَلِ)
أى قد أطاعتك آمالك ، وحكمتك الزمان في نيك كل ماسعت إليه ،
وبنيت هواك عليه ، فما تقع عينك من المرئيات إلا على ما يسرها ويؤديان به
إلى فؤادك ما ينخبرك ويسرك . وقال : وحكم الناظرين وحكم القلب : أى حكم
ناظر به وحكم قلبه . وكلتا الجملتين في موضع الحال من الضمير الذى فى الفعل ،
أعنى (يسير) أى : يا من يسير مسروراً جَذَلَ الفؤاد .

(أَجْرُ الْجِيَادِ عَلَى مَا كُنْتَ مُجْرِيَهَا وَخُذْ بِنَفْسِكَ فِي اخْلَاقِكَ الْأُولَى)
السابق إلى من هذا البيت ، أنه رأى منه تغيراً عما كان عليه من تفضيله
على من سواه من الشعراء ، فقال له : اعْدِلْ كما كنت فاعلاً .

وأما ابن جني فقال : سأله عن هذا فقال : كان سيف الدولة قد ترك
الركوب أياماً ، فحضره بذلك على المعاودة .

- ٨٧ -

وله ايضا :

(إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمَقْدَّمُ أَكْلٌ فَصِيحٌ قَالَ شِعْراً مُتَيِّمٌ)

من شأن الشعراء إذا أرادوا المدح ، أن يقدموا النسيب . هذا هو الأغلب ،
حتى سموا الشعر الذى لا يُصَدَّرُ بالنسيب خَصِيماً ، حكى هذا عن أبى زيد .

فالتنبى قد خرق في هذا الشعر عادتهم ، وأنكرها عليهم ، وجعل ابتداء
شعره مدح سيف الدولة . ثم قال : (أَكْلٌ فَصِيحٌ قَالَ شِعْراً مُتَيِّمٌ) ؟ هذا
فى اللفظ إنكاراً ، ظاهره استخبار ، وهو فى الحقيقة خبر منقذ . أى ليس كل
فصيح شاعراً مُتَيِّمًا ، فيلزمه النسيب إذا مدح .

(فَجَازَ لَهُ حَتَّى عَلَى الْبَدْرِ حُكْمُهُ وَبَانَ لَهُ حَتَّى عَلَى الْبَدْرِ مَيْسَمٌ)
 أى إذا سَارَ أُنَارُ الْغُبَارِ ، فحُكِمَ عَلَى الشَّمْسِ بِالْأَسْوَدَادِ . وَهُوَ ضِدُّ
 لَوْنِهَا . وَإِذَا سَارَ ضَاعَفَ الْغُبَارُ . وَكَلَّفَ الْبَدْرُ . وَالْمَيْسَمُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ
 مِنَ الْوَسْمِ — الَّذِي هُوَ الْعَلَامَةُ بِالنَّارِ وَالْقَطْعِ ، وَلَيْسَ بِآلَةٍ هُنَا ، إِذْ لَا مَعْنَى لِذَلِكَ .
 وَقِيلَ الْمَيْسَمُ هُنَا الْحُسْنُ . أَيْ فَاقَ الْبَدْرَ فِي الْحُسْنِ وَالْأَوَّلُ أَوَّلَى .

وَقَدِيرُ الْبَيْتِ : فَجَازَ لَهُ حُكْمُهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى عَلَى الشَّمْسِ . وَبَانَ
 لَهُ وَسْمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى عَلَى الْبَدْرِ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ مَنْوِيًّا مَعَ
 حَتَّى ، كَأَنَّهُ قَالَ : حَتَّى جَازَ عَلَى الشَّمْسِ ، وَحَتَّى بَانَ عَلَى الْبَدْرِ ، أَيْ إِلَى أَنْ .
 وَلَا تَكُونُ حَتَّى هُنَا حَرْفَ غَايَةٍ ، وَتَكُونُ دَاخِلَةً عَلَى «عَلَى» لِأَنَّ حَتَّى وَعَلَى
 حَرْفَانِ ، وَلَا يَدْخُلُ حَرْفٌ عَلَى حَرْفٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ حَتَّى (يَأْتِي أَنْ) . وَإِذَا
 قَدَّرْتَهَا يَأْتِي أَنْ ، فَقَدْ حَصَلَ الْفِعْلُ ؛ لِأَنَّ «أَنْ» لَا بُدَّ لَهَا مِنَ الْفِعْلِ .

(وَلَا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ وَالْقَنَاءُ وَلَا رُسُلُهُ إِلَّا الْخَلِيسُ الْعَرْمَرَمُ)
 أى الَّذِي يَقُومُ لَهُ مَقَامُ الْكُتُبِ ، إِنَّمَا هُوَ السِّيُوفُ . وَالَّذِي يَقُومُ لَهُ مَقَامُ
 الرُّسُلِ ، إِنَّمَا هُوَ الْجَيْشُ الْعَظِيمُ ، يُهْذِيهِ إِلَى عَدُوِّهِ . وَإِنَّمَا نَفَى عَنْهُ الْإِخْلَادَ إِلَى
 الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ تَأَنٍّ ، وَأَخَذَ بِالْهُوَيْنَى .

(يَطَّانُ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حِمْلَ لَهُ وَمِنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يُقَوِّمُ)

الْقِصْدُ : كِسْرُ الرِّمَاحِ ، وَاحِدَتُهَا : قِصْدَةٌ . وَالْمُرَّانُ : وَشِيحُ الرِّمَاحِ
 إِذَا لَانَ وَتَخَلَّقَ ، مِنَ الْمَرَانَةِ ، وَهِيَ اللَّيْنُ ، أَلَا تَرَاهُمْ قَالُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى :
 رَمَحَ لَدُنْ . وَاللَّدْنَةُ : اللَّيْنُ . وَمِنْ هُنَا زَعَمَ سَيْبُو بْنُ أَنَسٍ إِذَا سَمَّيْتَ بِمُرَّانٍ
 صَرْفَهُ ؛ لِتَصَوُّرِهِ مَعْنَى مِنَ اللَّيْنِ فِيهِ . وَمَعْنَى الْبَيْتِ : أَنْ خِيَلَهُ يَطَّانُ
 مِنْ أَعْدَائِهِ ، مَنْ لَمْ يَحْمِلْ لَهُ . فَوَضَعَ الْمَاضِيَ مَوْضِعَ الْمُسْتَقْبَلِ .

وإنما توضع الأفعال بعضها موضع بعض في غالب الأمر مع الحروف ،
نحو قولك : إن فعلت فعلت : أى إن قعل أفل ، وقولك : والله لأفعلت ،
تريد : لا أفل .

(وَمِنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ) أى قد بالفت في تحطيم الرماح وتغويجها،
حتى ليس في الإمكان أن يجبر عن كسرهما؛ ولا أن يقوم مُنادُها وقيل:
(مَنْ لَا حَمَلَتَهُ) : دعاء للمدوح : أى لا غلب عداؤه حرا به ، فيملكوا
خيالهم -

والأول عندي أولى ، لقوله : (وَمِنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ) فهذا
خبر ، إلا أن تضع (يَقُومُ) موضع (قُوم) فيتوجه معنى الدعاء ، وقد
يجىء لفظ الدعاء مساوياً لفظ الخبر ، كما يكون ذلك في الأمر والنهى ، كقول
الشاعر ، أنشده يعقوب :

كَمَلَقِي عِقَالٍ أَوْ كَمَهْلِكٍ مَالِكٍ وَايِسْ لِحَيٍّ هَالِكٍ بَوْصِيلٍ
وَقَالَ الْهُدَلَى :

لَيْسَ لِمَيِّتٍ بَوْصِيلٌ وَقَدْ عُلِقَ فِيهِ طَرَفُ الْمَوْصِلِ
فمعنى هذا كله : ولا وُصِّل هذا الحى بهنا الهالك . وهذا دعاء قد خرج
على لفظ الخبر ، ومثله كثير .

(يُقِرُّ لَهُ بِالْفَضْلِ مَنْ لَا يَوَدُّهُ وَيَقْضِي لَهُ بِالسَّعْدِ مَنْ لَا يُنَجِّمُ)
أى إن فضله ذائع شائع ، يضطر عداؤه إلى الإقرار به له ، تنكبا لخرق
الإجماع ، وعلماً منهم أنهم أنكر ، ولم يقبل ذلك منهم ، فكان دليلاً على
تسفههم كقول البحترى :

لَا أَدْعِي لِأَبِي الْعَلَاءِ فَضِيلَةً حَتَّى يَسْلُمَهَا إِلَيْهِ عِدَاؤُهُ

(وَيَقْفَى لَهُ بِالْعَدِّ مَنْ لَا يُنَجِّمُ) : أى قد عهد سعيداً ميموناً مدركاً لكل من طلب فيقاس بماضى أفعاله وحاضرها على مستقبلها .

(أَجَارَ عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى ظَنَنْتُهُ تَطَالُبُهُ بِالرَّدِّ عَادٌ وَجُرْهُمُ)

(أجار على الأيام) : حى منها ومنع ، وجعل نفسه ملاذاً للناس منها ، حتى ظننت أن الغابرين من الأمم ستطالبه بأن يردّها إلى الحياة ، وأن يُعَدِّيها على الأيام التى تحيّيّها وأهلكتها . وخص عاداً وجُرهماً لقدمهما . وإن شئت قلت : لعظمهما .

(كَأَجْنَابِهَا رَايَانُهَا وَشِعَارُهَا وَمَا لِبِسَتُهُ وَالسَّلَاحُ الْمَصْنَعُ)

عسكر العرب قبيلة واحدة . نخيله وسلاحه وملبوسه كله عربى ، وإنما مدح عسكره بذلك ، لأن الجيش إذا كان من قبيلة واحدة كان أشدّ لباً بها . هنا قول أبى الفتح .

والذى تؤثره نحن ، أن عسكر العرب إنما هو كما قال ، ألا ترى أن النابغة قد قال :

وَجِئْتُ لَهُمْ بِالنَّصْرِ إِذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ كِتَابُ مِنْ غَسَّانَ خَيْرُ أَشَائِبِ

وهى التى تسمى الحمرة . ومنه قول الخطيئة لعمر بن الخطاب : (يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كُنَّا أَلْفَ فَارِسٍ ، ذَهَبِيَّةَ خِرَاءَ : أى لم يختلط بنا أحد ، فهكذا عسكر العرب . فأما عساكر الملوك فكلما تنوعت أجنادها ، كان أعظم لملكها ، وأقدر لملكها ، لأنه متى تغيرت حرب ما ، قوم بحرب آخر) فيقول إن أجناس عسكر هذا الملك كثيرة مختلفة بالنوعية ، فينبغى أن تختلف أيضاً أعلامها ويزنها وسلاحها ، لكل نوع من أنواع الخميس زى يخالف زى صاحبه كقوله هو يصف عسكراً :

تَجَمُّعٌ فِيهِ كُلُّ لِسْنٍ وَأُمَّةٍ فَمَا تُفْهِمُ الْحُدُثَ إِلَّا التَّرَاجِمُ
وتقدير البيت راياتها وشعارها وسلاحها كأجناسها. أى أن هذه المحمولات
كلها متنوعة في ذاتها ، كما أن الحاملين لها متنوعون . والتنوع الذى ذكرناه
في هذا البيت ؛ إنما هو تنوع بالنسب ، وتنوع بالصورة ، لا تنوع بالفصول
الذاتية ، ولو قال هو كأنواعها ، لكان أشبه ، ولكنه آثر كلام الجمهور .
(بِغُرَّتِهِ فِي الْحَرْبِ وَالسُّلْمِ وَالْحِجَابِ وَبَذَلِ اللَّهِ وَالْحَمْدِ وَالْمَجْدِ مُعَلِّمٌ)
أى أنه مُعَلِّمٌ بِغُرَّتِهِ فِي هَذِهِ الْفَضَائِلِ كلها مطروورها . ذهب إلى شهرته
وجَهْرَتِهِ .

(ضَلَالًا لِيَهْدِيَ الرِّيحُ مَاذَا تُرِيدُهُ وَهَدْيًا لِهَذَا السَّيْلِ مَاذَا يُؤْمُّ)
دعا على الريح ، لأنها عارضت سيف الدولة فأذت ، ودعا للغيث ، لما شكلته
إياه في طبيعة الجود .
(تَلَاكَ وَبَعْضُ الْغَيْثِ يَتَّبِعُ بَعْضَهُ مِنْ الشَّامِ يَتْلُو الْحَاقِقَ الْمُتَعَلِّمُ)
تَلَاكَ يعنى الغيث ، ويخاطب الملك ، وكان الغيث قد صحبه من الشام
إلى ميافارقين وبعض الغيث يتبع بعضه : أى أنك غيث ، فلا تلم الغيث فى
اتباعه إياك ، لأن بعض الغيث يتبع بعضاً . و(من الشام) : متعلق بتَلَاكَ ؛ أى
تلاك هذ الغيث من الشام .

(يَتْلُو الْحَاقِقَ الْمُتَعَلِّمُ) : إما أن يكون هذا على المثل ، فيكون الحاذق
والمُتَعَلِّمُ نوعين ، أى كل حاذق يتلوه مُتَعَلِّمُهُ ، من أى الطبقات كان . فهذا
وجه المثل الكلى .

وإما أن يعنى بالحاذق سيف الدولة ، وبالمُتَعَلِّمُ الغيث ، أى سيف الدولة
هو الحاذق بسلوك طريقة الجود ، والغيث مُتَعَلِّمٌ منه ، فهو يتبعه لذلك .

ولو اتزن له أن يقول : يتلو المعلم المتعلم ، لكان حسناً لمقابلة الفاعل
بالمفعول ، ولكن في الحاذق مزية ، إذ ليس كل معلم حاذقاً .

﴿أَلَمْ يَسْأَلِ الْوَيْلُ الَّذِي رَامَ ثَنَيْنَا فَيُخْبِرْهُ عَنْكَ الْحَدِيدُ الْمِثْلَمُ﴾
أى : ألم يسأل الويل الذى أراد صَرْفَنَا عن وجهنا ، الحديد المِثْلَمَ فيخبره
عنك ، أنه لم يجد فيك مَطْمَعاً ، ولا لَصَرْفَكَ مَوْضِعاً . فكيف يروم الغيث من
كفك وصَرْفَكَ ، ما عجز عنه الحديد ، الذى هو أقدر على ذلك منه .
قال الملل في هذا البيت الفعل الآخر ، الذى هو (فيخبره) . وهذا كقولك :
ضربت وضربنى زيد ، أى ضربت زيدا ، وضربنى زيد .

خفف لدلالة الثانى عليه . وقد أبان سيبويه ذلك وقال : إنه كلام
العرب ، أو أكثر كلامها . يعنى إعمال الثانى . ولو أغمل الأول لقال الحديد
المِثْلَمَ فيخبره ، وهو كقولك : ضربت وضربنى زيدا ، أى ضربت زيدا وضربنى .

— ٨٨ —

وله ايضا :

﴿وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا طَوِيلًا تَقَلَّبَتْ عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كَذِبًا﴾
أى لا صدق أصدق من العيان ، وبه تثبت حقيقة البرهان . فيقول : من
عرف الدنيا علم أن ما يراه عياناً مما يشهده ، لا يلبث أن يزول ، فيعقبه ما يسوءه
فكان ذلك الصدق المدرك بالعيان كذب . و (طويل) هنا : نصب
على الحال ، ولا يكون على الظرف ، لأن طويلاً ونحوه صفة ، وليس بحين يقع
فيه الفعل ، ولذلك اختار سيبويه في قولهم : (سير عليه حسناً وشديداً ونحوهما)
أن يكون أحوالاً لا ظرفاً ، لما قدمنا .

﴿لَعَدَّ لَعِبَ الْبَيْنُ الْمُشْتَبَهًا وَبَيْنَ وَزَوَّدَنِي فِي السَّيْرِ مَا زَوَّدَ الضَّبَّ﴾
يعنى ما زوّد الضبّ العدم ، وإن كان لفظه لفظ الوجود . أى لم يزودنى

شيئاً بقدر ما يشرب الضبُّ من الماء . والضبُّ لا يشرب الماء ألبتة ، إنما يستروح النسيم .

(إذا الدَّوْلَةُ اسْتَكْفَتْ بِهِ فِي مُلْكَةٍ
كَفَاهَا فَكَانَ السَّيْفَ وَالْكَفَّ وَالْقَابَا)
استكفَّت به : أى طلبت الكِفاية . ولو قال استكفَّته فآثرن ،
كان (مثل) قوله : استغفرت الله واستعجلت السير .

(كفهاها فكان السيف والكف والقلب) : أى كان هو الجامع لهذه الثلاثة ،
وذلك أن السيف لا يستغنى عن الكف ، والكف لا يقبض عليه حتى يؤيدها
القلب . وقد قال هو في تحقيق هذا :

وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يُحْمَلِ الْقَلْبُ كَفَهُ عَلَى حَالِهِ ، لَمْ يُحْمَلِ الْكَفُّ سَاعِدُ
(فَبُورِكَتْ مِنْ غَيْثٍ كَأَنَّ جُلُودَنَا بِهِ تُنْبِتُ الدِّيَابَجَ وَالرِّبْطَ وَالْعَصْبَا)

العصب : برود اليمن ، جعله كالغيث وجعل جلودهم كالأرض التى إنما
تنبت بالغيث . فان شئت قلت : كنى بالديابج والربط والعصب عن نعمة
جلودهم وما يملوهم من الخير . وإن شئت قلت : كنى به عما تهب لهم من
الكساء ، وإن شئت قلت : إن الغيث ينبت الرياض ، وجلودنا بنداك تنبت
ما هو أحسن من الرياض : عصباً وديابجاً .

(والكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا)
سورة : حدة وارتفاع : أى إذا ذكر سورة الطعنة لم يصدق أنه نجا
منه فلمس جنبه ، ليعرف هل أصابه الطعن أم لا ؟ كقول أبى نواس :
إذا تفكرت في هوى له لست رأيت هل طار عن جسد
يعنى أنه يهوى ممتناً عزيزاً .

(فَأَضَعَى كَأَنَّ السُّورَ مِنْ فَوْقُ بَدَؤُهُ

إِلَى الْأَرْضِ قَدْ شَقَّ السَّكْوَا كَبَ وَالتُّرْبَا)

(من فوق) : مبنى على الضم لجذف المضاف إليه . وبدؤه : ابتداءه .

أى أن هذا السور فوقه قد شق السكوا كب إلى ما فوقها ، وأسفله قد شق
للترب إلى ما تحته ، كقول السموال بن عاديا يصف حصنا :

رَمَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ إِلَى النِّجْمِ فَرَعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلُ

فكأنه قال من السماء بدؤه إلى الأرض . وإذا كان من السماء إلى الأرض ،

فهو لا محالة من الأرض إلى السماء . وإن كان المبدأ الصحيح إنما هو :
من الأرض .

— ٨٩ —

وله أيضا :

(أَعْيَدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً

أَنْ تَحْسِبَ الشُّجْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ)

أى : أجل نظرك الصادق المصيب ، أن تظن بي حُسن حال ، لما يظهر

لك من شارتي ، وإنما ذلك تجمُّل لا غنى ، فنظرك هذا يُشَبِّه لك الأمر

بمخلاف ما هو به . ويكون النظر ما هنا ظنه الخير فيمن لا خير فيه ؛ والأول

أشبه

(إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالِرَّا حِلُونَ هُمْ)

أى إذا قدروا على إغنائي عن مفارقتهم ، ثم اضطروني إلى فراقهم

(فهم) المخلون بي حقيقة . وإن كنت أنا المخل بهم ، لأن سبب

إخلالي بهم إنما هو سبب إخلالهم بي . إذ لو شاءوا ألا أرحل عنهم لم أرحل .

(وقد قَدَرُوا) : جملة في موضع الحال . وجاز أن يكون حالاً من قوم ، وإن كانوا نكرة ، لأن فيه معنى العموم ، ولولا هذه الواو ، لكان أولى من ذلك أن تكون الجملة في موضع الصفة للنكرة . فأما مع الواو فلا يكون ، لأن الصفة والموصوف كالشيء الواحد . فإذا عطفت الصفة على الموصوف ، فكأنك عطفت بعض الاسم على بعض ، وهذا ما لا يسوغ . وأما الحال فمفصوله من ذى الحال ، فجاز الفصل بينهما لذلك .

(وَشَرُّ مَا قَبِضْتُهُ رَاحَتِي قَنْصٌ شُهْبُ الْبِرَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخْمُ)
 أى : أنا في الشعراء كالْبَازِي في أنواع الطير ، والشعراء غيرى كالرَّخْم ، وبين البازي والرخمة من الفضل ما قد عُلِم . فيقول : إذا تساوت أنا ومن لا تُدْرِكُهُ في أقدار عطايَاك ، فكان له منها مَالِي ، فأىُّ فضل لى عليه ، وإن كنت فاضلاً له ؟ يقول : إما أن تُتَزَنَى على غيرى من الشعراء ، وتُبْقَى عطايَاك لم كما هى ، وإما أن تُبْقَى عطائك لى كما هو ، وتُنزِلَهُم عنه ، ليكونوا دُونِي في النوال ، كما هم دُونِي في المقال .

وَنَخَصَ شُهْبُ الْبِرَاةِ لَأَنهَا أَفْرَهُهُنَّ وَأَقْنَصُهُنَّ . وقد قيل إن البراة كلها شُهْب . فليس إذن على طريق التخصيص ، وإنما هو على حسب الصفة التى البراة بها .

(وَمُهْجَةٍ مُهْجَتِي مِنْ هَمِّ صَاحِبِهَا أَذْرَكَتُهَا بِجَوَادٍ ظَهَرُهُ حَرَمٌ)
 أى : ورُبَّ ذى مهجةٍ طلب منى ما طلبت منه فلم ينلنى ونلتُهُ أنا . بجواد ظهره حَرَمٌ : أى من ركبته ولاذَّ به لم يُنَل ، ولا قُتِل ، كما لا يُقتل اللائذُ بالحرم .

(رِجْلَاهُ فِي الرِّكْضِ رِجْلٌ وَالْيَدَانِ يَدٌ)

وَفِعْلُهُ مَا تُرِيدُ الْكَفُّ وَالْقَدَمُ)

أى : أنه يطفر ، فَتَقَعُ رِجْلَاهُ مَعًا كَأَنَّمَا هَا رِجْلٌ وَاحِدَةٌ . وكذلك
تَمَّ يَدَاهُ ، فَكَأَنَّهُمَا يَدٌ وَاحِدَةٌ . (وفعله ما تريد الكف) إذا خَرَبَتْهُ ، وَالْقَدَمُ
إِذَا رَكَضَتْهُ .

يقول : فهو يُغْنِي فَارِسَهُ أَنْ يَضْرِبَهُ بِسَوْطٍ ، أَوْ يَرَكُضَهُ بِعَقْبِيهِ ؛ لِيَسْتَدِرَّ
بِذَلِكَ جَرِيَّتَهُ ، وَيَسْتَمِرَّ مَشِيَّتَهُ .

— ٩٠ —

وله أيضا :

(أَشْكُو النَّوَى وَلَهُمْ مِنْ عِبْرَتِي عَجَبٌ)

كَذَاكَ كُنْتُ وَمَا أَشْكُو سِوَى الْكِلِّ)

أى : عَجِبُوا مِنْ بَكَائِي وَقَدْ غِيَّبَهَا الْبُعْدُ ، وَكَذَا كَانَ دَمْعِي وَهِيَ
حِينَئِذٍ قَرِيبَةٌ لَا تَغِيَّبُهَا عَنِّي إِلَّا الْكِلُّ . فَكَيْفَ يَعْجَبُونَ مِنْ بَكَائِي الْآنَ .

قوله : (وَمَا أَشْكُو سِوَى الْكِلِّ) : جملة في موضع الحال . كأنه قال :
كَذَلِكَ كَانَتْ عِبْرَتِي وَهَذِهِ الْمَحْبُوبَةُ قَرِيبَةٌ . وَجَمَلُ (سِوَى) هَاهُنَا ، اسْمَاءُ
فَوْضَعَهَا نَصِبًا بِأَشْكُو . وَهُوَ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ : وَمَا أَشْكُو شَيْئًا سِوَى الْكِلِّ .
وَحَسَنَ ذَلِكَ أَنَّهُ فِي مَعْنَى : وَمَا أَشْكُو إِلَّا الْكِلَّ .

(مَا بَالُ كُلِّ قَوَادٍ فِي عَشِيرَتِهَا بِهِ الَّذِي بِي وَمَا بِي غَيْرُ مُنْتَقِلٍ)

أى به من الحب لها مثل ما بى . وَالَّذِي بِي مَعَ ذَلِكَ مُنْتَقِلٌ وَكَانَ الْقِيَاسُ ،
إِذَا كَانَ بِهِمْ مِثْلُ مَا بِي ، أَنْ يَنْتَقِلَ عَنِّي حُبُّهَا .

وقيل معناه : به مثلُ الذي بي . والذي بي ثابت . فالذي بِهِمْ أيضاً
ثابتٌ لا ينتقل . والفؤاد هنا يجوز أن يعنى به الطائفة التى هى موضع الحب ،
أعنى القلب . ويجوز أن يعنى به كل سيد فى عشيرتها ، لأن الفؤاد من أشرف
طوائف الجسم . وهذا كما يسمى الشريف عينا لأن العين أشرف الحواس ،
والطف جوهرأ ، فيكون كقول أبى تمام :

وسَنَى فَمَا يَصْطَادُ غَيْرَ الصَّيْدِ

(مُطَاعَةُ اللَّحْظِ فِي الْأَلْحَاطِ مَالِكَةٌ لِمُقَلَّتَيْهَا عَظِيمُ الْمَلِكِ فِي الْمُقَلِّ)
أى إذا رأت العيون عينها ، ملكت عينها العيون ، فلم تقدر أن
تتعداها إلى غيرها . فكان عينها للعيون مَالِكَةٌ ، بمنعها إياها التصرف ،
والمالك مُطَاعٌ . والألحاط : جمع لحظ . على أنه سمي العين لَحْظًا ، ثم جمعه .
وإلا لم يُسَوِّغْ جمعُ المصدر ، إلا أن تكون العرب قد صرَّحت بجمعه .

ونظير الألحاط قولهم (الأسماع) . إنما سمي موضع السَّمْعِ بالمصدر ، ثم
كُسِرَ . ولو قيل إنه اعتمد اللحظ الذى هو المصدر مختلف الأنواع ثم كسره ،
كما كسرت الحلوم والأشغال ، لكان وجها ، إن كان ثبت عنده له سماع ،
يثبت أن المصدر الذى هو (اللَّحْظُ) يُجْمَعُ .

ولو قال (عظيم الملك) بالكسر ، لكان أشبه بملك ، كما أنه لو قال
(ملكه) لا تزن ذاك ؛ فكان ضم الميم فى (الملك) أشبه بملك ، لأن المعروف
مالكٌ بَيْنَ الْمَلِكِ ، وَمَلِكٌ بَيْنَ الْمَلِكِ . ولكنه لما قال عظيم وكان (الملك) أفخم من
(الملك) (اختار الملك) . وحسن ذلك ، لأن البيت يشتمل بذلك على الملك الذى
هو أعم من الملك بقوله : (مَالِكَةٌ ، وعلى الملك الذى هو أشرف من الملك .
(تشبهُ الخَفَرَاتُ الْآنِسَاتُ بِهَا فِي مَشْيِهَا فَيَنْتَلِنَ الْحَسَنَ بِالْحِيلِ)
الخَفَرَةُ : الْحَيَّةُ . وَالْآنَسَةُ : الْمُتَحَبِّبَةُ . أى كل امرأة حسنة مقصورة عن
حُسْنِهَا ، تشبهُ بها فى مشيتها ، فيغيبُ حسنُ المشى بقصر حُسْنِهَا . فتقال

الحسن بالتحيل . وحسن التشبه بها في المشي ، لأن غير ذلك من أنواع
حسنها لا يُقدَّر على محاكاته .

(وَقَدْ أَرَانِي الشَّبَابُ الرُّوحَ فِي بَدَنِي

وَقَدْ أَرَانِي الْمَشِيبُ الرُّوحَ فِي بَدَلِي)

أى قد كنت فتى يُرِنى شبابى رُوحى فى بَدَنى لا أُوذَنُ بثِقَاتِهِ ،
ولا أَسْتَشِرُ قُرب رحلته ، فلما شَبْتُ أُيقِنْتُ أنى قَرُبْتُ إلى الموت وإلى فراق
الدنيا ، ليعمرها بَدَلِى ؛ أى غيرى . فكان (روحى) قد فارقته حين تيقن
بإقترار المشيب أنه له مُفَارِقٌ . وقد قال هو فى هذا المعنى يصف الدنيا :

تَمَلَّكَهَا الْآتَى تَمَلَّكَ سَالِبٍ وَفَارَقَهَا الْمَاضِ فِرَاقَ سَلِيبٍ
أى كأن الآتى سَلَبَ الْفَتَى رُوحَهُ .

وذكر أن الحسن البصرى مرَّ بمكتب ؛ فبكى فقل له ما يُبْكِيكَ
قال : اعتباري من هؤلاء الصبيان ، كأنهم يقولون : انصرفوا قد بُعِثْنَا
أَبْدَالَكُمْ . إلا أن المتنبي تصور روحه فى غيره والحسن لم يفعل ذلك .

(وَقَدْ طَرَفْتُ فَتَاةَ الْحَيِّ مُرْتَدِيًا بِصَاحِبٍ غَيْرٍ عِزْهَاءٍ وَلَا غَزَلٍ)
الفتاة : أنثى الفتى ، كقولهم : غلامٌ وغُلَامَةٌ ، ورجلٌ وَرَجُلَةٌ .
الطَّرُوقُ : الإتيان ليلاً . وأضاف الفتاة إلى الحى ، تنجيماً لشأنها ، وإشادة
بمكانها ، كقوله :

ولكنَّ قَلْبِي يَابُنَّةَ الْقَوْمِ قُلْبُ

وأراد بالصاحب : السيف لأن الصعلوك لا يفارق سيفه ، فأشعر أنه
مُتَصَعِّنٌ بقوله : إن السيف صاحب له . والعِزْهَاءُ : الماقت لحديث النساء
ومجالسهن . والغَزَلُ : ضده . يقول : طرفت هذه الفتاة مُرْتَدِيًا لسيفي وجعله

لا عِزَّهَاءَ وَلَا غَزَلَ ، لأنَّ الغَزَلَ في طريق القسمة . والعِزَّاهَةُ في طريق
العدم . فيقول : سبني صاحب لا يوصف بعِزَاهَةٍ وَلَا يَغْزَلُ . والجمادُ لا يقبل
قسمة ولا عَدَمًا . فتفهمه فإنه معنى لطيف ، وهو باب من المنطق حسن . ولولا
أنه ليس من غرض هذا الكتاب لَوَدَّته بيانًا . وقد يجب أن أعذَرَ في قولي
(العِزَّاهَةُ) ، لأنه إنما قلته لمكان الغزل ، وإن لم تستعمل العربُ (العِزَّاهَةُ) .
وأقلَّ من هذا العذر يفني مع من عَلِمَ طريقة المنطق .

(والمدحُ لابن أبي الهيثجاء تَنْجِدُهُ بِالْجَاهِلِيَّةِ عَيْنُ الْعِيِّ وَالْخَطَلِ)
كان بعض الشعراء يمدح سيف الدولة ، بذكر أسلافه من أهل الجاهلية ،
فعابه أبو الطيب بذلك ، وقال : إن فيما يشاهدون من أفعاله وفضائله ما يفنى
عن ذكر قدمائه من جدوده وآبائه .

وإعراب البيت يتوجه عندي على وجهين : أوضحهما أن يكون (المدحُ)
مرتفعًا بالابتداء ، و (عين العيِّ والخطَل) : خبره ، أي : مدحه إذا أنجده
بذكر الجاهلية عِيٌّ وَخَطَلٌ . وبالجاهلية ، متعلق (بتنجيده) أي تُقَوِّيه بها ،
ولا يجوز أن يكون متعلقًا بالمدح ، لأنه إذا كان كذلك صار في صلة المصدر ،
وقد حُلَّتَ بينهما بتنجيده ، فلذلك لا يتعلق به .

ويجوز أن يكون المدح مرتفعًا بالابتداء كما قدمنا ، والخبر تنجده . وعين
فاعلة بتنجده . أي مدح هذا الملك بأخبار الجاهلية إنما يمدح المادحُ بها لِعِيَّةٍ
وخطَلِهِ .

(والعُربُ منه مع الكُذْرِي طَائِرَةٌ وَالرُّومُ طَائِرَةٌ مِنْهُ مَعَ الْحَجَلِ)
والعُربُ : لغة في العرب . ونظيره ، العُجم والعجم . والقطا : نوعان
كُذْرِيٌّ وَجُونِيٌّ ، فالكُذْرِي اسم عُمَّهما ، والحَجَلُ : القبيح ، واحدها
حَجَلَةٌ ، وقد يكون واحدها (حِجَلِي) ، فيكون الحَجَلُ اسم الجمع ،

كَانَ هَبَ إِِلَى سَبِيوِيهِ فِى قَوْلِهِ : خَادِمٌ وَخَدَمٌ ، وَعَازِبٌ وَعَزَبٌ . فَالْقَطَا مِنْ طَيُورِ بِلَادِ الْعَرَبِ الْوَحْشِيَّةِ . وَالْحَجَلُ مِنْ طَيْرِ الْجِبَالِ ، وَهِيَ مِنْ مَسَاكِنِ الرُّومِ . فَيَقُولُ : اضْطَرَّ أَهْدَاءَهُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِلَى الْهَرَبِ مِنْهُ وَالتَّوَحُّشِ . فَطَلَقَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْوَحْشِيِّ مِنْ طَيْرِ أَرْضِهِ ، وَصَارَ فِي جَمَلَتِهِ ، حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ إِنْسَانًا ، بِكَوْنِهِ مُخَالِطًا لِلطَّيْرِ . وَلِذَلِكَ قَالَ : (طَائِرُهُ) .

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُنِّيَ بِالطَّيْرَانِ عَنْ شِدَّةِ الْهَرَبِ ، وَإِلَّا فَالْعَرَبُ وَالرُّومُ وَصَائِرُ الْأَجْيَالِ لَا يَتَحَوَّلُونَ طَيْرًا .

وَحَصَّ حُوشِيَّةَ الطَّيْرِ دُونَ سَائِرِ الْوَحْشِ ، لِأَنَّهَا أَمْرَعُ فِي الْهَرَبِ . وَقَوْلُهُ : « مِنْهُ » : أَى مِنْ أَجَلِهِ .

(وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ تَمْشِي النِّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعْلِ)

أَى النِّعَامُ سُهُلِيَّةٌ لَا قُوَّةَ لِحِفَافِهَا عَلَى خَشَوْنَةِ الْجَبَلِ ، وَلَوْ رَكِبَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ النِّعَامَ ، سَهْلٌ عَلَيْهَا مِنْ ذَلِكَ مَا صَعُبَ مِنْ سَعْدِهِ ، وَيُمْنِ نَقِيَّتِهِ ، فَشَتَّ بِهِ فِي مَعَاوِلِ الْأَوْعَالِ ، وَهِيَ ذُرَا الْجِبَالِ ، لِأَنَّ كُلَّ صَعْبٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ .

وَإِنْ شَتَّ قَلْتُ : إِنَّهُ عَنَى بِالنِّعَامِ خَيْلَهُ ، يَقُولُ : يَرْكَبُ أَوْعَرَ الْأَوْعَارِ ؛ فَكَيْفَ يَطْمَعُ الْعَدُوُّ الْمُعْتَصِمُ بِالْجَبَلِ أَنْ يُعِيدَهُ مِنْهُ . وَمَا يُحَسِّنُ أَنَّهُ يَعْنَى بِالنِّعَامِ هُنَا الْخَيْلَ ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمَحْتَمَّةِ النِّعَامِ ، قَوْلُهُ : (وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ) ، يَعْنَى بِالْأَسَدِ سَيْفَ الدَّوْلَةِ ، لَا نَوْعَ الْأَسَدِ الَّذِي هُوَ السَّبُعُ .

فَمِنْ ظَرِيفِ الصَّنْعَةِ أَنْ يُوَفَّقَ بَيْنَ آخِرِ الْبَيْتِ وَأَوَّلِهِ ، فَلَا يَعْنَى بِالنِّعَامِ ، النَّوْعَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ النِّعَامُ ، كَمَا لَمْ يَعْنِ بِالْأَسَدِ الشَّخْصَ الَّذِي يُسَمَّى أَسَدًا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

(وَرَدَّ بَعْضُ الْقَنَا بَعْضًا مُقَارَعَةً كَأَنَّهُ مِنْ نُفُوسِ الْقَوْمِ فِي جَدَلٍ)
 أى ضاق المَعْتَرَكُ ، وَتَحَيَّرَ الْمُلتَقَى ، حَتَّى رَدَّ بَعْضُ الْقَنَا بَعْضًا وَتَقَارَعَتَا ،
 فَكَانَ رَدُّ بَعْضِهَا لِبَعْضِ تَقَارَعًا ، وَإِذَا كَانَ قِرَاعٌ ، كَانَ صَوْتُ ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ
 الصَّوْتَ الَّذِي حَدَثَ عَنِ التَّقَارُعِ تَحَاذَلٌ . وَذَلِكَ الْقِرَاعُ وَالْجِدَالُ كَأَنَّهُمَا مُنَافَسَةٌ
 فِي النُّفُوسِ ، كَمَا يَتَنَافَسُ الْمُتَجَادِلُونَ فِي الظُّفْرِ ، فَيَرُدُّ بَعْضُهُمْ قَوْلَ بَعْضٍ . وَأَرَادَ
 كَأَنَّهُمَا مِمَّنْ يَحَاوِلُ الظُّفْرَ بِالْأَنَافِسِ ، فَخَذَفَ ، لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ مَا يَعْنِي .

- ٩١ -

وله أيضا :

(وَأَشْنَبَ مَعْسُولِ الثَّنِيَّاتِ وَاضِحٍ سَتَرْتُ فَمِي عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرِقِي)
 يَذْهَبُ إِلَى إِثَارِ الْجَلَالَةِ عَلَى اللَّذَازَةِ ، وَيَدْعِي ذَلِكَ اتِّسَامِيَّةً ، حَتَّى إِذَا
 يَصْحَبُهُ فِي خَلْوَتِهِ ، وَحِينَ الظُّفْرِ بِمَحَبُوبَتِهِ . وَالصَّبْرُ عِنْدَ ذَلِكَ أَدْلُ عَلَى مَانِكِهِ
 لِإِزْبِهِ .

قال : فَرَبُّ حَبِيبٍ مِثْلِكَ حُسْنًا وَدَلَالًا زَارَنِي ، فَحَاوَلَ تَقْبِيلَ فَمِي ،
 فَسَتَرْتُ فَمِي عَنْهُ ، لِأَنَّهُ مَوْضِعُ اللَّذَازَةِ ، وَاللَّذَازَةُ لَا أُوتِرُهَا ، وَبَذَلَتْ لَهُ تَقْبِيلَ
 مَفْرِقِي ، لِأَنَّهُ مَوْضِعُ الْجَلَالَةِ الَّتِي أُوتِرُهَا .

وهذا كَقَوْلِ الْآخَرِ ، إِلَّا أَنَّهُ بِلَا كَسٍّ ، وَمَنْعُهُ مَحَبُوبَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، مَا مَنَعَ
 الْمُتَنَبِّيَ مِنْ نَفْسِهِ حَبِيبَهُ :

حَاوَلَتْ مِنْهَا قُبْلَةً فَتَعَمَّدَتْ بِمَقَارِبِ الْأَصْدَاغِ قَطَعَ طَرِيقَهَا
 (وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى بَعِيفًا إِذَا خَلَا عَنَافِي وَيُرْضَى الْحَبِّ وَالْخَلِيلُ نَائِتِي)

وَيُرْوَى (وَيُرْعَى الْحَبُّ) . فَمَنْ رَوَاهُ « يُرْضَى » فَإِنْ مِنْ شَأْنِ نِسَاءِ
 الْعَرَبِ أَنَّ يُحِبِّبْنَ مِنْ مُحِبِّبِيهِنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْإِقْدَامَ ، كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ :

يَقْتَنُ جِيَادَنَا وَيَقْلُنَ لَسْتُمْ بِمُؤَلَّتِنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

فيقول : أنا أعف كرماً ، وأرضي محبوبي في الحرب ، بشاهدته مني ، ما يهواه مني ، أو بإخباره ذلك عني . وليس كل أحد من العشاق يجمع عفة وشجاعة ، إذ العشق والعفة والفنك غريزة الاجتماع .

ومن رواه (ويرعى الحب) فهو يقول : أنا أعف كرماً لا فتوراً في هواي ، بل أنا مُراعٍ المحبوب ، حتى إنني أذكره في الحرب ، وأراعيه أوان الشدة . فكيف في حال السكون والهدوء .

وفي (رعى الهوى) هنالك مَرِيتَان : إحداها رباطة الجأش ، حتى لا يُشغَلَ الخاطر عن ذكر الهوى . والآخر لشدة محافظته على الوفاء ، حتى لا يشغله عنه شدة الهيجاء كقول زياد الأعجم :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيءُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ مِنْهُ الْمُنَقَّةَ السُّمُرُ

وقوله : (والخليل تلتقي) ؛ جملة في موضع الحال . أي ويرعى الحب محارباً .

(إِذَا مَا لَبِسْتَ الدَّهْرَ مُسْتَمْتَعاً بِهِ تَخَرَّقْتَ وَالْمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ)

لبس الدهر ملبوساً ، وإنما هي استعارة . يقول : إذا لبست الدهر ملياً أهرمني ، وهو لا يهرمه امتداد برهته ، فجرى الأمر بيني وبينه بضد ما يجري بين اللابس والملبوس ، لأن شأن اللابس أن يُخلَقَ الملبوس ، والدهر ملبوسٌ يُخلَقُ لابسَه . ولما استجاز أن يجعله ملبوساً ، استعار له التخرُّق .

(إِذَا سَعَتِ الْأَعْدَاءُ فِي كَيْدٍ مَجِيدٍ سَعَى جَدُّهُ فِي كَيْدِهِمْ سَعَى مُخْنَقِ)

حنق حنقاً : غضب ، واحتنقته : أي إذا رام العدو كيد مجده ، فحاول

هَدَمَهُ بِمَبَارَزَتِهِ أَوْ مَقَاوِمَتِهِ ، غَضِبَ جَدُّهُ ، فَدَفَعَ سَعَى عِدَائِهِ بِسَعَى أَنْفٍ وَأَيْدٍ ،
عَلَى مَا تَقْدِمُ قَبْلُ .

(كَيْدُ الْعَدُوِّ لِمَجْدِهِ) . (وَكَيْدٌ) : مُصْدَرٌ كَادَ يَكِيدُ الْمُتَعَدِّيَةُ : كَقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴾ . فَمَجْدُهُ ، مَجْرُورٌ فِي مَوْضِعِ
نَصْبٍ . أَيْ فِي كَيْدِهِ لِمَجْدِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْمَصْدَرَ يُضَافُ إِلَى الْمَفْعُولِ ، كَمَا
يُضَافُ إِلَى الْفَاعِلِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ ،
فَالْخَيْرُ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ ، أَيْ مِنْ دُعَائِهِ الْخَيْرَ .

— ٩٢ —

وله أيضا :

(يَشْكُو الْمَلَامُ إِلَى اللُّوَائِمِ حَرَّهُ وَبَصْدُ حِينَ يَلْمُنَ عَنْ بُرْحَانِهِ)
أَيْ إِنْ الْمَلَامَةُ لَا تَتَعَدَّى سَمْعِي ، وَلَا تَصِلُ إِلَى قَوَادِي ، لِأَنَّ حَرَّهُ يَمْنَعُهَا
مِنْ ذَلِكَ ، فَهِيَ تَتَفَادَى مِنْهُ . وَيَعْتَذِرُ إِلَى اللُّوَائِمِ مِنْ قُصُورِهِ عَنِ الْوَصْلِ إِلَيْهِ ،
بِمَا يَتَوَقَّعُهُ مِنْ نَارِيَّتِهِ . وَالْكَلَامُ شِعْرِيٌّ لَا حَقِيقَةٌ ، لِأَنَّ الْمَلَامَ عَرَضٌ ،
وَالْعَرَضُ غَيْرُ حَاسٍّ فَيَشْكُو . وَإِنَّمَا تَشْكُو الْجَوَاهِرُ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ الْعَرَضِ .
وَشَبَّهَ أَبُو الْفَتْحِ هَذَا بِقَوْلِ كَثِيرٍ :

ذَهَبٌ لِإِعْتَاقِ الْمِثْنِ عَطَاؤُهُ غُلُوبٌ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُ
(وَيَصْدُ حِينَ يَلْمُنَ عَنْ بُرْحَانِهِ)

مثل ما تقدم والبرحاء : الشدة .

(مَا الْخِلُّ إِلَّا مَنْ أَوْدُ بِقَلْبِهِ وَأَرَى بِطَرْفٍ لَا أَرَى بِسَوَائِهِ)
أَيْ مَا الْخِلُّ إِلَّا مَنْ يَكُونُ حَظِيٌّ مِنْ قَلْبِهِ ، حَظٌّ مِنْ قَلْبِي ، وَيَرَى بِالْمَعِينِ
الَّتِي أَرَاهُ بِهَا ، فَيَقَعُ التَّكَافُؤُ فِي الْحُبِّ وَالْجَلَالَةِ ، لَا مَنْ حَظِيٌّ مِنْ قَوَادِيهِ مُقَصَّرٌ
عَنْ حَظِّهِ مِنْ قَوَادِي ، وَتَعْظِيمِهِ لِي دُونَ تَعْظِيمِي لَهُ .

وقد يجوز أن يعنى بذلك التناهى فى التشاكل والتناسب ؛ حتى كأنه هو
جملة . وإذا كن هو إليه بالجملة ، فقلبه قلب خليله ، وعينه عينه .

(عَجِبَ الْوُشَاةُ مِنَ الْأَحَاةِ وَقَوْلِهِمْ دَعِ مَانَزَاكَ ضَعُفْتَ عَنْ إِخْفَائِهِ)
إنما عَجِبَ الْوُشَاةُ مِنَ الْأَحَاةِ فى ذلك ، لأنهم كلّفوه ترك ما يعجز عن
إخفائه ، والإخفاء للحُبِّ أمكن من تركه . فإذا ضعف عن الأقل الذى
هو الإخفاء ؛ وقد علم الأحاة ذلك منه ، فكيف يكلفونه الأكثر الذى هو
الثّوان .

وقوله : « ضَعُفْتَ عَنْ إِخْفَائِهِ » : جملة فى موضع المفعول الثانى ، إن كانت
الرؤية علمية ، أو فى موضع الحال إن كانت الرؤية حسّية .

(مَهْلًا فَإِنَّ الْعَذْلَ مِنْ أَسْقَامِهِ وَتَرَفُّقًا فَالسَّمْعُ مِنْ أَعْضَائِهِ)
أى إن العذل يُسَقِّمُهُ كما يُسَقِّمُهُ الحب ، فهو نوع من إسقامه ، وتَرَفُّقًا فى
عَذْلِكَ ، فإن السمع الذى يقرعه عَذْلُكَ من جملة أَعْضَائِهِ . فإن عَنُفْتَ به فى
المذل ، اختل سمعه أو ذهب .

ولإنما قَدَرَ ذَلِكَ نَافِعًا لَهُ عِنْدَ مَنْ عَذَلَهُ ، لأن العاذل لم يُرد بعذله إفسادَ
جَوْهَرِهِ ، وإنما أراد إصلاحه . فيقول : إن لم تترفق ، عاد ما حاولته من
إصلاحى إفساداً إلى .

والسمع : يجوز أن يكون مصدرًا ، إلا أنه إذا كان مصدرًا ، فليس من
أَعْضَائِهِ . لأنه حينئذ جنس ، والجنس عَرَضٌ ، والأعضاء جواهر ، والعَرَضُ
لا يكون جزءاً للجوهر . وإنما عَنَى موضع السمع من أَعْضَائِهِ .

وقد يجوز أن يكون السمعُ اسماً للأذن ، سُمِّيَ لِجِسْمِهَا ، كما سُمِّيَتِ الْعَيْنُ
بَصَرًا فى بعض المواضع . وإنما البصرُ فى أكثر الكلام جِسٌّ .

(وَهَبِ الْمَلَامَةَ فِي اللَّذَازَةِ كَالْكَرَى مَطْرُودَةً بِسُهَادِهِ وَبُكَائِهِ)
أى إن كنت تلتذُّ باللامه ، فاجعلها كالكرى الذى قد عديمته أنا ،
على التذاذى به . فكما فناء عني سهادى وبكائى ؛ فكذلك ينبغي لك أيها
اللائم أن يسلك عن كلامى الذى تلتذُّ به ما تراه من سُهادى وبكائى ، فيعودا
سواء فى امتناع الالتذاذ . ودعاه إلى الانتشاء به فى الصبر على عدم
ما يُلْتَذُّ به .

« وَمَطْرُودَةٌ » : مفعول ثانٍ لِهَبَ ، لأنها بمعنى (اجْعَلْ) المعتدية إلى
مفعولين . وإن شئت قلت : إنه بدل من موضع « كَالْكَرَى » لأنه بمنزلة
قولك مثل الكرى . وهذا القول أقوى .

(إِنَّ الْمُعِينَ عَلَى الصَّبَابَةِ بِالْأَسَى أُولَى بِرَحْمَةِ رَبِّهَا وَإِخَائِهِ)
أى مُعِينِ عَلَى الصَّبَابَةِ : مَنْ أَعَانَ بِالْمُؤَاَسَاةِ لَا بِالْمَلَامِ . فَإِنَّ رَاحِمَ ذَى
الصَّبَابَةِ مُؤَاسِيهِ بِالْعَذْرِ ، لَا لِأَمِّهِ .

(وَالْعِشْقُ كَالْعَشُوقِ يَعْذُبُ قُرْبُهُ لِلْمُبْتَلَى وَيَنَالُ مِنْ حَوْبَاءِهِ)
أى العشق مُلْتَمِدٌ مَحْبُوبٌ ، كما أن العشوق كذلك . وكلاهما نائل من
حَوْبَاءِ الْمُبْتَلَى وَقَاتِلٌ لَهُ . وقوله : « وَالْعِشْقُ كَالْعَشُوقِ » : جملة يفسرها
ما بعدها من البيت . كأنه لما قال : والعشق كالعشوق ، قيل له فيه ، أو كيف
تفسره للسائل ، فتقديره : والعشق كالعشوق فى أنها يَعْذُبَانِ وَيَقْتَلَانِ
مع ذلك .

(وَقُسِ الْأَمِيرُ هَوَى الْعُيُونِ فَإِنَّهُ مَا لَا يَزُولُ بِيَأْسِهِ وَسَخَائِهِ)
أى وقى هوى العيون . وأما ما سواه فقد آمنتُه عليه ، لأنه دافعٌ له
بِيَأْسِهِ وَسَخَائِهِ . وهوى العيون ما لا ينفع فيه بأس ولا سخاء ، وإنما أدعو له أن
يُوقَى ما لا طاقة لجوده وبأسه على دفعه .

(مَنْ لِلسُّيُوفِ بَأَن تَكُونَ سَمِيحًا فِي أَصْلِهِ وَفِرْنْدِهِ وَوَفَائِهِ)
أى بَأَن تَكُونَ مِثْل سَمِيحًا فِي أَصْلِهِ ، إِمَّا أَنْ يَرِيدَ : فِي نَوْعِهِ الَّذِي هُوَ
الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَإِمَّا فِي قَبِيلِهِ ، وَفِرْنْدِهِ ؛ أَوْ فِي صُورَتِهِ ، لِأَنَّ صُورَةَ الْإِنْسَانِ أَحْسَنَ
مِنْ صُورَةِ السُّيُوفِ ، وَرُوثُهُ أَفْضَلُ مِنْ رُوثِهِ . وَأَمَّا وَفَاؤُهُ فَلَا وَفَاءَ لِلسُّيُوفِ .
وَلَا عُنْرٌ إِلَّا عَلَى الْمَجَازِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ خَوَاصِّ الْإِنْسَانِ .

(إِنِّي دَعَوْتُكَ لِلنَّوَائِبِ دَعْوَةً لَمْ يَدْعُ سَامِعُهَا إِلَى أَكْفَائِهِ)
أى : دَعَوْتُكَ لِنَحْطَبِ لَيْسَ كُفُؤًا لَكَ ، لِأَنَّ كُلَّ خَطْبٍ دُونَكَ ،
لَا يَعْزُكَ وَلَا يَغْلِبُكَ .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : كُلُّ نَائِبَةٍ وَإِنْ عَظُمَتْ فَهِيَ دُونَ أَنْ يَدْعَى مِثْلَكَ
إِلَيْهَا ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْعَى مِنَ النَّوَائِبِ إِلَّا إِلَى مَا أَنْتَ لَهُ كُفُوءٌ ، مَا وَجَدْنَا
مَا يَكُونُ كُفُؤًا لَكَ ، فَتَدْعُوكَ إِلَيْهِ ، لَكِنْ لَا بَدَّ أَنْ تَدْعُوكَ لِمَا نَابَ ، وَإِنْ جَلَّ
عَنْهُ خَطَرُكَ ، وَعَلَا قَدْرُكَ .

— ٩٣ —

وله ايضا :

(كَأَنِّي عَصْتُ مُقْلَتِي فِيكُمْ وَكَأَمَتِ الْقَلْبَ مَا تُبْصِرُ)
هَذِهِ مِبَالِغَةٌ فِي كِتْمَانِ السَّرِّ وَالضَّنِّ بِإِذَاعَتِهِ ، أَيْ رَأَتْ عَيْنِي مَا رَأَتْ ،
فَكِتْمَتُهُ عَنْ قَلْبِي . وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ ؛ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَعْلَمْ غَيْرُهُ بِهِ ،
إِذَا لَا يُمْكِنْ أَنْ يَعْلَمْ غَيْرُكَ إِلَّا مَا عَلِمْتَهُ .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : إِذَا رَأَتْ عَيْنِي مَا تَحْبِثُونَ كِتْمَهُ ، تَنَاسَاهُ قَلْبِي ، حَتَّى
كَانَ الْعَيْنُ كِتْمَتَهُ مَا رَأَتْ . وَالْمَقُولَانِ مُتَقَارِبَانِ .

وَقَوْلُهُ (فِيكُمْ) : أَيْ مِنْ أَجْلِكُمْ . وَعَصِيَانِ الْمَقْلَةَ لِلْفُؤَادِ : إِنَّمَا هُوَ كِتْمَتُهَا

عنه ما رآته ، فكأنه قال : كأنى عصت مقلتي فيكم قلبى ، وكأتمته ما تبصر .
لخذف الأول لدلالة الثانى عليه ، وأعمل (كَأَمَت) . إذ لو أعمل الأول واتزن
لقال : وكأتمته القلب . أى عصت مقلتي القلب وكأتمته .

— ٩٤ —

وله ايضا :

(إِذَا كَانَ شَمُّ الرِّيحِ أَذْنِي إِلَيْكُمْ فَلَا بَرِحَتْنِي رَوْضَةٌ وَقَبُولٌ)
أى إن كنتم إنما تؤثرون شَمَّ الرِّيحِ ، ونسيم الهواء . وذلك إنما
يكون بحضور الروض والريح القبول ، فلا زلت أنا روضة فتضمكم ، وريحاً
قبولاً تشمونها ، تَلَذُّ لَكُمْ ، إذ كلما كنتُ كذلك ، فأنتم قريبٌ منى ،
وطالبون إلى .

وقوله : (أَدْنَى إِلَيْكُمْ) : أى أشد إِدْناء لمن يُحِبُّكُمْ . وقوله : (فَلَا بَرِحَتْنِي
روضَةٌ وَقَبُولٌ) : ان شئت قلت : أراد فلا برحتُ روضة وقبولاً ، فعكس ،
فجعل المعرفة الخبر ، وهى (نِي) والنكرة الاسم ، وهى (روضة وقَبُولٌ) .
وإن شئت قلت : إن (نِي) من (بَرِحَتْنِي) ليست بخبر ، ولا بِرِيح هذه
المقتضية للاسم والخبر . وإنما (بَرِحَ) هنا المتعدية إلى المفعول : كقوله تعالى :
﴿ قَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ فيكون (نِي) على هذا
مفعولاً ، ويكون التقدير : فلا فارقتنى ، أو فلا زابلتنى روضة .

أى فإذا كان ذلك ، قصدتم هذه الروضة التى عندى ، فسعدت أنا بقر بكم .
والأول أبلغ ، لأنه على ذلك القول الأول ، يجعل نفسه ذات الروضة ؛ ويتمنى
الخروج من النوع الحيوانى الإنسانى إلى النوع النباتى ، إيثاراً لهواهم ، واختياراً
لقر بكم .

(لَهِيتُ بِدَرْبِ الْقَلَّةِ الْفَجْرَ لَقِيَّةً شَفَّتْ كَمْدِي وَاللَّيْلُ فِيهِ قَتِيلُ)
أى أصبحت فى هذا الموضع ، أو أفجرت فيه . « شفت كمدى » .
أى شفت اللقبة للفجر بانحسار الليل ، ما كان من الكمد . (والليل فيه قتيل) :
أى قد ذهب ، واشتمل ضده على مَحَلِّه ، فكان الليل لما عُدِم أو قارب العدم
مقتول .

وإن شئت قلت : طال على الليل بالصباية ، فكانه وتَرَنَّى ، فاستوجب
بذلك أن أطلبه بثأرى : فأوقد سيف الدولة بالدرب نيراناً ، فخالط ضوءها
دخانها ، فبدت لى من الضوء المختلط بالدخان ، سُمرة كسرة الفجر ، قبل أوان
التجر ، فكان هذا الملك قد قتل الليل بإيقاده هذه النيران ، التى خلخلت
كثافة الظلمة ، فأنا أكنى بذلك عن ثأرى ، فيُشْفَى كمدى .

وقيل : الفجر هنا سيف الدولة ، أقام غُرَّتَه مقام الفجر ، وبالع فى ذلك ،
حتى جعله قاتلاً لليل ، وما طُلب عند ليل دَخل ، ولا نيل منه ثأر قبل هذا .
(عَلَى طُرُقِ فِيهَا عَلَى الطُّرُقِ رَفْعَةٌ وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْأَنْبَسِ خُمُولُ)
رَفَعْتُهَا : أنها أكمَّ وجبال ، وخمولها : أنها غير مسلوكة لوعورتها ،
فهى لذلك خاملة . وقد يجوز أن تكون طرقاً لم يسلكها إلا جيش سيف
الدولة ، لأنها مخوفة فالناس لا يعرفونها لذلك .

(وَمَا شَعَرُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً قَبَاحًا وَأَمَّا خَلْقُهَا فَجَمِيلُ)
أى قباح الأفعال بهم ، وإن كانت فى خِلْقَتها جميلة ، لأن خوفهم لها يُقَبِّحُهَا
فى أعينهم ، فيخفى عليهم جمالها . وهذا نحو قوله :

حَسَنٌ فِي عَيُونِ أَعْدَائِهِ أَقْبَحُ مِنْ ضَيْفِهِ رَأَتْهُ السَّوَامُ
فالحسن فيه طبيعة ؛ والقبح عَرَضُ .

(وَأَضْعَفْنَ مَا كُتِفْنَهُ مِنْ قُبَاقِبٍ فَأَضْحَى كَأَنَّ الْمَاءَ فِيهِ عَلِيلٌ)
 قُبَاقِبٌ : نهرٌ دهمته هذه الخيل ، فدَّت مجارى الماء فيه ، بكثرة قوائمه ،
 فارتدع الماء ، إلا ما تحلل شُعب قوائم الخيل ، فأضعفته عن قوة جريه ، حتى
 كأنه عليل . والعلّة هنا كناية عن الضعف ، إنما العلّة في الحيوان ، والماء
 ليس بحى .

(نَجَوْتُ بِإِحْدَى مُهْجَتَيْكَ جَرِيحَةً وَخَلَفْتُ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلٌ)
 مخاطب الدُّمُسْتَقْ ، وكان شُجَّ في وجهه ونجا جريحاً ، فهذا معنى قوله :
 (نجوت بإحدى مهجتيك جريحة) . وكان ابنه قد أُبِر ، فذلك قال :
 (وخلفت إحدى مهجتيك تسيلٌ) ، أى تركته ينوب في الكبل والحبس ،
 مع ما اشتمل عليه من خشية القتل :

(إِذَا لَمْ تَكُنْ لَلِثِ إِلَّا فَرِيَسَةً غَذَاهُ وَلَمْ يَنْفَعَكَ أَنَّكَ فِيلٌ)

ضرب (الفيل) مثلاً لعظم عدد الروم ، وضرب (الليث) مثلاً لسيف
 الدولة وجيشه ، أى فلا تُعْجِبَنَّ الروم كثرة عددهم ، فإن الكمية لا تغنى ، وإنما
 الغناء للكيفية . وقال : (غذاه) : أراد غذاهُ ذلك الشخص المفترس .

(أَعَادَى عَلَى مَا يُوجِبُ الْحُبَّ لِلْفَتَى وَأَهْدَأُ وَالْأَفْكَارُ فِي تَجُولٍ)
 أى أَعَادَى على ما لى من الفضائل النفسانية ، كشجاعة والفروسية ،
 والفصاحة والشعر ، حسداً لى على ذلك . وكل واحدة من هذه الفضائل فى حد
 الحقيقة ، مُوجِبَةٌ للحب ، فكيف أُشْنَأُ على ما يُوجب الحب ؟ يقول ذلك
 متعجباً .

قال أبو الفتح : لو قال (أَبْغَضَ) مكان (أَعَادَى) كان أوفق فى مذهب
 الشعر ، يعنى أبو الفتح : أنه لو قال ذلك ، كان أذهب فى باب التماثل ، لأن

التقيض إنما يقابل بتقيضه ؛ وكذلك الضد بضده . فضع الحب البغض . وضد
العداوة الصداقة . فإذا قابلت العداوة بالحب ، والصداقة بالشئان ، لم يك
ذلك على قابل الضد والتقيض .

لكن الذى يُسهّل ذلك ، أن العداوة علمتها البغضة ، التى هى ضد
الحب ، فأقام العلة التى هى العداوة ، مقام المعلوم ، الذى هو البغض . ولولا
ما يدخل التخفيف البدل من الاضطرار ، لقال : فأشنى ، أو (أشن) على
اجتماع الجزم ، ولكن ، الأول أسوغ أعنى وضع (أعادى) مكان
(أبغض) لما ذكرت لك ، من دلالة العلة على المعلوم .

- ٩٥ -

وله ايضا :

(تَرَى الْأَهْلَةَ وَجْهًا عَمَّ نَائِلُهُ فَمَا يُنْخَصُّ بِهِ مِنْ دُونِهَا الْبَشَرُ)
أى أنه يكسب الأهله بنظرها إلى غرته نوراً وسعداً ، فتنال بذلك من
جوده كما ينال الناس . فالْبَشَرُ إذن نوع غير مخصوص بنائله بل هو عام للعالم
الْعُلُوِّ وَالسُّفْلَى .

- ٩٦ -

وله ايضا :

(وَشَرِبَ كَأْسٍ أَكْثَرَتْ رَيْنَهُ وَأَبْدَلَتْ غِنَاءَهُ أَيْنِسَهُ)
الشرب : اسم للجمع عند سيبويه ، وهو عند أبى الحسن جمع . ويدل
على صحة قول سيبويه : إن العرب إذا حقرت هذا النحو حقرت بوزنه ، كما
تحقر الواحد ، فقالوا : شَرِبَ وَرُكِبَ . فلو كان جمعاً كما ذهب إليه
أبو الحسن ، لَرُدّه إلى واحده فى التحقير ، ثم جمع بالواو والنون ، فقبل :
رُوْنِكِبُونِ وَرُوْنَجَلُونِ . وإنما كلام العرب ما قدمنا .

أُشْدْنَا الْقَرْشَى :

بَنِيْتَهُ بِمُصْبَةٍ مِنْ مَالِيَا أَخْشَى رُكْبَانًا وَرُجَيْلًا عَادِيَا
وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنْ مَعْنَى الْبَيْتِ : أَنْ هَذَا الشَّرْبُ — وَهُمْ أَعْدَاءُ الْمَدُوحِ —
غَنُّوا بِمَنَاقِبِهِ ، حَتَّى إِذَا سَكَرُوا هَاجَ لَهُمُ السَّكْرُ ذِكْرٌ مِنْ سَبَا مِنْهُمْ وَقَتْلٌ ،
أَيُّوَا ، وَعَادَ ذَلِكَ الْغَنَاءُ أُنَيْنًا وَتَقْجَمًا .

وَالَّذِى عِنْدِى أَنْ هُوَ لَاءُ الشَّرْبِ غَنُّوَا ، فَأَتَخَنَ فِيهِمْ هَذَا الْمَلِكُ وَأَوْجَعَهُمْ ،
فَعَادَ ذَلِكَ الْغَنَاءُ رَنِينًا وَأُنَيْنًا . وَقَوْلُهُ : (أَكْثَرَتْ) وَ (أَبْدَلَتْ) : إِخْبَارٌ
عَنِ الْخَيْلِ وَالْقَنَا اللَّتَيْنِ فِي قَوْلِهِ :

(إِنَّ الْجِيَادَ وَالْقَنَا يَكْفِيْنَهُ)

- ٩٧ -

وَلَهُ أَيْضًا :

(فَأَنِّى رَأَيْتُ الْبَحْرَ يَعْثُرُ بِالْفَتَى وَهَذَا الَّذِى يَأْتِى الْفَتَى مُتَعَمِّدًا)

أَيْ أَنْ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَوْلَى بِأَنْ يَرْجَى وَيَخْشَى مِنَ الْبَحْرِ ، لِأَنَّ الْبَحْرَ وَإِنْ
أُرْوِى وَأَعْطَى ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَمْدٍ وَلَا قَصْدٍ ، لِأَنَّهُ لَا رُوحَ لَهُ وَلَا
قُوَاد ، فَلَيْسَ إِذْنُ مُحَمَّدٍ عَلَى مَكْرَمَاتِهِ وَلَا ذَمِيمٌ لَأَفَاتِهِ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ هُوَ :

أَلَا لَا أَرِى الْأَحْدَاثَ حَمْدًا وَلَا ذَمًّا فَمَا بَطَّشَهَا جَهْلًا وَلَا كَفَّهَا حِلْمًا

وَأَمَّا سَيْفُ الدَّوْلَةِ فَهُوَ لِكُلِّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ إِفَاقَةٍ وَإِغْنَاءٍ وَإِمَانَةٍ وَإِحْيَاءٍ ،
عَامِدٌ قَاصِدٌ ، لِأَنَّهُ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، الَّذِى هُوَ أَشْرَفُ الْحَيَوَانِ .

(وَتُحْيِى لَهُ الْمَالَ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِى التَّبَسُّمُ وَالْجَدَا)

أَيْ أَنَّهُ يَغْيِرُ فَيَغْنَمُ بِسَيْفِهِ وَرِمَاحِهِ ، فَهِيَ تَحْيِى لَهُ الْمَالَ . ثُمَّ يَهْبِى عُفَاتَهُ ،

ما يسلبه عُدَّاته ، وذلك في حال تبسُّم وأريحية للعطاء ، فذلك التبسم هو الذى يقتل للمال الذى أحيته الأسنة والصوارم ، كقول أبى تمام :

إذا ما أغاروا واحتَمَّوا مَالَ معشَرٍ أَغَارَتْ عليه فَاحْتَمَتْهُ الصَّنَائِعُ
وذكر التبسم والجَدَّاء هنا كقول كثير :

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا . غَلِقَتْ لِضِحْكِهِ رِقَابُ الْمَالِ

ولو قال (يميت) مكان (يقتل) لكان أشدَّ مقابلة للحياة ، لأن القتل ليس بضدِّ الحياة إنما هو علة ضدَّ الحياة في بعض الأوقات .

وتقيض الحياة إنما هو الموت . ومقابلة الشيء بنقيضه أذهب في الصناعة .

و (التبسم والجدا) : مرتبطان بيقتل ، أى ويقتل التبسم والجدا ما تحييه الصوارم والقنا . فنى تحيى ضمير راجع إلى القنا والصوارم ، أى ماتحى هى .

(هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدًا)

إنما ذكر فضل يوم الأضحى وجعله سيد نوعه . ثم مثَّل به فضل سيف الدولة على جميع نوعه . وذلك فى البيتين اللذين قبل هذا البيت . ثم عجب من تفاضل الأشخاص الواقعة تحت نوع واحد ، على أن عنصر هذا واحد .
قَالَ : (هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا) فبالغ بالعجب من العين التى تفضل صاحبها على اقترابها وشدة اقترابها . وبالعجب من الأيام التى تتفاضل بما يحدث فيها من السراء والضراء وضروب الممالك والمناسك .

(أَجِزْنِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدِّدًا)

أَجِزْنِي : أى أعطنى الجائزة إذا مدحك غيرى ، فإن الشعراء إنما يأخذون معانى شعرى ، فيمدحونك بها ، فاذن إنما المستحق بمجائزك أنا لا هم . إذ لولا شعري لم يهتدوا إلى ما يمدحونك به . فكلما أحسنوا فإنما الإحسان لى كقول الآخر:

فَإِنْ أَنْشَدَ حَمَادٌ قَدَّ أَحْسَنَ بَشَارُ
أَيُّ إِنْ حَمَادًا إِنَّمَا يَأْخُذُ شَعْرَ بَشَارٍ . فَلِإِحْسَانِ لَهُ ، وَالْإِنْشَادِ لِحَمَادٍ .

- ٩٨ -

وله أيضا :

(ثِيَابُ كَرِيمٍ مَا يَصُونُ حِسَانَهَا
إِذَا نُشِرَتْ . كَانَ الْهَبَاتُ صَوَانَهَا)
يعنى ثيابا رومية كساه إياها ، (كان الهبات صوانها) أى أنه لا يصونها
إنما يبتذلها بالهبة . فالهبة هى التى تكون لها مقام الصوان إذ لا صوان لها عنده
وإذا لم يصن حسانها كان أحجى ألا يصون دونها .

(تُرِينَا صَنَاعُ الرُّومِ فِيهَا مُلُوكُهَا وَتَجْلُو عَلَيْنَا نَفْسَهَا وَقِيَانَهَا)

يعنى ما فيها من التصاوير الرومية .

(وَلَمْ يَكْفِهَا تَصْوِيرُهَا الْخَلِيلَ وَحَدَهَا فَصَوَّرَتْ الْأَشْيَاءَ إِلَّا زَمَانَهَا)
أى صورت الأنواع الحيوانية إلا الزمان ، فانها لم تصوره امجزها عن ذلك
وذلك أن الزمان هنا إما أن يعنى به الفلك ، ولا أحد يستطيع تصويره على
حقيقته التى هو بها ؛ وإما أن يكون الزمان هنا وجود النور وعدمه وذلك
عرض والعرض لا يتصور إلا فى جوهره الذى هو منه .

(وَأُمُّ عَتِيقٍ خَالَهُ دُونَ عَمِّهِ رَأَى خَلْقَهَا مِنْ أَعْجَبَتُهُ قَعَانَهَا)

وأم عتيق : يعنى فرسًا . وعتيقها : مهرها ، والعتق : الكرم . وجعل لها
خالاً وعمًا ، يذهب إلى أن هذه الفرس ذات طرفين كريمين ، مختلفين
بالنسب ، لأن ذلك مما يستحب فى الخيل أعنى ألا يكون الأبوان متناسبين .

وقد يستحب ذلك في الإنسان ، لأنهم يزعمون أن الأبوين إذا كانا متناسبين جاء الولد هناوياً ، أي مهزولاً ، دقيق العظم (ابن السكيت) .

ومنه الحديث : (اغتربوا لاتُضُورُوا) . أي لاتنكحوا في الأقارب ، فيجىء الولد ضاوياً . وقال : (خاله دون عمه) يذهب إلى أن أباه أكرم من أمه ، وذلك أوجب له . (رأى خلفها من أعجبتة فعانها) . يزعمون أن الشيء المَعْجِب ربما أصابته العين ففسد لذلك ، فيقول : رأى هذه الفرس بحجر من أعجب بها ، فاعقها بعينه . وهذا رواية ضعيفة ، وهي . (رأت خلفها من أعجبتة فعانها) . أي رأت خلفها فخلاً حاول كَوْنَهَا حين أعجبتة ، فأمكنته ، فأولدها ، فكانه تنقصها بالإيلاد ، كما يُتَنَقَّصُ الشيء الحسن المعجب إذا أصيب بالعين .

(إِذَا سَايَرْتُهُ بَايَنْتُهُ وَبَاَنَهَا وَشَانَتْهُ فِي عَيْنِ الْبَصِيرِ وَزَانَهَا)

أي باينته ، من (البَوْن) أي باعدته . فان قلت . ينبغي على ذلك : (باوتته) ، لأنه من الواو . فان شئت قلت : إن هذا على المعاقبة ، ومعناها : قلب الواو ياء لغير علة إلا طلب الخفة ، وهي لغة حجازية عربية . يقولون : (صِيَاغ) في (صَوَاغ) ، ومِيَاتِق في مَوَاتِق ، وهو كثير ، قد عمل فيه يعقوب باباً واسماً . وإن شئت قلت : إنه من (البَيِّن) الذي هو في معنى (البون) . حكى أبو عبيد ، بينهما (بون) بعيدو (بَيْن) . وقد بان صاحبه بيونه ويبيئته . فحملك إياه على هذا ، خير من اعتقاد المعاقبة الحجازية ، لأنك إنما تلوذ بها إذا لم تجد عنها معدلاً .

و (شَانَتْهُ فِي عَيْنِ الْبَصِيرِ) : أي شانت به كونها أمه لتقصيرها عنه .

« وزانها » ، بكونه ابنها وهو زائد عليها .

(وَأَيْنَ التِّي لَا تَأْمَنُ الْخَيْلُ شَرَّهَا وَشَرِّي وَلَا تُعْطَى سِوَايَ أَمَانَهَا)
 إن شئت قلت : أين فرسى التى من أمرها وشأنها ، من هذه الفرس
 المعيبة ؟ وإن شئت قلت . أراد : هب لي الفرس التى هى أكرم من هذه الفرس
 التى وهبتها لى .

وقوله : (لَا تَأْمَنُ الْخَيْلُ شَرَّهَا) : إذا كررتُ بها . وأراد أهل الخيل ،
 لحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه . (وَلَا تُعْطَى سِوَايَ أَمَانَهَا) : أى
 لا يأمنها إلا مثلى من الحذاق بركوب الخيل .

- ٩٩ -

وله أيضا :

(تَشْبِيهُ جُودِكَ بِالْأَمْطَارِ غَادِيَةً جُودٌ لِكَفِّكَ ثَانٍ مَالَهُ مَطَرٌ)
 أى أنك غاية فى الجود لا فوقها ، فإذا شبهنا كفك بالمطر ، فالشبه دون المشبه
 به ، فقد بالغنا بمدح المطر وشرّفناه . فكان هذا التشريف له بتشبيه جودك به ،
 جوداً عليه ثانياً من جودك علينا بالمال وخَصَّ الأمطارَ الفَوَادِي ، لأنها بالأغلب
 أغزرُ ما تكون حينئذ فى أول النهار ، والنفوس حينئذ شهوةٌ مُنْشِطَةٌ ،
 فهى حينئذ أروق وأعلق .

- ١٠٠ -

وله أيضا :

(وَقَاتَمَكَ الْعَيْنَيْنِ مِنْهُ وَلَحْظُهُ سَمِيْكَ وَالْخِلُّ الَّذِى لَا يَزَابِلُ)
 يعنى بسميه والخِلّ الذى لا يزابل : السيف . أما سميّه فلأنه سيف ،
 والمَلِكُ سيف الدولة ، فهو وسيفه سَمِيَّان . وأما كونه خِلّاً لا يزابله ،
 فلأن السيف لا يفارقه . فيقول : نظر إليك طامعاً فى إحسانك ، وإلى سيفك ،
 خائفاً من بأسك ، يلقب طرفه من يمين إلى شمال ، فذاك معنى المقاسمة ، أى أن

السيف قد قاسمك عيني رسول الروم فهو تارة يتأملك ، وأخرى يتأمل سيفك ،
ولحظه ، عندى حشو ، لأنه إذا قاسمه عينيه فقد قاسمه الأخط .

(وَأَكْبَرُ مِنْهُ هِمَّةٌ بَقِيتُ بِهِ إِلَيْكَ الْعِدَا وَاسْتَنْظَرْتُهُ الْجَحَافِلُ)
أى أكبرت العدا همة هذا المرسل ، وأعظمت شأنه لإقدامه عليك ،
ومثوله بين يديك . (واستنظرته الجحافل) : أى سأله أن ينظرها ، بشغله إياك
أيها الملك عنهم . فمعنى استنظرته : طلبت منه النظرة ، أى التأخير .

(أَطَاعَتِكَ فِي أَرْوَاحِهِمْ وَتَصَرَّفَتْ بِأَمْرِكَ وَالتَفَّتْ عَلَيْكَ الْقَبَائِلُ)
بالغ بإطاعتهم إياه فى أرواحهم ، لأنهم إذا أطاعوه فى ذواتهم ، كانوا
أجدر أن يطيعوه فيما سواها . و (التفت عليك القبائل) : أى أحذقت بك
العرب ، لأن كل جيش مُحَذِّقٌ بِأَمِيرِهِ .

وإن شئت قلت : جعله سِطَةً لِسِرَاوَةِ نَسَبِهِ ، وَعِلَاوَةً حَسْبِهِ ، وَقَبَائِلُ
العرب محيطة به ، فالخاط به أشرف من المحيط ، كالمِلادة التى أنفُسُهَا سِطَتُهَا .
والهائرة التى أشرفها نقطتها .

(رَمِيتُ عِدَاهُ بِالْقَوَافِ وَفَضْلِهِ وَهُنَّ الْغَوَازِى السَّالِمَاتُ الْقَوَائِلُ)
وفضله : أى وفضائله . هذا أذهب فى الصناعة ، أى أعنى يعطف جمعا على
جمع فى النية وإن لم يستقم ذلك فى اللفظ . إذا أغضبت عداها لدأخى فيه بفضائله
للتفانية ، فلم يجدوا فى شرى مطمأ ولا فى فضائله الذاتية مدفعا ، فقد قتلتهم
بأن أغضبتهم وأعجزتهم ، وسلمت هى فى أنفسها ، إذ لم يقدروا على غض
أشعارى ، ولا إنكار فضائله .

(يُنْبِغُ هَرَّابَ الرِّجَالِ مُرَادُهُ فَمَنْ فَرَّ حَرْبًا عَارِضَتُهُ الْغَوَائِلُ)
الغوائل : الدواهي المهلكة . تقول العرب : الغضب غول الحليم . أى

يذهب بالحلم فيقتاله . يقول : إن سده يتبع المهزومين ؛ فيقتلهم بالعش والكلال
وسائر أنواع الآفات ، كقوله هو :

إذا فاتوا الرماحَ تناولتهم بأرماح من العشا القفار
ويتبع من باب (فَعَلَ) في معنى (تَعَلَّ) أى يتبع . ونظيره ما حكاه
سيبويه من قولهم بَيَّنَ الشيءَ وَتَبَيَّنَهُ . وفي المثل : قد بَيَّنَ الصبحُ لذي عينين .
أى تَبَيَّنَ .

(رَأَيْتُكَ لَوْ لَمْ يَقْتَضِ الطَّعْنُ فِي الْوَعَى إِلَيْكَ انْقِيادًا لَأَقْتَضَتْهُ الشَّمَائِلُ)
أى لو لم يَجْرِ من أصحابك على الطعن ، انقيادهم لك ، وطاعتهم إياك ،
لاقتضاهم إياه حُبُّهم لك . و (الشَّمَائِلُ) يجوز أن تكون منه ومنهم ، فإن
كانت منهم ، فعناه : حُبُّهم لك بطاعتهم . وإن كانت منه فعناه : بحُبِّهم لشمالك .

- ١٠١ -

وله أيضا :

(وَأَسْقَطَتِ الْأَجِنَّةُ فِي الْوَلَايَا وَأُجْهِضَتِ الْخَوَائِلُ وَالسَّقَابُ)
أى أن النساء أُرْدِفْنَ ، وَعُفِفَ بهن في الهزيمة ، فن كان منهن حاملاً
أَسْقَطَتْ في الولايا ، وهى الأحلاسُ على إعجاز الخيل والإبل ، وأجهدت
الإبل ، وكُلِّفَتْ أكثر من طاقتها في السير ، فأجهضت الحوامل ، وهى
الإناث ، والسَّقَابُ ، وهى الذكور . والإجهاض للتوق ، كالإسقاط للنساء .
وهذا كقول أبى النجم :

كَمْ طَرَحَتْ مِنْ وَلَدٍ لَا يَفْتَدِي تَرَاهُ كَاللُّوْخِ وَالْجُلْدُ بَرِي
(وَعَمْرُوٌّ فِي مِيَاهِنِهِمْ عُمُورٌ وَكَعْبٌ فِي مَيَاسِرِهِمْ كِمَابٌ)
عمرُو وكعب : بطنان ، كعب : بن ربيعة ، وعمرُو بن مالك . فان شئت قلت :

اختلفت كلمتهم فأشارت طائفة بالهَرَب ، والأخرى بالاستئمام وأخذ الموثق من سيف الدولة . وكانوا قبل بدأ واحدة ، كلمتهم سواء فكانهم باختلافهم قسموا وافترقوا فصارت القبيلة باختلاف كلمتها في قبائلك ؛ فذلك جعل عمراً عموراً ، وكعباً كعباً .

أنشد سيبويه :

رَأَيْتَ الصَّدْعَ مِنْ كَعْبٍ وَكَانُوا مِنْ الشَّانِ قَدْ صَارُوا كِعَاباً
وإن شئت قلت : هربوا وتبددوا ، فصاروا شيئاً وأحزاباً ، فكل جزء من عمرو عمور ، وكل جزء من كعب ، كعوب . والقولان متقاربان .
(وَلَوْ غَيْرُ الْأَمِيرِ غَزَا كِلَابًا ثَنَاءً عَنْ شُمُوسِهِمْ ضَبَابٌ)
يعنى بشُمُوسِهِمْ : حقائق نفوسِهِمْ . والضَّبَاب : ما يلقاه من الطمان والضراب . وقيل : ثناء عنهم أقل ما يصيبه منهم ، لأن كثافة الضباب أقل من كثافة السحاب . وقيل : عنى بالشموس نساءهم التي سبها سيف الدولة ، وبالضباب : مَنْ فيهم من الكُماة والحُماة .

- ١٠٢ -

وله أيضاً :

(تَقْدَى أَيْمُ الطَّيْرِ عُمَرَا سِلَاحَهُ نُسُورُ الْفَلَاحِ أَهْدَائُهَا وَالْقَشَاعِمُ)
أَيْمٌ هنا: بمعنى أطول . وإنما جاز ذلك لأن التمام في باب (كيف) ، نظير الطول في باب (كم) . وإنما المستعمل في العمر أطول ، فلم يترن له ، ونحوه قول رؤبة :

(كَالْكَرْمِ إِذْ نَادَى مِنَ الْكَافُورِ)

وإنما المعروف صاح الكرم ، وسائر الشجر إذا بدا ثمره . إلا أنه لو قال

صاح الكرم لكان في الجزء طى ، وهو ذهباء (مُستفعل) ، لأن قوله :
(صاح منل) مُستعِلن ، فاستوحش من الطى ، فوضع نادى مكان صاح ،
ليسلم الجزء .

والمتنبى أعذر ، لأنه لو قال : (أطول) لانكسر البيت ورؤبة لو قال :
صاح من الكافور لم ينكسر البيت ، وإنما كان يلحقه الزحاف الذى وصفناه .
وقال . « تُفدِّي » فأنث الفعل ، وإن كان للأنث ، والآنم مذكر ،
حملاً على المعنى ، لأن الآنم هو النور في الحقيقة . ونظيره قول بعض العرب :
فلان لغوب جاءته كتابي فاخترها . أنت الكتاب لما كان في معنى
(الصحيفة) . و (نور الفلا) . بدل من (أنم الطير) . و (أحداثها
والقشاعم) : بدل من (نور) . وكلاهما بدل بيان . يقول : أوسعت سلاحه
النور شبعاً من لحوم القتلى قديماً وحديثاً الآن ، قشاعمها وهي المسان تشكر
القديم والحديث ، وأحداثها تشكر الحديث ، لأنها متأخرة الكون عن زمن
القديم . فكل النوعين يشكر سلاح هذا الملك ، و (يُفدِّي) : أى يقولان
نحن الفداء لسلاحه . واستعار الأحداث للنور ، وإنما هو في نوع الإنسان ،
ومثل هذه الاستعارة كثير .

(هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقين الغمائم)
(الحدث) : حصن معروف ، وأثته على معنى القلعة ، أو المدينة ،
وجعلها حمراء ، لما سال عليها من الدماء ، وكانت غير حمراء . يقول : فهل
تعرف الآن لونها القديم الذي بدلت نه الحُمْرة . وإن شئت قلت : هل
تعرف الآن أنها حمراء ، أو تنكر ذلك ؟

وقيل : جعلها حمراء ، لأن سيف الدولة بناها بحجر أحمر ، ولم يك
قبل ذلك .

يقول : فهل تعرف هذه القلعة أن بناءها الحديث غير بنائها القديم ؟
وكذلك بَلَّتْ هذه السيوفُ هذه المدينة بالدم ، كما يَبُلُّ - السحابُ الأرض بالمطر
فهل تعرف أن الغمام سقاها الآن أو السيوف ؟
وقد بين ذلك بقوله بعد هذا :

(سَقَّتْهَا الْغَمَامُ الْغُرُ قَبْلَ نُزُولِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَّتْهَا الْجَمَاهِمُ)
أى سقاها السحاب قبل نزول سيف الدولة بها ، فلما دنا منها قتل من كان
بها من الروم ، فسقتها السيوف بدمائهم .

(وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُثَثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا نَمَائِمُ)
النمائم : العوْذ ، وهى تُنَاطِ بِمَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ أَوْ جُنُونٌ أَوْ سِحْرٌ .

فيقول : كانت هذه القلعة مضطربة غير مطمئنة ولا مستقرة بمن غلب عليها
من الروم ، حتى كان بها من ذلك مثل الجنون ، لأن الجنون يخالطه
اضطرابٌ وقلة ثبات ، ولذلك قيل له : (الْأَوَّلَى) . لأن الولق : سرعة الطعن
والثنى ، وهذا فيمن أخذه من ذلك ، فجعله (أفعل) .

فأما سيبويه ، فهو عنده (فَوَعَلَ) بدليل (مَأْلُوق) فلما ورد لها سيف
الدولة قَتَلَ مَنْ تَغَلَّتْ عَلَيْهَا ، استقرت واطمأنت ، فكانت جثث القتلى عليها
نمائم أوجبت لها الاستقرار والطمأنينة .

(وَقَدْ حَاكُمُوهَا وَالْمَنَآيَا حَوَاكُمُ فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ وَلَا عَاشَ ظَالِمٌ)

أثبت حكماً من حيث أثبت ظلماً ، لأن الظلم جورٌ ، والجور نوع من
الحكم ، ضد العدل ، فحاكموا هذه القلعة . والسيوف حواكم : أى هُنَّ ذوات
الحكم على المتحاكين عليها ، وكان الظلم من قبل الروم لهذه المدينة ، بهدمهم
إياها ، وإخلائهم لها ، فلما كان الحكم للسيوف ، مات الظلم بقتل هؤلاء
الروم الظالمين .

(فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ) : يعنى القلعة ، أى لم يَعمُ أثَرُها ، بل جُدِّدَ بناؤها ،
وزيدت تحصيناً . (وَلَا عَاشَ ظَالِمٌ) : أى لم يعش الروم الذين هدموها ، بل
قتلهم سيف الدَّوَاةِ .

(تَقَطَّعَ مَا لَا يَقْطَعُ الدَّرْعَ وَالْقَنَا وَفَرَّ مِنَ الْفُرْسَانِ مِنْ لَا يُصَادِمُ)
أى ما كان من السيوف قاطعاً للدرع وللأسلحة بقى وما لم يبلغ من الحدة
والشدة أن يقطعهما ، تقطع وفنى ، وذلك لشدة ما كان هناك من الضرب .
ومن كان من الفُرسان غير مزاحم ولا مصادم لم يثبت . يذهب فى كل ذلك
إلى أنه لم يبق إلا الجيّد الصابر على الكفاح ، من الرجال والسلاح .
ألا تراه يقول :

وَللهِ وَقْتُ أَذْهَبَ الْغِشَّ نَارُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَارِمٌ أَوْ ضَبَارِمٌ
(تَجَاوَزَتْ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمٌ)
أى أن أناساً من الجذّاق لما رأوا إقدامك وإعمالك رُمحك وحُسامك ،
يُبيحان لك سلامة الحَوْبَاءِ ، والظفر أبداً بالأعداء ، قالوا إنه لا يقتحم ذلك
إلا بعد ما ظل عالماً ، أنه لا يَثُوبُ إلا سالماً غاماً . فَحَصَلَتْ عَنْدهم بذلك
عالمٌ غيبٌ ، مُتَقَفِيًا للعواقب غير ذى رَيْبٍ وهذا أرفع من منزلة الشجاعة
والتدبير .

(تَظُنُّ فِرَاحُ الْفُتُخِ أَنْكَ زُرْتَهَا بِأُمَمَاتِهَا وَهِيَ الْعِتَاقُ الصَّلَادِمُ)
أى أن خيلك صعدت الجبال حتى انتهت إلى أعاليها ، وهناك وكُورُ
العِقبان . فلما أشرفت على تلك الكور جَمِجَمَتْ ، والجمجمة تشبه صرصرَةَ
عتاق الخيل ، ظننتها فِرَاحُ الْعِقبان أُمَمَاتِهَا . ومما يدُّك على أن الجمجمة تشبه
الصرصرة قول الشاعر :

إذا الخيلُ صاحَتْ صياحُ النُورِ هَزَزْنَا هَرَّاسِفَهَا بالجدَمِ
وعنى بالفتُخ : العقبان . أقام الصفة مُقام الموصوف ، لأنها صفةٌ غالبة ،
هُوم مقام الاسم . وإنما سميت العُقَابُ فِتْخَاء ، للين جناحها . والفتُخُ : اللين ،
والصلادم : شِدَاد الخيل ، واحدها : صِلْدِم وصِلْدِمة .

(أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمُسْتَقِّ مُقَدِّمٌ قَفَاهُ عَلَى الْإِقْدَامِ لِلْوَجْهِ لَاثْمُ)
أى إن هذا الدُمستق فى كل يوم يُقَدِّمُ فَيُهْزِمُ ، وَيُخْجِمُ فَيَسْلَمُ وَجْهَهُ ،
وَيُضْرِبُ قَفَاهُ ، فَالْقَفَا يَلُومُ الْوَجْهَ عَلَى الْإِقْدَامِ . يقول له : كَمْ تَتَوَجَّهُ إِلَى مَنْ
قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَكَ هَازِمٌ ، فَتَسْلَمُ أَنْتَ ، وَيَهْوَنُ عَلَيْكَ مَا أَتَقَاهُ إِذَا سَلِمْتَ أَنْتَ .
وَأَرَادَ قَفَاهُ لَاثْمُ لُوجْهِهِ عَلَى الْإِقْدَامِ فَقَالَ : (لِلْوَجْهِ) ، لِأَنِّ إِضَافَةَ الْقَفَا إِلَيْهِ تَشْعُرُ
أَنَّهُ لَا يَعْْنَى مِنَ الْوَجْهِ إِلَّا وَجْهَهُ .

(يَضْرِبُ أَتَى الْهَامَاتِ وَالنَّصْرُ غَائِبٌ وَصَارَ إِلَى اللَّبَّاتِ وَالنَّصْرُ قَادِمٌ)
أى أَن الضرب إِذَا قَرَعَ الْهَامَ لَمْ تَعُدَّهُ نَصْرَهُ ، إِذْ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ يَمُوتَ
صَاحِبُهَا ، وَأَنْ لَا يَمُوتَ . فَإِذَا وَصَلَ إِلَى اللَّبَّةِ ، هَلَكَ لَا مُحَالَةَ ، فَخِينْتُهُ يُعْتَدُّ
بِالنَّصْرِ . وَضَرْبُ الْغَيْبِ مَثَلًا لِلشَّكِّ فِي النَّصْرِ ، وَالْقُدُومُ لِلتَّيَقُّنِ . وَكَذَلِكَ
الْغَائِبُ مُشْكُوكٌ فِيهِ ، وَالْحَاضِرُ مُتَيَقَّنٌ .

(حَقَرَتِ الرُّدَيْنِيَّاتِ حَتَّى طَرَحَتْهَا وَحَتَّى كَانَ السَّيْفُ لِلرَّمِيحِ شَاتِمٌ)
الرُّدَيْنِيَّاتِ : الرِّمَاحُ ، مَنْسُوبَةٌ إِلَى امْرَأَةٍ تَسْمَى رُدَيْنَةً ، كَانَتْ تُرَكِّبُ
فِيهَا الْأَسِنَّةَ .

يقول : إِنَّمَا أَحْبَبْتُ لِقَاءَ الْعَدُوِّ عَلَى قُرْبٍ مُعَانِقَةٍ وَمَصَاحِفَةٍ ، لِحِرَاؤِكَ
وَشَجَاعَتِكَ ، وَلَمْ تَرْضَ أَنْ تَسْتَعْمَلَ فِي قِتَالِهِ الرَّمِيحَ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مُشْعِرٌ بِالْجَبَنِ ،
لِأَنَّ الْقِتَالَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى بُعْدٍ ، فَاطْرَاحَتَهُ وَاسْتَعْمَلْتَ السَّيْفَ مَكَانَهُ . قَالَ :

(وَحَتَّى كَأَنَّ السِّيفَ لَرُمَحٌ شَاتِمٌ)

أى لكأنك قد رأيت السيف قد عَيَّرَ الرمح بالضعف والتقصف وقلة
الفناء ، فهَآنَ عليك الرمح لذلك ، ألا تراه يقول بعد هذا :

وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مَفَاتِيحُهُ الْبَيْضُ الْخِفَافُ الصَّوَارِمُ

ومن كلام بعض العرب : الرمح أخوك وريما خاتك . وقال عمرو بن

مَعْدٍ بِكَرْبٍ فِي السِّيفِ :

خَلِيلِي لَمْ أَخْنَهُ وَلَمْ يَخْنُنِي عَلَى الصَّصَامَةِ السِّيفِ السَّلَامُ

- ١٠٣ -

وله أيضا :

(أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هَامٌ وَسَحَّ لَهُ رُسُلَ الْمُلُوكِ غَمَامٌ)

كذا في موضع نصب صفة لمصدر محذوف . أى رَاعَ رَوْعًا مثل هذا :

(وَسَحَّ لَهُ رُسُلَ الْمُلُوكِ غَمَامٌ)

أى تقاطروا عليه ، وقد جاوره تَنَرَّى مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، حتى كأن غمامًا
سَحَّهم عليه لكثرتهم ، أى صَبَّهم ، فَرُسُلَ الْمُلُوكِ : منصوبٌ على المفعول به ،
لأن سَحَّ فعل متعد .

(وَرُبَّ جَوَابٍ عَنْ كِتَابٍ بَعَثَتْهُ وَعَنَوَاتُهُ لِلنَّاظِرِينَ قَتَامٌ)

يعنى جيشًا أجاب به عن كتاب ، فَأَنبَأَهُم قَتَامُهُ عَنْهُ ، كما يُنْبِئُ عَنْ

الكتاب عنوانه .

(تَضَيَّقُ بِهِ الْبَيْدَاءُ مِنْ قَبْلِ نَشْرِهِ وَمَافِضٌ بِالْبَيْدَاءِ مِنْهُ خِتَامٌ)

أى أنه يَمْلَأُ الْبَيْدَاءَ ، وهو مجتمع قبل انتشاره ، فكيف به إذا

انْبَثَ وَأَنْبَثَ .

(حُرُوفُ هِجَاءِ النَّاسِ فِيهِ ثَلَاثَةٌ جَوَادٌ وَرُمُحٌ ذَابِلٌ وَحُسَامٌ)
أى لا يشاهد فيه إلا هذه الأنواع ، كما لا يشاهد في الكتاب إلا حروفه .

— ١٠٤ —

وله أيضا :

(بِلَادٌ إِذَا زَارَ الْحِصَانَ بِغَيْرِهَا حَصَى تَرْبِهَا تَقْبِنُهُ لِلْمِخَانِقِ)
بلاد : أى هى بلاد ، يعنى (الثَّوْبِيَّةُ) وهى الكوفة وحصاها وهو
ذلك الذى يعرف بالثرومى ، وهو شفاف حسن . يقول : فإذا زير به النساء فى
غيرها من البلاد استحسنه فتقْبِنَتْه ووضعه فى مُخَانِقِهِنَّ . وليس الحصى هو الزائر
فى الحقيقة لأن الزيارة إنما هى لمن يعقل ، والحس جمد . وإنما أراد زير به الحصان
فأتسع بأن جعل الفعل له . وواحد المخاتق مخنقة ، سميت بذلك ، لأنها توضع
فى موضع الخنق من الخلق .

(وَأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٍ وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقٍ)
أى أنه كامل العُسن خلقاً وخلقاً ، فحسنة حُسنان رُوحانى ، وهو حسن
الخلق ، وجُسمانى وهو حُسن خلقه ، فأوجب ذلك أن يعشقه العفيف والفاسق ،
فالعفيف يَهْوَى نفسه ، ولها الحسن الخلقى ، والفاسق يَهْوَى جسمه ، وله الحسن
الخلقى . ولو اتزن له أن يقول : (كل عفيف) . ولم يذكر العاقل ؛ لكان أذهب
فى التقابل لأن العفة ضد العقل . وإنما يقابل العاقلُ الأحق ؛ فلا معنى لقوله
« كل عاقل » ، لكن لما كانت العفة للجزء المعتدل ، وكان الجزء للمعتدل
يوصف بالعقل ، حَسُنَ أن يذكر العقل مع العفة ، وإلا فوجه التقابل
ما ذكرت لك .

وقوله : « وأغيد » : عطف على قوله : (مليحة) من قوله :

(سَقَتْنِي بِهَا التُّطْرُبُ بِلَى مَلِيحَةً)

وإن شئت رفعت أغيد على الابتداء ، وخبره مضمّر . كأنك قلت :
وَنِمَّ أَغِيدُ .

(يُحَدِّثُ عَمَّا بَيْنَ عَادٍ وَبَيْنَهُ وَصُدَّغَاهُ فِي خَدَى غُلَامٍ مُرَاهِقٍ)
وَيُرَوَّى : (يحدث ما بين القرون وبينه) . وهى الأمم الخالية . أى أن هذا
الأغيد حافظ واع حسن الحديث ، جيد السياق له ، فهو يحدث عن الأوائل ،
ويخبر بأخبار القدماء ، وإن كان حديث السن .

وقوله :

(وَصُدَّغَاهُ فِي خَدَى غُلَامٍ مُرَاهِقٍ)

كناية عن حدائته وفتوّته . ويعنى بالصدغ : ماسال من الشعر على خده .
وهذه الكناية ، وإن كانت حسنة ، فإن فيها تكلفاً ، كان أقرب من ذلك
لو اتزن له أن يقول : وهو مُرَاهِقٌ . فكان يعنى من قوله :

(وَصُدَّغَاهُ فِي خَدَى غُلَامٍ مُرَاهِقٍ)

ونكته تكلف ذلك ، لحفظ إعراب القافية .

(يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ الْكِمَاةِ وَبَيْنَهَا بِطَعْنٍ يُسَلِّي حَرَّهُ كُلَّ عَاشِقٍ)

أى بين الكماة ونسائهم ، بطعن يؤلم العاشق ، فيُسَلِّيه بِحَرِّهِ عن العشوق .

(أَتَى الطَّعْنَ حَتَّى مَا تَطِيرُ رَشَاشَةٌ مِنَ الْخَيْلِ إِلَّا فِي نُحُورِ الْعَوَاتِقِ)

الرشاش : ما أُرش من الدم . يقول : أُلْحَقَ عَقِيلاً بِحِلَالِهِمْ وَعِيَالِهِمْ ، حَتَّى

لَهُمْ إِذَا أُصِيبُوا بِالطَّعَانِ ، طَارَتْ دِمَاؤُهُمْ فِي نُحُورِ الشَّوَابِ مِنَ النِّسَاءِ . وبالم

باختصاص الشواب ، لأنهن لوازيم لزوايا الخُدُور ، فذلك أغرب .

(وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَّبْعِيَّةٌ يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا صِيَاخُ اللَّقَالِقِ)

ويروى تصيح الحصى . مَلْمُومَةٌ : يعنى كَتِيْبَةٌ مجتمعة لم بعضها إلى بعض ، أى جمع . وقيل مجموعة كالحجر الملموم . والقولان متقاربان . سيفية : منسوبة إلى سيف الدولة . رَّبْعِيَّةٌ : منسوبة إلى ربيعة ؛ لأن سيف الدولة منها .

(يصيح الحصى فيها صياخ اللقالق)

أى قد كثر فيها الخيل والرَّجُل ، فالحصى يصيح تحت حوافر الخيل ، وأرجل الرجال ، صياخ اللقالق : وهى نوع من الطير . واحدها لَقْلَاق . وحقيقة اللقالق : الصوت ، فسمى هذا النوع من الطير لَقْلَاقًا بصوته ، وكان يجب على هذا (صياخ اللقالق) لأن واحدها لَقْلَاق . وإذا كانت الألف وغيرها من حروف اللين رابعة فى الواحد ، ثبتت ياء فى الجمع ، نحو حِمْلَاق وحَمَالِق ، وكُرْدوس وكُرَاديس ، وشِمْلَال وشَمَالِيل . لكن الشاعر إذا اضطر حذف هذه الياء فى الجمع . أنشد سيبويه :

قَدْ قَرَّبْتُ سَادَاتِهَا الرِّوَأْسَا وَالْبَكْرَاتِ الْفُجَّجِ الْعَطَامِيسَا

فكذلك اضطر هذا الشاعر ، فحذف ياء (اللقالق) ولا يلتفت إلى قول العامة فى واحدها (لَقْلَق) ، فإن ذلك خطأ .

وقيل : كانت هذه الكتيبة مَكْسُوءَةً تجافيف ودروعاً فإذا وضع الفرس حافره على حصاة أطارها ، فقرعت تَجْفَافًا أو درعاً ، فأشبه صوت وقوعها بالدرع أو التجفاف ، صوت اللقالق . واستعار الصياح للحصى وإنما الصياح للحيوان . ومن رواه « تصيح » أراد تُصِيح هذه الكتيبة الْحَصَى ، وكان يجب على هذه الرواية أن يقول إصاحه اللقالق ، لأن مصدر أفعَلَ إنمَ هو الإفعال ، فإن كان الفعل معتل العين ، كان مصدره إفعَالَةً ، تمحذف

العين ، ويجعل الماء عوضاً منها ، كقولهم أَقَالَهُ إِقَالَةً ، وأقامه إقامةً ، لكنه قال : صياح ، فجاء بالمصدر على غير فعله ، لأنه أراد فتصبح صياح الالتاق ، وفي التنزيل ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أى فنبتم نباتاً . ومثله كثير ، قد أفرد سيبويه فيه باباً .

(وكان هديرًا من فُحولٍ تركتها مهلبة الأذنان خرس الشقاشق)

أى كان هذا الذى أبدته عُقيل من الطغيان والأشر ، بمنزلة الهدير للفحول ، والفحول إذا هاجت هدرت ، وأخرجت شقاشقها ، وهى هنوات تخرج بيضاً وحمراً كالرئة . أنشد ابن حديد فى صفة شقيقة حمراء :

فى جَوْتَةٍ كَقَفْدَانِ الْعَطَّازِ

القفدان : أدمة حمراء ، تصان فيها أنواع الطير ، فشب الشقيقة فى لونها وعظمها بها . والجون : يكون للأبيض والأسود والأحمر .

ولمّا قلنا هنا : إنه يصف شقيقة حمراء . لتشبيهه إياها بالقفدان ، والقفدان أحمر . فاذا تهادرت الإبل ، شدّت أذنانها وأهلاؤها ، فسكنت وخرست شقاشقها وذلت ، فجعل عُقيلًا بمنزلة الفحول ، وأشرها وتوَعَّدُها لسيف الدولة كالمدير . وجعل إذلاله لهم ، وتحبيسه إياهم ، بمنزلة تهليب الأذنان ، وإخراص الشقاشق .

وإن شئت قلت : لما هزمهم ، فأدرك بعضاً وقاته بعض ، كانوا بمنزلة فحول صال عليها فجعل مُقرم ، فهربت أمامه ، فهلب ما أمكنه من أذنا به أى نسفها .

وله ايضا :

(وَعِثْرَهَا التَّرَاسُلُ وَالتَّشَاكِي وَأَعْجَبَهَا التَّلْبُّبُ وَالْمَغَارُ)

أى تراسلوا بما لقوه من هذا الملك ، وشكاه بعضهم إلى بعض ، فدعاهم ذلك إلى ترك الطاعة ، وغيرهم من الائتمار لسيف الدولة . (وأعجبها التلبب) : وهو التحزم بالسلاح ، والمغار : أى الإغارة على الأحياء .

(فَكُنْتُ السَّيْفَ قَائِمُهُ إِلَيْهِمْ وَفِي الْأَعْدَاءِ حَدَّكَ وَالْغِرَارُ)

أى كنت قبل نفاقهم وشقاقهم ، سيفاً مردود القائم إليهم ، لا تقطعهم ولا تؤذيهم ، لأن القائم لا يؤثر . وفي أعدائهم غرارك : أى حدك وله التأثير .

(فَأَمْسَتْ بِالْبِدْيَةِ شَفَرَتَاهُ وَأَمْسَى خَلْفَ قَائِمِهِ الْحِيَارُ)

البديّة والحيار : ماءان بأرجان . والحيار أقرب إلى العمارة فيقول : سير من الحيار إلى البديّة وبها أدركهم ، فصار الحيار خلف القائم . والشفرتان بالبديّة ، ضارباً لهم بالسيف ، الذى كان قبيل مشاققتهم له يضرب به أعداءهم عنهم .

(مَضَوْا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ رُءُوسُهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِثَارُ)

أى انفصلت أعضاؤهم بعضها قبل بعض . يقول : تقطعت أعناقهم فبددت ، فتمثرت .

(يُغَادِرُ كُلُّ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ وَلَبَّتَهُ لَشَعْلَبُهُ وَجَارُ)

الشعلب : ما دخل من الرمح في جبة السنان ، والوجار : جحر الشعلب

وجار ووجار ، حقهما يعقوب . وشك أبو عبيد في الكسر . أى

إذا التفت إليه المنهزم ليقا تل بعده وقربه لم يلبث أن يطعن به في لبته .

فكون بمنزلة الوجار للشعلب . ويجوز أن يجعل اللبّة وجاراً من حيث سمي

ما يدخل من الرمح في جبة السنان ثعلباً .

وقوله : (وَلَبَّتُهُ لثَعْلِبِهِ وَجَارٌ) : جملة في موضع الحال ، إذا رَدَدَتْهَا إِلَى
المفرد فكأنك قلت : يغادر كل ملتفت إليه مَطْعُونُ اللَّبَّةِ به ، وهو في موضع
القلادة من الصدر .

(فَهُمْ حِزْقٌ عَلَى الْخَابُورِ صَرَعَى بِهِمْ مِنْ شُرْبِ غَيْرِهِمْ خُمَارٌ)
أى أنهم جمدوا ، وأجمدوا خيلهم ، فانقطعوا وانقطعت ، وأقاموا في هذا
الموضع صَرَعَى ، كأنهم شَرَبَ مَخْمُورُونَ وليسوا بشَرَب ، إنما الشَّرَب رماح
سيف الدولة ، لأنها التى شربت دماءهم ، والخُمَار إنما هو للشارب . يَسْخَرُ بِهِمْ
فيقول : كيف خُمِرَ هؤلاء . وإنما الشاربة رِمَا حُك .

وإن شئت قلت : جعل المهزومين كالمحمورين ، لما بهم من الحيرة
والكسل والفتور . وجعل الهازمين كالشرب ، لما نالوا منهم ، أو ما بهم من
الفرح بفلهم لهم ، وقتلهم إياهم ، كفرح الشراب للنبيذ .

(يَوْسُطُهُ الْمَفَاوِزُ كُلُّ يَوْمٍ طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا الْأَنْتِظَارُ)
يوسطه : أى يدخله وَسَطُ المفاوز ، طِلَابُهُ للمهزومين الهاربين إلى القفار ،
فهو يطلبهم هناك . يقول : فهذا هو الذى يدخله المفاوز ، لا هربه من أعدائه ،
ولا انتظاره أن يُدْرِكوه . وقوله : (طِلَابُ الطَّالِبِينَ) : كان الأحسن في
الظاهر — لو اتزن له — أن يقول : طِلَابُ الْمَطْلُوبِينَ ، ولكن هذا يتبعه على
ثلاثة أوجه : إما أن يكون عنى بالطالبيين أعداءه الذين كانوا يطلبونه قبل ، وهم
الآن مطلوبون ، وإما أن يكون عنى بالطالبيين للنجاة ، وهم هؤلاء المهزومون ،
وإما أن يكون « الطالبيين » بمعنى المطلوبين ، فقد يحىء (فاعل) بمعنى مفعول كما يحىء
عكس ذلك كثيراً ، فما جاء (فاعل) فيه بمعنى مفعول قول بشر بن أبي خازم :
ذَكَرْتُ بِهَا سَلَمَى فَبِتُّ كَأَنِّي ذَكَرْتُ حَبِيبًا قَاقِدًا تَحْتَ مَرَمَسٍ
أى مفقوداً . وأما عكسه ، فنحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾
أى آتياً .

وذكر لي أن المتنبي سئل عن هذا فقال : عَنَيْتُ بالطالِبِينَ سيفَ الدولة
وكتيبته ، وهذا عندي حسن . فطالبين على هذا في موضع رفع أى طلاب
الطالبين لعدوهم ، كقولك : (عَجِبْتُ مِنْ ضَرْبِ زَيْدٍ) وانت تريد من ضرب
زيد لعمرو ، فإذا كانوا قد يَحْذِفُونَ الفاعل ، ويَجْتَزُونَ بالمفعول ، للعلم بالمعنى ،
مثل قوله تعالى :

﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾

أى من دعائه الخير ، فحذف المفعول وإبقاء الفاعل أولى . فقد جاء
للمفعول محذوفاً كثيراً ، في مثل قوله تعالى :

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾

أراد : والسَّمَوَاتُ غَيْرَ السَّمَوَاتِ . وزعم الفارسي أنه قد روى بيت
ذى الرمة هكذا :

رَخِيْمَاتِ الْكَلَامِ مُبْتَلَاتٍ جَوَاهِلَ فِي الْقَنَاءِ قَصَبًا خِدَالًا

مبتلات (بالكسر) أى مُقَطَّعات للكلام ، يَبْهَرُنَ المنطقَ نعمة ، فحذف
المفعول ومن رواه (مبتلات) فقد كفاك ، لأن المبتاة لفظ المفعول ، وهى
من النساء التى كل شئ منها حسن على حدة ، كأن الحسن (بئَل) على كل جزء
منها ، أى قطع . وقد أثبت هذا فى كتابى الموسوم بالخصص فى اللغة .

وتوسطه فى المفاوز فى أثر المهزمين يكون كناية عن بُعد هِمَّتِهِ ،
كقوله هو فيه :

أَكَلَّمْتُ جَيْشًا فَانْشَنَى هَرَبًا تَصَرَّفَتْ بِكَ فِي آثَارِهِ الْهِمَمُ

عَلَيْكَ هَزْمُهُمْ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ عَارٌ إِذَا انْهَزَمُوا
وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ كُنَايَةً عَنْ هِدَايَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالسُّبُلِ وَالْمَخَادِعِ ، حَتَّى
لَا يَفُوتُهُ الْمَهَارِبُ مِنْهُمْ ، كَقَوْلِهِ هُوَ فِيهِ أَيْضًا حِينَ هَزَمَ عَقِيلًا :

تَوَهَّمَهَا الْأَعْرَابُ صَوْلَةً مُتَرَفٍ تَذَكَّرُهُ الْبِيدَاءُ ظِلَّ السَّرَادِقِ
فَذَكَّرَتْهُمْ بِالْمَاءِ سَاعَةً غَبَرَتْ سَمَاوَةٌ كَلْبٍ فِي عُيُونِ الْحَزَائِقِ
وَكَانُوا يَرُوعُونَ الْمُلُوكَ بَأَنَ يَدَوَّا وَأَنَّ نَبَتَتْ فِي الْمَاءِ نَبَتَ الْغَلَاقِقِ
فَهَاجُوكَ أَهْدَى فِي الْفَلَاحِ مِنْ نُجُومِهِ وَأَبْدَى بُيُوتًا مِنْ بُيُوتِ النِّقَاقِ
(غَطَا بِالْعِثِيرِ الْبِيدَاءَ حَتَّى تَحَيَّرَتْ لِلتَّالِيِ وَالْعِشَارِ)

العِثِيرُ: ماء ، أَيْ غَطَى مَالَهُمُ الْبِيدَاءُ ، فِي هَذَا لِلْوَضْعِ الْمُسَمَّى بِالْعِثِيرِ ،
حَتَّى تَحَيَّرَتْ مَتَالِيَةً وَهَشَارَةً : أَيْ أَعَزَّ أَوْلَادَهَا ، وَذَلِكَ لِكثَرَةِ الْعَدَدِ ،
وَفُزَارَةِ الْمَدَدِ .

(وَجَيْشٍ كُلَّمَا حَارُّوا بِأَرْضٍ وَأَقْبَلَ أَقْبَلَتْ فِيهِ تَحَارُّ)
أَيْ أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ تَبِعَ بَنِي كَعْبٍ بِمِثْلِهِ ، فَكَانَ الْكَعْبِيُّونَ كُلَّمَا
مَرُّوا بِأَرْضٍ وَاسِعَةٍ حَارُّوا فِيهَا . وَكَانَ جَيْشُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ كُلَّمَا مَرُّوا بِتِلْكَ
الْأَرْضِ الَّتِي حَارَّ أَوْلَئِكَ فِيهَا ، حَارَّتِ الْأَرْضُ فِيهِ ، وَذَلِكَ لِعَظَمَتِهِ ، وَجُمْهُورِ أُمَمِهِ ،
مَعَ مَا خَالَطَ الْكَعْبِيِّينَ مِنَ الْخَوَرِ ، وَهُؤُلَاءِ مِنَ التَّحَدُّثِ بِالْفُظْفُورِ . فَالضَّمِيرُ
فِي حَارُّوا رَاجِعٌ إِلَى هُؤُلَاءِ الْمَتَّبِعِينَ ، وَفِي أَقْبَلَ : رَاجِعٌ إِلَى الْجَيْشِ . وَكَذَلِكَ
الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ « فِيهِ » رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ أَيْضًا .

(وَأَجْفَلَ بِالْفِرَاتِ بَنُو نُمَيْرٍ وَزَارَهُمُ الْقِدَى زَارُوا خَوَارِ)
الزُّبَيْرُ لِلْأَسَدِ ، وَالْخَوَارُ لِلضَّانِّ ، يَقُولُ : كَانُوا أَسْدًا قَبْلَ لِقَاءِ سَيْفِ

الدولة ، فعادوا ضائكا عند لقائه . وكفى بالزئير عن الأسد ، وبالخوار عن الضأن ، لأن الزئير والخوار في هذين النوعين خاصتان ، والخاصة دالة على مخصوصها فتفهمه .

(فهُمْ حَزَقَ عَلَى الْخَابُورِ صَرَغَى بِهِمْ مِنْ شُرْبِ غَيْرِهِمْ خُمَارُ)

قل معناه : أراد غيرهم ، فظنوا أنه أرادهم ، ففروا وتفرقوا .

والذى عندى أن سيف الدولة أوقع بينى كعب ، فذلك معنى قوله : (من شُرِبَ غَيْرِهِمْ خُمَارُ) ، وخاف النخريون من مثل ذلك فتفرقوا ، فذلك خُمَارُهُمْ لأن الخُمَارُ أقرب إلى الصحو من السكر المُنْقِرِ . ففرع هؤلاء النخريين أخف من موت الكعبيين .

(بَنُو كَعْبٍ وَمَا أَثَرَتْ فِيهِمْ يَدٌ لَمْ يَذْمَهَا إِلَّا السَّوَارُ)
أى أنك وإن نذمتهم بمساءة ؛ فقد شرفتهم باعتمادك إياهم ، واشتغالك بهم ، كالكف التى إن أذماها السَّوَارُ ، زينها ذلك وإن آلمها .

- ١٠٦ -

وله أيضا :

(أَيَا رَامِيًا بَصَمِي فُؤَادَ مَرَامِهِ تَرْجِي عِدَاهُ رِيشَهَا بِسَهَامِهِ)
يخاطب سيف الدولة . يقول : أيا راميا يصيب مرامه ، فرماه بسهم ريشه أجنحة عِدَاهُ . عني بالسهم : جيشه ، وبريش عِدَاهُ : سلاحهم الذى سَلَّاهُمْ إِيَّاهُ ، وكساه جيشه . وجعل سلاح عِدَاهُ رِيشًا ، لكونه عونًا لهم . كما أن الرِيشَ عَوْنٌ للسهم ، وسَوَّغَ ذلك أيضا أن السلاح لباس ، واللباس يُكْفَى عَنْهُ بِالرِيشِ ، لقوله تعالى : (وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى) ، وكفى بالسهم عن جيشه ، لأنه يقتل به عَدُوَّهُ ، كما يَقْتُلُ بالسهم .

وَحَسُنَ أَنْ يَتَادِيَهُ بِالنِّكَرَةِ ، لِأَنَّهُ قَدْ أَطْلَلَ وَصَفَهَا ، وَذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَسْتَحِقُّ هَذِهِ الصِّفَةَ إِلَّا هُوَ . فَكَانَ النِّكَرَةُ هُنَا مَعْرِفَةً . وَالْعِدَا : اسْمٌ لِلْجَمْعِ عِنْدَ سَيَبَوِيهِ ، وَلَيْسَ يَجْمَعُ لَأَنَّ (فَعُولًا) لَا يَكْسَرُ عَلَى (فِعْلٍ) وَإِنَّمَا جَمَعَ عَدُوًّا أَعْدَاءً ، وَأَمَّا عِدَاةٌ فَجَمْعُ عَادٍ . حَكَاهُ أَبُو زَيْدٍ عَنِ الْعَرَبِ . أَشَمَّتْ اللَّهُ عَادِيكَ ، أَيُّ عَدُوِّكَ .

وَمَا كَانَ عَلَى (فَاعِلٍ) مِنَ الْمَعْتَلِ اللَّامِ ، فَفُعْلَةٌ فِيهِ مَطْرُودَةٌ كَقَاضٍ وَقُضَاةٌ ، وَرَامٍ وَرُمَاةٌ . وَلَا يَكُونُ (عِدَاةٌ) جَمْعُ عَدُوٍّ ، لِأَنَّ (عَدُوٌّ) فَعُولٌ ، وَ (فَعُولٌ) لَا يَكْسَرُ عَلَى (فُعْلَةٍ) ، وَلَمْ أَسْمَعْ لِعَادٍ فَعْلًا يَجِيءُ (عَادٍ) عَلَيْهِ ، أَيُّ لَمْ يَجِيءُ (هَدَوْتُهُ) فِي مَعْنَى (عَادِيَّتُهُ) . وَلَكِنْ هَذَا عِنْدِي عَلَى النَّسَبِ ، أَيُّ ذُو عِدَاوَةٍ ، وَنَظِيرُهُ . فَاعِلٌ ، وَنَائِلٌ ، وَأَشْيَاءٌ قَدْ حَكَاهَا سَيَبَوِيهِ وَغَيْرُهُ .

(وَيَجْعَلُ مَا خُوِّلَتْهُ مِنْ نَوَالِهِ جَزَاءً لِمَا خُوِّلَتْهُ مِنْ كَلَامِهِ)
 أَيُّ إِنْ أَبَادِيَهُ تُنْطَقْنِي بِحَيْدِ الشُّعْرِ وَتَطْلَعْنِي عَلَى بَالِغِ الشُّكْرِ ، فَهُوَ سَبَبُ مَا خُوِّلَتْهُ مِنَ الْكَلَامِ . فَإِنْ ذَا الْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَجَازِينِي بِالنَّوَالِ ، عَلَى مَا أَعَانَنِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَالِ . يُغَرِّبُ الْمُتَنَبِّي بِذَلِكَ وَهُوَ كَقَوْلِ الْبَحْتَرِيِّ :
 هُوَ يُعْطِي خَيْرًا وَيُسْنِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُعْطِي عَلَى الشَّنَاءِ جَزَاءً
 وَقَوْلُهُ : جَزَاءً لِمَا خُوِّلَتْهُ مِنْ كَلَامِهِ : أَرَادَ (جَزَاءً عَلَى مَا خُوِّلَتْهُ) ، فَابْدَلِ اللَّامَ مَكَانَ (عَلَى) ضَرُورَةً . وَيَجْعَلُ هُنَا : بِمَعْنَى (يُصَيِّرُ) فَهِيَ مُتَعَدِّيَةٌ إِلَى مَفْعُولَيْنِ ، كَقَوْلِكَ : جَعَلْتُ الطَّيْنَ خَزَفًا .

وله ايضا :

(قَاسَمَتَكَ الْمَنُونُ شَخَصَيْنِ جَوْرًا جَعَلَ الْقَسْمُ نَفْسَهُ فَيْكَ عَدْلًا)

ويروى « فيه عدلا » يعنى بالشخصين . (أختيه) أخذت المنون إحداهما ، وهى الصفرى ، وأبقت لك هذه الأخرى . وهذه المقاسمة جور ، لأنه تسوّر عليه فى أهله . إلا أن القسم صير نفسه عدلا فى ذلك الجور ، بأن أتى لك الكبرى ، وسلبك الصفرى ، كقوله :

قد كان قاسمك الشخصين دهرهما وعاش دُرُّهما المَفْدَى بالذهب
ومن روى (فيك عدلا) : عنى أنه إذا سلّمت أنت فلم يأخذك ، فذلك الجور عدل ، لأن من ترك أنفُسُ من أخذ ، إلا أن الجور فى ذلك موجود . وإنما كان يكون العدل لو ترك الجميع موفورا . وإنما هذا العدل على الإضافة ، لا على الإطلاق .

(خِطْبَةٌ لِلْحِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدٌّ وَإِنْ كَانَتِ الْمُسَمَّاءُ تُكْلَلًا)
أى حلول الحمام بهذه العقيلة ، يعنى أخت سيف الدولة ، خِطْبَةٌ لا ترد ، يذهب إلى إعظامها وإنكارها ، وإن كانت هذه الخطبة نسميها نحن تُكْلَلًا فليست كذلك فى الحقيقة ، إنما هى إرادة من النور العلوى ، يجذبها ويصيرها إلى ذاته .

(وَكَمْ انْتَشَتَ بِالسُّيُوفِ مِنَ الدَّهْرِ أُسِيرًا وَبِالنُّوَالِ مُقْلًا)
(عَدَّهَا نُصْرَةً عَلَيْهِ فَلَمَّا صَالَ خَتْلًا رَأَاهُ أَدْرَكَ تَبْلًا)
أى تسوّرت أنت على الدهر فى مظلوميه ، فككت أسيره ، وجبرت كسيره ، وأغنيت فقيره ، فأغضبت بمضاداتك إياه فى أفعاله . فأرصد لك ختلة

ينتهزها منك ، إذ عَدَّ كل ذلك إنصافاً منه لظُلومِيه ، ونُصرة عليه لغلوبيه .
فأخذ إحدى أختيك ، مكافأة لذلك وعقاباً ، فَقدَّر أنه أدرك ذُحلاً ،
ونال تَبَلاً .

والهاء في (رآه) : عائدة إلى الدهر ، فَتفاعل هنا هو المفعول ؛ ولا يكون
مثل هذا عند سيبويه إلا في الأفعال التفضائية التي في معنى الشك والعلم فَرآه
هنا : المتعدية إلى مفعولين . وإذا كان كذلك ، فَالجملة التي هي قوله (أدرك
تَبَلاً) : في موضع المفعول الثاني . وَخَتَلَا : مصدر في موضع الحال ، من باب
أَتَانَا غَدَوًا وَمُسَيًّا . والانتياش : التخليص والانتقاض .

(وَهُوَ الضَّارِبُ الْكَتِيبَةَ وَالطَّعْنَةُ تَغْلُو وَالضَّرْبُ أَغْلَى وَأَغْلَى)

أى أن الكتيبة متمنعة ببأسها شديدة ؛ فَالطعنة تَغْلُو فيها ، أى تغلو وتشتد
على مريدها منها . فإذا كانت الطعنة الواحدة غالية ؛ فَالضرب أَغْلَى منها ،
لأن الطعن أَمَكَن من الضرب ، إذ هو على بُعْد ، والضرب على قُرْب ، وقال :
(والطعنة) ثم قابلها بالضرب ، احتياجاً لإقامة الوزن . وكان أذهب له في
الصنعة — لو أزن له — أن يقابل الطعنة بالضربة ؛ والطعن بالضرب .

— ١٠٨ —

وله ايضاً :

(كَلَمًا رَامَ حَطَّهَا اتَّسَعَ الْبَيْتُ حَيُّ قَنَطَى جَبِينَهُ وَالْقَذَا لَا)

بَنَى بَنِيًا : مصدر بني إما أن يكون قد تُكَلِّم به ، وإما أن يكون
على الضرورة ، لأن الشاعر إذا اضطر ، كان له أن يرُدَّ مصادر الأفعال
الثلاثية غير المزيدة إلى (فَعِل) ، وإن اسْتُعْمِل في الكلام على ذلك زيادة
وغير زيادة . مثال ذلك ، بَعْدَ بَعْدًا ، وَذَهَبَ ذَهَبًا ، وَكَذَبَ كَذَبًا ، فِيرُدُّ كل

ذلك إلى قتل . هذه حكاية الفارسي . « والجبين » : من أمام الرأس .
« والتليل » من ورائه .

يقول : كلما رام (ابن لاؤن) ملك الروم هدم هذه القلعة ، أوسع سيف
اللهوة بناءها وأطاله ، حتى امتد ظلّه من أمامه ، فقطى جبينه ، ومن ورائه
فقطى قذاله . أى قذال ملك الروم وجبينه .

(وتوافيهم بها في القنا السمر كما وافت العطاش الصلّالاً)
الصلّال : الأرضون التي لم تُمطر بين أرضين ممطورة . واحدتها صلّة ،
وقيل : هي الأمطار المتفرقة . ويروى (الضلّال) : وهي بقايا الماء ، واحدتها ضللّ
وقيل الضللّ : الماء الجارى تحت الحجر . ويقول : توافيهم بها أو بالنايا
وهي في القنا السمر ، يبادر جيشك إليهم بالقتل كما تبدر الأنفس العطاش بقايا
الماء . والعطاش أحرص عليها ، لأنهم لا يشقون بالرّى ، لقلة الماء ، فهم
يتساقون إليه . ولو كان كثيراً وثقوا بما يأتيهم من الرّى ، فلم يتسابقوا .

وقوله : في (القنا السمر) : في موضع نصب على الحال ، أى مستقرة
في القنا السمر ، وملتبسة بها ، كقولك : خرج زيد في ثيابه : أى لابساً لها ،
مشملاً بها ، و (كما وافت) أيضاً نصب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى موافاة
مثل موافاة العطاش . ولو قال قائل : إن (في) مع قوله : (بها) اسم على حدة
(فاعل) مقلوب موضع العين إلى اللام ، من هافت الإبل تهاف : إذا عطشت
لكان حسناً . وهذا الباب كثير ، قد عمل سيبويه وأهل اللغة فيه أبواباً .
فكان المعنى حينئذ أن الرماح تبدر شرب دماهم ، فكانها عطشة إليها ،
كما يتندر العطاش الماء .

(أبصروا الطعن في القلوب درّا كما قبل أن يبصروا الرماح خيالاً)

أى رأوا أصحابهم مقتولين ، فشاهدوا الطعن فيهم دراكاً قبل أن يروا
أشباح الرماح .

وإن شئت قلت : أعجلتِ الرماحُ هؤلاء القتلى أن يتوقعوا قبل ذلك ،
فيروها في نومهم . يذهب إلى أنه لم يك هناك توعد من سيف الدولة ،
ولكن فجئتهم قتلهم .

وقد يتوجه المعنى على أنهم أبصروا الطعن في قلوبهم دراكاً بالقرع قبل
أن يروا نفس الرماح ، كأن القرع قتلهم .

وليس قول من قال إن البيت مقلوب المعجز والصدر ، لأن ذلك فاحش .
يذهب إلى أنه أراد : أبصروا الرماح خيلاً ، قبل أن يبصروا الطعن في القلوب
دراكاً ، استدلالاً بقوله :

يرى في النوم رُمَحَكَ في كُلاه ويخشى أن يراه في المنام
(أَيْ عَيْنُ تَأْمَلُنْكَ فَلَا قَتْلَكَ وَطَرْفُ رَنَا إِلَيْكَ فَآلَا)
أى أنك مُتَهَيِّبٌ ، فإذا رأتك العين تغشتها هيبتك ، ولم تتمل ،
منك فتصنكُ وصف من لقي الموصوف ، وأَيْ طَرْفُ رَنَا إِلَيْكَ ،
فأنكر أن شعاعك يغلبه ويبهزه ، فيمنعه إدامة النظر إليك ، وكرهه عليك
كقوله هو فيه :

كأن شعاع ضوء الشمس فيه ففي أجسامنا عنه انكسار
أراد : (أَيْ طَرْفُ) ، فاجتزأ بالأول عن الثاني ، كقولهم ، أينما فعل
ذلك أخزاه الله ، أراد : (أَيْ وَأَيْكَ قَل) . من أبيات الكتاب :

فأبى ما وأبك كان شراً فسبق إلى المنية لا يراها
(كَلَّمَا أَعْجَلُوا النَّذِيرَ مَسِيرًا أَعْجَلَتْهُمْ جِيَادُهُ الْإِعْجَالَا)

أى كلما آب إليهم المنذر بإقبال خيل سيف الدولة مُعْجَلاً سبتوه ، كأن
ذلك قد وَقَعَ في روعهم قبل الإنذار ، فتُعْجِلُهُمْ خيله عن العَجَلَة التي تَكْلُفُها
للمرَب نخيل سيف الدولة منهم ، في إعجالها إياهم ، بمنزلتهم من النذير ، في
إعجالهم إياه .

(رَبِّ أَمْرِ أَتَاكَ لَا تَحْمَدُ الْقَمَّالَ فِيهِ وَتَحْمَدُ الْأَفْعَالَ)

هؤلاء جيش من الروم ، نزلوا على (الحَدَث) فنذروا بعسكر سيف
الدولة ، فانهزموا ، فالانهزام محمود ، والانهزم غير محمود على ذلك ، لأنهم
فرّوا وخلّوا له سبيله ، اضطراراً لا اختياراً : والاضطر غير محمود على فعله ،
وإن كان فعله في ذاته حميداً . وهذا كقوله هو :

فولّى وأعطاك ابنه وجنودهُ جميعاً ، وما أعطى الجميع ليحمداً
(وَقِسِي رُمِيَتْ عَنْهَا فَرَدَّتْ فِي قُلُوبِ الرُّمَاءِ عَنْكَ النَّصَالَ)

أى رموك فأخطوك ، ورميتهم أنت فأصبتهم .

(أَخَذُوا الطُّرُقَ يَقْصَعُونَ بِهَا الرُّسُلَ فَكَانَ انْقِطَاعُهَا إِرْسَالًا)

أى لما قطعوا الطُّرُقَ ، فلم يمكن الإرسال ، استمع الناس وتطلّعوا إلى
عرفان الأنباء ، فأحوجهم ذلك إلى إنعام البحث ، حتى عرفوا مع انقطاع
الرُّسُلِ ، ما كانوا يعرفون بالإرسال أو أكثر ، فكان الانقطاع صار إرسالاً
حين أنتج من معرفة أخبار الأعداء ، ما كان يُنتِجه الإرسال .

(مَا مَضُوا لَمْ يُقَاتِلُوكَ وَلَكِنَّ الْقِتَالَ الَّذِي كَفَّاكَ الْقِتَالَ)

(لم يقاتلوك) : جملة في موضع الحال ، أى هؤلاء — وإن لم يقاتلوك —

فما مضوا غير مقاتلين لك . وذلك القتال هو علمهم بظفرك بهم ، وعلمهم
باعتيادك إبادةهم ، وهو الذى حملهم على ترك القتال ، فهو الذى
كفّاك القتال .

ف قوله : (القتال) ، نصب بلكن ، و (ائى) ؛ خبر لـ كن ؛ أى ،
ولكن القتال القديم الذى علموه منك ، هو ائى كفاك القتال الآن .

(والثبات الذى أجادوا قديماً علم الثابتين ذا الإجفالا)

أى لما ثبتت للهاجين منهم فبدوا ، امثل هؤلاء خلاف ذلك . خشية
أن يحل بهم ما حل بأوائلهم ، فهربوا وأجفلوا ، وكانوا من ذوى النجدة
والثبات .

(بسط الروع فى النهر يمينا فتولوا فى الشمال شمالا)

إن شئت قلت : أتاىم الروع من إيمانهم وشمتلهم . وإن شئت قلت :
ضاعف الروع عساكر سيف الدولة فى عيونهم ، فقرؤا ولم يثبتوا .

- ١٠٩ -

وله ايضا :

(يقمضن فى مثل المدى من بارد ينز الفحول ومن كالحصيان)

القماص . النزوان ، حكى سيبويه عن العرب أفلا قماص بالعر ، وقال هو
مثل هذا الماء الذى ذكر المتنبي (أرسناس) دائم البرد مشى ومصيفا ،
وكانت هذه الغزوة صيفية . فيقول : إن هذا الماء خصى الخيل ، فألها البرد
إيلام المدى ، وهى السكاكين ، حتى قلص ذلك البرد الخصى ، فعاد الفحل
منهن كالحصى . وقال : (من بارد) ، فوضع الصفة موضع الموصوف ، لأنه
قواه بالنعى ، وهى الجملة التى هى قوله : (ينز الفحول) فصارت الصفة كالاسم ،
بما هيأ لها من الوصف . ولولا ذلك لـ قبح . قال سيبويه : لو قلت ما أتانى
اليوم إلا قوى ، وإلا بارداً ، لم يكن فى قوة قولك : ما أتانى اليوم إلا
رجل قوى ، وإلا ماء بارداً .

(والله بين عَجَاجَتَيْنِ مُخْلِصٌ تَتَفَرَّقَانِ بِهِ وَتَلْتَقِيَانِ)
يعنى عَجَاجَةُ الإِسْلَام ، وَعَجَاجَةُ الرُّومِ رُبَّمَا جازت النهر فالتقتا ، وربما
قصرنا عن ذلك فتفرقتا .

(رَكِضَ الْأَمِيرُ وَكَالْجَيْنِ حَبَابُهُ وَتَنَى الْأَعْنَةَ وَهُوَ كَالْعِقْيَانِ)
أى جاوزه أبيض بريثاً من الدم والقتل لم يقع بعد ، ثم أوقع بالروم
فسالت دمازهم فى (أُرْسَنَاسِ) فاحمر ، وَعَئْرَهُ للرجوع ، وهو من ذلك الدم
أحمر كالعقيان ، وأراد : ركض الأمير الخيل فحذف المفعول .

(وَحِشَاهُ عَادِيَّةٌ بِغَيْرِ قَوَائِمٍ شُغِمَ الْبُطُونُ حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ)
يقول حشاسيف الدولة هذا النهر شُعْمًا سَوْدًا بالقار عُمَمًا : أى لا تحمل .
وإنما أقام الشُّغْنَ فى هذا النهر مُقَامَ الخيل . وقال : (عَادِيَّةٌ بِغَيْرِ قَوَائِمٍ) لأن
الشفن ساجحة لا ماشية . ونظير قوله : (حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ) قول الآخر فى
وصف سفينة :

وإلى نذاك ركبتهَا زَنْجِيَّةٌ كَرَمَتْ مَنَابِتُ أَصْلَاهَا مِنْ عَرْعَرِ
(وَعَلَى الدَّرُوبِ وَفِي الرُّجُوعِ غَضَاضَةٌ وَالسَّيْرُ مَمْتَنَعٌ مِنَ الْإِمْكَانِ)
أى : كان الذى عَدَدْنَا من أحوالك ، وذكرناه من أخبارك على
الدروب .

وإن شئت قلت : وعلى الدروب لك آثار أيضاً ، إذ فى الرجوع غَضَاضَةٌ
وقصان على الرَّاجِعِ ، والسير حينئذ صَمْبٌ لا يُمكن ، وقوله :
(وَفِي الرُّجُوعِ غَضَاضَةٌ) و (السَّيْرُ مَمْتَنَعٌ) ، جملتان فى موضع الحال .
ولو قال : (وَالسَّيْرُ مَمْتَنَعٌ) ، لكان الكلام تاماً ، لأنه قد علِمَ أن الممتنع
غير ممكن . ولكن القافية وباقى بناء البيت أحوجاه إلى قوله : (مِنْ
الْإِمْكَانِ) .

(وَفَوَارِسٌ يُخَيِّى الْحَمَامُ نُفُوسَهَا فَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْحَيَوَانِ)
من شأن الحمام أن يميت ولا يُحيى، لكن هؤلاء يُحيى الحمام نفوسهم،
بما يتبع موتهم فى الحروب من على الذكر ؛ وجميل انشاء ، بحسن البلاء ،
كقول أى تمام :

أَرَأَيْتُمُ الْمَايَا فَالْقَتِيلُ لَدَيْهِمْ مَنْ لَمْ يُخَلِّ الْعِيشَ وَهُوَ قَتِيلٌ
وإن شئت قلت : يُحيى الحمام نفوسهم ، وهؤلاء يُحيونهُ ويؤثرونهُ ؛
فكأنهم ليسوا من الحيوان ، لأن الحيوان يكرهون الحمام ؛ وهؤلاء يحبونه
ويؤثرون حبَّ الحمام نفوسهم .

(حُرِّمُوا الَّذِى أَمْلَأُوا وَأَدْرَكَ مِنْهُمْ أَمَلُهُ مَنْ عَادَ بِالْحَرَمَانِ)
أى الذى أملأه من الظفر بسيف الدولة ؛ وأحرك الناجى منهم بنفسه أمله
الحادث له حينئذ ، لأنه لما حُرِّم الظنر ، وعلم أن سيف الدولة مظفر به ، جعل
أقصى آماله السلامة والرجاء بذاته ، فمن تهيأ له ذلك منهم ، فقد نال أمله
الحادث ، وإن كان قد حرم ذلك الأول . ومحوه قول خمرى القيس :
وقد طوفت فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الفنيمة بالإيابِ
ومن أشعار المثل :

الَّيْلُ دَاجٍ وَالْكِبَاشُ تَنْتَطِحُ فَمِنْ نَجَا بِرَأْسِهِ قَدْ رَبِحَ

- ١١٠ -

وله أيضا :

(عُقْبَى الْيَمِينِ عَلَى عُقْبَى الْوَعَى نَدْمٌ مَاذَا يَزِيدُكَ فى إِقْدَامِكَ الْقَسْمِ)
كان الدمستق أقسم على أن يلتقى سيف الدولة . فلما لقيهم انهزم ،
فندم على قسمه ، فجعله المتنبي مثلاً . يقول : إِذَا حَلَفْتَ أَنْ تَلْقَى مَنْ لَسْتَ

قِرْنَاهُ مُوَازِيَا ، وَلَا كُفُوًا مُسَاوِيَا ، نَدِمْتُ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْكَ مِنْ حَلْفِكَ .
ثم قال : ماذا يزيدك في إقدامك القسم ؟ أى لا تقسم فإن ذلك لا يزيدك في
إقدامك ؛ بل ربما أعقبك الندم ، وهذا نحو قول العرب : الصدق يُنبئُ عنك
لا الوعيد .

وقوله : (على عُقْبَى) متعلقة باليمين وإن لم يُستعمل منه فعل . وحروف
الجر إنما تتعلق بالأفعال والأسماء المشتقة منها . لكن جاز تعلقها باليمين ،
لأن في اليمين معنى الحلف ؛ فكما كانت تتعلق بحلف ؛ كذلك تعلقت بما
هو في معناها . والعُقْبَى : العاقبة .

(وَلِي صَوَارِمُهُ إِكْذَابَ قَوْلِهِمْ فَهِنَّ أَلْسِنَةُ أَفْوَاهِهَا الْقَمَمُ)
كان زعيم الروم أقسم ليغلب سيف الدولة أو لا يبرح ؛ فكان الأمر
بمخلاف ما أقسم عليه ليكُونَنَّ ، فأعقب ما كان من ذلك القسم ، أشد ما يكون
من الندم . فيقول : ولي سيف الدولة صوارمه إكذاب قول هؤلاء ، بإصارتهم
إلى الخنث ، لأنهم لما واقعوه ، لم يلبثوا أن انهزموا ، قال : (فَهِنَّ أَلْسِنَةُ) يعنى
السيوف ، شبهها بالألسنة في الصورة والمضاء ، وجعل هامهم انقلقة بها ، بمنزلة
الأفواه التي تكون بها الألسنة ، وجعل عمل السيوف في الهام ، بمنزلة الفتيان
المرخصة لهم في الهرب .

ومما شبه فيه السيف باللسان قول الشاعر :

وَسَيِّفِي مِنْ خَوْضِ الدِّمَاءِ كَأَنَّهُ بِكَفِّي لِسَانُ الذِّيبِ أَوْلَغَهُ الدِّمَاءُ

ومما شبه فيه السنان باللسان أيضاً قوله :

وَأَسْمَرُ فِي رَأْسِهِ أَزْرَقٌ مِثْلُ لِسَانِ الْحَيَةِ الصَّادِي
(وَشُرْبٌ أَذْكَتِ الشُّغْرَى شَكَايَهَا

وَوَسَّيْنَهَا عَلَى آثَانِهَا الْحَكَمُ)

أى أحمى طلوع الشّرى العبور ، وهو أوان اشتداد الحر ، وانقطاع
المطر ، شكائم هذه الخيل الضامرة . والشكائم : قنوس اللّجُم ، واحدها شكيمة
وقيل : الشكائم : الحكم ، فاستحرت الحكم حتى عادت كالمكواة ،
فوسمت آناف الخيل ، كما يسمها السكاوى بالنار .

(حتى وَرَدَنَ بِسَمْنينِ بِحَيْرَتِهَا تَنْشُ بِالْماءِ فى أَشَدِّ أَقْهالِ اللّجُمِ)
أى أن الخيل شربت من بحيرة سمنين . ففلا ذلك الماء فى أفواهها ،
باستحارار اللجم التى فى أشداقها ، كان ذلك الحر الذى فى الحديد هو الذى أحمى
الماء فغلى فى أفواه الخيل .

(وَأَصْبَحَتْ بِقُرَى هَنْزِيطَ جَائِلَةً تَرعى الظُّبَا فى خَصِيبٍ نَبَتْهُ اللَّمَمُ)
الخصيب هنا : الهام ، ونبتها الشّعَر . والخصيب كناية عن كثرة
الشّعَر . وإما عنى أن هؤلاء القتل شباب لم يصلحوا بعد ، وهم يَكْنُون
عن كثرة الشعر وسواده بالخصب ، وعن ضد ذلك بالتمحل فما جاء فى
ذلك قوله :

خَلِيلٌ لَوْنُ الشَّيبِ دَالٌ كَرِهَتُهُ فَمَا أَحْسَنَ المَرْعى وَمَا أَقْبَحَ المَحْلا
وقال :

رَأَتْ أَفْحَوَانَ الشَّيبِ فَوْقَ خَطِيطَةٍ إِذَا امْطَرَتْ لَمْ تَسْكُنْ صُؤَابِهَا
شبه رأسه حين صالغ بالخطيطة ، وهى الأرض التى لم تُمَطَّرَ بين أرضين
مطورتين . وإذا لم تُمَطَّرَ لم تُنْبِت . وقال : (تسكن صؤابها) : أى أنه
ليس هنا شعَر فيستتر فيه الصُّوَاب لَوْ مُطَّرَ ، ولانعلم أحداً شبه الشيب بالأفحوان
إلا هذا الشاعر قال أبو النجم فى تشبيهه قلة الشعر بالجرب (أجرب الفالى
إذا الفالى فلا) كقولك : أهيجت الأرض : وجدتها هائجة النبات .
وله نظائر كثيرة .

(فَمَا تَرَكْنِ بِهَا خُلْدًا لَهُ بَصَرٌ تَحْتَ التُّرَابِ وَلَا بَازًا لَهُ قَدَمٌ)

استثارت هذه الخيل من مُنهزمى الروم من وَلَجَ بطن الأرض ، وسلكَ الأخاديد ، فصار بتخلله التراب ، بمنزلة الخُلْدِ وهى الفأرة العمياء ، إلا أن الخلد هنا إنسان وله بَصَرٌ ، إنما أخرجه بقوله : (لَهُ بَصَرٌ) من نوع الخلد إلى نوع الإنسان . إذ هو المختبئ فى التراب ، وليس يُخلد فى الحقيقة ، إنما هو إنسان ، وإنما شبهه بالخلد فيما ذكرت لك . وكذلك أنزلت منهم صَقَر الخيل والعُقاب ، فصار بازًا فى تسنُّه المراقب ، كنسَم البوازى ، إلا أن له قدمًا ، إذ ليس بباز فى الحقيقة . وبقوله : (قدم) أخرجه من نوع البازى إلى الإنسانية ، كما أخرجه من نوع الخلد بقوله : (له بصر) وهذا الإخراج مליح ، وإن كان قوله : (له بصر) و (له قدم) ، من باب الرسم لامن باب الحذف ، فقد أحال ، ففهمه ، فإنه لطيف .

(وَلَا هِزْبًا لَهُ مِنْ دِرْعِهِ لِبَدٌ وَلَا مَآةَ لَهَا مِنْ شِبْهِهَا حَشَمٌ)

أى : درعه له كاللبدة للأسد ، (ولها من شِبْهِهَا حَشَمٌ) : أى : جوارٍ مثلها فى الحسن والسِّنِّ يَخْدُمُهَا . وبقوله : (من درعه لِبَدٌ) أخرجه من نوع الأسد ، لأن الأسد لا يَدْرِعُ . وبقوله : (لها من شِبْهِهَا حَشَمٌ) أخرجها من نوع المهابة ، لأن البقرة ليس لها خدم من نوعها .

وهذان الفصلان : أعنى (له من درعه لِبَدٌ) و (لها من شِبْهِهَا حَشَمٌ) عرضان ، ليسا برسمين ، كالْبَصَرِ والقَدَمِ الذى قبله ، لأن البصر والقدم جوهران .

(عَبَرَتْ تَقْدُمُهُمْ فِيهِ وَفِي بَلَدٍ سُكَّانُهُ رِمَمٌ مَسْكُونُهَا حُمٌ)

والحُم : الفَحْم ؛ واحدته حُمَةٌ بالهاء . سى بذلك لسواده . أى قتلتهم وأحرق منازلهم ؛ فلم يبق من أنفسهم إلا الأعظم رَم ، وهى البالية ، ولم يبق من

مَنَازِلَهُمْ إِلَّا مَاعَادُ حُمَا . فَأَلْأَعْظَمُ هِيَ السَّاكِنَةُ لِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ السَّكَانِ ،
وَالْمَسْكُونَةُ هِيَ الْحُمَمُ ، لِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْمَسَاكِينِ .

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَابَلَ بِهِ بَيْنَ الرَّمَمِ وَالْحُمَمِ : لَفْظًا وَمَعْنَى . وَقَوْلُهُ : (سَكَانُهَا
رِمَمٌ) جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ النَّعْتِ لِبَلَدٍ . وَقَوْلُهُ : (مَسْكُونُهَا حُمَمٌ) : جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ
النَّعْتِ لِرِمَمٍ . فَكَأَنَّهُ قَالَ : فِي بَلَدٍ خَالَ مُحْرِقٌ .

(وَفِي أَكْفَهُمُ النَّارُ الَّتِي عُبِدَتْ قَبْلَ الْمَجُوسِ إِلَى ذَا الْيَوْمِ تَضْمَرُ) .

شَبَّهِ السُّيُوفَ بِالنَّارِ فِي صِفَاتِهَا وَتَهَابِهَا وَقُوَّةِ تَأْثِيرِهَا . وَقَوْلُهُ : (عُبِدَتْ
قَبْلَ الْمَجُوسِ) : كَلَامٌ صَحِيحٌ ، لِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى السَّيْفِ طَبِيعَةٌ ، وَعِبَادَةُ الْمَجُوسِ
النَّارِ شَرِيعَةٌ ، وَالطَّبِيعَةُ أَقْدَمُ مِنَ الشَّرِيعَةِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ السُّيُوفُ الْمَحْدُثَةُ
الْآنَ ، هِيَ السُّيُوفُ الَّتِي اسْتَعْمَلَتْ قَبْلَ عِبَادَةِ الْمَجُوسِ النَّارَ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الَّتِي
عُبِدَتْ أَفْرَادُهَا مِنَ السُّيُوفِ ، أَوْ عُبِدَتْ أَمْثَالُهَا . وَمَعْنَى عِبَادَتِهَا : الْقَوْلُ
بِهَا ، وَالِاسْتِغَاثَةُ إِلَيْهَا .

وَقِيلَ : اشْتَمَلَهُمْ بِهَا : كَاشْتَمَلَ الْإِسْلَامُ بِالصَّاحِفِ ، وَالنَّصَارَى
بِالْإِنْجِيلِ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّعَارِ الْإِلَهِيِّ .

وَقِيلَ ، مَعْنَى (عُبِدَتْ قَبْلَ الْمَجُوسِ) ، إِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا عَتِيقَةٌ قَدِيمَةٌ .

(تَلَقَّى بِهِمْ زَبَدَ الْتَّيَّارِ مُقَرَّبَةً عَلَى جَحَافِلِهَا مِنْ نَضْجِهِ رَثَمٌ)

يَعْنِي زَوَارِقَ يَحْمِلُهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَصْحَابِهِ ، حَتَّى عَبَرُوا عَلَيْهَا هَذَا النَّهْرَ .
وَالرَّثَمُ : بَيَاضُ الشَّغَةِ الْعَلِيَا ، وَالْجَحْفَلَةُ لِلْفَرَسِ : كَالشَّغَةِ لِلْإِنْسَانِ ، يَقُولُ :
جُرْتُ بِهِمُ التَّيَّارَ عَلَى هَذِهِ الزَّوَارِقِ . وَالتَّيَّارُ : هُوَ الْمَوْجُ يَقْذِفُ عَلَى مَقَادِمِ
هَذِهِ الزَّوَارِقِ ، وَالسُّمَيْرِيَّاتِ بِالزَّبَدِ ، وَهُوَ أَبْيَضٌ ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ الزَّبَدَ عَلَيْهَا
رَثَمٌ . ثُمَّ جَعَلَ الزَّوَارِقَ مُقَرَّبَةً ، إِنَّمَا الْمُقَرَّبَةُ الْخَيْلُ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبرُونَ

عليها هذه الأنهار بالخييل ، فأقام هو الزوارق مُقام الخيل ، فاستجاز لذلك أن يصفها بالمقربة . ولما جعلها خيلاً مُقربة ، استجاز أن ينسب إليه أعضاء الخيل وشبهاتها . فجعل لها جَحْفَلَةً ، إنما هي للخييل ، وجعل لها رَتَمًا حين جعل لها جَحْفَلَةً . والنَضَح : مارَمَى به الزَّيْد . يقال : نَضَحَ وَنَضَخَ : وقيل ما كان فِعْلاً فهو نَضَحٌ ، بالحاء غير معجمة ، وما كان اسماً فهو بالناء معجمة . وهكذا رُوي هذا البيت عنه .

فإن قلت : كيف قلت إن المقرب هنا زوارق ، وهو يقول عَقِبَ هذا البيت :

تَجَفَّلُ الموجُ عن لَبَّاتِ خَيْلِهِمْ كما تَجَفَّلُ تحت الفارة السَّعَمُ
فأبنا أنهم عبروا على الخيل . وقال في موضع آخر وذكر هذا العبور :
حتى عَبَرْنَ بِأَرْسَنَاسٍ سَوَابِحًا يَنْشُرْنَ فِيهِ عِمَائِمَ الْأَبْطَالِ
فالقول عندي : أن بعضهم عَبَرَ على الخيل ، وبعضهم على زوارق . وقد يجوز أن يكون قوله : (تَجَفَّلُ الموجُ عن لَبَّاتِ خَيْلِهِمْ) : عني فيه بالخييل الزوارق ، على ما تقدم في البيت الأول .

ومما يدل ذلك أنه عني الزوارق قوله بعد هذا :

(دُمُّ فَوَارِسُهَا رُكَّابُ أَبْطَنِهَا
مَكْدُودَةٌ وَبِقَوْمٍ لَا بِهَا الْأَلَمُ)

فالخييل لا تُرَكَّبُ بطونها ، وإنما يُرَكَّبُ منها الظهور . وأراد المتنبي بقوله : ركاب أبطنها : أن يفصلها من أنواع الخيل . وقوله : (بقوم لا بها الألم) : إنما الألم باقنء لا بها وإن كدَّت . وقيل : الألم بالقوم العاملين فيها . (مِنْ الْجِيَادِ الَّتِي كَدَّتِ الْعَدُوُّ بِهَا وَمَالَهَا خِلْقٌ مِنْهَا وَلَا شَيْمٌ)

أى السفن مبلغة لك من عدوك ، ما أبلغتك الخيل منهم ، فهى من الخيل
بمشاركتها إياها فى ذلك . لكن لاتشبهها فى حلقة ولا خليقة . الخيل حيوان ،
والسفن عيدان .

(صَدَمَتَهُمْ بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ وَصَمَّهَرَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمٌ)
أنت غُرَّتُهُ : أى أنت أمامه ، فكنى بالفرة عن التقدم والشهرة . ولما
جعل للخميس غرة ، فوصفه بما هو من شيات الخيل ، استجاز أن يصف
بالغمم ، وهو كثرة شعر الناصية . فجعل الرماح المشرعة فى وجهه بمنزلة الشعر
الكثير . وجعل الغمم وهو عَرَضٌ ، خبراً عن السهرية ، وهى جوهر نبجوزاً
وكأنه أراد ، وتكاثف السهرية فى وجهه غممٌ . لكنه حذف المضاف ،
وأقام المضاف إليه مقامه . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾
أراد : ولكن (ذا البر من آمن بالله) ، وليقابل الجوهر بالجوهر ، والعرض
بالعرض . ولذلك اعتقه النحويون الحذف فى مثل هذا .

(فَلَا سَقَى الْغَيْثُ مَاوَارَاهُ مِنْ شَجَرٍ
لَوْ زَالَ عَنْهُ لَوَارَتْ شَخْصَهُ الرَّخْمُ)

يعنى ماوارى ابن شمشق من الشجر ، وذلك أن الشجر حال بينه
وبين المتبعين ، فأقلت . فدعا المتنبى على هذا الشجر ألا يسقيه الغيث حين وارى
هذا المنهزم ، فكان ذلك سبب نجاته . (لو زال عنه) : أى لو زال هذا الشجر
عنه ، فلم يوارهم لقتل ، فتجمعت الرخم عليه تواريه بشخصها .

وقيل : لو رآته لأكلته ، فيتوارى فى أجوائها . وروى : لو ارى شخصه
الرجم الجيم وهو القبر ، والأول أسبق ، لأن القتل فى المعتك ، إلى أن
تأكله الطير والسباع أقرب منه إلى أن يقبر ، وبذلك وصفت العرب قتلاها .
كقول عنتره :

فَرَكْتَهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَنْشَنُهُ مَا بَيْنَ قُلَّةٍ رَأْسِهِ وَالْمَعْصَمِ

وقال :

إِنْ يَفْقَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهَا جَزَرًا نَخَامِعَةٍ وَنَسْرٍ قَشَعَمٍ

وقال آخر :

تَرَكْتُ أَبَاكَ قَدْ أَطْلَى وَمَالَتْ عَلَيْهِ الْقَشَعْمَانُ مِنَ النُّسُورِ

- ١١١ -

وله أيضا :

(فَارَقْتُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ قَبْلَ الْفِرَاقِ أَدَّى بَعْدَ الْفِرَاقِ يَدُ)

(إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشَّوْقِ الَّذِي أَجِدُ)

مدان البيتان يخاطب بهما سيف الدولة ، بعد فراقه إياه ، وهما يخرجان

على ذم سيف الدولة وعلى حمله .

فما خرجهما على ذمه ، فمعناه : أتى تأذيت بمجاورتكم ، فبعثني ذلك

على فراقكم ، فماضني الدهرُ حيراً منكم ، وتبدلتُ بالأذى راحةً . فصار

ذلك الأذى الذي كان قبلاً يداً عدى الآن . إذ كان سبب تنفلي عنكم ،

وارتيادي ما أحدثته حين وحدته .

وقوله : « إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » يعني من الحال ، وهو

الأذى الذي عدا منهم إليه . هاج شوقي فأعان قلبي على ما يحرقه من ألم

التوحش .

وهو يجوز أن يعني بقوله : « إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » ، ما بينهما

من تفاوت المترتين ، كان ذلك سبباً للأسوأ .

وأما خروجهما على حمده ، فمعناه : شكوتكم قبل أن أختبر غيركم فلما
جَرَّيت من سواكم ، علمتُ أن ما شكوته منكم كان بالحمد أولى .
ثم أعلم أن سيف الدولة مع ذلك كان غير منصفٍ له . وإنما حمده بالإضافة
إلى غيره ، فقال : إذا تذكرت ما بيني وبينكم من قلة إنصافكم لي ، سَلَّاني
ذلك عنكم .

- ١١٢ -

وله أيضا :

(طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ)
أى عظم عندي ؛ وأطمعتُ نفسي أن يكون ، كَذِبًا ، تَمَلُّلاً بذلك ،
لأن الإنسان كثيراً ما يميل إلى تصديق ما يوافقه من الأخبار ، وتكذيب
ملا يوافقه منها ، لما وُضِعَتْ عليه النفس من مُنافرة الحذور ، وملاءمته
ما يحنيها ثمرة الحُبُور ، كقول الشاعر :

وَعَالَتْ نَفْسِي بِالْمَرْجَمِ غَيْبَةً وَكَذَّبْتُهَا حَتَّى أَبَانَ كِذَابُهَا

أبان ؛ أى استبان . « وخبر » مرفوع على مذهب البصريين « بجاءني »
لأنهم إنما يُعْمَلُونَ أَقْرَبَ الْفَعَالِينَ ، ولا بد على هذا من إضمار الفاعل في
« طَوَى » على شريطة التفسير . وإن كان إضماراً قبل الذكر ، لأن خلو
الفعل من الفاعل ، أذهب في القبح من الامتناع من إضمار مالم يتقدم له
مُظْهِرٌ .

ومن حُكْمِ الْعَرَبِيَّةِ ، إِذَا وَرَدَ أَمْرَانِ كِلَاهُمَا مَتَجَنَّبٌ عَلَى حَدِّهِ ،
تُجَنَّبُ أَقْبَحُهُمَا ، وَأَوْثَرُ الثَّانِي . ألا ترى أنهم يكرهون توالي إعلالين ؟ وقد
أخذ الخليل بهما في جاء ونحوه ، حين أبدل وقنب فاحتملها كراهية ما هو
أشد منها ، وهو اجتماع الهمزتين في كلمة واحدة ؛ فتفهمه .

وأما على مذهب الكوفيين فيرفع « خبر » على أنه فاعل (بطوى) .
لأنهم يعملون أسبق الفعلين . فلا بد على هذا من الإضمار في جاءني ، أى طوى
الجزيرة خبر حتى جاءني .

والقول الأول عندى أحسن في هذا البيت ، لأن النكرة التى هى (خبر)
على ذلك القول ، موصوفة بالجملة التى هى (فرغت فيه بآمالى) . إلا أن فيه
ما قد أريتك من الإضمار فى الأول ، على شريطة التفسير . وعلى هذا القول
الثانى ، ليس للنكرة وصف . وقوله : « إلى الكذب » : أراد إلى اعتقاد
الكذب ، كائناً فى هذا الخبر .

ويموز أن يريد إلى التكذيب ، فوضع الكذب موضع التكذيب ، كقوله :
(وَبَعْدَ عَطَاكِ الْمَائَةَ الرِّثَاءَا)

(يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أرفع النسب)
أى أخوتك من سيف الدولة ، وأبوتك وبنتوك من أبى الهيثم ،
(كناية) عن أرفع الأحساب ؛ لأن من كانت لهذا الملك أختاً ، ولهذا
الأمير بنتاً ، فقد نضع نسبه ، وارتفع حسبه . « فكناية » على هذا نصب على
المصدر ، أى أكنى بهذين السببين عن أرفع نسبين .

(أجل قدرك أن تسمى مؤبنة ومن يصفك فقد سمالك للعرب)
أى إني أكرمك عن الإيضاح لا سمك ، فأعدل عن الإيضاح برسمك ،
فإذا وصفتك ورثيتك ، علمت العرب أنى عنيتك ، فأغناني حسن التخليّة ،
هما لا يحسن من التسمية .

ومؤبنة : نصب على الحال والتأين : الثناء على المالك .

(حتى إذا لم يدع لى صدقه أملاً
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي)

أى بكيتُ حتى شَرَقْتُ بالدمع ، وذُبْتُ من حرارة الوجد ، فذتُ جوهرًا
سَيَّالًا ، حتى كاد الدمع يَشْرُق بى ، لدوبى ولُطْفى .

(مَسْرَّةٌ فى قُوبِ الطَّيِّبِ مَفْرَقُهَا وَحَسْرَةٌ فى قُوبِ البَيْضِ وَالْيَلْبِ)
أى أنها امرأةٌ تَطْيَبُ ولا تَلْبِسُ السَّلَاحَ . فَالطَّيِّبُ يَسُرُّ بِمَفْرَقِهَا ،
وَالسَّلَاحُ يَحْسُدُ الطَّيِّبَ ، لِأَنَّهُ لَا يَصِلُ مِنْهَا حَيْثُ يَصِلُ الطَّيِّبُ .

وقال : (فى قلوب الطَّيِّبِ) : ذهابًا إلى أنواعه . ولو ذهب إلى الجنس
أو الشخص لقال فى فؤاد الطَّيِّبِ : وَحَمَلَهُ عَلَى اخْتِيَارِ ذَلِكَ قَوْلُهُ : (فى قلوب
البَيْضِ) لِيُقَابِلَ جَمْعًا بِجَمْعٍ ؛ وَلَوْ قَالَ : فى فؤاد الطيب ثم قال . فى قلوب
البَيْضِ سَاءَتْ الصَّنَاعَةُ ؛ وَكُلُّ وَاسِعٍ .

- ١١٣ -

وله أيضا :

(تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوِّ

قِ إِلَيْهَا وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ)

أى أنها تشكو إلى مَلَقًا ؛ وَأَشْكُو إِلَيْهَا حُرَقًا ؛ ثُمَّ أَقَامَ عَلَى تَمَلُّقِهَا وَتَحَلُّقِهَا
بُرْهَانًا عَيَانِيًّا ؛ فَقَالَ : (الشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ) أى النحول عندى ؛ وَهُوَ
نَتِجَةُ الشَّوْقِ ؛ فَلَوْ كَانَ بِهَا شَوْقٌ كَمَا بِي ؛ لَكَانَ بِهَا مِنَ النُّحُولِ مَا بِي ؛
وَلَا نُحُولَ لَدَيْهَا فَلَا شَوْقَ بِهَا .

(مَنْ رَأَاهَا بِعَيْنِهِ شَاقَهُ الْقُطَّانُ فِيهَا كَمَا تَشُوقُ الْحُمُولُ)

أى من رأى الدنيا بعينه ؛ أى بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ بِهَا ؛ شَاقَهُ الْبَاقُونَ فِيهَا ؛
لَعَلَّهُ أَنَّهُمْ ظَاعِنُونَ ، كَمَا يَشُوقُهُ الدَّاهِبُونَ عَنْهَا ، فَالْقُطَّانُ وَالرَّاحِلُونَ عَنْهَا
سَوَاءٌ ، فِى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَشُوقَهُ النَّوْعَانِ ، لَعَلَّهُ بِاشْتِمَالِ الْفَنَاءِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ .

وقوله : (الحُمُولُ) : أراد كما يشوقه المتحملون ، فوضع (الحمول) ،
موضعها . وإن شئت قلت : عنى بالحمول هنا . أُسْرَةُ المَوْتَى .

(صَحِبْتَنِي عَلَى الْفَلَاةِ فَتَاةٌ عَادَةُ اللَّوْنِ عِنْدَهَا التَّبْدِيلُ)

كنى بالفتاة عن الشمس ، وآثرَ التَّأْنِيثَ لتأنيث العرب أسماءها ، ولذلك
سمَّوها (الجارية) عند الفارسي . و (عَادَةُ اللَّوْنِ عِنْدَهَا التَّبْدِيلُ) : أى
أنها حمرته وقتاً ، وببيضه وقتاً ، وصفراء آخر . فعادة لونها التبديل في ذاته .
فكان يجب على هذا — لولا الوزن والقافية — أن يقول : التَّبْدِيلُ ، لكن
وضع التبديل موضوعة اتساعاً .

وإن شئت قلت : التبديل لها لوناً بعد لون .

(سَتَرْتُكَ الْحِجَالَ عَنْهَا وَلَكِنْ بِكِ فِيهَا مِنَ اللَّمَى تَقْبِيلُ)

الحِجَالُ : الأُمُرَّةُ عليها السِّكَاكُ خاصَّة . واحدها حَجَلَةٌ . وقد يكون حِجَالُ
جمع حَجَلٍ . وحَجَل جمع حَجَلَةٍ . يقول : أَدُمْتُ أَنَابَهْذِهِ الشَّمْسُ ، وأما أنت
فَسَتَرْتُكَ الحِجَالَ عَنْهَا . ولم تَمْشِ فِي الْبَرَّازِ ، فَتَوَرَّتْكَ سُمرَةٌ كما أَوْرَثَنِي ،
لكن سُمرَةٌ شَفَتِيكَ سُمرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ ، فكأن الشمس قبَّلَتْكَ ، فألقت في شَفَتِيكَ
سُمرَةً ، وهو اللَّمَى . (وفيها) الهاء راجعة للحِجَالِ . أى وإن كنت مستورة
بالْحُجُبِ ، فإن الشمس قد احتالت عليك ، ووصلت إليك ، وَقَبَّلَتْكَ ،
وَأَكْسَبَتْ اللَّمَى شَفَتِيكَ .

(لَا أَقْنَا عَلَى مَكَانٍ وَإِنْ طَا بَ وَلَا يُمَكِّنُ الْمَكَانَ الرَّحِيلُ)

أى لا نُقِيمُ دُونَ (حَلَبَ) بِمَكَانٍ ، وإن طاب ذلك المكان ، إلا لو أمكن
ذلك المكان أن يرحل معنا ، فأما ولا يمكنه ذلك ، فلا إقامة لنا عليه ولو طاب
والمناضى هنا الذى هو (لا أقننا) فى معنى الحال أو الاستقبال .

(مِثْلُهَا أَنْتِ لَوْحَتْنِي وَأَسْقَمْتِ وَزَادَتْ أَبْهًا كَمَا الْعُطْبُولُ)
 يقول : أنت مثلها قعلاً ، ولو قال : (مثلها أنت) جاز أن يكون مثلها
 بها في الحسن ، وأن يكون مثلها بها في الإساءة إليه ، فأراد هو أن يبين
 ما أشبهت فيه هذه المرأة الشمس ، فقال : مبيتا للمشابهة ، (لَوْحَتْنِي وَأَسْقَمْتِ) :
 أي الشمس لَوْحَتْنِي وَغَيَّرْتَنِي ، وأنت أسقمتني . والإسقام أشد من التلويح . فلهذا
 قال : (وزادت أبهاً كَمَا الْعُطْبُولُ) يعني هذه المحبوبة . والعُطْبُول : الطويلة العنق .

(وَمَوَالٍ تُحْيِيهِمْ مِنْ يَدَيْهِ نِعْمٌ غَيْرُهُمْ بِهَا مَقْتُولُ)
 (موال) : يعني أوليائه وأقاربه ، يقتل أعداءه ، فيغنم أموالهم ، فيعطيهما
 أوليائه ، فيحييهم بذلك . وقوله : (بها مقتول) : أي يسلبهم إياها ،
 أو مقتول من أجلها .

وقد يجوز أن يحييهم بهذا المغنم ، فيقدرُوا بذلك على قتل أعدائه .

- ١١٤ -

وقال أيضا :

(وَقَدْ كَانَ يَنْصُرُهُمْ سَمْعُهُ وَيَنْصُرُنِي قَلْبُهُ وَالْحَسَبُ)
 يعني هؤلاء الوشاة الذين كانوا يشؤون به إلى سيف الدولة ، كان ينصرهم
 سمعه لأنه لم يكُ يطيق سداً أذنيه عن سماع كلامهم ، وينصرني قلبه بحبه لي ،
 وتكذيبه إياهم ميراً . والنصر بالفؤاد أنفع من النصر بالسمع . وجعل حسبه
 ناصراً له أيضاً ، لأن شرفه حملة على الثبات ، وإلغاء ما يورده عنه حساده .

(وَمَا قُلْتُ لِلْبَدْرِ أَنْتَ اللَّجِينُ وَمَا قُلْتُ لِلشَّمْسِ أَنْتِ الذَّهَبُ)
 أي أني لم أنقصك ، ولا بخصت مناقبك حقها ، كما يذتقص البدر
 لو يشبه باللجين ، أو الشمس لو شُبِّهت بالذهب . وإنما ضرب ذلك مثلاً ،
 وجعل اللجين للبدر ، لكون أن أهل الكيمياء من الطبيعيين يقولون إنه من

أَكْوَانُ الْقَمَرِ ، وَجَعَلَ الذَّهَبَ الشَّمْسَ ، لِأَنَّ أَوَّلَكَ يَزْعُمُونَهُ مِنْ
أَكْوَانِ الشَّمْسِ .

وقيل : هذا البيت تعريض بشعراء سيف الدولة .

يقول : كل واحد منهم يمدحك ، يريدون ما تستحقه من المدح ، ثم
ينقلب المدح ذمًّا . فكأنه يقول للبدر يا فضة ، والشمس يا ذهب ، فيحط
بذلك قدرهما ، ويهبط به خَطَرهما . وأنا لم أقتصر على هذه الرتبة ، ولا قنيت
لك بها ، بل وَفَّيتُ مدحك ما قصرُوا هم عنه ، فسبيل الغضب أن يكون
عليهم لا على .

وَاللَّجَيْنِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَمْ تَسْتَعْمَلْ إِلَّا مُصْغَرَةً ، وَقَدْ عَمِلَ سِيَبُويه
فِيهِ بُوَيْنًا .

(فَإِنْ فَارَقْتَنِي أَمْطَارُهُ فَأَكْثَرُ غُدْرَانِهَا مَانَفَـبٌ)

المطر : ذو مادة : والفدير لا مادة له ؛ إنما هو القطعة من الماء ؛ يغادرها
السيل ؛ أى يتركها ؛ فجعل عطاياه أَمْطَارًا ؛ لكونها ذات مادة ؛ وجعل
ما حصل عنده من عطاياه — وقد انقطع جوده عنه بفراقه له — بمنزلة الغُدْرَانِ
التي لا مادة لها . فيقول : إِنْ كُنْتُ رَحَلْتُ عَنْهُ وَانْقَطَعَتْ عَنِي جَوَانِزُهُ ، فَقَدْ
جَمَعْتُ مِنْ سَوَالِفِهَا وَعَوَارِفِهَا مَا لَمْ يَنْفَدَ أَكْثَرُهَا بَعْدَ .

(وَيَسْتَنْصِرَانِ الَّذِي يَعْـبُدَانِ وَعِنْدَهُمَا أَنَّهُ قَدْ صُلِبَ)

يسفُّه النصارى ؛ ويستضعف أخلاقهم حين يستنصرون بالمسيح عليه السلام
وهم يعتقدونه ميتًا مصلوبًا ؛ ولم ينصر نفسه حينئذ .

— ١١٥ —

وله أيضا :

(كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا)

وَحَسْبُ الْمَغَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا)

الفرق بين الباء التي في (بك) وبين التي في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ أن الباء في كفى بالله داخلة على الفاعل ، وفي بك داخلة على المفعول ، أى كفاك داء . ويجوز أن يكون كفى يدانك داء ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، وداء في كل ذلك نصب على التمييز . ومعنى البيت : كفى بما تلقاه من شدة الزمن ، وتناهى المكروه ، حتى أدّى ذلك إلى تمنى الموت ، واعتدادك به شافياً يعظم بذلك مثوة ما يلقاه . ومن العَجَب أن يَلَاقِي الإنسان بَلِيَّةً ، تَجْمَلُ المِثْلَةَ من أجلها أُمْنِيَّة .

(تَمَنِّيَتَهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا قَاعِيًا أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيًا)
أى تمنيت المِثْلَةَ حين تمنيت صديقاً مضافاً ، أو عدواً مدارياً ، فكلاهما أعوزك وأعياك . فأما تمنّيه الصديق فَسَجِيَّة مألوفة ، وأُمْنِيَّة معروفة ؛ لأنه رِيحَانَةُ الْفُؤَادِ ، وإنما هو الصديق المخلص الْوِدَادِ .

وأما تمنّيه العدو المداجيا ، فهو الْخَطْبُ الْعَجِيبُ ، والخبر الغريب ، لأنها لا نعلم أن أحداً تمنى لقاء عدوّ ، ولكنه إنما عرّض بأنه قد العِزَّة ، ولم يؤت ما كانت همته له لَامِحَةً إليه ، وعينه طامحة عليه ، فنَدَرَ بذلك قدره ، وهان على عدوه خَطَرُهُ ؛ فجاءه بمداجاته ، ولم يتكلف مداراته ، تهاوناً منه به ، ولو كان على عدوه قديراً ، أو في نفسه خطيراً ، لتكلف له المداجاة ، وبين أنه إنما يُبَالَيْنُكَ عَدُوَّكَ ويداجيك ، إذا رآك بحالٍ يحفر بها منك .

يقول : أنا لا صديق يُصَفِّينِي ، ولا عدو يُدَاجِنِي نَفَايَةَ مَأْرَبَةٍ لِي فِي الْحَيَاةِ ؟ بل أحب إلى منها لقاء الوفاة .

(حَبِيبُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى وَقَدْ كَانَ غَدَارًا فَكُنْ أَنْتَ وَافِيًا)

(مَنْ نَأَى) : يقول لسيف الدولة . يقول لقلبه : أنا أحبيتك قبل حبك ، لهذا النأى ؛ وصَحِبْتِكَ قبل صَحْبَتِكَ إِيَّاهُ فعليك أن تبقى لى ؛ وتسَلِّوْ

عن هذا الغادر الذي لم يستعمل الوفاء ؛ فإنك إن لم تفعل فقد عذرتني بحبك
 هنا الذي عذرتني ؛ ولو أسمعده الوزن بأن يقول : وقد كان غادراً ؛ ليُطابق
 قوله وافيّاً ؛ لكان أذهب في الصناعة ؛ وأدّل على الاستطاعة . وقابلي : نداء
 مضاف ؛ أي يا قلبي . ولا يجوز أن يكون بدلاً من الكاف ؛ لأن المخاطب
 لا يبدل منه كما لا يبدل من الخبر عن نفسه لأن المخاطب والخبر عن نفسه قد أُمن
 التباسهما ؛ فقد أغنى ذلك عن الإبدال منهما إذ البديل إنما هو للبيان .

قال سيبويه : فإن قلت : بي المسكين كان الأمر ، أو بك المسكين
 مررت ، لم يجز . ثم احتج بمثل هذا الذي ذكرت لك .

(تَمَاشَى بِأَيْدٍ كُلَّمَا وَاقَتِ الصَّفَا نَقَشْنَ بِهِ صَدْرَ الْبُرَاةِ حَوَافِيَا)

تماشى ؛ يعنى الخيل ؛ أى تماشى بأيدٍ قد سقطت نعالها من السفر .
 وما فى الطريق من الحصى والمدر ، لكن حوافرها شِداد حِداد . إذا وافت
 الصفا — وهى أصلب ما تكون من مواطن الحجر — نقشت فيها أمثال صدور
 البراة : لشدها . وصدر : مفرد موضوع موضع الجمع ، لأنه مضاف إلى جمع .
 وهو كثير فى النظم ومنثور الكلام . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ
 وَنَهَرٍ ﴾ أراد ؛ وأنهار . لأن مياه الجنة أنهار لا نهر واحد . ألا تراه يقول
 كثيراً فى وصف الجنة : ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وقال : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ
 مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ إلى آخر الآية .

وأما فى الشعر فقوله :

لَا تُنْكِرُوا الْقَتْلَى وَقَدْ سُبِينَا فِي حَقِّكُمْ عَظُمَ وَقَدْ شَجِينَا

ورواه بعضهم : (صُدْرُ الْبُرَاةِ) أراد ؛ جمع (أَصْدَر) وهو العظيم

الصدر . ولا يعجبني . إن الحافر إنما يهون صدر البازي — لو صور —
لا جملة البازي كلها . والصفة : جمع ، وحديثه : (صفة) ، وألفه منقلبة عن
واو ، لقولهم : الصفوان والصفواء .

(بِعَزْمٍ يَسِيرُ الْجِسْمُ فِي السَّرَجِ رَاكِبًا)

به وَيَسِيرُ الْقَلْبُ فِي الْجِسْمِ مَاشِيًا)

أى أن الجسم — وإن سار راكبًا — فإن القلب يسير فيه ماشيًا لتوقره
فإنه لا يُعْنِفُهُ مَشْيُ الرَّاحِلَةِ وَالْفَرَسِ . جرياً إلى إدراك مرغوبه ، والظفر بمطلوبه .
(فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَدَّيْهَا وَمَاقِيَا)

أشرف ما في العين إنسانها ، لأن حسن النظر إذا هو به . وكذلك
كافور لزمانه : كالإنسان للعين : أى أنه أشرف بنى دهره . وأعلى عامر
في عصره . وإنا الملوك غبره لعين دهرهم كالبياض والمآقي ، وحسن ذلك
أن كافوراً أسود ، فقد شاكل سواد العين ، وغيره من الملوك الذين
خلفهم المتنبى وراءه بيض ، فقد شاكل البيض والمآقي ، وهذا وإن
كان قد أجاد في مدح كافور . فقد عرّض بسواه . وقلما مرّ له فيه
غريب بيت ، إلا قد جمع مدحاً وتعريضاً : ولذلك قال فيه بعد صدّه عنه :

وَشِعْرِ مَدَحَتْ بِهِ الْكَرَكَدَ نَّ بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّثَى

ولو قال هذا البيت في رجل أبيض ، أعنى (فجاءت بنا) ، لكان
مدحاً لا يجارى ، وتعريضاً لا يجارى ، وإنما نقص عن غاية المدح : لتعريضه
بسواده ، ولكن هذا البيت في الأسود أشدّ تحقّقاً منه في الأبيض لأنه في
الأسود يحوى الطبيعة واللون ، وفي الأبيض ينفرد بما طبع دون اللون : فتفهّمه .

(لَقِيتُ الْمَرُورَى وَالشَّنَاخِيْبَ دُونَهُ وَجُبْتُ هَجِيرًا يَتْرُكُ الْمَاءَ صَادِيًا)

بالغ في صفة حرّ الهجير ، بتركه الماء صادياً : لأن الماء لا يصدى بل
هو مُزِيلٌ لِلصَّدَى وَلَوْ قِيلَ إِنَّ إِصْدَاءَهُ لِلْمَاءِ : إِيَّاسُهُ لَهُ : وتنضيبه إياه : لأن

الصديق ذابيل عما عليه الرّيان ، من النضارة والغضارة ، لكان وجهها .
 (إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِيَ بِالْأَنْدَى فَإِنَّكَ تُعْطَى فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا)
 تعال على ضربين : طبيعي ، ومقتنى . فأما الطبيعي فالفضائل النفسانية :
 كالشجاعة والكرم والفهم والعفة ، وهذا لا يمكن أن يوهب البتة ، لقوله هو فيه :
 وَلَوْ جَازَ أَنْ يَخُونُوا عُلَاكَ وَهَبَتْهَا
 وَلَكِنْ مِنْ الْأَشْيَاءِ مَا لَيْسَ يُوهَبُ
 يعنى الخصال الذاتية ، وخلال الفضل النفسانية ،

وأما المقتنى فنحو المال والجاه والثروة ، فإن هذا في الإمكان أن
 يوهب . يقول له : إذا كان قصارى أفاضل الناس اكتساب المعالي بالأندى ،
 فَإِنَّكَ أَنْتَ تُعْطَى الْمَعَالِيَ فِي نَدَاكَ ، فتوَلَّى البلاد ، وتكسب الأجناد .
 وإن شئت قلت : إن عطايك تُشَرِّفُ الْمُعْطَيْنَ ، فتفضى بهم إلى المعالي ،
 وما كان سبباً للمعلاة فهو معلاة .

وقد ينقلب هذا المعنى على ما قدمناه ، كأنه يريد : إنك لا تحسن المعالي
 إِذْ لَمَادَةً لَكَ تَرْبِّيَهَا وَتُنْمِيهَا بِصَنْعَةِ جَوْهَرِكَ ، ورداءة عنصرك ، حتى إذا
 هَيَّءَ لَكَ مِنْهَا شَيْءٌ ، وقاربت ملكه والاشتمال عليه ، انصرفت عنه ، وسلمته
 إلى غيرك .

(إِذَا الْهِنْدُ سَوَتْ بَيْنَ سَيْفِي كَرِيهَةٍ
 فَسَيْفُكَ فِي كَفِّ تَزِيلُ التَّسَاوِيَا)

أى إذا سوى أهل الهند بين سيفين ، طبعاً ، وصقلاً ، واستجادة
 عنصر : فإن السيف الذى يقع منهما بكفك ، فتضرب به ، يكون أمضى من
 صاحبه الذى تضرب به كف غيرك ، لأن كفك أقوى الأ كف ، فقد أزلت
 كفك التساوى بين السيفين اللذين سوت الهند بينهما .

وقال (في كَفَّ) ، فأفاد ، وإن كان نكرة ، لأنه قد علم أنه لا يعنى
من الأكف إلا كَفَّةً ، كقولك مررت برجل حسن وجهه . (والسكريه)
الشدة المكروهة . وهذا البيت نحو قوله فيه أيضاً :

إذا ضَرَبْتَ كَفَّكَ بالسيف في الوغى
تَبَيَّنْتَ أن السيف بالكف يضربُ

- ١١٦ -

وقال أيضا :

(من الجَمَادِرُ في زِيِّ الأَعَارِبِ حُمْرُ الخَلَى والمطَايَا والجلالِيبِ)
الحقن بنوع الجأذر ، وحق ذلك إغراباً ومبالغة ، وتَجَوَّزَ بكونهم
أعاريب ، فعزاهم إلى زِيِّهم لا إليهم ، والحُمْرَةُ في الخَلَى ، واللباس ، والأَيْنِقُ
حُمْرُ الألوان ، فخصهم بها من بين سائرهم .

(لَا تَجْزِي بَضْنِي بِي بَعْدَهَا بَقْرٌ تَجْزِي دُمُوعِي مَسْكُوبًا بِمَسْكُوبِ)
يعنى بالبقرة : أحبابه . يقول : بَكَيْنَ كما بكيتُ ، فسكن من الدمع
مثل ما سكبت مكافاةً ، فإذا قد جَزَيْتَنِي يُسْكَاثِي ، فلا جزينني بضناي
ونحولي ، أى لا ضنين كما ضنيت ، يدعوهن ، فهذا الأسبق والأليق .

وإن شئت قلت : إن حُبَّهن قد أضى جسدِي ، وأفنى جسدِي ، وأسقم
وأهرم ، فلم يبق فيَّ موضع لحبهن إياي . فإذا كان ذلك ، لم تَضُنَّ النساء
عشقا ، وإن نظرنَ إلى فبكين ، فإنما يبكين رحمةً لى لا عشقا ، فيكون لفظه
على هذا لفظ الدعاء ، ومعناه الخبر . كأنه قال في المعنى : ليس يجزينني .

وقوله (تَجْزِي دُمُوعِي مَسْكُوبًا بِمَسْكُوبِ) : جملة في موضع الصفة لبقرة .
والهاء في بعدها عندي : للحالة أو المسرة . وقد يكون راجعا إلى النساء .
واستجاز أن يقول : (بعدها) . وإن عني النساء ، وهو من النوع الناطق ،
لأنهن قد سماهن بَقَرًا ، والبقرة وغيرها من الأنواع غير الناطقة ، يُخْبَرُ عنها

كما يخبر عن الواحد المؤنث . تقول : الجمال رأيتها ، والجبال علوتها ، ولو سَوَّغَه
الوزن أن يقول : (بَعْدَهُن) كان أذهب في الحقيقة ، لأنهن لسن جاذر ،
وإنما هن نسوة .

(أَوْ حَارَبَتْهُ فَمَا تَنْجُو بِتَقْدِمَةٍ مِمَّا أَرَادَ وَلَا تَنْجُو بِتَجَنُّبٍ)
أى هذه الأعداء إن حاربتهم لم ينجها منه إعداد عدّة يُقدّمون النظر فيها ،
كتشيد سور ، وحفر أخدود ، واستظهار بحشود . وكذلك لا تنجو منه
بما يؤخرونه من الاحتيال للهرب ، وإعداد الحيل المنجية . ومن القتل والحرب .
وإن شئت قلت : ماتنجو بتقدمتها نفوسها إليه ، ولا بتجنبها عنه .
والتجيب : الهرب والتكوص .

ولو قلت : إن التقدمة هنا بمعنى التقدم ، ليقابل التجيب ، لأن التقدم
غير متعد ، كما أن التجيب كذلك ، لكان حسناً ، كقول قَطَرِي :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَنْبِقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
ووضع المصدر مكان مصدر آخر كثير ، قد عمل سيديويه وغيره من أهل
اللغة فيه أبواباً .

ولو علمنا أن العرب قالت : قدّم في معنى تقدّم ، كقولهم : بين الأمر ،
أى تبين ، ألغينا الاحتيال له ، لسن مثل هذا لا يضبط إلا سماعاً .
(بَلَى يَرْوَعُ بِيْذِي جَيْشٍ يُجَدِّلُهُ ذَا مِثْلِهِ فِي أَحَمِّ النَّقْعِ غَرْبِيْبٍ)
أى أنه لا يقصد استمداد الأموال من الملوك ولا السوق . وإنما قصده
ترويع الملوك باقتال ، فإذا صرع ملكاً ذا جيش فجذّله ، رَوَّعَ به آخر
لمُجذّله بعد . وقوله : (ذَا مِثْلِهِ) : أقام فيه الصفة مقام الموصوف ، أى ذا
جيشٍ مِثْلِهِ . وحسن حذف هنا وإقامة الصفة مقامه لأمرين : أحدهما أن مثل

مضافة ، فشاكت بذلك الأسماء ، لأن الإضافة إنما هي للاسم . والآخر أن
لفظ الموصوف المحذوف ، وهو الجيش ، قد تقدم مظهرًا في قوله : (بلى يرُوعُ
بذى جيش يُجَدِّله) . وقوله : (فى أحمّ النقع غريب) : أراد في موضع
أحمّ النقع . والغريب : الأسود .

— ١١٧ —

وله أيضا :

(يَبَاعِدُنْ حَبًّا يَجْتَمِعُنْ وَوَصْلُهُ فَكَيْفَ بِحِبِّ يَجْتَمِعُنْ وَصَدُّهُ)

عنى بالحب هاهنا : الشيب ، لأنه محبوب على الكره ، وبإضافته إلى
الموت فيقول : الأيام مُشَاكِلَةٌ بالطبيعة الشيب ، لأن الشيب هم ، كما أنهم
هم . فكان القياس ألا تباعده لمكان المشاكلة ، وإنما مباعدها له بالموت ،
الذى هو أشدُّ كَرَبًا ، وأجل خَطْبًا ، فإذا باعدت الشيب الآن وهى مجتمعة
معه ، فكيف أطلب منها حبًا قد اجتمعت هى وصِدُّ ذلك الحب ؟

ويعنى بالحب هاهنا : الشيب . يعاتب نفسه على مطالبة الأيام برد
العجيب الذى فات ، وهى لا تبقى له الأقل الذى بقى . ألا تراه يقول :
أبى خُلِقَ الدنيا حبيبًا تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبِي منها حبيبًا تَرُدُّهُ
أى الدنيا لا تدوم لى حياتى ، وهى معى إلى الآن ، فكيف أطلب منها
شبابى وقد ذهب .

وإن شئت قلت فى البيت الأول : إنه أراد : يُبَاعِدُنْ حبيبًا هو الآن
معى . وأصل لى ، أى هذا من قوتها وفعلها ، أعنى أنها تباعد الحبيب
الواصل ، فكيف لى منها بإدناء حبيب مُحْتَجِزٍ مِنِّى ، نازح عنى ؟ وعطف
وصله وصده على المضمر فى (يجتمعن) اضطرارًا ، كقوله :

قلت إذ أقبلت وزهرت تهادى كنعاج الفلا تعسفن رملاً

ولو كان الروى منصوباً ، لكان « وصدّه » هو الأجود ، على المفعول معه ، ولو أسعده الوزن بتأكيده الضمير فقال (هي) لكان الرفع لا ضرورة فيه ، ولو أنه أكد وكان الروى منصوباً ، لكان النصب حسناً .

ولما ذكر سيبويه وجه النصب في قوله : (ما فعلت وأباك) قل : إنما فعل ذلك ، لأنك لو قلت : افعل وأخوك ، كان قبيحاً ، حتى تقول : اقعد أنت وأخوك ، قال : فإذا قلت : ما فعلت أنت وأباك ؟ فأنت بالخيار : إن شئت حملته على المعنى الأول (يعنى الرفع على العطف) . وإن شئت حملته على المعنى الثانى ، (يعنى النصب على المفعول معه) . وجعل الأيام مجتمعة بالوصل والاصد ، لأنهما عرَضان ، وظروف الزمان مشتملة على جميع الأعراض كاشتغال الأمكنة على الجواهر . هذا معنى الاجتماع ، فتفهّمه .

(بَوَادٍ بِهِ مَا بِالْقُلُوبِ كَأَنَّهُ وَقَدْ رَحَلُوا جَيِّدٌ تَنَائَرَ عِقْدُهُ)

أى أنهم كانوا لهذا الوادى كالعقد للجيد ، فلما رحلوا توحّش ، وعطل كما يعطل الجيد إذا تنأّر عقدّه . وقوله : (به ما بالقلوب) ، أى من الأسف عليهم ، والحنين إليهم ، (وقد رحلوا) : جملة فى موضع الحال ، أى فى حال رحيلهم عنه . وكأنه قال : مرّ جُولاً عنه جيدٌ هذه صفته . ولا بد من تقدير (عنه) إذ لا بد للحال من ضمير يعود إليه من الحال .

(يُخَلَّنُ مَنْ لَمْ يَأْتِ دَارَكَ غَايَةً وَيَأْتِي فَيَذَرِي أَنَّ ذَلِكَ جُهْدُهُ)

أى أنت أرفع المقصودين . فمن قصد غيرك ، فقد ترك مقصوداً فوق مقصوده ، وهو أنت . فإذا قصدك تبين وتيقن أنه قد بلغ أقصى الغايات ، إذ لا مقصود وراءك ، ولا موزود فوقك . وقوله : (ذلك جهده) : أى أقصى غايته ، وأبعد نهاياته . وحينئذ تقرّ عين القاصد ، لأنه لا يُعْتَفَى على ترك الجرى إلى أقصى ما يمكنه من ذلك ، إذ ليس يمكنه تجاوزه .

وله أيضا :

(قَدْ اخْتَرْتُكَ الْأَمْلَاكَ فَاخْتَرْنِي نَهْمُ بِنَا
حديثاً وَقَدْ حَكَمْتُ رَأْيَكَ فَاحْكِمُ)
أى من الأملاك ، فخذف وأوصل اتعل : ومثله كثير ، إلا أنه ممنوع
لا يقاس عليه . وقد صرح بذلك سيويه ، والأملاك : يجوز أن يكون جمع
مَلِكٍ وَمَلَكٍ ومليك ، أى قد اخترتك من جميع الأملاك ، ورجوتك لهمة
ومطلبي ، فاختر لهم بنا حديثاً : أى اجعل التصديعة فى : فإنك إذا فعلت ذلك
تُحَدِّثُ عنك بالإحسان ، وتُحَدِّثُ عَنِّي بِأَنِّي اسْتَهْلُتُ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، وقد
حَكَمْتُ رَأْيَكَ ، أى سلمتُ إِلَيْكَ ، فافعل ما تشاء ، فإن طبيعتك لا تميلك على
ضد الجميل .


وله أيضا :

(أَغَاظُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْمَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ)
أى والشوق أغلب منى ، فخذف للعلم بما يعنى : كقولنا : الله أكبر ،
أى من كل شيء فخذف ، أنشد سيويه :
مَرَرْتُ عَلَى وَادِي السَّبَاعِ وَلَا أَرَى كَوَادِي السَّبَاعِ حِينَ يُظْلَمُ وَادِيًا
أَقْلَّ بِهِ رَكْبٌ أَتَوْهُ تَثِيَّةً وَأَخُوفَ إِلَّا مَا وَفَى اللَّهُ سَارِيًا
أراد : أقلَّ بِهِ رَكْبٌ تَثِيَّةً مِنْهُ .

وذهب بعضهم إلى أن « أغاب » هنا ليست للمفاضلة : وإنما هو أفعلُ صفة
كأحر ، ولا يعجبني لأن قوله فى آخر البيت « والوصل أعجب » لا يسوغ فيه إلا
(أفعل) التى للمفاضلة ، بأن يكون المصراع مشاكلاً للمصراع الأول وإنما كان الشوق

أغلب له ، لأنه لو كان ضد ذلك لم يكن عاشقاً . وقوله : (وأعجب من ذا
 الهجر والوصل أعجب) : إنما كان الوصل أعجب من الهجر ، لأن
 الهجر نوع من مكاره الأيام ، والوصل نوع من محائبها ؛ وشيمة الأيام أن
 تأتي بما يكره ، فلا عجب من الهجر الذي هو في خليقتها ؛ ولكن الوصل
 لو تيسر ، كان أعجب من الهجر لشذوذه عن خلق الزمان . وأراد : والوصل
 أعجب منه ، فحذف كما تقدم في (أغلب) .

(فَكَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ)
 المانوية : أصحاب ماني وهم أهل الشنوية ؛ يذهبون إلى أن ظلام الليل
 يكون الشر وأن النور يكون الخير ، والمتنبى يرد على هؤلاء الشنويين فيقول :
 ليس الأمر على ما وصفتموه ، بل قد أجد ذلك بالعكس . فإن الليل قد وقاني
 شرَّ الأعداء ، بأن واراني منهم بظلامه ، كما قولهم : (اللَّيْلُ يَسْتُرُ الْوَيْلَ) .
 وقالوا : اتَّخِذِ اللَّيْلَ جَمَلاً : أي اركبه لحاجتك . وكذلك زارني
 الحبيب بالليل ، فأخفى مزاره على الرقيب ، وهذه أفعال الخير ، فلم تنسبون
 إلى الظلمة الشر ؟

ولما قال : « فَكَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ » فسرّه في البيت الثاني بقوله :
 وَفَاكَ رَدَى الْأَعْدَاءُ تَسْرَى إِلَيْهِمْ وَزَارَكَ فِيهِ ذُو الدَّلَالِ الْمُحْجَبُ
 ولما حمّد الليل بما أسدى إليه من الخير ، وكذب المانوية بهذا البرهان ،
 أخذ في ذمّ النور ، فقال : 

(وَبِوَيْلٍ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ أُرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسَ أَيْبَانَ تَغْرُبُ)
 أي أني قد أمنت من العداة بالليل ، فسرّيت وأدلت ، وخشيتهم بالنهار
 فكمنت وتخبأت . وتلك كلفة ومشقة ، وجهد على النفس لإخفائه ، وما أحسن
 ما اتفق له الاستطراد في هذه الأبيات .

وقوله : (أَيْبَان) أى متى . وليس من تعظ أين . إنما (أَيْبَان) من (أَيْ)
فهى فعلان كَرَبَّان التى فى الأزمنة .

وبذلك على أن (أَيْبَان) ليست من (أَيْبَن) ، أن (أَيْن) يكون سؤالا عن
الجوهر والعرض ، كقوالك فى الجواهر ، أين زيد ؟ وفى العرض : أين اللقاه
والقتال .

فأما (أَيْبَان) فلا يسأل بها إلا عن العرض . تقول : أَيْبَان القتال . ولا تقول
أَيْبَان زيد . وقد قال عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيْبَانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ
عَنِ السَّاعَةِ أَيْبَانَ مُرْسَاهَا ﴾ فَيُخْـبِكُمُ (أَيْبَان) إِذَنْ حُكْمَ مَتَى ، وَمَتَى خِلَافُ
أَيْن . فَأَيْبَان إِذَنْ خِلَافُ أَيْن .

وقد يجوز أن يكون أبو الطيب فى ذمه النهار ، مُعَرَّضًا بسيف الدولة لبياضه ،
وفى حده الليل ، مُتَعَالًا بكافور اسواده ، فإن كان قصد ذلك فهو ظريف ،
وإن كان لم يقصده ، فتوجيهنا له غريب .

(وَأَصْرَعَ أَيْ الْوَحْشِ قَفَيْتُهُ بِهِ وَأَنْزَلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ)

قَفَيْتُهُ : أى اتبعت قفاه . يَقُولُ : أَقْتُلُ بِهَذَا الْفَرَسِ أَيْ نَوْعَ أَوْ شَخْصٍ
مِنَ الْوَحْشِ حَاوِلْتُ بِهِ إِدْرَاكَهُ ، وَأَنْزَلُ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ فِي مِثْلِ حَالِهِ حِينَ
رَكَبْتُهُ ، مِنَ الْجَمَامِ وَوَفُورِ الْجَرَى لَمْ يَنْيَرَهُ إِجْرَائِي لَهُ ، وَلَا أَذْهَبَ مِيقَتَهُ .
وهذا كقول المرّار بن منقذ السّعدى فى صفة عجوز يذكّر بقاء حسنّها :

مِن بَعْدِ مَا لَبِستُ زَمَانًا حُسْنَهَا وَكَأَنَّ ثَوْبَ جَمَالِهَا لَمْ يُلْبَسِ

« وَمِثْلَهُ » . منصوب على الحال من الماء التى فى عنه . و « حِينَ » ظرف
متعلق بأنزل .

(تَزِيدُ عَطَايَاهُ عَلَى اللَّيْثِ كَثْرَةً وَتَلْبِثُ أَوَاهُ السَّحَابِ فَمَنْظُبُ)

أى كلما لبثت عطاياه تضاغت ونمت ، لأنها ذوات مواد كعجر يهبها
فتتج مهراً ، أو ضيعة تورثه غلة ووفراً ، فتتعى هباته على الأيام ، وتواتر
الأعوام .

وأما مواهب السحاب فكما لبثت نشفتها الشمس ، ونضبتا الأرض ،
واستقتها الواردة . فهذا فضل ندى كافور على ندى السحاب .

(ودون الذى يبتغون مآلوا تخلصوا

إلى الشيب منه عشت والطفل أشيب)

(مآلو تخلصوا إلى الشيب منه) : يعنى الموت . أى دون ما يحاولونه منك
الموت ، الذى لو تخلصوا منه إلى الشيب ، لشاب طفلهم فى حال طفولته —
أراد القرب — ولكنهم لا يمكنهم التخلص من الموت إلى الشيب ، بل
أنت تأتى عليهم ، فتقتلهم فى الحال .

وقيل معناه : لو أمهل الحسد حبادك ريث هجوم الشيب ، لشاب طفلهم
الآن ، ولم يتأخر الشيب عنه إلى أوانه ، ولكن أنت تعجلهم ، وشيب الطفل
فى كل ذلك : يذهب به إلى القرب . أى لو أمهلهم الموت الذى يحدث عنه [
الحد ، لشابوا فى هذا الوقت ، ولم يمهل الطفل منهم إلى أوان الشيب ، بل كان
يشيب مع هؤلاء .

وإن شئت قلت : إن هذا كقوله :

فإنك سوف تحلم أو تنهى إذا ما شبت أو شاب الغراب

أى إنما تحلم إذا شبت ، وأنت لا تشيب أبداً ، لأن حلمك على الناس
يخطئك ، فيعجلك عن بلوغ الشيب ، وكذا لا يشيب الغراب أبداً .

فكذلك لا تحلم أبداً . فيقول : لو تخلصوا من الموت إلى الشيب —

وهذا غير ممكن — أى لو أمكن ذلك المتع ، الذى هو التخلص من الموت
إلى الشيب ، لأمكن هذا المتع الثانى ، وهو شيب الطفل .

(ثَمَاهُمْ وَبَرَقُ الْبَيْضِ فِي الْبَيْضِ صَادِقٌ)
عَلَيْهِمْ وَبَرَقُ الْبَيْضِ فِي الْبَيْضِ خُلْبُ

البرق على ضربين : صادق ، وكاذب . والكاذب يقال له : الخُلْبُ ، من
الخلابة ، وهى الخداع . فَوَعْدُ بَرَقِ سَيْوفِكَ بَأَن يَفْلِقَ الْبَيْضَ إِلَى مَا تَحْتَهَا
مِنَ الْهَامِ ، صادق ، لأنها تفعل ذلك . وَبَرَقُ بَيْضِ عِدَاكَ أَن تَقَى هَامَهُمْ مِنْ
بَيْضِكَ ، أى سَيْوفِكَ ، كاذب ، لأن سَيْوفَكَ مِنْ عِدَائِهَا أَن تَقْدَّ تَرْبِكَهُمْ
إِلَى هَامِهِمْ ، فهو خُلْبٌ لذلك . وقد يقولون : بَرَقُ الْخُلْبِ فَيُضِفُونَ ، وهذه
الإضافة على حذف الموصوف ، أى بَرَقَ السَّحَابُ الْخُلْبُ . وإن شئت ،
جعلتها من إضافة الشيء إلى نفسه ، كنحو مَا حَكَاهُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ
ابْنُ السَّرِيِّ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَسْجِدُ الْجَامِعِ ، وَبَابُ الْحَدِيدِ . وقد حمل بعضهم
تَوَلَّهِ تَعَالَى ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ عَلَى ذَلِكَ .

(سَلَّاتِ سَيْوُفًا عَلَّمَتْ كُلَّ خَاطِبٍ عَلَى كُلِّ عُودٍ كَيْفَ يَدْعُو وَيَخْطُبُ)
إن شئت قلت : أَرَأَى النَّاسَ تَأْمِيرَ سَيْوفِكَ فِي عِدَاكَ ، دَانُوا لَكَ ،
نَحْطَبُوا بِاسْمِكَ عَلَى كُلِّ مَنِيرٍ . وإن شئت قلت : كَانَ الْوَاجِبُ فِي الْاِخْتِطَابِ
عَلَى الْمَنَابِرِ أَنْ يَكُونَ بِاسْمِكَ ، فَتَجُوزُ فِي الْخُطْبِ بِاسْمِ غَيْرِكَ ، فَسَلَّاتِ
سَيْوفَكَ ، وَقَتَّتْ بِهَا أَهْدَاءَكَ ، وَبَلَّغَتْ أَمَانِيَّكَ ، نَحْطَبُوا لَكَ خَاصَّةً ، فَكَانَ
تَخْصِيصُكَ بِذَلِكَ مِنْ تَعْلِيمِ السَّيُوفِ الَّتِي سَلَّاتِ ، كَقَوْلِهِ :

تَوَلَّيْهِ أَوْسَاطَ الْبِلَادِ رِمَاحُهُ

وقوله : (كَيْفَ يَدْعُو وَيَخْطُبُ) جملة في موضع المفعول الثانى ،

و (علّمت كل خاطب) : الدعاء والخطبة . و (على كلّ عُود) : أراد على كل منبر ، لأن المنبر من العُود ، فأقام العُنْصُر مكان الصورة ، ومثله كثير .

— ١٢٠ —

وله أيضا :

(أريدُ من زمنيّ ذا أن يُبلِّغني مَالِيسَ يَبْلُغُهُ من نَفْسِهِ الزَّمنُ)

أى أريد أن يدوم شبابى وسرورى أبداً ، فلا أَهْرَمَ ولا أَهَمَّ . وهذا الذى أريده من الزمان ، لا يبلُغُهُ هو من أمنيته لذاته ، لأنه لو اختار أن يكون ربيعاً أبداً ، ونهاراً سرمداً ، لم يبلُغ ذلك ، لأن أحواله الأنيقة تتكرر ، فيلحق ربيعاً القِيْظَ ، ويتخلل نهاره الليل . فإذا لم يبلُغ الزمان مُرادَهُ فى نفسه ، فحدير ألا يُبلِّغني مرادى . إذ لو كان ذلك فى قوته ، لآثر به نفسه .

يتعجب من تشطّطه على الزمن ، وتكليفه إياه مَالِيسَ فى وسعه ، ولا يجد مُعِيناً عليه من طبعه .

وجعل للزمان نفساً وإِنما هو نورٌ وظلمة ، تَحْدِثَانِ عند حركة الفلك ، لأن العرب تنسب الأفعال إلى الدهر كثيراً ، لوقوعها فيه . فيقولون : فعل الزمان ، وصنع ، كقوله تعالى حكايةً عن الكفار : ﴿ وما يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ .

(مما أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمْ هَوَوْا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلَا فَطَنُوا)
أى أنهم اعتبروا حُسْنَ الْخُلُقِ لا حُسْنَ الْخُلُقِ . ولو جَرَّبُوا الدُّنْيَا ، فَاجَادُوا الْإِعْتِبَارَ ، وَأَطَالُوا الْإِخْتِبَارَ ، لوجب أن يُؤَثِّرُوا حُسْنَ الْخُلُقِ ، فيجب إذ هو أولى فى الحقيقة بذلك ، من اعتبار هذا الحُسْنِ المحسوس . وقد فسرهُ
هو فى البيت الثانى الذى بعده فقال :

(تَهْنَى عِيُونُهُمْ دَمْعاً وَأَنْفُسُهُمْ فى إثر كل قبيحٍ وجهه حَسَنُ)

أى فى إثر كل قبيح الخُلُقِ .

(تَحْمَلُوا حَمَلَتُكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمَنٌ)

نسب هذه القطعة قاله أبو الطيب مُنْضِباً ، شاكياً لأمره ، متسخطاً على
دهره ، حتى أفضت به شدة الغتاب ، إلى ملامة الأحباب ، واحتمل إفراط
الجفا ، لما تأمله من قلة الوفا ، قال : (تَحْمَلُوا حَمَلَتَكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ) : أى
أبعدتم ولا دنوتم ، بخلاف قوله هو راضياً عن أحبابه :

لَا سِرَّتِ مِنْ إِبْلِ لَوْ آتَى فَوْقَهَا لَمَحْتُ حَرَارَةَ مَدْمَعِي سِمَاتِهَا
بِمُ أَدْرَكَ بِمَدَى ضَجْرَةِ التَّاسَفِ ، وإظهار البرامة عن العشق بعدم ، قال :
فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَى الْيَوْمِ مُؤْتَمَنٌ

أى أنى كنت أحذر بينكم ، فإذ قد وقع ، فما أبلى بشيء بعده ،
كقوله الأول :

مَنْ شَاءَ بِمَدَكَ فَلَيْمْتُ فَمَلِكُ كُنْتُ أَحَاذِرُ

وامثله أبو نواس قال :

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحَاذِرُ الدَّهْرَ وَحْدَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَاذِرُ
والفاء فى قوله : (فكل بين) لطف الجملة الثانية على الأولى ، التى هى
(تحملوا) .

(رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُونَ الْعِرْضَ جَارُكُمْ

وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرَعَاكُمْ اللَّبَنُ)

أى من جاوركم ذل ، وأقام صابراً على الآفة ، حتى يكون عرضه غير
مصون لأنكم لا تنصرونه على من أوصل إليه الأذاة ، بل تدعونه نهية ،
ولا يستطيع أن ينتصر هو لخذلكم إياه . وهو فى هذا البيت يعيرهم الصبر
على الذل والقل ، لأن قوله : (ولا تدرو على مرعاهكم اللبن) : يعنى به أن رفقكم
قدر الكفاف ، ليس فيه ما يفضل عن الاستشفاف ،

(فَتَكْذَرُ الْمَحْرُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ بِهِمْاءَ تَكْذِبُ فِيهَا الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ)

البهاء : الأرض القفرة ، (قفلاء ، لا أفعل لها من جهة السماع) .

أى لا يحال : (قفرأ أبهم) . وقد غلبت (البهماء) غلبة الأسماء .

حكى أبو زيد عن العرب ؛ البهماوات . فلو عاملوا الصفة لقالوا :

لُبهم ، أى غادرَ الهجرُ بيتنا فلاةً بهماءَ يَفْرَعُ فيها الحسَ ما ليس

بمحققة ، كتخيل الآل ، وتصوّر الأشخاص ، وعزيف الجن ،

ومحذو ذلك مما لا حاصل له .

(تَخْبُو الرِّوَاسِمُ مِنْ بَعْدِ الرَّسِيمِ بِهَا)

وَتَسْأَلُ الْأَرْضَ عَنْ أَخْفَافِهَا الثَّنِينَ

أى تخبو الإبل الراسمة من هذا القفر ، والثَّنن : ما يصيب الأرض

من الجير والناقة إذا بركا ؛ وهى خمسٌ رُكبتاه من ذراعيه وساقيه ونخذه ؛

فَلَمَّا حَصَتْ هَذِهِ الْإِبِلُ ، فَبَرَكْتَ عَلَى ثَنَيْنَاتِهَا ، وَصَدَمْتَ بِهَا الْأَرْضَ ،

قَالَ الثَّنِينَاتُ لِلْأَرْضِ : أَيْنَ الْأَخْفَافُ الَّتِي كَانَتْ تَكْفِينَا إِيَّاكَ ، وَتَقِينَا

تِيَّاكَ ؟ وَ (الثَّنِينَ) : جمع ثَفْنَةٍ ، كَلِبْنَةٍ وَلَبْنٍ . وَ (تَسْأَلُ وَتَسْأَلُ)

كَلَامًا عَرَبِيًّا ، لِأَنَّ مَا لَمْ يَفَارِقْ مِنَ الْجَمْعِ وَاحِدَهُ إِلَّا بِالْهَاءِ ، نَجَازَ تَذَكِيرِهِ

وَتَأْنِيَتِهِ وَلِذَاكَ - إِذَا وَاقَتْ صُورَةَ هَذَا الْجَمْعِ صُورَةَ الْجَمْعِ الْمَكْثَرِ - اسْتَدَلَّ

بِصَوِيهِ عَلَى الْجَمْعِ الَّذِي بَايَنَ وَاحِدَهُ بِالْهَاءِ بِدَلِيلِ التَّذَكِيرِ ، مِثْلَ ذَلِكَ قَوْلُهُ : إِنْ

الرُّطْبُ لَيْسَ كَالْغَرَبِ ، وَإِنْ اتَّفَقَ الْعِلَالَن ، لِأَنَّ الْغَرَبَ مُكْثَرٌ ،

بِمِلَالِ ثَانِيَتِهِ ، وَالرُّطْبُ يَذْكَرُ وَيُؤَنَّثُ ، يَقُولُونَ : هَذَا الرُّطْبُ ، وَهَذِهِ

الرُّطْبُ .

وله أيضا :

(وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضْلَنَّا الشُّجْعَانَ)
 أى أن الحياة لا تدوم ، فما ينبغي للحى أن يجبن ، إذ لا بد من
 لقاء الموت . وفى الجبن العار . ولو كانت الحياة تدوم ، لكان
 أضلنا الشجاع الذى يتعرض للقتل فيقتل ، فيحرم بذلك نفسه بقاء الحياة
 ولذاتها . ولكن إذا كان الموت لا بد منه ، وفى الشجاعة المجد ، فهى
 أولى من ضدها .

وله أيضا :

(كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَمَانِيٌّ)
 قيس من عدنان ، واليمن من قحطان ، وبينهما منافرة . فيقول :
 كثر تقطيع شبيب لرقاب الناس بسيفه ، فأغررت الرقاب بينهما ،
 ليفترقا فتسلم . وقوله : (رفيقك قيسى وأنت يمانى) ، تورية عن
 قولهم : لم تتفقان وأنتما بالنسب مفترقان . ونحوه قوله الآخر :
 أيها المنكح الثريا مهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
 هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى
 والألف فى يمان عوض من إحدى ياعى النسب ، التى فى قولك
 (يمانى)

ومن العرب من يقول : يمانى . فهذا ليس على عوض ، لأنه
 لم يحذف منه شيئاً فتكون الألف عوضاً منه ، ونسبته من بنوادر النسب .

(أَتَمْسِكُ مَا أَوْلَيْتَهُ يَدُ عَاقِلٍ وَتُمْسِكُ فِي كُفْرَانِهِ بَعِينَانِ)

أى سبيل النعم التى زالت من يدك إلى يده ، أن تنهى كفه عن الإمساك بعنان فى معصيتك ، فهلا فعل ذلك ؟ ينكر على شبيب كفره أيلدى كافور بنفاقه عليه ، وخلعه طاعته .

(تَنَى يَدَهُ الْإِحْسَانُ حَتَّى كَانَتْهَا وَقَدْ قُبِضَتْ كَانَتْ بِغَيْرِ بَنَانٍ)
أى لما هم بمعصيتك ، كثرت كثرة أياديك عن العصيان يده ، حتى ألقت السيف كأنها لابنان لها يُمسِكُه بها ، وقوله : (وقد قبضت) : جملة فى موضع الحال من الضمير الذى فى (كأنها) . و (كانت) ها هنا يجوز أن تكون المفتقرة إلى الخبر ، ويجوز أن تكون بمعنى خلقت ، فتكون الغنية .

حكى سيويه : أنا أعرفك منذ كنت ، أى مذ خلقت ، ويكون المجرور على هذا فى موضع الحال ، كما ذهب إليه سيويه فى روايته من روى :

إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ أَشْنَعًا

من أن أشنع حال ، ولا تكون خبراً لـ كان ، لأن الخبر سبيله أن يكون مفيداً ، وليس فى أشنع من الفائدة إلا ما فى قوله (ذو كواكب)
يثنى اليوم إذا كان ذا كواكب كان شنيعاً إذ ظهور الكواكب إنما يكون للفتام الذى يكسب ضوء الشمس ، فتظهر . وهذا من دقائق سيويه التى يسميها التأمل إيجازاً .

— ١٢٣ —

وله أيضا :

(عِيُونُ رَوَاحِلِي إِنْ حَرْتُ عَيْنِي وَكُلُّ بُغَامٍ رَازِحَةٍ بُغَامِي)

حرت: أى تحيرت ، والعيون ها هنا : يجوز أن تكون جمع عين ، وهى

الشخص ، أى أنى ماهر بالفلاة معاود لما أحس فيها أملى فأدعها ذؤاما فى الطريق ، فإذا أنا تحيرت فى التّيه ، فدلّلى كل عود أُخلّيه ، لأنى أرى شخصه فيكون لى كالنّار الذى يُستَدَل به . وقد تكون العيون هنا جمع العين التى هى كالجارحة النظرية ، أى تبدو لى أعين هذه الرّوايا ، وخصّ أعينها بقوله : عيني . وكذلك إذا أردتُ استنباح الكلاب ، ليدلّ نباحها على الحلال ، وأما كن الحلال ، بَعَمَت ناقتى ، والبُغام : صوت قَطْعِهِ ولا تَمُدُّهُ ، فيسمع الكلبُ بُغامها فينبج ، فذلك البُغام يعني أن أمتنبح الكلاب ، والرايحة : النّاقة المعيبة ، رَزَحَتْ تَرَزَحَ رُزُوحاً ورُزاحاً . وخصّ الرّازحة ، لأنه يصف نفسه بإدمان السير ، والصبر على التعب فى السفر .

(فَقَدْ أَرِدُ الْمِاءَ بِغَيْرِ هَادٍ سِوَى عَدَى لَهَا بَرَقَ النِّعَامِ)

يصف نفسه بمعرفة الارتياح ، ويتعرّب بذلك ، فيقول : لا أحتاج على الماء دليلاً ، إذا ابتغيته إليه سبيلاً ، لأنى عالم بمخايل المطر ، كعلم رُواد العرب ومنتجعهم بذلك . وهم يزعمون أن البرق إذا لمع مائة ومضة ، وَثَقُوا بالمطر وانتجموا النّاحية ، التى لاح منها ذلك البرق .

وقيل : إذا بَرَقَت السماء أربعين برقة ، وثقوا فاروا ، وربما طاردوا جَوْهَ عشرًا ، فوافقوا الماء .

(بَضِيقُ الْجِلْدِ عَنْ نَفْسِي وَعَنْهَا فَتَوَسَّعَ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ)

أى أَنَحَلَّتْنِي هذه الحُمى ، فكأنها وَجَدَتْ جِلْدِي لايسع نَفْسِي وإياها ، فأكلت اللحم ، ليتسع الجلد فيجمعهما ، كما وَسَّعَ النَّفْسَ وَالنَّفْسَ .

(وَضَاقَتْ خُطَّةٌ فَخَلَصْتُ مِنْهَا خَلَاصَ الْخَمْرِ مِنْ نَسْجِ الْفِدَامِ)

الْفِدَامُ : المِصْفَاة ، وَنَسَجُهُ ضِيقٌ ، تَدْفَعُ إِلَيْهِ الْحُمْرُ قَذَاها ، فتعرق منه

صافية فتزداد شرفاً بنقاؤها وصفائها . شبه الخُطَّة ، وهي النازلة العظيمة من نوازل الدهر ، في ضيقها بالفِدَام المَضَيِّق . فيقول : إذا دُفِعتُ إلى مُلِمٍّ ضَيِّقٍ فجز غيري عن فآذنه ، خرجتُ أنا منه وقد استدل مُبصرِي على فضلي ، إذ لم تَعْلَقْ بي تَبِعَتُهَا وازددتُ شرفاً بذلك ، كازدياد المدام عند فراغها صافية الفِدَام ، كقوله :

ما تعتريني من خُطوبٍ مُلِمَّةٍ إِلَّا تُشْرِفُنِي وَتَرْفَعُ شَانِي
ولمنا قالوا خرج منها كالشهاب ، أي لم تعلقه منها تبعة . وأراد : (وربما خافت خُطَّة) ، أو (فقد ضاقت خُطَّة) يذهب في ذلك إلى خُطَطٍ شتى ، لا إلى خُطَطٍ بعينها . وأراد (من منسوج الفِدَام) إذ النسج عَرَض ، والخمر جوهر ، والجوهر لا يتخلل العَرَض .

قال سيبويه : هذا ثوبٌ نَسجَ اليمن ، ودرهم ضَرَبُ الأمير : أي منسوج ومضروب ، ومثله كثير .

(وَإِنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَى وَلَئِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْجَمَامِ إِلَى الْجَمَامِ)
أي إن سلمتُ من موت على وجه ما ، لم أَسْلَمْ من آخر على وجه ما ، وإن سَلِمْتُ من اللوت في زمن ما ، لم أَسْلَمْ في غيره ، إذ أُلْخِلد في الحياة ممتنع . وقوله : (من الحمام إلى الحمام) : لم يَرِدَ الجنس ولكنه أراد من بعض أنواع الحمام إلى بعض أنواع الحمام .

— ١٢٤ —

وله أيضا :

(مَنْ كُنَّ لِي أَنَّ الْبَيَاضَ خِضَابٌ فَيَخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابٌ)
(أَنَّ الْبَيَاضَ) : خبر ابتداء مضمرة . أي كانت لي مَنَى . ثم أوضح لك للنسب وكأنه قال : هي أن البياض وقار لي ، فيخفي شبابي بالشيب ، ذهاباً إلى إكبار الشيب ، وذلك لما يلحق الشباب عنده من العيب .

(فَكَيْفَ أَذِمُّ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِي

وَأَدْعُو بِمَا أَشْكُوهُ حِينَ أُجَابُ)

يعنى فى كل ذلك الشيب ، أى قد كنت أيام أسأله عز وجل ، وأدعو أن يسلبنى الشباب ، ظاناً أن الشيب لا يلحق الإنسان معه ألم ولا هرم . فلما شئت ولحقنى من الضعف ملحقى ، علمت أن رأى فى سؤالى الشيب ، ورغبتى إلى الله فيه ، كان ستمها . لكن كيف أذم الشيب وقد كنت أشتهيه . وكيف أشكوه وقد كنت أدعو الله أن يهبه لى . يقول : فإن شكوت ما كنت أحب ، وذمت ما دعوت إلى الله فيه ، وقع التناقض فى مذهبي ، مع أن ذلك غير نافع فالصبر أولى والرضا بكل ذلك أخبى .

(جَرَى الْخُلْفُ إِلَّا فِيكَ أَنْكَ وَاحِدٌ وَأَنْكَ لَيْتَ وَالْمُلُوكُ ذِئَابُ)
(وَأَنْكَ إِنْ قَوَيْسَتْ صَحْفَ قَارِيءٍ ذِئَابًا فَلَمْ يُخْطِئْ فَقَالَ ذِئَابُ)

أى إذا عُدِدَتْ لَيْثًا ، وطلب من السباع ما هو دون الليث ، مما يقاس به الملوك إليك ريثوا ذئاباً . ثم إن حَقَّقَ القياس ، كان ما بينك وبين الملوك تفاوتاً ، كما بين الأسد والذئب ، حتى لو صَحَّفَ مُصَحِّفٌ فقال : ذباب لم يخطئ فى قياسه إليك ، وإن كان صَحَّفَ ، بل يكون بهذا التصحيف أشعر كقول الأصمعيّ تقارىء عليه ، صحف عليه بيت الخطيئة ، وهو قوله :

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَا بِنَّ بِالضَّيْفِ تَأْمُرُ

فقال : (لَا تَنِي بِالضَّيْفِ تَأْمُرُ) ، فقال له الأصمعيّ ، أنت والله أشعر من قائله ، حين قلبت هَجْوَهُ مَدْحًا . وقوله : (أَنْكَ وَاحِدٌ) : بدل من الكاف فى فيك . وإن قلت : منع سيبويه البذل من المضمحلخاطب ، فقال : إن قلت : بك المسكين مررت ، لم يَجُزْ ، لأن البذل إنما هو للإيضاح

والمخاطب لا يُشكّل ، فيحتاج إلى البيان . قلنا إنما منع سيبويه في هذا بَدَلَ
الجملة من الجملة ، أعنى الكلّ من الكلّ ، الذى هو هو ، فأما بدل الجزء
من الكلّ ، فغير ممتنع ؛ كقولك أعجبتنى وجهك ، وعجبتُ منك صبرك ،
فكذلك (أنك واحد) ، وإن لم يكن جزءا من كل فهو عَرَضٌ فى جوهر
كقولك : جَرى الخلف إلا فى كونك واحداً ، والعرض — وإن لم يكن
جزءا من الجوهر — فهو مرتبط به ، فكان كالجزء منه . والخلف هنا :
بمعنى الاختلاف ، ولذلك جاز أن يتعدى إلى فى . وذئاب هاهنا : اسم للجنس
لأنه قد قال : (والملوك ذئاب) ، فأخبر بالجمع عن الجمع ، ولو لم يجعل
الذباب جنساً ، للزِمَ مَك أن تخبر عن الجمع بالواحد .

وقد حكى أبو عبيد فى (الغريب المصنف) عن الأحمر : (النقرة :
ذبابة) . فإن صح ذلك ، ولم يك وهما من أبى عبيد ، فذباب هنا جمع
ذُبابة ، لا يحتاج حينئذ إلى تأول الجنس ولا إلى جعل الواحد موضع الجمع .
ولا أعلم أحداً من أهل اللغة حكى فى ذُباب ذبابة إلا أبا عبيد وحده .

— ١٢٥ —

وله أيضا :

(والعبدُ ليس إحرَّ صالحٍ بأخٍ لو أنه فى ثيابِ الحرِّ مولودُ)
أى لو غُدِّي ورُبِّي وأدُب بمثل ما يغذى به الحرُّ ويربى ويؤدّب ، لقصرَ
عن طبيعة الحرِّ ، ولو لم يرُم العبودية ، والعبد بمتنه الحرُّ ، فإذا كان كذلك
فهو عدو لا أخ .

(أولى اللثام كُوَيْفِيرٌ بمَعْدِرَةٍ فى كلِّ لُؤمٍ وبِعَضِّ العُذْرِ تَقْنِيدُ)

أولى اللثام فى العذر فى اللوم كافر ، لأنه شرُّ نفسٍ من أحسنِّ جنسٍ ،
أعنى بالجنس : الجليل ، لا المقول على الأنواع ، وإذا خَسَّ الجنس ؛ عذر

الواحد منه أن يجري على قيسه ، الذي هو طبعُ جنسه ، ففدا عذراً له ، وإن كان هذا العذر بالذم والتنقص أشبه . فهو إذن عذر يزيد على التفنيد ، لأن التفنيد يشعر أن المقند موجود ، كقوله :

وَيَبْتَئِي الْوَدَّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ

فأما إذا ترك التفنيد ، للعلم بأن الإساءة طبيعة في المسيء ، فذلك أقصى نهايات الذم . وأراد : (أَوَّلَى اللثام بمعذرة كوفيير) ، لأن قوله : (بمعذرة) من تمام الاسم ، الذي هو أولى . فكان ينبغي له ألا يجيء بالخبر الذي هو (كوفيير) إلا بعد قوله : (بمعذرة) لتعلق الباء بأوّلَى . وكذلك إن جعل (كوفيير) هو المبتدأ ، وجعل (أولى اللثام) خبر مبتدأ مقدماً ، فقد حال أيضاً بين الاسم الذي هو الخبر ، وبين ما هو من تعلمه .

ولذلك جعل الفارسيّ ((كَلَا)) في قوله :

كَلَا يَوْمِي طُوالَةٌ وصلُّ أروى ظنونٌ آنَ مُطَرَحُ الظُّنُونِ

جزءاً من الخبر ، لامن المبتدأ ، الذي هو وصل أروى ، لأن وصلاً مصدر ، فكان يكون (كَلَا) من صلته متقدماً له . والصلة لا تتقدم على الموصول .

وكما لا يُقدَّم بعضُ أجزاء الاسم على بعض مُغَيَّرًا عن وضعه ، فكذلك لا يُحال بين بعضه وبين بعض بأجنبي أيضاً ، فلذلك مثّلنا بيت المتنبي في فصله بين (أَوَّلَى) وما يتعلق بها ، بالبيت الذي أنشده أبو عليّ ، في أنه لا يجوز تقديم الصلة على الموصول . وإنا قوله : (بمعذرة) متعلق بأوّلَى . ثم أبرز مضمره . أي أولاهم بمعذرة .

والمخاطب لا يُشكّل ، فيحتاج إلى البيان . قلنا إنما منع سيبويه في هذا بدلَ
الجملة من الجملة ؛ أعنى الكلّ من الكلّ ، الذي هو هو ، فأما بدل الجزء
من الكلّ ، فغير ممتنع ؛ كقولك أعجبتني وجهك ، وعجبتُ منك صبرك ،
فكذلك (أنك واحد) ، وإن لم يكن جزءا من كل فهو عَرَض في جوهر
كقولك : جَرى الخلف إلا في كونك واحداً ، والعرض — وإن لم يكن
جزءا من الجوهر — فهو مرتبط به ، فكان كالجزء منه . والخلف هنا :
بمعنى الاختلاف ، ولذلك جاز أن يتعدى إلى في . وذئاب هاهنا : اسم للجنس
لأنه قد قال : (والملوك ذئاب) ، فأخبر بالجمع عن الجمع ، ولو لم يجعل
الذئاب جنساً ، لَلَزِمَكَ أن تخبر عن الجمع بالواحد .

وقد حكى أبو عبيد في (الغريب المصنف) عن الأحمر : (الثعرة :
ذبابة) . فإن صح ذلك ، ولم يك وهما من أبي عبيد ، فذباب هنا جمع
ذبابة ، لا يحتاج حينئذ إلى تأول الجنس ولا إلى جعل الواحد موضع الجمع .
ولا أعلم أحداً من أهل اللغة حكى في ذباب ذبابة إلا أبا عبيد وحده .

— ١٢٥ —

وله أيضا :

(والعبدُ ليس إحرّاً صالحاً بأخٍ لو أنه في ثيابِ الحرِّ مولودُ)
أى لو غدّى وربى وأدّب بمثل ما يغذى به الحرُّ ويربى ويؤدّب ، لقصرَ
عن طبيعة الحرِّ ، ولو لم يرُم العبودية ، والعبد بمتنه الحرُّ ، فإذا كان كذلك
فهو عدو لا أخ .

(أولى اللّثامِ كُوَيْفِيرٌ بمعدرةٍ في كلِّ لُؤمٍ وبعضُ العُذرِ تَفْنِيدُ)
أولى اللّثامِ في العذر في اللوم كافور ، لأنه شرُّ نفسٍ من أحسن جنس ،
أعنى بالجنس ؛ الجليل ، لا المقول على الأنواع ، وإذا خَسَّ الجنس ؛ عذر

الواحد منه أن يجري على قيسه ، الذي هو طبعُ جنسه ، ففدا عذراً له ، وإن كان هذا العذر بالذم والتنقص أشبه . فهو إذن عذر يزيد على التفنيد ، لأن التفنيد يشعر أن المفند موجود ، كقوله :

وَيَبْقَى الْوَدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ

فأما إذا ترك التفنيد ، للعلم بأن الإساءة طبيعة في المسيء ، فذلك أقصى نهايات الذم . وأراد : (أَوَّلَى اللِّثَامِ بِمَعْدَرَةِ كَوْفِيرٍ) ، لأن قوله : (بِمَعْدَرَةِ) من تمام الاسم ، الذي هو أَوَّلَى . فكان ينبغي له ألا يجيء بالخبر الذي هو (كَوْفِيرٍ) إلا بعد قوله : (بِمَعْدَرَةِ) لتعلق الباء بأَوَّلَى . وكذلك إن جعل (كَوْفِيرٍ) هو المبتدأ ، وجعل (أَوَّلَى اللِّثَامِ) خبر مبتدأ مقدماً ، فقد حال أيضاً بين الاسم الذي هو الخبر ، وبين ما هو من تمامه .

ولذلك جعل الفارسيّ (كِلَا) في قوله :

كِلا يَوْمَي طُورَاةٍ وَصَلُ أَرْوَى ظَنُونٌ أَنْ مُطَرَحُ الظُّنُونِ

جزءاً من الخبر ، لامن المبتدأ ، الذي هو وصل أَرْوَى ، لأن وصلاً مصدر ، فكان يكون (كِلَا) من صلته متقدماً له . والنصاة لا تقدم على الموصول .

وكما لا يُقدَّم بعضُ أجزاء الاسم على بعض مُغَيَّرٍ عن وضعه ، فكذلك لا يُحال بين بعضه وبين بعض بأجنبي أيضاً ، فلذلك مثَّلنا بيت المتنبي في فصله بين (أَوَّلَى) وما يتعلق بها ، بالبيت الذي أنشده أبو عليّ ، في أنه لا يجوز تقديم الصلح على الموصول . وإنا قوله : (بِمَعْدَرَةِ) متعلق بأَوَّلَى . ثم أبرز مضمرة . أي أولاهم بمعذرة .

وله أيضا :

(وَعَدْتُ ذَا النُّصْلَ مَنْ تَعَرَّضَهُ وَخِفْتُ لِمَا اعْتَرَضْتَ إِخْلَافًا)

اختلس له بعض أعبده سيفًا ، وأعطاه امرأة وَرْدَان بن ربيعة الطائي التي تضيفه بحسمى . وكان عبيده قد خالفوا إليها فوثب أبو الطيب إلى العبد الذي اختلس السيف ، فأخذه منه ، وضربه به فقتله ، فيقول : لم أقتلك لأن السيف عَظُمَ على قدره وجلَّ لدى خطرُه ، حتى دعاني فقدمه إلى قتلِكَ ، ولكن وَعَدْتُ هذا السيف أن أقتل به من تَعَرَّضَهُ ، ولما تَعَرَّضْتَ أنت له وَهَمْتُ بالصفح عنك ، خِفْتُ أن يتخلَّلَ وَعْدِي إِخْلَافٌ ، فأكون غير صادق الوعد . وأراد : (من تعرض له) فحذف وأوصل وكذلك أراد (وخفت لما اعترضت له) ، فحذف الجار والمجرور ، كقوله :

إِنْ لَمْ يَجِدْ يَوْمًا عَلَى مَنْ يَتَّكِلْ

أراد يتكل عليه ، حكاه سيبويه . وقوله : (من تعرضه) أراد : قتل من تعرضه ، فحذف المضاف ، لمكان العلم به ، وأقام المضاف إليه مقامه ، و (مَنْ) : في موضع المفعول الثاني بوعدت .

وله أيضا :

(أَلَا كُلُّ مَاشِيَةٍ الْخِيزَلَى فِدَا كُلِّ مَاشِيَةٍ الْهَيْدَبَى)

الْخِيزَلَى : مِشِيَةٌ من مَشَى النساء ، فيها تَخْزُل وتَفْكُك . وَالْهَيْدَبَى (بهال والذال) : أعلى من مِشِيَةِ الْخِيلِ وَالْإِبِل ، فيها مُرْعَةٌ . فيقول : كل امرأة معشوقة التحرك فِدَا كل ناقة وجَمَل من الإبل التي خرجت عليها من حصر ، لما نلت بها من الضيم ، وقد بين ذلك بقوله بعد هذا :

... .. وَمَا نِيَّ حُسْنُ الْمَشَى

أى ما على من حسن مشية النساء لأنى لا أعنى بذلك ، وإنما أعنى بطلب النجاة ، ومحاولة المعالة ، وإرغام الدماء ، وقد بين ذلك أيضاً بقوله :

(وَلَكِنَّهُنَّ حَبَالُ الْحَيَاةِ وَكَيْدُ الْعُدَاةِ وَمَيْطُ الْأَذَى)

أى من أسباب الحياة ، فوضع الحبال موضع الأسباب لأن السبب من أسباب الخيل ، « وكيد العداة ومييط الأذى » أى وسبب كيد الدماء أكيدهم بها ، وسبب مييط الأذى أيضاً . فحذف للضاف ، وأقام للضاف إليه مقامه .

وإنما تأولنا ذلك ، لأن الخيل لا تكون فى الحقيقة كيداً ولا مييطاً ، إذ الخيل جوهر ، والكيد والمييط عَرَضان ، والجوهر والعرض ليسا من باب « هو هو » ، بل هما من باب الغير . وقد يجوز أن يجعل الخيل هى الكيد والمييط ، على سعة الكلام ، كأنها لما كانت سبب ذينك ، كأنها هما .

وقد ذهب سيديويه إلى الوجهين جميعاً فى هذا الضرب ، أعنى كقولهم : ما زيد إلا أكلٌ وشربٌ ، فإنما هى إقبالٌ وإدبارٌ .

قال : جعلها الإقبالَ والإدبارَ على سعة الكلام ، وإن شئت على الحذف ، كما قدمنا .

(فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى)

أى إذا كان مقصودهم ومدوحهم مثل كافور ، فكفى بذلك هجواً لهم .

وإن شئت قلت : أحوجنى الورى إلى مدح كافور ، وذلك سفةٌ ، فكان ذلك المدح هجواً لهؤلاء ، إذ لو كانوا كرماء أحراراً ، أغنوني عن مدحه ، والتعرض للقائه .

وله ايضا :

(قال الزمان له قولا فأفهمه إن الزمان على الإمساك عذال)

يقول : من رأى للمسكين خشية الإقلال ، وموتهم عن الأموال ، وتخليتها للأعداء الأضداد غير الأشكال ، فقد أراه الزمان فيهم العبر والغبر ؛ فكأنه قد حذره الإمساك ، ولأمة على ذلك ، وليس لازمان على الحقيقة قول ، لأن الزمان عرض متولد عن حركة الفلك ، وليس لعارض قول ، إنما هو للجوهر الناطق ، لكنه لما انعظ بتصاريفه ، ومشاهدة تكاليفه ، صار كأنه له لآثيم . ومثله كثير .

واقول الذى قاله الزمان ، إنما هو : لا تمسك المال ؛ فإنك إن فعلت ذلك كان عليك حوبه ، والوارث لذته وطيبه .

وقد ألم الحارث بن حلزة بهذا المعنى فى قوله :

لا تكسح الشول بأغبارها إنك لاتدرى من الناتج

(القائد الأسد غدتها برائنه بمثلها من عداه وهى أشبال)

برائتهم : سيوفهم . وأما البرثن فى الحقيقة ، فهو المخلب ، لكن السلاح للإنسان كالبرائن للمسباع ، أى أنه يسير للهباء فى غلمانة الذين رباهم وضرأهم وثبتهم لسلب عداه ، الذين هم مثلهم فى الشجاعة ، وذلك من حد صفرهم إلى كبرهم ، وقوله : وهى أشبال : جملة فى موضع الحال ، إذا رددتها إلى المفرد ، فكذلك قلت : غدتها برائنه صفاراً ، والشبل : ولد الأسد .

(وقد يلقبه المجنون حاسده إذا اختلطن وبعض العقل عقال)

معنى هذا أن (فانسكا) كان يلقب (المجنون) ، وهو لقب له - كما تراه - قبيح ، فاحتال المتنبي ، لتأوله على أحسن الوجوه ، فقال : إنما جنونه إذا

تزاومت السيوف ، واختلطت الصفوف ، في الاقتحام والاهتجام . ثم قال :
وَبَعْضُ الْعَقْلِ عُقَالٌ : لأن الجُبْنَ يتصور لأهله في مَعْرِضِ الحِزْمِ والعقل ، وهو
مذموم . وعُقَالٌ : أى أنه يَنْقَلِبُ عن الجراءة ، لأن الْعُقَالُ ظَلَمَ يكون بالبعير
ساعة ثم يَنْشُط .

(إِذَا الْعِدَا نَشِبَتْ فِيهِمْ نَحَائِبُهُ لَمْ يَجْتَمِعْ لَهُمْ حِلْمٌ وَرِئَالٌ)

هذا تفسير للبيت الأول ، واعتذار من تلقيه (المجنون) . يقول : فهو
في الحرب أَسَدٌ ، والأسد لا يُوجَدُ عنده الْحِلْمُ ، فلا يُبَالِغُ في عدمه الْحِلْمُ ،
كما لا يلام الأسد ، ولا يُسَمَّى (مجنوناً) لأنه قد تحوّل في الحرب عن طبيعة
الإنسان ، إلى طبيعة الأسد ، وإنما كان يسمى (مجنوناً) لو فارق الحلم وهو
في النوع الإنساني ، فلا يصح عليه اسم المجنون كما لا يصح على الأسد .

والرئال : الأسد ، يُهْمَزُ ولا يهمز . وليس ترك الهمز فيه على التخفيف
القيامي ، إذ لو كان كذلك لم يقل في الرئال والرئال . إنها لغتان ، كما
لا قول في (ذيب ، وذئب) أنها لغتان . وذلك أن تحقيق الهمز
وتخفيفه لا يُسَمَّى فيهما لغة ، مادام التخفيف قياساً ، إذ التخفيف على
القياس في فئة المحقق . ويدلك على أن (ريبالاً) ليس بتخفيف قياسي ،
وإنما هي لغة ، قولهم في جمعه : رِيَابِيلُ . فلو كان (ريبالاً) على التخفيف ،
لقيل في جمعه (رَابِيلُ) لأن اللمة التي كانت قلب الهمزة ياءً ، وهي الكسرة
في رِئَالٍ ، قد زالت في حدّ الجمع ، وعاقبتها الفتحة . وينبغي أن يكون وزن
الكلمة (فِعَالًا) . وإن كانت الياء لا تكون أصلاً في بنات الأربعة ، وأمثال
ذلك إن كانت زائدة كان في الكلام فِعَالٌ . وهذا بناء قد نقاه سيبويه
عن الأسماء ، إنما هو للمصادر .

فلما كان ذلك أَشَدَّ ذَنَابًا (ريبالاً) فجعلنا الياء فيه أصلاً لعدم (فِعَالٍ) .

في الاسم ، كما حلت الضرورة سيديويه ، على أن يعتقد الواو في (وَرَنْتَل) أصلاً ، وإن كانت الواو لا تكون أصلاً في بنات الأربعة .

ومن العرب من يقول : (رَنْبَال) بفتح الراء فإذا جاز ذلك ، فالياء حينئذ زائدة وليست من لفظ رَنْبَال ، ولو أسعده الوزن والقافية فقال (حَلْمٌ وَرَأْبَلَةٌ) ليوَفَّق بين المصدر والمصدر ، لكان أذهب في الصنعة .

فقد قالوا : (ما أشد رأْبَلَتَه) . وحكى أبو زيد عن العرب : خرج المُرَأْبِلُون (وهم المتلصصون) ليلاً كالأسد .

واستجاز أن يجعل لفاتك مخالب ، وإنما المخالب للسَّبْع ، لكن سَوَّغَهُ ذلك جعله إياه رَنْبَالاً . والرَنْبَال ذو مخالب ، لأن المِخْلَبَ للسَّبْع كالظْفَرُ للإنسان .

(أَنَالَهُ الشَّرْفَ الْأَعْلَى تَقَدُّمُهُ فَمَا الَّذِي يَتَوَقَّى مَا أَتَى نَالُوا)

أى توخى التقدم في جوده وجُرْأَتِه ، فنال بها الشرف ، على أن الجود يَفْقِر ، والجُرْأَةُ تُهْلِك . فما الذى ناله غيره بتوقيه الفقر إن جَادَ ، والموت إن أقدم ؟

— ١٢٩ —

وله أيضا :

(وَصَلْتَ إِلَيْكَ يَدَسْوَا عِنْدَهَا الْبَارِى الْأَشْنِيبُ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ)

يعنى بذلك الموت ، جعل له يداً ، لقولهم : أخذه الموت إذا أخذ أكثر ما يكون باليد . ولذلك سَمَّوا القُوَّةَ يداً ، لأنها إنما تكمل باليد ، أوقعوا اسم الجارحة على العَرَض . وقوله : (سَوَا عِنْدَهَا الْبَارِى الْأَشْنِيبُ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ) : ضرب البارِى مثلاً للأرفع ، والغراب الأبقع مثلاً للأوضع ، أى الموت يُسَوِّى بين الفاضل والمفضول ،

والرفيع والوضيع ، حتى لا يَفَرِّقَ بينهما ، بل هما متساويان فيه ، وكلاهما طُعْمَةٌ لِفِيهِ ، فهو نحو قول الآخر :

لو كُشِّفَتْ لِلنَّاسِ أَغْطِيَةُ الثَّرَى لَمْ يَعْرِفِ الْمَوْلَى مِنَ الْعَبْدِ

أى قد استويا فى التغير بالثروة . ونحو قول المتنبي أيضاً :

يموتُ راعى الضَّانِ فِي جَهْلِهِ مَيِّتَةً جَالِيُنُوسَ فِي طَبِئِهِ

وقوله : (سواء عندها) : خير مبتدأ مقدم ، والبازى الأشيهب ،

مبتدأ . وإنما آثرنا ذلك ، لأن « سواء » نكرة وإن تقوى بقوله :

(عندها) . و (البازى الأشيهب) معرفة . وإذا اجتمع معرفة ونكرة ،

فالمبتدأ المعرفة ، والخبر النكرة ، ألا ترى أن سيبويه لما قال فى قوله :

مررت برجل سواء هو والعدم ، حين فرغ من الجر ، (وإنما جعلت

هو مبتدأ ، حذراً أن يُوهِمَكَ أن « سواء » هو المبتدأ) .

وقطع ألف الوصل فى قوله : « والبازى الأشيهب » لأنه فى أول

المصراع الثانى ، فكأنه أخذ فى بيت آخر . وهذا مما أجازته سيبويه فى

الأنصاف خاصة . قال : إن الأنصاف مواضع فصول وأنشد :

ولا يُبادِرُ فى الشتاء وَلَيْدُنَا الْقِدَرُ يُنْزِلُهَا بغير جِمالٍ

(وَتَصَالَحَتْ ثَمَرُ السَّيَاطِ وَخَيْلُهُ وَأَوَتْ إِلَيْهَا سُوقُهَا وَالْأَذْرُعُ)

ثمر السياط : عُقَدَ عَذَابَاتِهَا . وقيل : أطرافها ، وهو الصحيح .

وجعل الثمر لما تنمى استعارة ، وحسن ذلك أن الثمرة إنما تكون فى

طرف العود . وأما ما روى عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ لَهُ

ثَمَرٌ ﴾ من أن (الثمر) الذهب والفضة ، فإنما هو عندى على التفاؤل

وذلك أن الذهب والفضة جماد ، والجماد لا ينمى ، والثمر نام ، فسمى ،

هنا أتى لا ينسى ، بامم الذي ينسى تفاؤلا . يقول : إنه كان يُدِيم ضرب الخيل بالسياط ، لحرب عدو ، أو لمحاولة فتنة ، أو لطرْد قنص ، فكان السيّاط كانت محاربة للخيل تؤلها ، والخيل محاربة لها ، بكرأهتها إياها ، فالآن إذا ملت لم يبق من يزجرُ خيلاً إلى حرب ، ولا نهب ، ولا طرْد ، فكان ثمر السيّاط قد صالحت خيله حتى سكنت إليها سوقها وأذرعتها ، لما قدته من ضربها . وقوله : أوت : أى رجعت آمنة لها ، ساكنة إليها .

- ١٣٠ -

وله أيضا :

(حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النُّجْمَ فِي الظُّلَمِ
وَمَا سُرَّاهُ عَلَيَّ خَفٌّ وَلَا قَدَمٌ)

يجب من طول مساراته للكواكب ، على أن سُرَّاه هو متكلف . وسرّى الكواكب طبعي فيقول : كيف أقدر بهذه السرى المتكلفة على مسيرة النجم ونحن على خف وقدم ، وكلاهما حيوان ، وذلك غريب بحرية الفلك ؟

وحذف الألف من (ما) لأن (ما) إذا اتصلت بحرف الجر في حد الاستفهام حذفت منها الألف ، فحتى بمعنى إلى ، فكأنه قال : (إلى ما ؟) أى إلى أى وقت ؟

(وَلَا يُحِسُّ بِأَجْفَانٍ يُحِسُّ بِهَا فَقَدْ الرُّقَادِ شَرِيبٌ بَاتَ لَمْ يَنَمْ)

أى والنجم مع خفة السرى عليه ، وهوائها لديه ، لا يُمنع رقاداً كما نمنه نحن ، فكأنفتنا أشد ، بل الكلفة لنا خاصة . ومعنى قوله : (قَدْ الرُّقَادِ) : لطيف ، لأن ما ليس في طبعه أن يَرَقُد ، لا يقال فيه

(فَقَدْ رُقَادًا) وإنما أراد أن النجم ليس بحيوان يغنوه النوم ، ويُضْلِح شأنه ، فإذا مَرى قَدَّ الرُقَادَ فَأَذَاهُ ذَلِكَ . وقوله : (ولا يحس بأجفان) : نفى عنه الأجفان ، لأن الجفن إنما هو قِى الرُّوح .

فيقول ؛ ليس النجم بذى رُوح فيكون له جفن ينفعه الكرى ، ويفضره السهر . وبنى هذا المصنوع الجماعى ، أخرج النجم من النوع الحيوانى .

(وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنفَكُ مِنْ سَفَرٍ مَاسِكًا فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارٍ فِي الْأَدَمِ)

أما سيره في الأدم ، وهى الأتولى ، فمصرى إنه لم يبارادتهم . وأما سيره في الغيم فلمُجَرِّيه ومنشئه سبحانه . لكنهم لولا أنهم أودعوه مَزَادَهُمْ ، وجعلوه زَادَهُمْ ، لم يكُ دَهْرَهُ كُلَّهُ مَسَافِرًا ، ولكن مسافراً في السحاب ، وحالاً في التراب ، فلما كان إدامة سَفَرِ الْمَاءِ إنما هو بكونه في السحاب ، وَتَزَوُّدٍ هُوَ لَاءِ أَيَّاهَا ، صار كأنَّ كَيْلَا السَّيْرَيْنِ بملكهم .

وقيل ؛ لما كان حمله في المزد نتيجة كونه في الغيم ، جعلوا السبب والمسبب كالشئ الواحد . ومثله في القرآن والشعر والكلام كثير .

(تَبْرِى لَهْنٌ نَعَامُ الدَّوِّ مُسْرَجَةٌ تَعَارِضُ الْجُدُلُ الْمُرْخَاةَ بِالْأَجْمِ)

تبرى : تعارض . ونعام الدو : يعنى به الخيل . وبقوله : (مُسْرَجَةٌ) : فصلها من النعام الوحشى ، لأن نوع النعام لا يُسْرَجُ اذ لا يُرْكَب . والجُدُل : جمع جَدِيل ، وهو حبل مقتول من أدم ، يكون فى عُنُقِ الناقة والبعير .

يقول : فإبِلْنَا طِوَالَ الْأَعْنَاقِ كَخَيْلِنَا ، فَأَعْنَاقُهَا تُعَارِضُ أَعْنَاقَ الْخَيْلِ .
وَأَقَامَ الْجُبِلَ وَاللَّجْمَ مَقَامَ الْأَعْنَاقِ ، لِأَن فِيهَا دَلِيلًا عَلَيْهَا ، إِذ لَا يَكُونُ
إِلَّا هُنَاكَ . وَمَا أَحْسَنَ ذَكَرَ اللَّجْمِ مَعَ قَوْلِهِ : (مُسْرَجَةٌ) .

(تَبْدُو لَنَا كُلَّمَا أَلْفَوْا عِمَامَتَهُمْ عِمَامٌ خُلِقَتْ سُودًا بِلَا لُثْمٍ)
يَصِفُ غِلْمَانَهُ ، وَيَذَكِّرُهُم بِالرَّوْعَةِ . يَقُولُ : كُلَّمَا سَفَرُوا عِمَامَتَهُمْ
بَدَتْ لَنَا عِمَامٌ سُودٌ ، يَعْنِي لَهُمْ ، وَأَثْبَتَ الْعِمَامَ لَهُمْ ، لِأَن الْعِمَامَ عَلَى
الْهَامِ ، وَشُعُورَ الْمُرْدِ إِنَّمَا هِيَ هُنَاكَ . وَنَقَى اللَّثْمَ عَنْ عِمَامَتِهِمُ الَّتِي عَنِ
بِهَا الشَّعْرُ ، لِأَن اللَّثَامَ مَا سَالَ عَلَى الْخَدِّ مِنَ الْعِمَامَةِ . وَهَؤُلَاءِ مُرْدٌ
لَا شُعُورَ فِي خَدُودِهِمْ ، فَتَصِلُ شُعُورُ رِءُوسِهِمْ فَلِذَاكَ جَعَلَ اللَّثْمَ عِمَامَ
(بِشُعُورِ رِءُوسِهِمْ) دُونَ لُثْمٍ ، وَهَذَا مَلِيحٌ جَدًّا .

(نَاشُوا الرَّمَاحَ وَكَانَتْ غَيْرَ نَاطِقَةٍ)
فَعَلِمُوْهَا صِيَاخَ الطَّيْرِ فِي الْبُهِمِ .

النَّوْشُ : التَّنَاوُلُ . (بَاتَتْ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشًا مِنْ عِلَا) .
وَفِي التَّنْزِيلِ : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ ﴾ أَيِ التَّنَاوُلِ لِلنَّجَاةِ ، وَالْبُهِمِ :
الشَّجَّانُ ، وَاحِدُهُمْ بُهْمَةٌ . يَقُولُ : تَنَاولُوا الرَّمَاحَ وَهِيَ خُرْسٌ فِي حَالِ
تَنَاولِهِمْ إِيَّاهَا ، فَدَقُّوْهَا فِي الْأَبْطَالِ ، حَتَّى صَاحَتْ صِيَاخُ الطَّيْرِ ، فَحَكِيَ بِذَلِكَ
قَعْمَ انْكَسَارِهَا فِي الْمَطْعُونِ بِهَا ، كَقَوْلِ الْآخَرِ :

تَصِيحُ الرُّدَيْنِيَّاتِ فِينَا وَفِيهِمْ صِيَاخُ بَنَاتِ الْمَاءِ أَصْبَحْنَ جُوعًا
وَقَوْلُهُ : (وَكَانَتْ غَيْرَ نَاطِقَةٍ ، فَعَلِمُوْهَا صِيَاخَ الطَّيْرِ) : يَشْعُرُ أَنَّهَا
نَاطِقَةٌ إِذَا صَاحَتْ . وَهَذَا مَقْطَعٌ شِعْرِي ، لِأَن الصِّيَاخَ لَيْسَ بِمَنْطِقٍ .
وَأَمَّا الْمَنْطِقُ عِبَارَةٌ عَنِ الْمَنْطِقِ الْمَتَّصِ فِي النَّفْسِ ، وَهِيَ الْفِكْرَةُ الْبَاعِثَةُ
عَلَى الْمَنْطِقِ .

فأما قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ فإنما ذلك على أن الله تعالى قد جعل للطير ما تعبر به عن ذواتها ، إلا أن ذلك لا يتأدى إلينا نحن ، وإنما خُص لفهمه سليمان صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه فهم من نغم الطيور ما نفهمه نحن في هذا النوع الإنساني بالمنطق .

(مَنْ اقْتَضَى بِسَوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ)

أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمْ

أى من اقتضى حاجته أو سألها من غير أن يُفعل لإدراكها شيئاً أو ربحاً ، لم تُقَض له . فكلما قيل له : هل قضيت حاجتك أو أدركتها ، كان جوابه لم أقض ولم أدرك ، وإنما يدرك حاجته من اقتضاها بالسيف والرمح . وجعل (هل) ، و (لم) اسمين للحرفين ، فصرفهما ، لأنها على شكل فمٍ ودمٍ . وإن شئت قلت : أراد (آم) بسكون الميم ، ثم تصور الوصل فالتقى له ساكنان ، فحرك الميم لالتقاء الساكنين ، وكان يجب أن يقول : أجاب كل سؤال بهل ، لأن السؤال ليس عن هل ، إنما المبحوث بهل عن غيرها ، كقولك : هل فى العالم خسوف قمر ، فالسؤال إنما وقع عن الخسوف القمري بهل ، لا عن هل وهى عند أصحاب المنطق أول منازل البحوث ، لأنها إنما يُسأل بها عن الآنية لكن لما كانت هل منتظمة للقضية المسئول بها عنها وكانت تلك يتعدى السؤال إليها بن ، استجاز أن يجعل السؤال عن (هل) اضطراراً .

وإن شئت قلت : أبدل (عَنْ) مكان الباء ، لأن حروف الجر يبدل بعضها من بعض كثيراً . وحسن له ذلك ، أنه لو أسعده الوزن فقال : « بهلٍ بلمٍ » توالى الباءان فى الحرفين . فهذا ما يعتذر له به .

وخصَّ المندى ، وهو السيف ، بتبليغ الأمل دون الرمح ، لأن
العمل بالسيف أدل على الاجتهاد ، وأوصل إلى المراد ، كقوله هو :
ومن طلبَ النصرَ العلىَّ فإنما مفاثحه البيضُ الخفاف الصوارمُ
(صنأ قوائمها عنهم فما وقعت

مواقع اللؤم في الأيدي ولا الكرم)

ويروى (ولا الكرم) فمن رواه ولا الكرم ، فعناه : لم يقبض على
قوائمها قبض اللثيم يده ، اجتهداً في محاربتهم ، وذلك لقلتهم عندنا ، ولصوتنا
سيوفنا عنهم ، ولم نمدَّ بها إليهم صفحات أكتفنا ، كما يتوعدُّ المشير إلى سيفه ، باسطاً
يده كما يسطها الكريم ، بل حقرناهم على الحالين معاً ، فلم نُعمل فيهم السيوف
كذا ولا كذا .

من رواه الكرم : أراد : لم نشددُ أيدينا عليها شدَّة اللثيم الأكرم ،
وهو الذي قصر اللؤم أصابعه ، كقولهم فيه : كزُّ البنان ؛ وجعدُّ البنان ،
وقولهم في ضده : سبطُ البنان . والرواية الأولى أعلى .

(تحذى الرُّكابُ بنا بيضاً مشافرها

خضراً فراسينها في الرُّغْل والينم)

الرغل والينم : نبتان . أما ابيضاض مشافرها فإنهم لا يهنتونها الرعى ،
من خشم إياها ، ومواقعتهم السير ، فلا تبلغ من الرعى اليسير أن تخضر
مشافرها ، إنما كانت تخضر لو أنعمت الرعى .

وبذلك على صحة ما ذهبنا إليه قوله :

... .. نضربها

عن منبتِ العُشب نبغى منبتِ الكرم

أولاً تراه يصفها بأنه يقدِّعها عن الرعى ، ويحشها على المشى .

وأما اخضرار فراسينها فلا دامتها السير في الكلاء ، وأنواع النبات
 الأخضر . وخص الرُّغْل واليَنَم لأنها مما يغلب على منابت الحمض .
 (هَوْنٌ عَلَى بَصَرٍ مَاشِقٌ مَنْظَرُهُ فَإِنَّهُ يَقْطُتُ الْعَيْنَ كَالْحُلْمِ)
 أى ماشق عليك النظر إليه ، والمشاهدة له ، من أنواع المكاره فهوثة على
 عينك ، فكل وجود معدوم بعد وجوده ، كان خيراً أو شراً .
 وقوله : (فإنما يقطات العين كالحلم) أى كل ما تشاهد في اليقظة في قلة
 الدوام ، في منزلة ما يشاهد في الأحلام .

وإن شئت قلت إن المشاهدة في اليقظة غير حقيقة . كما أن مشاهدة ما في
 المنام كذلك ، مبالغة بقلّة تحقق الأشياء . والقول الأول أسوغ وأبلغ .
 (مازلت أضحك إبلي كلما نظرت إلى من اختضبت أخفاً فها بدم)
 يذهب إلى احتقار كافور حتى إن إبله لتزدرى مقصوده ، فتضحك منه
 ومن القاصد . يقول : إلى مثل هذا الصنف أعمانا وجهدنا ، حتى اختضبت بالدم
 أخفافها ، وأراد إلى من اختضبت أخفافها بدم إليه فحذف الجار والمجرور ، وحسن
 حذف ذلك ، لأن إلى قد ظهرت في الكلام ، وإن لم يكن من سبب تلك
 المحذوفة . ونحوه ما أنشده سيبويه :

إِنَّ الْكَرِيمَ وَأَبِيكَ يَغْتَمِلُ إِنَّ لَمْ يَجِدْ يَوْمًا عَلَى مَنْ يَتَّكِلُ
 أراد يتكل عليه . ونسبة الضحك إلى الإبل مثل شعري غير حقيقي ، لأن
 الضحك خاصة للإنسان ، والخاصة لا تعدى مخصوصها .

— ١٣١ —

وله أيضا :

(وَبِالشُّمْرِ عَنْ شُمْرِ الْقَنَا غَيْرَ أَتْنِي جَنَاهَا أَحْبَابِي وَأَطْرَافُهَا رُسُلِي)
 يُغْرِبُ بَذَاتِهِ فِي الْعِشَاقِ ، وَبِحَبَائِبِهِ فِي الْعَشَوَقَاتِ . أى أنه لا نظير له في

الحب ، لأنى إذا ذكرتُ البيض فى شعرى ، لم أعنِ النساء ، وإذا ذكرت
الشمر ؛ فإنما أعنى الرماح ، ولكن إنما أحببائى ، الأرواح التى تجنّيهالى من
أجسام أعدائى ، وأطرافها رُسلى ، أى أسنتها هى التى تقوم مقام الرُّسل إلى
الأحاب . أى إنما أتوصل إليها بها ، كما أتوصل إلى المحبوب بالرسول .

وجعل أرواح عِداه جَنَى على المثل ، لأنها حياة فى الحقيقة ، لأن الحياة
نوع من النامى ، والروح عندنا ليس بنام ، وأراد رُسلى نخفّف ، وهى لغة تميم .
(فَمَا حَرَمْتَ حَسَنَاءَ بِالْهَجْرِ غِيبَةً

وَلَا بَلَّغْتَهَا مَنْ شَكَى الْهَجَرَ بِالْوَصْلِ)

ويروى (بما حَرَمْتَ حَسَنَاءَ) . نهى عن الحرص على النساء ، أى إذا
هجرتها ثم وصلتها كنت أحسن موقفاً عندها ، وأنشط لها ، فزادت الغيبة .
فإذا لم تحرم هى ، فهجرتك أياها إذا عادت الغيبة بوصلك لها ، بعد هجرك
إياها ؛ أبلغ . وإذا شكوت إليها الهجر وتذلت ، هُنت عليها ، فمنعتك
وصلها ، وأما رواية من روى (فَمَا حَرَمْتَ حَسَنَاءَ) وهى الصحيحة ، فمعناه :
لم تحرم امرأة محبوبة محبتها غيبة بهجرها إياها ، ولا بلّغت شاكياً شكى
إليها هجراً غيبة بوصلها إياه . يذهب الى التهاون بأمر النساء ، أى إنهن
لا يتجنن بهجرهن لك عدم غيبة ، ولا بوصلهن إياك وجودها . والهاء فى
قوله : بَلَّغْتَهَا : عائدة إلى الغيبة ، أى ولا بَلَّغْتُ مُحِبَّهَا غيبة بوصلها له .
و (مَنْ) فى موضع نصب ، لأنه مفعول ثان لبَلَّغْتُ .

وإن شئت كان « مَنْ » هو المفعول الأول ، و (ها) من (بَلَّغْتَهَا)
هو المفعول الثانى . وهذا كما تقول : كَسَوْتُ زَيْدًا الثوبَ ، وكسوت الثوب
زَيْدًا . و (حَسَنَاءَ) هاهنا : صفة أقيمت مقام الموصوف ، أى امرأة حسناء .
وقد غلبت هذه الصفة غلبة الأسماء ، وهى من باب (فعلاء) التى لا أفعل لها
من جهة السماع .

وله أيضا :

(تَعَسَّ المَهَارِي غَيْرَ مَهْرِيٍّ غَدَاً بُصُورٍ لِبَسِ الحَرِيرِ مُصَوَّرَا)

تَعَسَّ المَهَارِي : دعاء على نوع للمهاري ، وهي إبل منسوبة إلى مهرة ابن حيدان . وإنما دعا عليهن ، لأنهن جُنْدُ البَيْنِ ، ومُقَطَّعةٌ ما بين الحبيبين .
أى أُنْعَسَهُنَّ الله فلا انتعشن . ثم استغنى منها (المَهْرِي) الذي ركبتة محبوبته .

وقد كان أولى أن يدعى عليه من سائر المهارى ، لانفراده بالحبيب ، وحمله إياه ، لكن استثناءه ، لأنه يحمله ، فيقيه الرُّجُلَة ، وما يلحق معها من الكسل والكلال . وقوله : (بِمُصَوَّر) : أى بِسْتَرٍ رَقِمَ عليه صورة شخص

قد لبس حريرا مصورا ، ومن عادة عقائل العرب رَقْمَ الحِجَالِ ، كقوله :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِيْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ تَزْكُنُ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمْ

وذلك أن حب الفناء أحر ، مالم يكسر ، فإذا كُسِرَ ذهبت حمرة .

وإن شئت قلت : (بِمُصَوَّر) : يعنى هَوْدَجًا عليه حرير مصوّر . وإنما

جعل الهودج مصورا ، لأنه ذو شكل ، وكلُّ شَكْلٍ مُصَوَّرٌ .

(نَافَسْتُ فِيهِ صُورَةً فِي سِتْرِهَا لَوْ كُنْتُهَا لَخَفِيتُ حَتَّى يَظْهَرَآ)

كان دُونَ هذا المحبوب سِتْرَ فِيهِ صُورَةٌ . فيقول : حَسَدْتُ هذه الصورة

على قربها منه . فلو كنت مكان الصورة ، أو كنت إياها : لَخَفِيتُ فَرُزْتُ

عن وجهه ، ليزول الستر ، فتظهر للعيون .

فإن قلت : لا يلزم زوال الستر الحامل الصورة ، لمكان زوال الصورة ،

لأن الصورة تخطيط موضوع فيه ، والتخطيط عَرَضٌ .

قلنا : لو ارتفعت الصورة المنقشة في ذات الستر ، لارتفع الجوهر الحامل

لها . وإنما ارتفاع التخطيط عن المخطوط ، وبقاء الجوهر بعد ذلك

مُتَوَهِّمٌ لَا مَوْجُودٌ .

وإذا تأملت البيت فهو شعري لا حقيقي ، لأن من الصور الموضوعية في
الشيب ما يمكن إزالته ، ومنها ما لا يمكن . وأحسن ما في ذلك أن يقال : إن المتنبي
عنى الصورة بالخرقة الحامئة لها .

(لَا تَتَرَبِّ الْأَيْدِي الْمُقِيمَةُ فَوْقَهُ كِسْرَى مُقَامَ الْحَاجِبِينَ وَقَيْصَرًا)

كِسْرَى وكِسْرَى : لغتان . واختار ابن السكيت الكسر . وقالوا :
تَرَبَّ الرجل : قل ماله ، وأترب : كثر ماله . أى لا تفتقر الأيدي المصورة
التي ألفت هذه الصورة صنعاً ، وأجادتها وضعاً ، فأقامت كِسْرَى وقَيْصَرَ
مَلِكَي فارس والروم لها مُقَامَ الْحَاجِبِينَ ، فحجباها وإنما عنى بذلك صورتيهما
لا ذواتهما ، لأن ذلك ليس فى الإمكان ، إذ الصورة الصناعية لا تقبل
طبيعة الحيوان .

(وَلَوْ اسْتَطَعْتُ إِذَا اغْتَدَتِ رُؤُودُهُمْ لَمَنْعْتُ كُلَّ سَحَابَةٍ أَنْ تَقْطُرًا)

الرُّؤُودُ : منتجعو الكلا ، وافتراق العرب من حلالها إنما هو للنجمة
بهم ، يقدمون الرُّود ليخبروهم بمواقع الماء ، فى مواضع الكلا . وفى المثل :
« لا يكذب الرائد أهله » . فإذا أخبرهم بوجود ذلك ظعنوا . وإن أخبرهم
بعدمه ، سكنوا فلم يظعنوا . فإذا سبب الفراق نزول المطر ، وظهور الخضر .
فيقول : لو كان فى قوتى أن تطيعنى السحاب ، لنهيتهن عن المطر ، لثلا يجد
رائدكم أرضاً مخصبة ، ولا روضة دُمشبة ، يدعوهم إليها ، ويدلُّهم عليها . فلو
كان ذلك من قوتى لم يفارقونى .

(فَلِذَا السَّحَابُ أَخُو غُرَابٍ فَرَأَقَهُمْ جَعَلَ الصَّيَّاحَ بَيْنَهُمْ أَنْ يُمْطِرًا)

هذا البيت تفسير للأول ، وهو عندى داخل فى نوع التضمين ، وإن
لم يكن منه على الحقيقة ، وذلك أنه محمول على المعنى . أراد : لأنى تأملت
بينهم ، فوجدتُ سببَهُ إنما هو النُّجْمَةُ . وهو كقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ

بِمَصَّاكَ الْحَجَرِ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ أَيْ فَضْرِبَ فَانْفَجَرَتْ ،
فَكَذَلِكَ أَرَادَ الْمُتَنَبِّي : لِأَنِّي تَأَمَّلْتُ فَإِذَا الْأَمْرُ كَذَا ، لِأَنَّ الْمَطَرَ إِذَا وَافَى ، خَرَجُوا
فِي إِثْرِهِ مُتَتَّبِعِينَ لَهُ ، فَصَارَ السَّحَابُ بِمَنْزِلَةِ الْغُرَابِ ، فِي أَنَّ أَمْطَارَهُ مُشْعِرَةٌ
بِالْبَيِّنِ ، كَمَا أَنَّ صِيَاحَ الْغُرَابِ مُعَانٌ بِذَلِكَ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَجَعَلَهُ إِذْنُ غُرَابٍ
فِرَاقِهِمْ ، ذَهَابًا إِلَى شَبِّهِهِ بِهِ ، لِأَنَّ الْأَخْوِينَ فِي غَالِبِ الْأَمْرِ مُتَشَابِهَانِ . أَيْ أَقَامَ
السَّحَابَ وَالْأَمْطَارَ مَقَامَ صِيَاحِ الْغُرَابِ ، فِي الْإِبْذَانِ بِنَوَاهِمِ ، وَبَعْدَ مَثْوَاهِمِ .
و (جَعَلَ) هَاهُنَا ، بِمَنْزِلَةِ صَبْرٍ ، فَهِيَ مُتَعَدِيَةٌ إِلَى مَفْعُولَيْنِ ؛ كَمَا أَنَّ صَبْرَ
كَذَلِكَ . وَذَكَرَ السَّحَابَ لِأَنَّهُ مِمَّا لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاحِدِهِ إِلَّا الْهَاءُ . وَسَوَّغَ
التَّذْكِيرَ فِي هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْجَمْعِ خُرُوجَهُ إِلَى شَكْلِ وَاحِدِهِ .

(يَحْمِلْنَ مِثْلَ الرُّوضِ إِلَّا أَنَّهَا أَسْبَى مَهَاءَ لِلْقُلُوبِ وَجُودًا)

شَبَّهَ مَا عَلَى الْهَوَادِجِ مِنَ الْحَرِيرِ الْمَزِينِ ، وَالْوَشْيِ الْمَلُونِ ؛ بِالرُّوضِ الَّذِي
سَارَتْ فِيهِ إِبْلَاهِمُ ، فِي تَزَاوِيهِ نَوَاوِيرِهِ ، وَتَخَابُلِ أَزَاهِيرِهِ . وَالْمَهَا : وَهِيَ بَقَرُ
الْوَحْشِ ؛ عَقَائِلُ الْخَمَائِلِ الْأَرِيضَةِ وَالْحَقُوفِ الْمَرِيضَةِ ؛ كَقَوْلِ ابْنِ مِقْبَلٍ
يَصِفُ بَقَرَةً وَحْشِيَّةً :

عَقِيلَةُ رَمَلٍ دَافَعَتْ فِي حُقُوفِهِ رَخَاخَ انْتَرَى وَالْأَفْحَوَانَ الْمُدِيمَا

فَلَمَّا جَعَلَ الْوَشْيَ وَمَا عَلَى الْهَوَادِجِ مِنْ صُنُوفِ الرُّقْمِ بِمَنْزِلَةِ الرِّيَاضِ ، جَعَلَ
مَآيَسْتَرَهُ مِنَ النِّسَاءِ بِمَنْزِلَةِ الْمَهَاءِ وَالْجَاذِرِ . وَذَلِكَ فِي النَّجْلِ وَالْكَحَلِ . ثُمَّ
اسْتَنْتَبَى فَقَالَ إِلَّا أَنَّ مَا عَلَى هَذِهِ الْهَوَادِجِ مِنْ هَذِهِ الْمَهَا أَسْبَى مَهَاءَ وَجُودًا
لِلْفُؤَادِ ، مِنْ هَذَا الرُّوضِ الْبَاقِي . فَكَأَنَّهُ قَالَ فِي كُلِّ ذَلِكَ : سِيرْنِي فِي الرُّوضِ
بِمِثْلِ نَقُوشِهِ ، مِنْ رُقُومِ الْهَوَادِجِ ، وَحَمَلْنِي مِثْلَ وَحْشِهَا مِنْ رَبَائِهَا ،
كَقَوْلِ الْبَحْتَرِيِّ :

لَمَّا مَشَيْنِ بِذِي الْأَرَاكِ تَشَابَهَتْ
فِي حُتَّى حَبْرٍ وَرَوْضٍ فَالْتَمَتْنِي
أَعْطَافُ أَغْصَانٍ بِهِ وَقُدُودِ
وَشَيَانِ وَشَى رُبًّا وَوَشَى بُرُودِ

ومثله قوله ؛ أعنى المتنبي :

إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاوَحَ مِسْكُ الْغَارِنَاتِ وَرَنْدُهُ
وَأَرَادَ : أَسْبَى مَهَاةً لِلْقُلُوبِ ، وَجُوذْرًا مِنْهُ فُذِفَ (مِنْ)
ومثله كثير .

(فَبِلَحْظِهَا نَكِرَتْ قِنَاتِي رَاحَتِي ضَعْفًا وَأَنْكَرَ خَاتِمَايَ الْخِنْصَرَ)
أى بُلِّيتْ بِعَشْقِهَا حَتَّى بَلِّيتْ ؛ فَضَعَفْتُ رَاحَتِي ، عَنْ حَمْلِ قِنَاتِي ، فَأَنْكَرْتُهَا
كَأَنَّ الْقِنَاةَ تَقُولُ : لَيْسَتْ هَذِهِ الْيَدُ الَّتِي عَاهَدْتُهَا ، وَلَا الْقُوَّةُ الَّتِي شَهِدْتُهَا ؛
وَكَذَلِكَ دَقَّتْ خِنْصَرِي ؛ وَرَقَّتْ عَنْ خَاتَمِي ؛ حَتَّى أَنْكَرَهَا ، لَمَّا رَأَى فِيهَا
مِنْ خِلَافِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ . وَأَرَادَ : وَأَنْكَرَ خَاتَمِي ؛ فَوَضَعَ الْاِثْنَيْنِ مَوْضِعَ
الوَاحِدِ ، كَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

وَعَيْنٌ لَهَا حَدْرَةٌ بِدْرَةٍ شُقَّتْ مَا قِيَهُمَا مِنْ أُخْرٍ

وهذا الضرب من الاتساع وعكسه كثير ؛ وَنَكِرَ وَأَنْكَرَ . لَفْتَانِ
فَصِيحَتَانِ ؛ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ . وَهَذَا مِنْ غَرِيبِ الصَّنْعَةِ الشَّعْرِيَّةِ .

(أُمِّي أَبَا الْفَضْلِ الْمُبِيرَ أَلَيْتِي لَا يَمَنَّ أَجَلٌ بِحَرِّ جَوْهَرًا)

أى اقْصَدِي أَيْتَهَا الْخَلِيلَ أَبَا الْفَضْلِ ؛ الَّذِي لَمَّا حَلَفْتَ فَقُلْتَ : (لَا يَمَنَّ
أَجَلٌ بِحَرِّ جَوْهَرًا) وَاللَّهُ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَقْسَمِ بِهِ ، ثُمَّ قَصَدْتَهُ ؛ فَالْفَيْتَهُ
أَجَلُ الْبَحُورِ جَوْهَرًا ، أَبْرٌ بِذَلِكَ يَمِينِي . وَقَوْلُهُ لَا يَمَنَّ أَجَلٌ بِحَرِّ . تَفْسِيرُ الْأَلْيَةِ .

(أُنِي بِرُؤْيَيْهِ الْأَنَامِ وَحَاشَ لِي مَنْ أَنْ أَكُونَ مَقْصُرًا أَوْ مَقْصَرًا)

أى لَمَّا حَلَفْتَ لَا يَمَنَّ أَسْنَى الْبَحُورِ جَوْهَرًا ، لَمْ أَعْلَمْ أَى الْبَحُورِ
هُوَ . وَقَدْ لَزِمَتْنِي الْأَلْيَةُ ؛ فَاسْتَفْتَيْتُ فَقَهَاءَ الْأَنَامِ وَمُتَفَلْسِفِيهِمْ ؛ فَأَفْتَوْا بِهِ وَقَالُوا :

إذا يمت أبا الفضل ابن العميد؛ فقد برزت لأنه أجل بحر جوهراً؛ وجلالة
الجوهر كناية عن جزالة العطاء ولو قال : أفنى بأئمة الأنام فآزن له؛ لكان أشد
تطابقاً لما قبله؛ ولكن لم يستقم فيه الوزن . وسوغ ذلك أنه إذا كانت رؤية
قد كان أم . وهذا لا ينعكس؛ لأنه قد يكون أم ولا رؤية .

(خَنْثَى الْفُحُولَ مِنَ الْكَمَاةِ بِصَبْغِهِ مَا يَلْبَسُونَ مِنَ الْحَدِيدِ مُعَصِّفَرًا)

(خنثى الفحول من الكماة) : خنث الله الخنث : خلقه خنثى .
وهو الذى لا يختص إلى الإناثية ، ولا إلى الذكورية . وللمصفر : من زى
الإناث ، وذوى الانثى . فيقول : صير الفحول من الكماة إناثاً ، بصبغة
ما يلبسون من الدروع والجواشن والبيض بالدم . فز يلم زى النساء ، وألقهم
بهن فى الجبن ؛ بما ألقى فى قلوبهم من الرعب .

(فَدَعَاكَ حُسْدُكَ الرَّئِيسَ وَأَمْسَكُوا وَدَعَاكَ خَالِقُكَ الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَ)
(خَلَقْتَ صِفَاتِكَ فِي الْعْيُونِ كَلَامَهُ كَالْخَطِّ يَمْلَأُ مِثْمَى مَنْ أَبْصَرَا)

أى أن حسادك لم يجدوا بداً من أن يدعوك رئيساً؛ إذ لو جحدوا ذلك
لما جومعوا عليه ؛ ولا طووعوا بالإجابة إليه . لكن لم يبلفوا الغاية
فى إنصافك ، حين لم يسموك الرئيس الأكبر . وأنصفك خالقك ؛ فدعاك بما
قصرُوا هم عنه ؛ فدعاك الرئيس الأكبر . ثم أقام البرهان على هذه الدعوى
الحقيقية . فقال : لك صفات توجب لك أن تسمى الرئيس الأكبر ؛ فكانها
خط فيها حكاية قوله تعالى : (إِنَّكَ رَئِيسٌ) وإن كنت لاتسمع .

(وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تَرُدُّ فَضِيلَةَ الشَّمْسِ تَشْرِقُ وَالسَّحَابَ كَنَهْوَرًا)

الكنهور : السحاب المتراكم : أنشد سيبويه :

كنهور كان من أعقاب السمي

وإشراق الشمس وتكاثف السحاب ؛ فضيلتان ضِدَّيتان . والضدان مختلفان ؛ لا مؤتلفان . ومُعْتَقبان لا ملتقيان . وهذا المدوح قد جمع إشراق الشمس ، وتكاثف السحاب ؛ لأنه مستبشر الوجه جميله ، مستبشر النيل جزيله ؛ فالإشراق بشره وجماله ، والأمطار برّه ونواله ، وهذا كقوله فيه :

وأحسنُ ذى وجهٍ ، وأسمحُ ذى يدٍ
وأشجعُ ذى قلبٍ ، وأرحمُ ذى كبدٍ

فعله حسناً سمحاً بهذا ؛ كوصفه إياه بالشمس والسحاب ؛ فيقول : ليت هذه الباكية التى أبكها نواى عند وداعها إياى ؛ شهدت ماشهده من هذه القضية ؛ فتعذرني فيما رأتني عليه ؛ من اجتماع النية ؛ وإزماع الطيبة ؛ إلى هذا المدوح ؛ لمشاهدة مافيه من الأمر العجيب ؛ والفضل الغريب .

وقوله : (الشمس والسحاب) ؛ بدل من الفضيلة ؛ وهو محمول على المعنى ، لأن معناه ؛ فترك فضيلتين لا تتراذان ، على ما هما به من كونهما نوعين متضادين ؛ ولو قال (الشمس والسحاب) لكان حسناً ، لكنه تَمَّ بقوله : (تشرق) لقوله : (كَنَهْوَرَا) ؛ إذ قد تكون الشمس مع السحاب ، إلا أن كل واحد منهما غير متناهٍ فى صفته ؛ فإذا وقع التناهى ، فكانت الشمس مُشْرِقةً ، والسحاب كَنَهْوَرَاً ، لم يمكن اجتماعهما .

— ١٣٣ —

وله ايضا :

(كُلُّمَا قَالَ نَائِلٌ أَنَا مِنْهُ سَرَفٌ قَالَ آخَرٌ ذَا اقْتِصَادُهُ)

أى كلما استعظم منه نائل يُعَدُّ سَرَفَاً ، أهقبه نائل أعظم منه يُعَدُّ ذَلِكَ

النائل الأول الذى كان يستشرف اقتصاداً ، يضافه إلى الثانى ، وليس للنائلين منال ، لكن القول لما كان من أجلهما ، نسب القول إليهما .

(قَلَدَنِي يَمِينُهُ بِجُسَامٍ أَعْقَبَتْ مِنْهُ وَاحِدًا أَجْدَادُهُ)

أى نُسِبَ إلى المند ، كما ينسب الشريف إلى الجد .

يقول : إن المند لم تطبع له نظيراً يكون له ثانياً ، فقد أعقبت منه واحداً ، و (مِنْ) هاهنا للجنس . ولولا القافية لقال : آباؤه ، مكان قوله (أجداؤه) ، لأن الجد أعم من الأب ، فكل جد أب ، وليس كل أب جد .

(كَلَّمَا اسْتُلَّ ضَا حَكَّتُهُ إِيَاءَهُ تَزَعُمُ الشَّمْسُ أَنَّهَا أَرَاَدُهُ)

أى كلما استل هذا السيف ، ضاحكته أنوار فرنده ، تدعى الشمس أنها أَرَاَدُهُ ، وأَرَاد الضحى : ماؤها وروثها . فيقول : الشمس تدعى أنها من ماء هذا السيف ، وأراد أنها أَرَاَدُهُ من أجلها ، أى من أجل الإيأة . وقد يجوز أن يكون الأَرَاَد هنا : جمع ريد ، وهو الترب والمثل ، والأول أسبق .

(مَثَلُوهُ فِي جَفْنِهِ خَيْفَةُ الْفَتْدِ فِي مِثْلِ أَثَرِهِ إِغْمَادُهُ)

أثر السيف : فرند . يقول : حَلَمُوا جَفْنَهُ بِالْفَضَةِ ، فهو يحكيه بياضاً وصقلاً ، وعلى الفضة نقش سواد ، يحكى أثره نقشا ، فكأنهم إنما فعلوا ذلك ، لأنهم لم يصبروا عنه لجماله حين واره الفمد ، فصوروا عليه مثل صورته ، لئلا يفقدوه البتة ، هذا معنى قوله : خَشْيَةُ الْفَتْدِ ، أى خشية فقده .

(فَرَسْتَنَا سَوَابِقُ كُنَّ فِيهِ فَارَقَتْ لِبَدَهُ وَفِيهَا طِرَادُهُ)

فَرَسْتَنَا : يعنى هذه الخيل السابقة ، التى جاءت مع السيف ، فى جملة

عطايا أبي الفضل . وقوله : كُنْ فيه ، الماء راجعة إلى الندى . (فارقت لبدته) :
أى فارقت سرج هذا المدوح إلى سَرَجِي ، واللبد ليس بكلية السرج ، ولا كنهه
طلاقة منه ، فكُنْسى به عن كُله ، ومثله كثير (وفيها طرادُه) : أى
ذكرها سائر في الأرض ، فكأنها بعدُ في طراد ، وإن استراحت لدينا .
وإن شئت قلت : إن هذه الخيل تفيظ الأعداء ، وتخشى الحساد ، وتعين على
الثوب ، فكأنها غير مُنْفَكَّة من الطراد ، وإن كانت مستريحة ، لأن ذلك
عملها بالقوة .

وقيل : (وفيها طرادُه) : أى قد صِرْتُ في جُملة عبيده وعديده ، فإذا
سار إلى موضع سرت معه ، وطاردت بين يديه ، فكأنه هو المطارِد عليها ،
لأن ذلك بأمره ولطالب الحظوة عنده . و (فيها) : بدل من (عليها) وقد
يجوز أن تكون (وفيها طرادُه) : أى وفيها ما علّمها من علم المطاردة
والعدو بفُرساتها .

(وَأَحَقُّ الْفِيْوثِ نَفْسًا بِجَمْدٍ فِي زَمَانٍ كُلِّ النَّفُوسِ جَرَادُهُ)

أى زادتنا الأيام بك إعجاباً ، ولك استغراباً ، وذلك لأن والٍ في
زمان يأخذ فيه كل والٍ أموال الناس ، فهم كالجراد الذى يحشك الزرع والربيع
والبُسر . وأنت تبذر مالك ، فكأنك غيث تنبت لهم المراعى وغيرك جراد
يجرُدها . وهذا كقول ابن أبى عَيَيْنَةَ بهجوا المهلبى ، ويمدح أباه :

أبوك لنا غَيْثٌ نَعِيشُ بِنَبْتِهِ وَأَنْتَ جَرَادٌ لَسْتَ تُبْقِي وَلَا تَذَرُ
(عَدَدٌ عِشْتَهُ يَرْبَى الْجِسْمُ فِيهِ أَرْبَابًا لَا يَرَاهُ فِيمَا يَزَادُهُ)

يصف هذه القصيدة التى مدح فيها أبا الفضل ، وأهداها إليه فى النيروز ،
فيقول : هى أربعون بيتاً ، وهى عدد السنين التى إذا تجاوزها الإنسان نقص

عما عهدده عليه في جسمه ، من أحواله في قلبه وتصرفه . فذلك اخترت لهذه القصيدة هذا العدد تفاؤلاً لك بالصحة ، واستكمال قوتك .

وقيل : كانت سن المدوح حينئذ أربعين ، وهي ترى الجسم من استكمال القوة وبلوغ الأشد أرباباً لا يراه فيما يزأده من الحنين ، بعد الأربعين لأنه بعدها كل عام آخذ في التحول ومنعكس إلى التحلل .

— ١٣٤ —

وله ايضاً :

(نَسِيتُ وَلَا أُنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ وَلَا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمَرُ الخَدِّ)
الخَفَرُ : شدة الحياء ، وهو من عِلَلِ حُمرة الخد . وظل : زادت به حُمرة الخد ، ليشعر أن هنالك حمرة طبيعية سوى الحمرة التي يولدها الحياء ، لأن حمرة الحياء عَرَضٌ سريع الزوال ، إذا زال الحياء زالت . وكذلك مثَلَتْ به الحكماء الأعراض السريعة الانتقال ، قالوا : ذلك كحُمرة الخجل ، وصفرة الوجَل .

(وَلَا لَيْلَةً قَصَّرْتُهَا بِقَصُورَةٍ أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صُحْبَةَ الْعِقْدِ)
قَصَّرْتُهَا : جعلتها قصيرة ، أى ضد الطويلة . والقَصُورَةُ : المرأة [المقصورة الممنوعة ، أراد قَصَّرْتُهَا بوصال قصُورَةٍ . وقصيرة لغة في قَصُورَةٍ .
(أطالت يدي في جيدها صحبة العقد) : أى اعتنقها معظم ليلي أو كله ، فصحبت دواعي عقدها . واليد هنا : كناية عن كُلية القراع ، كقوله تعالى :
(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) .

(فَإِمَّا تَرَيُنِي لَا أَقِيمُ بَبْلَدَةٍ فَآفَةٌ غَمْدِي فِي دُلُوقٍ مِنْ حَدِّي)
أى بأنى سيف ماضٍ كثير الدُلُوق من حَدِّي . فغمدي متغير مُنْقَدِّ ،

لكثرة تحريكى فيه وقلقى . وضرب السيز مثلاً لنفسه ، والعمد مثلاً لجسمه ،
والثلوق مثلاً لحركته . أى تنقلى فى البلاد يُشجيني ويرث يزنى . وقد فسر
بقوله بعد هذا :

(تَبَدَّلُ آبَائِي وَعَيْشِي وَمَنْزِلِي نَجَائِبُ لَا يُفَكِّرُنَ فِي النِّعَمِ وَالسَّعْدِ)
(إِذَا لَمْ تُجِزْهُمْ دَارَ قَوْمٍ مَوْدَّةٌ أَجَازَ الْقَنَا وَالْخَوْفُ خَيْرٌ مِنَ الْوُدِّ)

أى هؤلاء الفتية إذا مروا بقوم لا يودونهم ، فراموا صدقهم ، حاربوهم ،
فأجازتهم الطريق رماحهم ، « والخوف خير من الود » . أى لأن تخاف
خير لك من أن تؤد وترحم ، كقولهم فى المثل السائر : (رَهَبْتُ خَيْرٌ
من رَحِمْتُ) .

ومن أمثالهم : (أَوْفَرَقَا خَيْرًا مِنْ حُبَيْنِ) : أى إذا فَرَّقَكَ فَرَقَا
يكون ذلك الفرق خيرًا من حُبَيْنِ .

وهذا كقول دُوَيْدَ بْنِ نَهْدٍ فى توصيته لبنيه : (أَخِيفُوا النَّاسَ
وَارْعُوا الْكَلَامَ) .

وأراد : أجازهم القنا إياها ، فحذف المفعولين ، لأن فى قوله : (إِذَا لَمْ
تُجِزْهُمْ دَارَ قَوْمٍ) ، ما يدل على هذا الحذف ، إذ دل الأول على الثانى ،
والثانى عين الأول ؛ فاستُجيز الحذف فيه ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبَدَّلَ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ أى والسموات غير السموات ، فحذف الثانى
الذى هو الأول المذكور فى المعنى أولاً .

(كَفَانَا الرِّبْعُ الْعِيسَ مِنْ بَرَكَاتِهِ فَجَاءَتْهُ لَمْ تَسْمَعْ حُدَاءَ سِوَى الرَّعْدِ)

أى كَفَيْنَا حُدَاءَ الْإِبِلِ بِرَعْدِ الرِّبْعِ ، لأنه قام لها مقام الحداء بصوته ،
وقيل : كَفَانَا الرِّبْعُ الْعِيسَ : أى كان منه رَعِيْهَا وَشَرَبَهَا وَحْدَاوَهَا . ولوعده

للربيع أيادي غير الرعد كما قال ، فقال : فجاءته : أي رعت . وشربت ؛
وجاءته . وإنما قال (فجاءته) : فيبين كيفية الكفاية : كما تقول : أحسنت
إليك فوهبتك ألفا ، فهبة الألف تفسير للإحسان . وقوله : (لم تسمع حُداء)
جملة في موضع الحال أي جادته غير سامعة حُداء إلا الرعد .

والرَّعْد هنا : مصدر من قولك : رَعَدَت السماء ترعدُ رَعْدًا . ولا يكون
الرعد الذي هو الجوهر المسكن في قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾
لأن ذلك لا يُسمع بذاته ، إنما يسمع صوته . والحُداء عرضٌ ، فقابله بالعرض
أولى ، وهذا دقيق ففهمه .

(إذا ما استجَّين الماء يعرضُ نفسه كَرَعْنٍ سَبَّتٍ في إناه من الوردِ)

يصف ما أمطرهم به السماء من الماء ، وأنبت لهم الأرض من الربيع ،
في مُضيَّهم إلى أبي الفضل ، لمكان بركته ، وأن العناصر تُعظَّم شأنه ،
وتعلو مكانه ، فتسقى رُؤاده ، وترعى نُصَّاده . والسبت : كل جلد مدبوغ
وقيل : هو المدبوغ بالقرظ خاصة ، وهو بلين الجلود ويحسنها ، حتى تُشبه
العربُ مشافر الإبل بها ، فيقول : إذا مرت هذه الإبل بهذه السيول التي
غادرتها هذه الغيوث ، ظلت كأنها تعرض نفسها عليها . فكأن الإبل
مستحية منها . لإلحاح المياه عليها ، بعرضها أنفسها ، وقد أحاطت بها رياض
الورد أو ما يشبه الورد ، من ضروب الأزهار ، وأنواع النواوير . فهي
تدخل أكارعها فيه ؛ وتغمس مشافرها في تلك المِشارب ، متقنة من إفراط
الحياة ، بذلك الورد النابت . وإنما عني (بالسبت) هاهنا مشافرها ، كقول طرفة :

وَحَدَّ كَقَرطاسِ الشَّامِي وَمِشْفَرٍ كَسَبَتِ اليماني قدَّه لم يُحَرِّدْ

وقيل : غَسَلَ الماء المستنقع في الأرض أخفاف الإبل من الطين ، حتى

عادت كالسبت في قفاها ، وأنبئت حافات الغدُر زهراً ، فكان الماء :
بعرض نفسه يتراءى في إناء من الورد ، والأول أولى .

(قَيِّمَ قَاتَتِ الْعَدُوِّ مِنَ النَّاسِ عَيْنُهُ فَمَا أَرْمَدَتْ أَجْفَانَهُ كَثْرَةُ الرَّمَدِ)
ضرب الرَّمَدَ مثلاً للعيوب المُعَدِّيَّة ؛ لأنه دالٌّ ربما أُعْدِيَ كالْجَرَبِ
ونحوه . فيقول : كثرت العيوب في الناس ، لكنه سَلِمَ هو منها ، فلم تُعْده ،
لشرف عنصره ، وصفاء جوهره . وقصد منه (العين) ، توطئة لذكر الرمد
الذي جعله مادة القافية ، وحسن ذلك ما ذكرت لك من طبيعة الرَّمَدِ في
العدوى .

(يُغَيِّرُ أَلْوَانَ اللَّيَالِي عَلَى الْعِدَا بِمَنْشُورَةِ الرَّاياتِ مَنْشُورَةِ الْجُنْدِ)
أى يوقد النيران في معسكر هذه الكتائب ، فيغيِّرُ من سواد الليل .
ولما كانت النارُ إنما تُوقدُها هذه الكتيبة ، جعل التغيُّرُ لها ، إذ هي الفاعلة
الحقيقية ، والنار وإن كانت مُغَيَّرَةٌ ، فإنها مفعولة للكتيبة ، فهي
الفاعلة على القصد الأول ، والنار الفاعلة على القصد الثاني . فافهمه :

إِذَا ارْتَقَبُوا صُبْحًا رَأَوْا قَبْلَ ضَوْئِهِ

كَتَائِبَ لَا يَرْدِي الصُّبْحُ كَمَا تَرْدِي

أي يتوهم العدو المغزو بتلك النار صُبْحًا وهو يترقب حقيقة الإصباح ،
فتوافقهم هذه الكتائب مكان الصباح الذي ارتقبوه ، وجعل الكتائب
أصرع من الصباح عدوًّا . وإن شئت قلت : إن مجيء الصباح غير مجيء
الكتائب ، لأن مجيء هذه مَشْيٌ ، ومجيء الصباح طلوع ، فلذلك قال :
(لَا يَرْدِي الصُّبْحُ كَمَا تَرْدِي) .

(يَفِضْنَ إِذَا مَا عُدْنَ فِي مُتَقَاذِفٍ

مِنَ الْكُثْرِ غَنٍ بِالْعَبِيدِ عَنِ الْحَشْدِ)

(يَفِضْنَ) : يَنْعَدِمْنَ فَلَا يُوجَدْنَ . أى بعوثك المتوجهة للفارة على عظيمها وكثافتها ، إذا عادت إلى معظم جيشك ، غاضت فيه كما يفيض النهر في البحر ، و (متقاذف) : جيش يقذف بعضه بعضاً ، لكثرتهم والتقاءهم ، كقول الراجز في صفة خصب وإبل :

أَرْعَيْتُهَا أَكْرَمَ عُودٍ عُودَاً بِحَيْثُ • يَدْعُو عَامِرٌ مَسْعُودَا

أى يتقاذف هذان الراعيان في طول هذا للكان واكتماله ، حتى ينادى كل واحد منهما صاحبه .

(غَنٍ بِالْعَبِيدِ) : أى أن هذا الجيش متألف من عبيد ابن العميد . فقد استغنى بهم عن الحشد ، للقرْبَى . وأن يكون اسماً أولى ، ليطابق العميد ، لأن العميد اسم . وقد قال أبو زيد الحشد : القوم المجتمعون ؛ فهذا مما يقوى فيه الاسمية .

(حَثَّتْ كُلُّ أَرْضٍ تُرْبَةً فِي غُبَارِهِ فَهِنَّ عَلَيْهِ كَالطَّرَائِقِ فِي الْبُرْدِ)

البرد : الثوب الموشى ؛ وطرائقه مختلفة الألوان ؛ أى فهذه الكتاب

شتى المطالب ؛ بعيدة المذاهب ؛ فهي تظاً لبعد مرامها ؛ أرضين

مختلفة أنواع التراب ؛ اختلافاً لَوْنِيًّا ؛ من بياض وسواد . فكل أرض

تطوؤها تختفى من غبار هذا الجيش بترابها ؛ فيكسب بذلك ألواناً

مختلفة ؛ بحسب أنواع التراب ؛ لكل نوع لون ؛ فكان الغبار بُرْد ؛

وهذه ألوان فيه .

(وَكُلُّ شَرِيكَ فِي السُّرُورِ بِمُصْبِحِي أَرَى بَعْدَهُ مِنْ لَا يَرَى مِثْلَهُ بَعْدِي)

مُصْبِحِي : أَوَانُ صَبَاحِي ؛ أَي وَكُلُّ مُشَارِكٍ لِي مِنْ أَهْلِي فِي السُّرُورِ فِي رَجُوعِي وَتَصْبِيحِي لَهُ ؛ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ مَا أَقْنَانِيهِ لِقَاءُ هَذَا الْمَدُوحِ مِنَ الثَّرْوَةِ فَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مُتَفَرِّدٌ دُونَهُ بِأَثَرِهِ ؛ وَهِيَ رُؤْيِي هَذَا الْمَدُوحِ الَّذِي لَا يَرَى هُوَ بَعْدِي مِثْلَهُ . يَقُولُ ؛ فَإِنَّا أَكْرَهَ أَنْ أَتَفَرِّدَ بِنُوعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُسَرَّةِ دُونِهِمْ ؛ فَإِذَا أَنَا أَتَيْتُ إِلَيْهِمْ وَرَأَوْنِي ، رَأَوْا مِنْ لَا نَظِيرَ لَهُ عِنْدَهُمْ كَمَا أَرَى أَنَا الْآنَ مِنْ لَا نَظِيرَ لَهُ ، فَاسْتَوُوا مَعِيَ فِيمَا نَلْتَهُ مِنَ الْغِنَى وَأَدْرَكَتَهُ مِنَ الْمُنَى ، أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ :

(وَقَدْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ الْمُنَى غَيْرَ أَنِّي يُعَيِّرُنِي أَهْلِي بِإِذْرَاكِهَا وَحَدِيثِ)
وَهَذَا كُلُّهُ اعْتِذَارٌ إِلَى أَبِي الْفَضْلِ فِي إِيْشَارَةِ الرَّحِيلِ عَنْهُ . وَإِنَّمَا كَانَ يَرِيدُ التَّمَادِي إِلَى شِيرَازَ ، ثُمَّ الْأَوْبَ إِلَى أَهْلِهِ .

— ١٣٥ —

وله أيضا :

(أَوْهٍ بَدِيلًا مِنْ قَوَّاتِي وَاهَا لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا)
أَوْهٍ ، وَأَوْهٍ : كَلِمَتَا تَوَجُّعٍ وَتَنَجُّعٍ مَبْنِيَّتَانِ عَلَى الْكُسْرِ . وَوَاهٍ : كَلِمَةُ اسْتِطَابَةٍ وَاسْتِزَادَةٍ . فَيَقُولُ : أَنَا مُتَوَجِّعٌ لِفِرَاقِهَا بَعْدَ اسْتِزَادَتِي وَصَالِهَا وَاسْتِطَابَتِي لِوَاهٍ ، لَمْ أَقْنَعْ بِهَجْرِ الدَّلَالِ ، حَتَّى بُدِيتُ بِفِرْقَةِ الزَّوَالِ . وَقَوْلُهُ : (لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا) أَيُ أَعْنَى الَّتِي بَانَتْ بِهَذَا التَّوَجُّعِ (وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا) ، أَوْ ذِكْرَايَ إِيَّاهَا بَدَلُ مِثْلِهَا . هِيَ مُفْقُودَةٌ أَيُ ذِكْرَاهَا لَدِي مَوْجُودَةٌ .

(أَوْهٍ لِمَنْ لَا أَرَى مَحَاسِنَهَا وَأَصْلُ وَاهَا وَأَوْهٍ مَرَّاهَا)
أَيُ إِنَّمَا أَرْجِعُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي مَعْنَاهَا التَّوَجُّعُ وَالتَّنَجُّعُ لِمَقْدِي رُؤْيِي

محاسنها . (وأصل واه وأوه مرآها) ؛ إنما كان سبب استطابتي إيادها ،
وتوجعي بنواها ، رؤيتي لها . وذلك أني رأيتهافهويتها ، ووصلت فاستطبتها
ونأت فتأوهت لها .

(شَامِيَّةٌ طَالِمًا خَلَوْتُ بِهَا تُبْصِرُ فِي نَاضِرِي مُحْيَاهَا)
شامية : منسوبة إلى الشام . يقال : شام وشأم . وناظر العين ؛ إنسانها
والحيا . الوجه أى هذه المحبوبة شامية خلوت بها طويلاً ، فاستمتعت بوصولها ،
واستكثرت نوالها .

(قَبِلْتُ نَاضِرِي تَعَالِطُنِي وَإِنَّمَا قَبِلْتُ بِهِ قَاهَا)
أى كانت تنظر إلى عيني ، فتشخص لها صورة وجهها في ناظري ، والفم
جزء من الوجه . فكانت ترى قاهًا في جملة وجهها المرئي في ناظري ، فكانت
تقبل الناظر مُرِيَّةً أنها تريده ، وإنما كانت تريد قاهًا ، فتقبله بالناظر ، كما
كانت في المرأة لأن الناظر عضو مجلوس ؛ فتشخص فيه الصورة ، كشخصها
في المرأة .

(فَلَيْتَهَا لَا تَزَالُ آوِيَةً وَلَيْتَهُ لَا يَزَالُ مَأْوَاهَا)
أى ليت صورتها لا تزال آوِيَةً ناظري . يقال : أويت المكان ، وأويت
إليه ، وذكر آوية ، وكان الحكم آوِيته ذهاباً إلى الشخص أو الشكل
أى وليت الناظر لا يزال مأوى هذه الصورة .

وهذا البيت مشتمل على قضيتين ، ترجعان إلى قضية واحدة ، لأن التمني
الأول هو التمني الثاني .

(لَقِينَنَا وَالْجُمُولُ سَائِرَةٌ وَهُنَّ دُرٌّ فَذُبْنَ أَمْوَاهَا)
لقيننا : يعنى هؤلاء الظعن . والجُمُول سائرة بهن يعنى الإبل بما عليها

من الموائد ، ومن درارى ، قد رقت بشراتهم وصفت ، فمن كالدر .
وأراد مثل الدر ؛ فبالغ حتى جعلهم الدر نفسه . ولا بد من اعتبار (مثل)
لأنهم لا يكن دراً ، لأن الدرجماد ؛ ومن حيوان ناطق .

وقوله : فذبن أمواها : أى يكن لما سارت بهن الإبل . فلما كانت
دموعهن كبشراتهن التى شاكت الدر ، رقة وصفاء ، ظننتهن دراً ذائباً ،
وهذا كقوله هو :

أوفى فكنت إذا رميت بمقلتي بشراً رأيت أرق من عجراتها
وقوله : أمواها : منصوب على الحال ، وإن كانت الأموا جوهراً
قد يكون الجواهر حالاً .

حكى سيبويه عن العرب (العجب من برٍّ مررنا به قفيزاً بدرهم) قال :
قد يكون خبراً مالا يكون صفة . يعنى بالخبر الحال ؛ وقال : هذا بُشراً أطيب
منه رطباً . وفى التنزيل ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ ومثله كثير .

وقال : (ذبن) وإنما يعنى دموعهن . لكن ادّعى أن الجملة قد عادت
ماء مبالغة .

(أو عبرت هجمة بنا تركت تكوس بين الشروب عقرأها)

الهجمة : القطعة من الإبل ، قد اختلف فى عددها . فقيل : ما بين السبعين
إلى المائة . وقيل أولها الأربعون ؛ إلى ما زادت . يصف شربة وقراء الأضياف ؛
فيقول : تمر بنا إبُلنا فنُعرقبها للضيفان ؛ حتى تكوس أى تمشى على ثلاث
وقيل تزحف على ركبها . قال الأعور النّهاني يهجو غسان السليطي :

ولو عند غسان السليطي عرّست رغا فرق منها وكاس عتير

و (الشروب) : يجوز أن يكون جمع شارب ؛ كشاهد وشهود ، وساجد

وسجود، ويجوز أن يكون جمع شرب، **تلقى** هو اسم لجمع شارب عند سيبويه،
 وجمعا له عند أبي الحسن . لكن أن يكون جمع شارب أولى ؛ لأنه إن
 كان اسم جمع على مذهب سيبويه ؛ فجمع اسم الجمع في القلة كجمع الجمع ،
 من حيث كانا مشتركين في الدلالة على الجمع . وإن كان الشرب جمعا على
 رأى أبي الحسن ، فجمع الجمع قليل ، لا يحمل سيبويه صيغة الجمع عليه ما وجد
 عنه منذوحة ، وإنما يقر بجمع الجمع إذا لم يجد سبيلا إلى غير ذلك . ومن ثم
 ذهب الفارسي في قراءة من قرأ ﴿ فَرُّهُنَّ مَقْبُوحَةٌ ﴾ إلى أنه جمع رهن ؛
 كسَجَلٍ وَسُجُلٍ ، وَسَقْفٍ وَسُقُوفٍ ، واستبجز هنا على قلته ، كراهية أن
 يحتاج إلى أن يقول إن رهنّا : جمع رهن ، ورهنان : جمع رهن . وإنما ذلك
 من أبي على فرار من جمع الجمع . فلهذا قلنا إن : (شُرُوب) : جمع شارب ،
 أولى من كونه جمع شرب ، فافهمه .

(تَقُودُ مُسْتَحْسَنَ الْكَلَامِ لَنَا كَمَا تَقُودُ السَّحَابَ عُظْمَاهَا)

أى إذا اعتبرنا مآثره ، وامثلنا مفاخره ، **تعتننا** مستحسن الكلام فيه ،
 وقادته لنا ، كما يقود السحاب سحابا .

(لَوْ فَطِنْتُ خَيْلَهُ لَنَاقِلِهِ لَمْ يُرْضِهَا أَنْ تَرَاهُ يَرْضَاهَا)

أى لو شعرت خيله أنه إنما يعدّها للهبة ، وإنه إنما يهب منها الخيار
 المرضية ؛ لم ترض هذه الخيل أن يرى عنها راضيا ، لأن مَرْضَى منها موهوب
 لآله ، ومبذول لسائله .

(نَسُرُّ طَرَبَاتُهُ كَرَائِنَهُ ثُمَّ تُزِيلُ السُّرُورَ عُقْبَاهَا)

الكرائن : جمع كَرِينَةٍ وهى المغنية . والكِرَان : العود . أى إن
 الكرائن إذا غنينه أطربته ، فوهب لهنّ ، وسرهن بذلك . ثم تجاوز الطرب

ذلك الحدّ فيهنّ جميعهنّ للشُّروب فيأسنين لفراقه ، فتزيل عُقْبَى الطرب
مُرُورهنّ لهبته إياهنّ لنداماه . والهاء في (عُقْبَاهَا) راجعة إلى الطَّرَبَات .
وكان حكم (طَرَبَاتِه) بتحرّيك العين لأنّه جمع (فَعْلَةٌ) اسمًا ، لكن الشاعر
إذا اضطرّ سَكَنَ مثل هذا ، لإقامة الوزن ، أنشد الفارسي :

أَبَتْ ذِكْرَ عَوْدِنَ أَحْشَاءَ قَلْبِهِ خُفُوقًا وَرَقَضَاتُ الْمَوَى فِي الْمَفَاصِلِ
(يَكُلُّ مَوْهُوبَةً مُوَلُولَةً قَاطِعَةً زِيرَهَا وَمَثْنَاهَا)
(وولولتها) : أنينها لفقده ، و (قطعها الزير والمثنى) . ندم لمن
حصل عنده . ، ممن ليس نده .

(تَعُومُ عَوَمَ الْقَدَاةِ فِي زَبَدٍ مِنْ جُودِ كَفِّ الْأَمِيرِ يَغْشَاهَا)
زَبَدٍ : أي مُزِيدٍ ، ليس على الفعل ، لأنّا لم نسمع زبد ، وإنما هو
على النسب ، أي ذو زَبَدٍ ، كما ذهب إليه سيبويه . أي هذه الموهوبة محترقة
في جملة عطائه كاحتقار القداة في معظم التيار .

(لَا تَجِدُ الْخَمْرَ فِي مَكَارِمِهِ إِذَا انْتَشَى خَلَّةٌ تَلَا فَا هَا)
أي كرمه طبيعة ، فسواء عليه صحا أو سكر ، لا يقع في كرمه تقصيرٌ
قبل الخمر ، ولا خَلَّةٌ تُسَدُّهَا الْخَمْرُ . وهذا كقول البحترى :
يُكْرَمُ مِنْ قَبْلِ الْكُمُوسِ عَلَيْهِمْ فَمَا اسْبَطَعْنَ أَنْ يُحْدِثْنَ فِيهِ تَسْكَرُ مَا
وقال التنبى :

وجاد فلولا جوده غير شارب لقلنا كريم هيّجته ابنة الكرم
وأراد (تلافاها) فحذف إحدى التاءين ، كراهية اجتماع المثلين . وهذا
مطرد في اللغة ، و (انتشى) : سكر .

تُصَاحِبُ الرِّاحُ أَرْيَحِيَّتَهُ فَتَقْطُرُ الرِّاحُ دُونَ أَدْنَاهَا

أَرْيَحِيَّةُ الرِّاحِ : يَتَكَرَّمُ بِهَا النَّاسُ ، وَزِدَادٌ كَرَمًا بِهَا الْكَرِيمُ فَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ تُوجِدُ مَزِيَّةً لَمْ تَوْجِدْ قَبْلَهَا ، وَأَرْيَحِيَّةُ الْمَدُوحِ طَبِيعِيَّةٌ بِالْفِعْلِ غَايَةً تَكُونُ أَرْيَحِيَّةُ السَّكْرِ مَقْصُورَةً عَنْ أَدْنَى مَنَازِلِهَا - فَكَيْفَ أَنْ تَوْجِدَ فِيهَا مَزِيَّةً لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ ؟

(تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هِمَمٌ مِلَّةُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا)

لَيْسَ لِلدَّهْرِ فُؤَادٌ ، لِأَنَّ الْفُؤَادَ جَوْهَرٌ ، وَاللَّهْرُ عَرَضٌ ، وَلَا يَكُونُ الْجَوْهَرُ جُزْءًا مِنَ الْعَرَضِ ، وَلَكِنْ اسْتَعَارَهُ لَهُ صَنَعَةٌ وَاقْتِدَارًا . وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَى شَخْصًا لَقَامِي حَدٌّ مَفْرُقٌ حُسَامِي

وَمَا جَعَلَ لَهُ فُؤَادًا اسْتِجَازًا أَنْ يَجْعَلَ لَهُ هِمَّةً ، لِأَنَّ الْفُؤَادَ مَطِيَّةُ الْهِمَّةِ . وَحَسَنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ . (تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هِمَمٌ) . . . يَقُولُ : فِي فُؤَادِ هَذَا الْمَدُوحِ هِمَمٌ كَثِيرَةٌ مُجْتَمِعَةٌ ، يَمَلَأُ فُؤَادَ الدَّهْرِ مِنْهَا وَاحِدَةٌ ، وَيَضِيقُ عَمَّا سِوَاهَا .

(فَإِنْ أَتَى حَظُّهَا بِأَزْمِنَةٍ أَوْسَعَ مِنْ ذَا الزَّمَانِ أَبْدَاهَا)

أَيُّ فَإِنْ أَتَى حَظُّ هَذِهِ الْهِمَمِ الَّتِي لَا يَسَعُ فُؤَادُ الزَّمَانِ مِنْهَا ، إِلَّا وَاحِدَةٌ ، بِأَزْمِنَةٍ أَوْسَعَ مِنْ هَذَا الزَّمَانِ ، أَبْدَى الْمَدُوحُ تِلْكَ الْهِمَمَ ، الَّتِي لَا يَبْدِيهَا إِلَّا أَنْ يَضِيقَ الزَّمَانُ عَنْهَا . وَ (حَظُّهَا) هُنَا كَقَوْلِهِ : (جَدُّهَا) . وَقَوْلُهُ : (بِأَزْمِنَةٍ) أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِ : (بِزَمَانٍ) ، بَعْدَ أَنْ يَحْتَمِلُهُ الْوِزْنُ ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ أَبْلَغُ مِنَ الْوَاحِدِ .

(وَصَارَتِ الْفَيْلِقَانِ وَاحِدَةً تَعْتَرُ أَحْيَاؤَهَا بِمَوْتَاهَا)

وَاحِدَةٌ : أَيُّ فَيْلَقًا وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا صَارَتِ الْفَيْلَقَانِ فَيْلَقًا لاختلاطهما ،

حتى كأنهما اتحدتا . والماء في (أحيائها وموتاهما) : عائدة إلى الفيلق الواحدة .

(يُعْجِبُهَا قَتْلُهَا الْكُفَّاءَ وَلَا يُنْظِرُهَا الدَّهْرُ بَعْدَ قَتْلَاهَا)
أى إذا قتل الفارس فارساً أعجبه ذلك ، ثم لا يلبث أن يتاح له فارس آخر يقتله .

(وَدَارَتِ النَّيِّرَاتُ فِي فَلَكَ تَسْجِدُ أَقْمَارُهَا لِأَبْهَاهَا)
عنى بالفلك هنا : ذات المعترك ، حيث التقت الأملاك والأبطال
الآنجاد . وكلا هذين القبيلين (أقمار) فهى (تسجد لأبهاها) يعنى الملك .
(الْفَارِسُ الْمُتَقَى السَّلَاحُ بِهِ الْمُشْنَى عَلَيْهِ الْوَعَى وَخَيْلَاهَا)
يُتَقَى بِهِ السَّلَاحُ ، لأن السلاح لا يؤثر فيه ، بل هو المؤثر فيها
كقول الآخر :

اللابسين قلوبهم فوق الدروع لدفع ذلك
أى إن أفندتهم أوفى لهم من دروعهم ، لأنها أثبت صيانة ، وأشد
منها حصانة ، وثمنى الخيل ، لأنه أراد خيله وخيل عدوه ، لأن الحرب إنما
تقوم بطائفتين متضادتين . ولذلك قال بعض الأوائل ، من الحكماء الأفاضل :
الحرب حينئذ ذو طبيعتين متضادتين ، أى قوامها ذلك فان بطل أحد الضدين
بطل الحرب .

(لَوْ أَنْكَرَتْ مِنْ حَيَائِهَا يَدُهُ فِي الْحَرْبِ آثَارَهَا عَرَفْنَاهَا)
ذهب قوم إلى أنه يجلى عن الفخر بتأثيره فى عِداه . فلو أنكرت يده
ذلك ، لعرفنا أن هذه الآثار لها .

والذى عندى أن آثار مفاخره فى العالم حسان ، وذلك بإغناء فقير ،
وافتكاك أسير ، وبث فضل ، وإقامة عدل .

وأما آثاره فى عِداه فقبیحة الصُّور . لأنها إنما هى إفساد جواهرهم ،
وتغيير ظواهرهم وبواطنهم . قلو أنكرت يده هذه الآثار ، حياء من قبحها ،
لعرفنا نحن أنها لها ، لأنه لا يؤثر فى العدى هذا التأثير الاثير الإلهى .

(وَكَيْفَ تَخْفَى الَّتِى زِيَادَتُهَا وَنَاقِعُ الْمَوْتِ بَعْضُ سَيِّمَاتِهَا)

يعنى يده ، أى وكيف تخفى آثار هذه اليد ، التى سوطها وناقع
الموت جزء من سيماها . عنى بناقع الموت : السيف ، وبالزيادة : السوط .
وذلك أنه يضرب بالسوط ، ويقتل بالسيف . وإذا كان هذا بعض سيماها ،
ونتيجةا الضرب والقتل ، فما الظن بكليّة سيماها .

(النَّاسُ كَالْعَابِدِينَ آلِهَةٍ وَعَبَادُهُ كَالْمُوحِّدِ اللَّهِ)

الآلهة : لا تغنى عبادها ، والله يغنى عباده . يقول : فمن أمّل غير
هذا الملك ، لم يستغن بواحد عن آخر ، مع ما يُفتتج له ذلك من قلة
الغنى ، ومن أمّله كفاه ، وأغناه ، عن سواه ، كما يفعل ذلك بعبده الإله .

- ١٣٦ -

وله أيضا :

(عَدَدُ الْوُفُودِ الْعَامِدِينَ لَهُ دُونَ السَّلَاحِ الشُّكْلُ وَالْعُقْلُ)

أى لا يقصده المحاربون ، لأنه لا يطمع فيه أحد ، فذلك لا يُعدّ له
السلاح ، وإنما يقصده الآملون ، فعُدّهم الشُّكْلُ وَالْعُقْلُ ، لأنهم
يسألونه الخيل للحرب ، والإبل للذّية . ووقد العرب انما بغيتهم ذلك ،
فهم يُعدّون الشُّكْلُ وَالْعُقْلُ ، ثقة منهم بهبته لهم ما يسألون .

(تُنمى عَلَى أَيْدَى مَوَاهِبِهِ هِيَ أَوْ بَقِيَّتُهَا أَوْ الْبَدَلُ)

أى أن مواهبه مستبعدة بخيله وابله ، لا مطمع للإبقاء فيها . وقد اجد أبو الفتح فى تمثيله إياه بقول العرب فى الشيء إذا استبد به أمر ما ، فلم يك ابترازه منه مطمع . (وَضِعَ عَلَى يَدَى عَدْلٍ) .

ومعنى البيت : أن يهب جوده خيله ، وخيار ابله لأوائل الوفود عليه ، وما بعدها فى المنزلة ، وهى البقية ، لمن يفد بعد الوفد الأول . حتى إذا لم يبق من خيله ولا ابله شيء أعطى بعدها العين والورق .

والبديل هنا : اسم . وقد يكون ظرفاً فى غير هذا الوضع . فإذا كان اسماً كان بمنزلة البديل ، قال سيبويه : وتقول : إن بَدَلَكَ زيداً ، أى إن مكانَكَ زيداً . قال : وإن جعلت البديل بمنزلة البديل ، قلت : إن بَدَلَكَ زيدٌ ، فليجوز بالأسماء . وأراد : (أَوْ بَدَلُهَا) فجعل الألف واللام عوضاً من الإضافة ، لأن كل واحدة منهما للمعرفة وجعل للمواهب (أبدىا) تحكماً على الصنعة ، وتأنقاً فى البلاغة ، وليُدشّر أنه إنما وازى به قول العرب فيما ينسب منه : (وَضِعَ عَلَى يَدَى عَدْلٍ) .

(يُشْتَقُّ مِنْ يَدِهِ إِلَى سَبَلٍ شَوْقًا إِلَيْهِ يَنْبُتُ الْأَسْلُ)

السَّبل : المطر ، كناية عن العطاء ، يقول : يشتاقل إلى يده ، حتى أن الأسْلَ لا يذبت إلا ليباشر راحته ، فيُرْوَى بنائها كَرَبِهِ بالسحاب ، بل أكثر . وإن شئت جعلت حَظَّ الأسْل من نائل كفه ، ما يسقيها من الحَم . وقوله : شَوْقًا إِلَيْهِ يَنْبُتُ الْأَسْلُ : جعله فى موضع الصفة

سَبَل . وشوقاً مفعولاً من أجله ، وهو الذي يسميه سيبويه عذراً
لوقوع الأمر .

(فَإِذَا حَصَى أَرْضَ أَقَامَ بِهَا بِالنَّاسِ مِنْ قَبِيلِهِ بَلَلُ)
أى إذا حلَّ بحصى أرض ، قبله الناس بين يديه ، حتى تبَّلَ أسنانهم
أى تُقبِل وتنعطف إلى الباطن . وحصى منصوب بفعل مضمر . أى
إذا حلَّ حصى أرض . « وأقام بها » : قير للفعل المضمر ، لأنه
إذا أقام به فقد حلَّه ، وأراد : فبالناس ، فحذف الفاء للضرورة ،
وهو كثير في الشعر ، أنشد سيبويه :

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشرُّ بالشر عند الله مثلاًن
أى فالله يشكرها . والماء فى (بها) راجعة إلى الحصى ، لأن
الحصى يؤنث ويذكر ، وكذلك كل جمع بين واحد الماء .
ولا تكون الماء فى « بها » عائدة إلى الأرض لأنه لا بد فى الفعل من
مُضمر يرجع إلى المفعول ، إلا أن يُحذف لضرب من الاستخفاف ، كما
قد بين سيبويه فى غير موضع .

ولو كانت الماء راجعة إلى الأرض ، ولم تُعَد إلى المفعول الذى
هو الحصى ، لقلت : (زيداً ضربت هنداً) مريداً (ضربتُ زيداً
ضربت هنداً) . وهذا لا يقوله أحد ، لا بد فى الفعل الظاهر من
ضمير ملفوظ به أو مقدر ، يعود إلى المفعول المنتصب بالفعل المضمر .
وقال : (من تقبيله) : حملاً على التذكير : والعرب تقول :
شجر أخضر ، وخُضِر ، وحصى أسود وسُود .

(لا تَلْقَ أَفْرَسَ مِنْكَ تَعْرِفُهُ إِلَّا إِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْحِيلُ)

يُخَاطَبُ بِذَلِكَ لَوْهَوْدَانِ ، يَقُولُ لَهُ : مَنْ عَرَفْتَ أَنَّهُ أَثْبَتَ مِنْكَ
فِرَاسَةً فَلَا تَعْرِضْ لَهُ مَا وَجَدْتَ عَنْ لِقَائِهِ مَنْدُوحَةً ، وَلَا تَحَارِبْهُ مَا أَمَكَّنَتْكَ
مَسَالِمُهُ . يَعْظُهُ بِذَلِكَ ، وَكَأَنَّهُ مُسْتَهْزِئٌ بِهِ . فَإِذَا ضَاقَتْ بِكَ الْحِيلُ وَلَمْ
تَجِدْ بُدًّا مِنْ لِقَائِهِ ، فَقَدْ اسْتَحَقَّتِ الْمَعْذَرَةُ .

وَقَوْلُهُ أَفْرَسَ مِنْكَ : صِفَةُ مَوْضُوعَةٍ مَوْضِعِ الْأَسْمِ أَيْ رَجُلًا أَفْرَسَ
مِنْكَ . وَحَسَنَ وَضْعِ الصِّفَةِ هُنَا مَوْضِعِ الْأَسْمِ ، لِأَنَّهَا قَدْ تَقَوَّتْ بِقَوْلِهِ :
(مِنْكَ) . وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْكَ مُنَاسِبٌ لِلْإِضَافَةِ ، وَالْمُضَافُ اسْمٌ . وَتَعْرِفُهُ :
جَمَلَةٌ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : لَا تَلْقَ رَجُلًا أَفْرَسَ مِنْكَ ،
مَعْرُوفًا لَدَيْكَ .

(فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ مَا طَلَبُوا فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةً نَزَلُوا)

أَيْ رَتَبَتُهُمْ فِي أَرْفَعِ الْغَايَاتِ مِنَ الرُّتَبِ ، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ مَزِيدٌ
إِلَى فَوْقَ ، فَإِذَا أَرَادُوا غَايَةً مَا غَيْرَ تِلْكَ الْغَايَةِ ، نَزَلُوا إِلَى الْأَسْفَلِ
مِنْهَا ، أَيْ لَا تُمْكِنُ غَايَةٌ إِلَى فَوْقَ ، لِأَنَّ مَرَاتِبَهُمْ فِي أَسْنَى الْغَايَاتِ
وَأَرْفَعِ التَّهَابِاتِ . وَقَدْ قَالَ هُوَ فِي هَذَا الْمَعْنَى بَعِينُهُ :

وَقَالُوا هَلْ يُبْلَغُكَ الثَّرِيًّا قُلْتُ نَعَمْ إِذَا شئتُ اسْتَفْلَا

- ١٣٧ -

وَلَهُ أَيْضًا :

(لَيْسَ كَمَا ظَنَّ غَشِيَةً عَرَضَتْ فَبَجِشْتَنِي فِي خِلَالِهَا قَاصِدٌ)

كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ تَوَقَّعَ أَنْ يَلُومَهُ مَحْبُوبُهُ لِنَوْمِهِ بَعْدَهُ ، وَحُلْمِهِ بِخِيَالِهِ
فِيهِ . قَالَ : لَعَلَّ مَرْسَلًا إِلَى أَيْيُهَا الْخِيَالِ ، ظَنَّ أَنِّي نَائِمٌ ، أَوْ خِلْتَنِي
أَنْتَ يَا خِيَالَ كَذَلِكَ ، لَيْسَ كَمَا ظَنَنْتُمَا ، حَالِي أَشَدُّ مِنْ أَنْ أَتَامَ عَلَيْهَا ،

وانما هي غشية . فإن الباشق يُنشى عليه ، وليس من شأنه أن ينام ،
 فلا ألحقن منك ملاماً ، لأنى لم أخل بحق العشق اذا لم أنم . وانما
 كنت مُخلاً به لو نمت ، فجننتى فى خلالها قاصداً ، أى فى خلال تلك
 الغشية . وعيادة الخيال اياه فى تلك الحال ، أبلغ وأعرف من عيادته
 اياه فى حدّ النوم ، لأن المغشى عليه بمتزلة لليت ، والنائم قد يدرك
 أشياء كثيرة مما يدركه اليقظان ، كالضحك والاحتلام وغير ذلك .
 وما علمنا أحداً من الشعراء ذكر أن خيالاً ألم به فى غشية إلا هذا .

وقوله . (قاصد) فى موضع نصب على الحال ، فكان حكمه على هذا
 (قاصداً) إلا أن من العرب من يقول : (رأيت زيداً) فى حال الوقف .

قال :

شَرُّ جَنِي كَأَنِّي مَهْدًا جَعَلَ الْقَيْنُ عَلَى الدَّفِّ إِبْرَ

وأنشد الفارسي للأعشى :

إلى المرء قيس أطيلُ السرى وأخذُ من كلِّ حى عُصمُ

ولا يكون (قاصد) فى موضع رفع على البذل من التاء التى فى خلتنى ،
 لأن المخاطب لا يبذل منه للعلم بمكانه ، والأمن من التباسه ، ولذلك لم
 يجر سيبويه (بك المسكن مرت) . وقد أثبت ذلك غير دفعة فى
 هذا الكتاب .

(إِذَا الْمَنَابَا بَدَتْ فَدَعَوْتُهَا أَبْدِلْ نُونًا بِدَالِهِ الْحَائِدُ)

سفه رأى وهوذان فى محاربه فنا خسرو ، ثم عذره ، قال : إن المنابا
 إذا المّت فإنما قولها ودعاؤها : (أَبْدِلْ نُونًا بِدَالِهِ الْحَائِدُ) : أى صير (الحائِدُ)
 (حائِناً) وهو الهالك . وليس هنالك مقال ، لأن المنية ليست بنوع ناطق ،

إنما هي عدم حرارة الروح، وذلك عَرَضٌ . ولذلك قالوا : بَرَدَ فلان، إذامات ،
ينهبون إلى انقطاع الحرارة الحيوانية ، لكن استعار القول للمنية . وإنما
أراد أن : (الحائد) الذي يحيد عن الموت ، إذا وافاه حَيْنُهُ ، لم يُغْنِ عنه حيدَه .

(رَأَوْكَ لَمَّا بَلَوكَ نَابِتَةً يَأْكُلُهَا قَبْلَ أَهْلِ الرَّائِدِ)

الرائد : الذي يطلب الكلاً للحى ؛ فيقول لوهوذان : هزمتك طلائع
عسكراً خسر وقبله ، ولم ينتظروا يك معظم الجيش ؛ احتقاراً لك ؛ وتهاوناً
بك ؛ وإكراماً لكوكب الجيش ؛ فكنت كالنابتة المحترقة المستصغرة التي
يأكلها الرائد قبل أهلها ؛ لا ينتظرونها بها ؛ ولا يدعوم إليها ؛ احتقاراً لقدرها
واستنزاراً لخطرها . و (نابتة) : صفة أقيمت مقام الموصوف . وحسن ذلك ،
لأنها قد قويت بالجملة التي بعدها ؛ فصارعت الاسم بهذه الصفة ؛ لأن الموصوفة
في الأصل إنما هي الأسماء . هذا مذهب سيبويه . وإنما أراد : خلاه نابتة وحشية ،
أو نبتة ، أو نحو ذلك .

(وَمُتَّقٍ وَالسَّهَامُ مُرْسَلَةٌ يَحِيدُ عَنْ حَايِضٍ إِلَى صَارِدٍ)

الحايض : السهم الذي يقع بين يدي الرامي من ضعفه . والصارِدُ : النافذ .
يقول : إن الإنسان لا ينفعه احتسابه ، ولا يقيه احتراسه ، فرب مُتَّقٍ للموت
في الحرب وقد أرسلت السهام ، فنفر عن الحايض ؛ ولو وقف له لم يضره ؛
ويصل إلى النافذ ؛ فيقتله ؛ وهو في كل ذلك مُصَرِّفٌ بيد القدر .

— ١٣٨ —

وله أيضا :

(فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَّادُهُ يَحْتَقُّ مِنْ رُغْبِهِ)

يقول : إن الموت قدر محتوم ؛ وقضاء مجزوم ؛ وسواء فيه الشجاع ؛

والجبان الفزاع ؛ فإذا كان الأمر كذلك ؛ فليجزع ملوم ؛ والجبان مذموم .
 فمن الحق أن يدعى على الطالب الشديد الهية ؛ ألا يظفر من حاجته إلا
 بالحية . والجملة التي هي قوله : (وفؤاده يحقق من رعبه) : في موضع الصفة
 لطالب . و (طالب) : صفة وضعت موضع للوصوف . وحسن ذلك ؛ لأنه
 قد قرن بالصفة ؛ فصارع الاسم .

وانهاء في (رعبه) : إن شئت رددتها إلى طالب ؛ وإن شئت إلى قوله :
 (فؤاده) . والبيت مشتمل على الدعاء على كل من إذا رام الإقدام ؛ أورثه
 الجبن الإحجام .

(حاشاك أن تضعف عن حمل ما تضمن السائر في كتبه)
 أى حاشاك أن تضعف عن احتمال ما قدر الفيج الوافد بالنعى على احتماله ؛
 أى إذا كان الفيج (وهو الرسول على قدميه) يقول : جاء على احتماله في
 كتبه ؛ وهو متكلف مع ذلك رجله ؛ وعادم رجله ؛ فانت أحجى باحتماله
 على ترك استهواله .

— ١٣٩ —

وقال أيضا :

(وقيدت الأيل في الجبال)

الأيل : اسم للجنس ؛ وأنت على معنى الجماعة ؛ وقد يجوز أن يكون
 (أيل) على اعتقاد ضمة مجتلبة للجمع ؛ كما ذهب إليه سيبويه في دلائل وهجان .
 وقد أثبت الأيل واشتقاقه ووزنه وتكسيره ؛ وما فيه من اللغات ؛ في كتابي
 الموسوم (بالحكم) .

(وأوفت القدر من الأوعال)

الأوعال : شياخ الجبال ؛ والقدر : المسان . يجوز أن يكون جمع فدور ؛

فالأصل على هذا (قُذِر) إلّا أن بنى تميم يسكنون ثانی الضرب استخفافاً .
ويجوز أن يكون جمع قادر ؛ كعائد وعُود ؛ لأن سيبويه قد اعتد
(بفعل) بناء من ابنية تكسير (فاعل) .

(مُرْتَدِيَاتٍ بِقِيسٍ الضَّالِ)

يعنى قرونها . شبهها في انعطافها بقِيسٍ العرب ؛ وهي تتخذ من الضَّالِ
وهو السَّدر الجبَلِيّ ؛ أَلِفُهُ منقلبة عن ياء . وذكر بعض متأخري أهل بغداد
أنه وَجَدَ بخط (جعفر بن دَحِيّة) ؛ رجلٍ من أصحاب ثعلب . (الضَّالِ)
مهموزاً ؛ فاشتقه ذلك البغداديّ حينئذ من الضَّالّة ؛ وذلك لأن الجبَلِيّ منه أقل
رَبّاً ونعمة من المائيّ ؛ وذلك قال البغداديّ :

ثم وجدته بخط أبي إسحاق ، (يعنى إبراهيم بن السَّريّ الزجاج) : أَضْيَلُ
المكان : أنبت الضال . فإذا كان كذلك ، فلا أثر للهمز في الضال ،
ولا طريق إليه . وإنما هو كتاب ، فمحا البغداديّ حينئذ ضبط جعفر ،
وعوّل على خط أبي إسحاق .

(وَلِدْنِ تَحْتَ أَثْقَالِ)

قيل : الجبال ، وقيل : القُرُون . فإن قلت : فإنه لم يُولد بقرن ، فتقول :
إنه عنى (بأثقل الأثقال) القرون ؟ قلنا : إن لم يولد بالفعل معها ، فإنه مولود
معها بالقوة ، لأن نبتة القرون للأنواع المفطورة عليها ، خِلقة طبيعية ، فلا بُدَّ
من خروجها إلى الفعل .

(قَدْ مَنَعَتْهُنَّ مِنَ التَّقَالِي)

أى تشابكت القرون على رموس الأيايل ، حتى لو حاولتِ التَّقَالِي ، مَنَعَهَا
اشتباك قرونها من الوصول إلى رموسها .

(لَا تَشْرِكُ الْأَجْسَامَ فِي الْهَزَالِ)

أى أن القرون لا يلحقها سَمَنٌ ولا هُزَالٌ ، كما يلحق الأبدان ، لأنها ليست متصلة بلحم ودم ، ولا هي في ذواتها كذلك . ولو اتزن له ألا يُشْرِكُ الأجسام في السَّمَنِ والهُزَالِ ، لكان أقعد بالحقيقة ، ولكن السمن والهزال عرضان ، في الجسم متقابلان ، فإذا اتنى أن يشركها في الهزال ، اتنى أن يشركها في السمن ، فاكتفى بأحد الضدين من صاحبه

(إِذَا تَلَقَّيْنِ إِلَى الظَّلَالِ رَأَيْنَ فِيهَا أَشْنَعَ الْأَمْثَالِ)

أى إذا رأت الأيائل ظلال قرونها ، احتشمتها وهالتها .

(كَأَنَّمَا خُلِقْنَ لِلْإِذْلالِ زِيَادَةً فِي سُبَّةِ الْجَهْلِ)

يعنى القرون صاحبها ذليل . فيقول : كأن هذه القرون إنما خلقت لتدل على ذلة الأوعال ، كما خلقت للقرنان ، وإن كان لا قرون له . وإنما هو تمثيل . وقوله : زيادة في سبة الجهال : أى أن الجهال يتشامون كثيراً بالقرون ، ويكونون أحدهم بأبى القرون .

(نَوَاحِسَ الْأَطْرَافِ لِلْأَكْفَالِ)

أى طالت القرون منها ، حتى نَحَسَتْ الْأَكْفَالِ بِأَطْرَافِهَا .

(يَكْدُنَ يَنْفُذْنَ مِنَ الْإِطَالِ)

الْإِطَالُ : الخواصر ، واحدها : إِطْلٌ ، وإِطْلٌ . وقد قيل : الإِطْلُ وضع ، والإِطْلُ : فرع . يقول : فى القرون شُعْبٌ تَكَادُ تَنْفُذُ الْخَوَاصِرَ ، حِدَّةً وَاعْتِرَاضًا . وَأَرَادَ : يَكْدُنَ يَنْفُذْنَ الْإِطَالَ ، فزاد (مِنْ) على رأى أبى الحسن ، لأنه يرى زيادتها فى الواجب ، وسيبويه لا يرى زيادتها فيه .

ويعجز أن يكون أراد من الأطلال إلى الأطلال ، أى من اليمين إلى الشمال
وبتقيض ذلك .

(شَبِيهَةُ الإِدْبَارِ بِالْإِقْبَالِ)

أى فى وجوها من لحاها ما يشبه أذناها ، فقد تشابه القبل والدبر ،
وقيل : يريد عموم قرونها ، لظهورها بالتعطف عليها إلى أذناها ،

(فى كُلِّ كِبْدٍ كِبْدَى نِصَالٍ)

كِبْدُ النصل ما بين عَيْرِيَه . أى فى كل كبد أيل ووعيل من هذه
الوحش المقنوطه كذا . نصال .

(فَهِنَّ يَهْوِينَ مِنَ الْقِلَالِ)

(مَقْلُوبَةُ الْأَظْلَافِ وَالْإِرْقَالِ)

أى هذه الأيائل والأوعال يَهْوِينَ من قِلال الجبال ، وهى أعاليها ،
منعكسة أظلافها وأذناها على أجسامها .

(فَكَانَ عَنْهَا سَبَبُ التَّرْحَالِ)

(تَشْوِيقَ إِكْثَارٍ إِلَى إِقْلَالٍ)

أى أكثرنا من القنص حتى مللنا ، وشوقنا الإكثار إلى الإقلال ،
فكان ذلك سبب الترحال عنها . (فمن) : متعلقة بالترحال المقدر قبلها ،
ولا تكون متعلقة بالترحال الظاهر لأن (عن) حينئذ من صلة المصدر ؛ وما كان
من صلة المصدر لم يتقدم عليه ؛ وجعل (سبب الترحال) اسم كان ؛ لأنه معرفة
و (تشويق إكثار) . خبرها ؛ لأنها نكرة ؛ فاليبت مضمن .

وقال سيويه : أكثرت ؛ جئت بكثير ؛ وأقلت ؛ جئت بقليل فأما
كثرت وأقلت ؛ فجعلته كثيراً وقليلاً .

(وَلَوْ جَعَلْتَ مَوْضِعَ الْإِلَالِ لَأَتَا طَعْنَتْ بِاللَّالِ)

(الْإِلَال) ؛ الحراب . واحدتها ؛ (أَلَّة) ؛ وذلك لبريقها ولَمَعَانِهَا .
أَلُ الشَّيْءِ بَوَّلُ أَلًا : بَرَقَ . أَيْ لَوْ جَعَلْتَ مَكَانَ الْحَدِيدِ وَالْمُحَدَّدِ لَوَلَّوْا
فَعَلْتَ بِهِ مِنْ الْقَتْلِ مَا يَفْعَلُ الْحَدِيدُ ؛ لِأَنَّكَ مُؤَيَّدٌ مُتَصَوِّرٌ .

وقيل : أَرَادَ لَوْ جَعَلْتَ مَكَانَ أَصْحَابِ الْحَرَابِ مِنْ جَيْشِكَ صَوَاحِبِ
الْحِلْيَةِ لَقَتَلْتَ بِهِنَّ عِدَاكَ ؛ لِأَنَّ السَّعْدَ وَالْبَاسَ إِنَّمَا هُوَ نَكَ . وَأَرَادَ (طَعْنَتْ
بِالْأَلَاءِ) فَأَبْدَلَ الْهَمْزَةَ إِبْدَالًا تَخَضُّعًا ؛ لَيْسَ عَلَى التَّخْفِيفِ الْقِيَاسُ ؛ وَإِنْ
كَانَ مِثْلُهُ فِي الْفِظِ . وَإِنَّمَا أُبْدِلَ إِبْدَالًا كَلْبًا غَيْرَ قِيَاسِيٍّ ؛ لِمَكَانِ
الْوَصْلِ ؛ لِأَنَّ التَّخْفِيفَ الْقِيَاسِيَّ فِي نِيَّةِ التَّخْفِيفِ . وَالْهَمْزَةُ الْمُخَفَّفَةُ لَا يُوَصَّلُ
بِهَا ؛ فَكَذَلِكَ الْمُخَفَّفَةُ الَّتِي فِي نِيَّةِ الْمُخَفَّفَةِ لَا يُوَصَّلُ بِهَا . وَقَدْ بَيَّنْتَ ذَلِكَ غَيْرَ
دَفْعَةً فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَفِي غَيْرِهِ مِنْ كُتُبِي . وَإِنَّمَا أَعَدْتُهُ لظُرْفَتِهِ وَدَقَّتِهِ ،
وَأَنَّهُ لَا يَفْقَهُهُ إِلَّا الدَّرَبُ . فَمَنْ أَنَسَ بِهِ أَحَبَّهُ وَوَالَاهُ ، وَمَنْ نَافَرَهُ قَلْنَا فِيهِ ؛
مِنْ جَهْلِ شَيْئًا عَادَاهُ .

— ١٤٠ —

وله أيضا :

(مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْبًا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ)

يعني بالشعب : شَعْبٌ بَوَّانٌ وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى شِيرَازَ ، مَرَّبَهُ فَأَعْجَبَهُ .
يقول : فَهَذِهِ الْمَغَانِي فِي حُسْنِهَا بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ فِي أَرْبَاعِ السَّنَةِ . أَيْ أَنَّ هَذِهِ الْمَغَانِي
أَطْيَبُ الْمَغَانِي وَأَعْشَبُهَا كَمَا أَنَّ الرَّبِيعَ أَتَقُّ أَرْبَاعِ الزَّمَنِ وَأَخْضَبُهَا .

جعل هذا المكان في جملة الأمكنة بمنزلة الزمان ، أعني الربيع في جملة
الأزمنة ، وهذا من عجيب الاقتران ، أعني تمثيله للمكان بالزمان .

(وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ)

بَوَّان هذه ؛ في بلاد فارس ، ولا عرب هنالك إلا غُرَبَاء ، فسكنى بغرابة
الأعضاء عن غرابة الجملة . وقيل ؛ غريب الوجه ، أن ألوان العرب الأدمة ،
وأهل فارس بيض ، وأما غربة اليدِ قليل ؛ إنه عنى به الخط ، ولا يُعْجِبُنِي ،
إِنَّمَا عَنَى به الجود ، والجود للعرب . وأما اللسان فلأنهم أعاجم ، والتفسير الأول
هو الصحيح ، أعنى أنه لا هرب هناك إلا قليل .

(إِذَا غَنَّى الْحَمَامُ الْوُرُقُ فِيهَا أَجَابَتْهَا أَغَانِي الْقِيَانِ)
أى أنها أرض طيب ورفاهية ، واعتدال هواء ، فإذا غنى الحمام
فيها ، جاوبتها القيان طرباً إليها ، أى أن أهلها لا يتركون اللهو .
(وَمَنْ بِالشَّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ إِذَا غَنَّى وَنَاحَ إِلَى الْبَيَانِ)
أى أن أهل بَوَّان أعاجم ، لا يُفْصَحُونَ ولا يُوضِّحُونَ ، كما أن الحمام
كذلك . وجعلهم أحوج إلى البيان من الحمام ؛ مبالغة وإفراطاً في الكلام ،
إذ يوجد لغناء أهل بَوَّان تَرْجَان ، لأنهم أناسي .

(وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَا هُمَا مُتَبَاعِدَانِ)
أى هؤلاء الأعاجم في قلة الايضاح ، وعدم الافصاح ، كهذه الحمام ،
وإن اختلف نوعاها فهما متباعدان بالنوع ، وذات الجوهر ، متقاربان في
عدمهما البيان .

ويمحتمل أن يريد أن الإنسان يقرب الموصوف بوصفه له ، حتى لكأنه
حاضر ، ولكنه يبعد لعدم إحاطته بجميع أحواله ؛ وغرائب أفعاله .

(وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا تَفِرُّ مِنَ الْبَنَانِ)
يصف شعب بَوَّان ؛ وهي مدينة معروفة في طريق شيراز . والشعب :
الطريق في الجبل . والشرق : الشمس . يقال ، طلعت الشرق ، ولا يقال

غاب الشرق ، فيعنى أن شجر هذا للوضع أشب مُلتَفَ ؛ ضيق الخصاص ،
وهى الشَّعْبُ الّتى بين الورق ، فإذا طلعت الشمس تحلت أضواؤها خلال
الورق ، مستديرة كاللدنانير. من الذهب ، فى الشكل واللون ؛ إلا
أنها إذا حَلَّت الكفَّ ، فهَمَّت بالقبض عليها حال ظِلِّ البنان بينهما ؛
واعترض دون ما فى باطن الراحة من أشكال الضوء . وقد قدمت الفرق بين
تشبيهه إياها باللدنانير هنا ؛ وبين تشبيهه إياها بالهراهم فى قوله :

إذا ضوؤها لاقى من الطيرِ فرجةً تدور فوق البَيْض مثل الدرامِ
عند تفسير ذلك البيت . وقوله : (منها) أراد من نفسها ؛ وصرف
(دنانير) للضرورة :

(يَحُلُّ به على قلبِ شُجاعٍ ويرحلُ منه عن قلبِ جَبَّانِ)
أى أنه إذا رأى أضيافه نازلين به ؛ فرح فتويت ذاته ؛ وإذا رآهم
راحلين ساء ذلك ؛ فضعف منه ما قوى .

فعلى هذا القول ؛ تكون الشجاعة والجبن قلب هنا المدوح . وقد
يجوز أن يكون ذلك . لأنفة الضيفان ؛ أى أن الضيف إذا نزل به وهو
زاهد فى الحياة ؛ غير فرّق من الموت ؛ لما لَحِقَه من الكد والجهد ؛ فرأى
مالدى أبى شجاع من خِصْب المكان ؛ ولين أخادِع الزمان ؛ والخَفَضُ
والأمان ؛ راقه ذلك ؛ فأحب الحياة ؛ وكره الوفاة ؛ بعكس ما كان عليه .

(دَعَتْهُ بِمَفْزَعِ الْأَعْضَاءِ مِنْهُ لِيَوْمِ الْحَرْبِ : بِكْرِ أَوْ عَوَانِ)

المفزع : المستغاث . ودعته : سَمَّته . فيقول : دعته هذه الدولة عضد
الدولة ؛ لأن الأعضاء إنما تدفع عن نفسها بالعضد ؛ وهى حاملة اليد ؛ فكذلك
هذه الدولة ؛ لما وجدت مفزع أعضائها بالعضد ؛ دعته عضدُها . قوله :

(بَفَزَعُ) في موضع المفعول الثاني ؛ لأن هذه (دَعَوْتُ) التي بمعنى سَمَّيْتُ .
قول : دعوته زيدا ؛ ودعوته يزيد ؛ كقولك سميته إياه ؛ وسميته به .

قال سيبويه حين ذكر هذا النحو . وكذلك دَعَوْتُهُ التي تجرى مجرى
سَمَّيْتُهُ ؛ يعني أنها تتعدى إلى مفعولين : كما يتعدى سميته إليهما . قال :
فَإِنْ أَرَدْتَ الدُّعَاءَ إِلَى أَمْرٍ ؛ لَمْ تَجَاوِزْ مَفْعُولًا وَاحِدًا . يعني نحو التي في
قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ : وكقوله سبحانه :
﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِيَ إِذَا دَعَا﴾ وقوله : (ليوم الحرب) . أى إلى يوم
الحرب . (بِكُرِّ أَوْ عَوَانٍ) : يدل من الحرب . وقد بَيَّنَّ معنى هذا البيت بقوله :
(بَعْضُ الدَّوَلَةِ امْتَنَعَتْ وَعَزَّتْ وَلَيْسَ بِغَيْرِ ذِي عَصْدٍ بَدَانِ)

أليدان : إما أن يكون هما الكفَّين ، وإما أن تكون القوة . حكى سيبويه :
لَا يَدِينُ بِهَالِكٍ ، لَمْ يَنْعِنِ (تثنية اليد) ، فتنى الجارحتين ؛ ولكنه نقي
القوة . وأراد : (لَا يَدَ بِهَالِكٍ) ، فوضع الاثنين موضع الواحد الدال على
الكثرة ؛ فدلَّتْ التثنية من الشياخ على ما يدل عليه الواحد الدال على الكثير
أعنى المنفى بلا ؛ لأن ذلك الواحد متفرق للنوع المنفى بها

وقد تجيء التثنية تدل على الكثير . أنشد الفارسي للفرزدق :

وَكُلُّ رَفِيقِي كُلِّ رَحْلٍ

ونظيره قوله تعالى في صفة السماء : ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾^(٣)

ثم ارجع البصر كرتين .

(فَكَرَّتَيْنِ) في موضع كراتٍ . والدليل على ذلك قوله . ﴿يَنْقَلِبُ
إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ . فلو أمره أن ينظر في السماء كرتين فقط ؛
فنظر مرتين ، لم يرجع البصر خاسيًا وهو حَسِيرٌ ، لأن البصر لَا يَخْسِرُ من

رتين ، انما يحسر من مرات . هذا تفسير الفارسي ، بعد أن أُعْمِلَ فيه إتمام
الفكر ؛ وقدّر ما فيه من وراء غلوة الحشر ..

(كَأَنَّ دَمَ الْجَمَاجِمِ فِي الْعَنَاصِي كَسَى الْبُلْدَانَ رِيشَ الْحَيِّقُطَانِ)

ريش الحَيِّقُطَانِ : واحمر . والعناصي : خصل من الشعر . يقول : جرى
الدم في عناصيهم فاخضبت فاحمرت ، ثم تفرقت شعورهم في المُعْتَرَكِ ، وأطارتها
الريح على الأرض ؛ فكأن العناصي المحمّرة المتفرقة ريشُ هذا النوع من
الطير . وجعل الدم هو الذي كسا البُلْدَانَ ، ذلك ، لأنّه لولا الدم لم يشبه
العنصوة ريشُ الحَيِّقُطَانِ . و (في العناصي) . ظرف في موضع الحال ؛ أي
مستقرّاً فيها .

(وَكَانَ ابْنًا عَدُوًّا كَاثِرًا لَهُ يَاءٌ حُرُوفِ أَنْيْسِيَانِ)

أَنْيْسِيَانِ : تصغير إنسان ، وهو أكثر حروفاً من مُكَبَّرِهِ ، لكن
تلك الكثرة مشعّرة بقلّة ، فلا غناء لهذه الزيادة التي فيه ، لما يلحقه من التصغير ،
ونقيصة التحقير . فهو يدعو لفنّاخُسرَ ، فيقول : لا كاثرك ملك ثائنين
إلّا كانا له كالياءين اللتين في (أَنْيْسِيَانِ) ؛ وكلتاها زائدة ؛ لا غناء لهما .
وأيضاً فإنهما للتحقير : الأولى للتصغير حقيقة ، والثانية لاتلحق إلا مع
ياء التصغير ؛ فهي بمنزلة في الدلالة على التصغير . فلذلك قلت إنهما
جميعاً للتحقير ، ولم أعن أن ياء (أَنْيْسِيَانِ) الأخيرة من جوهر التصغير ؛
كيف يكون ذلك وهذه الياء خامسة ؛ أعني ياء (أَنْيْسِيَانِ) الأخيرة ؛
وياء التصغير لا تكون أبداً إلا ثالثة . و (أَنْيْسِيَانِ) من شاذ التصغير .

— ١٤١ —

وله أيضا :

(فِدَى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكٌ إِذَنْ إِلَّا فِدَاكَ)
(فَدَاكَ) يحتمل أن يكون فعلاً ، واسماً .

(وَلَوْ قُلْنَا فِدَى لَكَ مَنْ يُسَوِّى دَعَوَانَا بِالْبَقَاءِ لَمَنْ قَلَاكَ)
أى أنه لا يساويك أحد ، فلو قلنا : فِدَى لك مساويك ، لكان
كقولنا : فِدَى لك لا أحد ، وقاله : داخل فى ذلك .

(وَأَمَّا فِدَاؤُكَ كُلِّ نَفْسٍ وَلَوْ كَانَتْ لِمَلِكَةٍ مِلاكَ)
أى لو اشترطنا فى فداؤك المساواة ، لأمن كل أحد أن يكون لك
فداء ، وإن كان ملكاً ، لأنه مع مُلْكِهِ وَمِلْكِهِ مُقَصَّرٌ عن مساواتك .
(وَمَنْ يَظُنُّ نَثْرَ الْحَبِّ جُوداً وَيَنْصِبُ نَحْتَ مَا نَثَرَ الشُّبَاكَ)

أى وفِدَى لك من أعطى وغرضه أن يستجيرَ فائدة فاضلة بعطائه ،
بمنزلة القناص الذى يلتقى الحبَّ للطير ؛ وقد نصب الشبكة تحته لاقتناصها
فلا ينبغى أن يحمد على ذلك ؛ لأنه ليس جوداً فى الحقيقة ؛ إنما هو
دعاه إلى هُلك .

وهذا مثل ضربه لمن طلب من الشكر أكثر مما يوجبه له نداه
والشباك جمع شبكة كرقبة ورقاب ؛ وَرَحْبَةٌ وَرِحَابٌ .

(أَتَرَكْنِي وَعَيْنُ الشَّمْسِ نَعْلِي فَتَقَطَعَ مِشْيَتِي فِيهَا الشَّرَاكَا)

أى بكونى فى حاشيتك ؛ واعتدady فى صاغيتك ؛ شَرُفْتُ وعظمت
حتى عدت كأن عين الشمس نعلي ؛ فإذا فارقتك ، كنت كمن مشى
بهذه النعل ؛ فانقطع شراكها ؛ فسقطت ؛ فكان اختلال جزؤها ،
سبباً لعدم كلها .

وإن شئت قلت : كسأنى قصدك شرفاً ؛ صارت به عين الشمس
نى نعلًا فإذا بَعُدْتُ عَنْكَ ، أَخْلَلْتُ ببعض ذلك الشرف ؛ لا بكله ؛
فكأنى قطعت الشراك الذى هو بعض النعل ؛ فجعل الشرف كعين

الشمس ، وجعل فراقه لمضد المودة المشي فيها ؛ وجعل بعده عنه بمنزلة
انقطاع الشراك ؛ الذي هو سبب الإخلال بالنمل ، ولم يتوقع في كل
ذلك إخلالاً كلياً ، لأنه كان مُزِمّاً للمودة إليه . ألا تراه يقول :

لَعَلَّ اللَّهَ يَجْعَلُهُ رَحِيلاً يُعِينُ عَلَى الْإِقَامَةِ فِي ذَرَاكَ

وقوله : (فتقطع مشيتي فيها الشراكا) : نصب فيه (تقطع) ،
لأنه جواب الاستفهام ، والكلام متضمن معنى الجزاء . أى إن تتركني
أسير وقد انتعلت بعين الشمس ؛ قطعت مشيتي شراك نعلي .

وإن شئت رفعت على القطع أى قابها تقطع ؛ ولا يكون عطفاً
على « أتركني » لأن قطع مشيتي شراك النمل ؛ ليس داخلاً فى حد
الاستفهام ؛ ومعنى هذا الاستفهام الإنكار والتقرير ؛ أى كيف تتركني
على ما أنا به من الرأى ؛ وأنت تعلم أن القى أنا عليه من ذلك سفة .

(قد استشفيت من داء بداء وأقتل ما أهلك ما شفاكا)

الداء المستشفى منه : تشوقه إلى أهله أيلم كونه بشيراز ؛ وأهله
بالكوفة ؛ والداء المستشفى به من ذلك الداء : فراقه لذلك . فيقول
أما الآن حين أزمعت الإياب إلى أهلك فقد استشفيت من داء الشوق
بفراق هذا الملك ؛ وفراقك إياه أعوذ عليك بالألم . (وأقتل ما أهلك
ما شفاكا) ؟ أى أقتل ما أهلك الآن ؛ فراقك لأبي شجاع ؛ على أنه قد شفاك
من شوقك إلى أهلك ؛ فكان اشتياؤك كالمرض ؛ ومزاوتك لهذا الملك حين
أزالت شوقك كالموت المذهب لألم المرض ؛ وهو أشد من ألم المرض .
ثم يُخَرِّجُ قوله (وأقتل ما أهلك ما شفاكا) على طريق العموم ،
فيصير مثلاً ، كقوله :

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَأَيْتُ بَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ . وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَكُنَا :

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ
وَمَوْضِعُ يَدِ الْمُتَنَبِّي أُولَى .

(وَأَنَّ الْبُخْتُ لَا يُفَرِّقَنَّ إِلَّا وَقَدْ أَنْفَى الْمَذَافِرَةَ اللَّكَاكَ)

الْبُخْتُ : جَمْعُ بُخْتِي ؛ حَذَفْتُ يَاءَ النِّسْبِ فِي الْجَمْعِ ؛ لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ
التَّائِيثِ ؛ فِي أَنَّهَا دَاخِلَةٌ عَلَى الْأَسْمِ بَعْدَ تَمَامِهِ ؛ أَلَا تَرَاهُمْ قَالُوا ثَمْرَةٌ وَثَمَرٌ ؛ وَنَحْلَةٌ
وَنَحْلٌ . (وَيَعْرِقَنَّ) : يَأْتِيَنَّ الْعِرَاقَ . وَ (أَنْفَى) : أَهْزَلَ وَ (الْمَذَافِرَةُ) :
الْمَظَامُ . أَخْبَرَ عَنْ جَمَاعَةٍ مَا لَا يَمْتَقِلُ بِشَكْلِ الْوَاحِدِ . حَكَى سَيَبَوِيه عَنْ الْعَرَبِ :
الْجَمَالُ ذَاهِبَةٌ وَذَاهِبَاتٌ . وَلَا أَقُولُ (الْمَذَافِرَةُ) هَاهُنَا وَاحِدَةٌ ؛ لِأَنَّ نَدَى
فَنَاحُشَرَ عِنْدَهُ ؛ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَصِفَهُ بِأَنْ تَسْتَقِلَّ بِهِ نَاقَةٌ وَاحِدَةٌ . وَاللَّكَاكَ :
الْأَيْتُقُ الشَّدَادُ ؛ وَهِيَ اللَّحِيْمَةُ أَيْضًا هُنَا . حَكَى سَيَبَوِيه : نَاقَةٌ لِكَاكَ ؛ وَأَيْتُقُ
لِكَاكَ . وَالْقَوْلُ فِي هَذَا ؛ الْقَوْلُ فِي دِرْعٍ دِلَاصٍ وَأُدْرَعُ دِلَاصٍ . قَانَ الْكُسْرَةَ
الَّتِي فِي الْجَمْعِ غَيْرَ الَّتِي فِي الْوَاحِدِ ؛ وَالْأَلْفُ غَيْرَ الْأَلْفِ . وَقَدْ أَعَدْتُ هَذَا الْقَوْلَ
مَرَارًا لِأُونَسَ بِهِ الْمُسْتَوْحِشَ ؛ فَانِي رَأَيْتُهُمْ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لَهُمْ دَهْشِينَ . وَلَوْ
فَهَمُوا كَلَامَ سَيَبَوِيه ، أَنْسُوا إِلَيْهِ .

وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ : (الْأَكَاكَ) . وَفَعَالٌ : مِنَ الْجَمْعِ الْعَزِيزُ ؛ إِلَّا أَنْ لَهُ
نَظَائِرُ جَمَّةٌ ، كَعَرَقٌ وَعُرَاقٌ ، وَثِنْيٌ وَثِنَاءٌ . وَقَدْ ذَكَرَ سَيَبَوِيه وَأَهْلُ اللَّفَّةِ
مِنْهُ حُرُوفًا جَمَّةٌ . وَعَلَيْهِ وَجْهُ الْفَارَسِيَّةِ قِرَاءَةٍ مِنْ قَرَأَ ﴿ إِنَّا بِرَأَاكَ مِنْكُمْ ﴾ .
قَالَ : هُوَ جَمْعُ بَرِيٍّ كَغَفَرِيرٍ وَفُرَارٍ ، يَعْنِي وَلَدَ الْبَقَرَةِ . وَجَعَلَ بَعْضُهُم الْقَرَارَ
لَفَةً فِي الْفَرِيرِ . وَنَظَائِرُهُ عَرِيضَةٌ أَرِيضَةٌ .

ومعنى البيت : وَلَيْتَ النَّوْمَ حَدَّثَ هَذَا الْمَحْبُوبَ الَّذِي يَرِيهِ إِيَّايَ فِي
النَّوْمِ ؛ حُبِّهِ لِي ، وَتَوَحُّشَهُ نَحْوِي ، أَنْ الْبُحْثَ لَا تَبْلُغَ بِنَا الْعِرَاقَ حَتَّى يُنْضِيَهَا
أَوْ يُفْنِيَهَا مَا تَحْمَلْتَهُ مِنْ نَدَاكَ ، لِثِقَلِ مَا حَمَلْتَهَا إِيَّاهُ ، مِنْ الْبُدُورِ وَالْخَلْعِ .
وهذا نحو قول أبي العتاهية يصف الإبل ،

فَإِذَا وَرَدْنَ بِنَا وَرَدْنَ مُخَفَّةً وَإِنَّا صَدَرْنَ بِنَا صَدَرْنَ ثِقَالاً
والضمير في (أنضى) : راجع إلى السَّدى في قوله : (فليت النومَ حَدَّثَ
عن نَدَاكَ) .

(وَكَمْ طَرِبَ السَّمِيعَ لَيْسَ يَدْرِي أَيْجَبُ مِنْ ثَنَائِي أَمْ عَلَاكَ)
(وَذَاكَ النَّشْرُ عَرَضُكَ كَانَ مِنْكَ وَذَاكَ الشَّعْرُ فَهْرِي وَالْمَدَاكَ)
أي طَرِبَ السَّمِيعَ لاسْتِمَاعِ شَعْرِي ؛ لَيْسَ يَدْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَوْلَى بِالْمَعْجَبِ
مِنْهُ ، أَجُودَةُ شَعْرِي فَيْكَ ، أَمْ رَفْعَةُ عَلَاكَ فِي ذَاتِهَا ، لِأَنَّ شَعْرِي مُتَنَاهٍ فِي نَوْعِ
الشَّعْرِ . وَعَلَاكَ مُتَنَاهِيَةٌ فِي نَوْعِ الْعُلَى : قَدْ تَسَاوَا فِي السَّبْقِ وَالْفَضْلِ . وَلَوْلَا
الْبَيْتُ الَّذِي بَعْدَ هَذَا ، لَعُدَّ جَنَاءً مِنْ لِسْنِي . تَسْوِيَتُهُ شَعْرُهُ فِي نَوْعِهِ بِعُلَاكَ الْمَلِكِ
فِي نَوْعِهَا ؛ لَكِنْ حَسُنَ ذَلِكَ بِالْبَيْتِ الَّذِي ارْتَدَفَهُ بِهِ ، فَيَقُولُ : الْأَرِيحُ الَّذِي ذَاعَ
وَشَاعَ لَشَعْرِي ، إِنَّمَا هُوَ لِعَرَضِكَ السَّليمِ شَكْرِي ؛ فَنَ عَرَضُكَ هُوَ الْمَسْكُ الَّذِي
إِنَّمَا طَبَعَهُ الطَّيِّبُ لِدَاثِهِ لَا لَشَعْرِي . وَإِنَّمَا شَعْرِي هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْفَهْرِ
وَالْمَدَاكَ ، اللَّذِينَ يُظَاهِرَانِ فَوْحَ أَنْفِكَ ، وَيَنْشُرَانِ نَشْرَهُ ، لِأَنَّ الْمَسْكَ إِذَا
سُحِقَ كَانَ أَسْطَعَ لَعَرْفِهِ ، وَأَشْيَعَ لِنَفْوَحِهِ .

وَأَمَّا شَعْرِي فَلَمْ يَكْ لَهُ فِي ذَاتِهِ ضَيْبٌ . إِنَّمَا كَانَ كَلَّالَةً لِلطَّيِّبِ ، أَلَا تَرَى
أَنَّ آلَةَ الطَّيِّبِ لَيْسَ فِي طَبِيعَتِهَا قَوْحٌ ، إِلَّا بِحَسَبِ مَا تَصِقُّ بِهِذَا مِنَ الْجَوْهِرِ الَّذِي
صُرِّفَتْ فِي صِنْعَتِهِ . وَقَوْلُهُ (ذَاكَ النَّشْرُ) : ذَاكَ مَبْتَدَأُ ، وَالنَّشْرُ صِفَةٌ لَهُ ،
وَعَرَضُكَ : خَبَرُ الْمَبْتَدَأِ . وَأَرَادَ : وَذَاكَ النَّشْرُ تَشْرُ عَرَضُكَ .

هذا إن عني بالعرض الإناء والذات ، لأنها جواهر ، والنشر عرض ،
 فلا يخرج عن العرض بالجواهر . فذلك احتجنا إلى تقدير حذف المضاف ، كما
 احتجنا إليه في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ وذهب سيبويه
 إلى أن التقدير : (ولكن البر برٌّ من آمن بالله) ، أى إيمان من آمن بالله
 لأن (البر) عرض ، و (من آمن بالله) : جواهر ، فقدّر الحذف مضافاً ،
 ليخرج بالعرض عن العرض .

قال الفارسي : وقد يجوز أن يكون التقدير ، ولكن أهل البر من آمن
 بالله ، وذلك لتقابل الجوهر بالجواهر لأن أهل البر جواهر ، و (من آمن بالله) كذلك
 فيخرج إلى باب (هو هو) لأن أهل البر هم المؤمنون بالله ، وإن جعلت العرض
 هنا المجد وسائر أنواع الفضائل ، لم يحتج إلى حذف المضاف ، لأن النشر
 والمجد كلاهما ليس بجوهر (وذاك الشعر فخرى والمداك) : أى وكان
 ذاك الشعر . وقوله (كان مسكاً) إلى آخر البيت : تفسير لقوله : (وذاك
 الشعر عرضك) . والمداك : صلاية العطار ، دُكْتُ الشيء دَوْكاً : دقته
 وكان القياس (مدوكاً) : لأن بناء ما يُعْتَمَل به (مِنْقَل) ، لكنه شذّ كما
 شذّ المُسَطُّ وأخواته ، وإن اختلف بناؤها ، فقد التقيافي الشذوذ .

(فَلَا تَحْمَدُهَا وَاحْمَدُهَا مَاءً إِذَا لَمْ يُسِرَّ حَامِدُهُ عَنَّا كَ)

أى لا تحمد الفهر والمداك الذين عنيت بهما شعري ، لأن حقيقة انطيب
 ليس لهما ، فلا يستحقان شيئاً من الحمد ، وإنما ينبغي لك أيها الملك أن تحمد
 نفسك التي اقتنت المساعي ، وأثبتت المعالي ، باسنداء اتقواقي ، واتمنا الوافي
 ويعنى بالهمام نفس الملك .

وقوله : (إِذَا لَمْ يُسِرَّ حَامِدُهُ عَنَّا كَ) : الهاء راجعة إلى الهمام ، وأخبر عنه

كما أخبر عن الغائب ، لأنه قد أخرجه ذلك المخرج لقوله (واتخذهُمَا)
فلم يكن بُدٌّ من أن يعيد إلى الموصوف ذكرًا من صفته ، لأن قوله (إذا لم
يُسَمَّ حامده) في موضع الصفة (لهما) ، وأراد إذا لم يُسَمَّ حامده ، وإذا
لم يُسَمَّ حامده محموداً ، فإنما يعنيك .

وإن شئت قلت : معناه : لو لم يُسَمَّ الحمد لعناك ، والقولان متقاربان
والمعنى مشتق من قول أبي نواس :

إذا نحن أثينا عليك بهالج فانت كما تُشني وفوق الذي تُشني
وإن جرت الألفاظ يوماً بمذحة لغيرك إنساناً فانت الذي نغني
ولو قال : (إذا لم يُسَمَّ حامده عناء) كان حسناً ، ولكنه حمله على
المعنى ، لأن المراد في كل ذلك المخاطبة .

(أغرُّ له شمائلُ من أبيه غداً يلقى بنوك بها أباً كاً)

أى قد أخذت شبه أبائك ، صورةً وفِعلاً ، وبنوك يستكملون شبهك
لأنهم الآن يُشبهونك بعض الشبه ، إذ لم يستكملوا خصالك ، فإذا
استكملوها أشبهوك ، وإذا أشبهوك وأنت تشبه أباك ، فقد أشبهوا أباك . وهذا
يتألف في الشكل الأول من المنطق . قول : زيد يشبه عمراً وعمرو يشبه
خالداً ، النتيجة : فزيد يشبه خالداً .

(وفي الأحبابِ مختصُّ بوجدٍ وآخرُ يدعى معه اشتراكاً)

يُسمى إلى أن وجدّه لفراق عضد الدولة طبعيٌّ لا عَرَضيٌّ ، وإن كان
غيره يدعى مثل ذلك ، فليس كذلك .

(إذا اشتبهت دموعٌ في حدودٍ تبين من بكى بمن تباكى)

(بكي) : كناية عن الطبيعي ، و (تباكي) : كناية عن العرضي ،
لأن التفاعل قد يأتي لغرض ، لإظهار خلاف ما الأمر به في الحقيقة .
أنشد سيبويه :

إذا تَخَازَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرٍ

قوله : وما بي من خزر دليل على ذلك . أي : إذا اشتبهت الدموع
في الخدود ، بما هي عليه من الهملان ، وسرعة الجريان ، لم يكُ هنالك
بدء من فصل يُميزُ بين العرضي والطبيعي .

وهذا آخر ما انتهى من الشرح المبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم لايتاع بنار الكتب ١٩٧٦/٥٣١١

٢ ١٨٥ ٢٠١ ٩٧٧ ISBN

١٥٠ قرشا

طابع الهبة المصرية العامة للكتاب